حقائق ورقائق
(١٢)

قلوب مع محمد

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

حقائق ورقائق
(12)

قلوب مع محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية
1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يتناول هذا الكتاب برهانا من البراهين التي يمكن للصادقين أن ينطلقوا منها في البحث عن محمد ﷺ والرسالة التي جاء بها.. مثله مثل [أنبياء يبشرون بمحمد ﷺ]، و[ثمار من شجرة النبوة]

ويمكن صياغة هذا البرهان بطرق مختلفة منها أن الله سبحانه وتعالى ـ لعنايته التامة بخلقة، والمتجلية في كل شيء (1) ـ يستحيل أن يترك خلقه هملا من دون أن يرسل إليهم من يدلهم على حقيقتهم وحقيقة الكون الذي يعيشون فيه، والمصير الذي يصيرون إليه، والتكاليف التي كلفوا بها..

وهذا الذي يرسله يحتاج – ليؤدي وظيفته التبليغية عن الله - أن يكون معلوما للخلق معروفا لخاصتهم وعامتهم.. لأنه لا يمكن أن يؤدي وظيفته التبليغية من دون أن يعرف.

ثم إن للمعرفة آثارا كثيرة قد تكون حجابا بين الخلق، وبين هذا الرسول الذي أرسله الله عناية بخلقه.. ففرعون معروف لكثير من الخلق، ولكنه معروف باستبداد وظلمه..

ولهذا كانت المعرفة الأكمل والأجمل والأكثر تأثيرا هي المعرفة التي ينشأ عنها الحب والإعجاب والتأثر..

ولمعرفة هذا نحتاج إلى القيام بمسح شامل للبشرية لنرى أكثر أسماء مدعي الرسالة ترديدا، وأكثرها تأثيرا .. وهذا لن يقودنا إلا إلى محمد ﷺ.. فلا يوجد في تاريخ البشرية من ولهت القلوب بمحبته، أو الإعجاب به على الأقل مثلما حصل لمحمد ﷺ .

ونحن لا نقول بأن هذا الإعجاب أو تلك المحبة دليل قائم بذاته يمكن الاكتفاء به.. ولكنا نقول بأن هذا مقدمة للبحث والنظر والتأمل في حال هذا الشخص الذي هفت قلوب ملايير البشر على مدار التاريخ محبة له وشوقا إليه مع كونه كان يعيش في بيئة بدوية أمية بعيدة عن كل آثار الحضارة..

والأعجب من ذلك كله أن تلك المحبة وذلك الإعجاب لم يكن يخص بصنف من الناس دون صنف كما تعودنا في مثل هذه الأمور.. فالفيلسوف يحب الفلاسفة.. والسياسي يحب السياسيين .. والأديب يحب الأدباء وهكذا.

بل نجد محمدا ﷺ قد نال محبة وإعجاب جميع أصناف الناس من عامتهم وخاصتهم.. وأدبائهم وفنانيهم.. وعلمائهم وأوليائهم.. وأحبارهم ومفكريهم.. بل حتى أولئك

1) ذكرنا أدلة ذلك بتفصيل في [الباحثون عن الله]

المستشرقين من غير أتباعه الذين أتيحت لهم الفرصة للبحث عنه والتعـرف عليـه، لم يملكوا إلا أن يشهدوا الشهادات الصادقة إعجابا به وتعظيمـا لـه.. بـل حـتى أعـداءه لم يملكوا في بعض لحظات الصدق التي عاشوها إلا أن يقروا بفضله وكماله.

بناء على هذا كانت هذه الرواية التي انطلق فيها بطلها ـ رجل الدين المسيحي ـ من البحث عن القلوب التي حنت إلى محمد ﷺ وأحبته وتأثرت به.. فجمع لذلك الكثـير من الشهادات التي سقناها في هذه الرواية، كنماذج وأمثلة فقط، لأن الاسـتيعاب في هـذا مستحيل.

وقد جعلنا هذه الرواية مقدمة لروايات تالية تتعلق بالتعريف بمحمد ﷺ، وهي [النـبي المعصوم]، و[النبي الإنسان]، و[النبي الهـادي] لتكمـل الهـدف الـذي تـرمي إليـه هـذه الرواية.. وهو أن هذا الذي أحبته تلك القلوب الكثيرة، وأعجبت به تلك العقول العظيمة ليس إنسانا بسيطان .. بل هو إنسان حاز كل ألوان الكمال، وظفر بكل معاني الجمال التي جعلته محبوبا لكل صاحب فطرة سليمة.

البداية

في تلك الليلـة، أصـابني أرق شـديد حـال بيـني وبين النـوم، فخـرجت خـارج غرفـتي ـ كعادتي في مثل هذه المواقف ـ لأنشغل بعـد النجـوم والنظـر في أشـكال تجمعاتهـا.. فلم يكن يجلب النوم لعيني مثل النجوم.

بينما أنا كذلك، إذا بي أسمع صوتا عذبا يصدر من غرفـة الرجـل الغـريب الـذي زارني.. وكأنه لحن من ألحان السماء.. فاقتربت أسترق السمع، فإذا بي أسمعه، وهو ينشد بصـوت خاشع، ممتلئ بحشرجة الدموع، قول الشاعر الصالح، وهو يبث أشواقه لرسول الله ﷺ:

كيف لا تسكب الدموعَ عيوني	وهي من قبل أن تراك سجام
كيف لا تذهل العقول وتفنى	أنفسُ العاشقين وهي كرامُ
يا رسول الإله إني محبّ	لك والله شائق مستهامُ
يا رسول الإله في كل حينٍ	لك مني تحية وسلام
يا رسول الإله شوقي عظيم	زائد والغرام فيك غرام
يا رسول الإله إني نزيل	ونزيل الكرام ليس يُضام

سقطت دموع حارة من عيني.. وأنا أكاد أرى ذلك الشاعر الصالح، وهو بين يدي رسول الله ﷺ يخبره بما امتلأ قلبه به من محبته والشوق إليه.

في تلك اللحظات خطر على قلبي أجيال من المؤمنين من الذين ملأ حب رسـول اللـه ﷺ عليهم كيانهم، فلم يرضوا لعروش قلوبهم المقدسة شمسا غير شمسه:

منهم ذلك الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ممتلئا حزنا، فقال له النبي ﷺ: (يـا فلان مالي أراك محزوناً ؟) فقال: (يا نبي اللّه شيء فكرت فيه)، فقـال: (مـا هـو؟) قـال: (نحن نغدوا ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك)(1)

ومنهم ذلك الرجل العظيم الذي جاء إلى النبي ﷺ، فقال: (يـا رسـول اللّـه! إنـك لأحب إليَّ من نفســي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولــدي، وإني لأكــون في الــبيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتـك عـرفت أنـك إذا دخلتّ

1) تفسير ابن كثير:2/354.

الجنة رفعتَ مع النبييّن، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك)(1)

ومنهم ثوبان مولى رسول الله ﷺ.. فقد كان ـ كما يـذكر الـرواة ــ شـديد الحب لـه ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغـير لونـه ونحـل جسـمه، يعـرف في وجهـه الحـزن؛ فقال له: (يا ثوبان ما غير لونك ؟) فقال: (يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شـديدة حـتى ألقـاك، ثم ذكـرت الآخـرة وأخـاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنـك ترفـع مـع النبـيين وأني إن دخلت الجنـة كنت في منزلـة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا)

وقد رسم الشاعر هذه المشاعر الصادقة، فقال:

شهود طلعة طه نعمة عظمت	قدراً وشاناً وكانت أفضل النعم
وكان ثوبان ذا وجه له شغف	بحبه دمعه يجري بمنسجم
قال الرسول له: مالي أراك كذا	فقال: شوقا لوجه منك مبتسم
إني ذكرتك في سري وفي علني	ففاض دمعي وحبي غير مكتتم
فهل أراك بجنات الخلود أجب	نعم يكون بفضل الله ذي الكرم

وعلى هؤلاء جميعا، وعلى جميع أجيال الأمة التي أحزنها مـا أحـزنهم نـزلت هـذه الآية: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) (النساء:69).. فلم يفرح الصـحابة ولا الأجيـال الكثـيرة من الأمة بشيء فرحهم بهذه البشرى(2).

ساد صمت لذيذ على ذلك الجو الذي عبقت فيه أنفاس محبة النـبي ﷺ سـمعت خلالـه الغريب، وهو ينشد بنغم خاشع قول الشاعر:

يحن الجذع من شوق إليك	و يذرف دمعه حزناً عليك
و يجهش بالبكاءوبالنحيب	لفقد حديثكموكذا يديك
فمالي لا يحن إليك قلبي	و حلمي أن أقبل مقلتيك

1) رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة)

2) روى ذلك البخاري ومسلم.

و أن ألقاك في يوم المعاد	و ينعم ناظري من وجنتيك
فداك قرابتيوجميع مالي	و أبذل مهجتي دوماً فداك
تدوم سعادتيونعيم روحي	إذا بذلت حياتي في رضاك
حبيب القلب عذر لا تلمني	فحبي لا يحق في سماك
ذنوبي أقعدتني عن علو	و أطمح أن أُقرب من علاك
لعل محبتي تسمو بروحي	فتجبر ما تصدع من هواك

فتذكرت الجذع كيف حن شوقا إلى رسول الله ﷺ.. فرددت بيني وبين نفسي قول بعضهم يذكر ذلك: (يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه)

قاطعتني ألحان الغريب العذبة، وهي تردد قول الشاعر:

جاءت إليك حمامة مشتاقة	تشكو إليك بقلب صب واجف
من أخبر الورقاء أن مقامكم	حرموأنك منزل للخائف

فتذكرت تلك الحمامة العاقلة العاشقة التي حدث حديثها عبد الله بن مسعود، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة، فأخذناهما، قال فجاءت الحمرة إلى رسول الله ﷺ وهي تصيح فقال النبي ﷺ: (من فجع هذه بفرخيها؟) قال: فقلنا: نحن قال: (فردوهما)(1)

قاطعتني ألحان الغريب مرددة:

لا تلوموا أُحداً لاضطراب	إذ علاه فالوجد داءُ
أُحد لا يلام فهو محبٌ	ولكم أطرب المحب لقاءُ

فتذكرت تلك المحبة المتبادلة بين رسول الله ﷺ وجبل أحد، والتي عبر عنها ﷺ في قوله: (هذا جبل يحبنا ونحبه)(2)

1) رواه أبو داود والحاكموقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

2) رواه البخاري.

ردد الغريب بشوق قصيدة أحمد شوقي المشهورة التي استهلها بفرح الأكوان بمحمد:

ولد الهدى فالكائنات ضياء	وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله	للدين والدنيا به بشراء
يوم يتيه على الزمان صباحه	و مساءه بمحمد وضاء
بك بشر الله السماء فزينت	و تضوعت مسكاً بك الغبراء
يا من له الأخلاق ما تهو العلا	منهاوما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل	يغرى بهنويولع الكرماء

فشعرت بذلك الفرح العظيم الذي سرى في قلوب الأمة عندما جاءها الحبيب، فراحت تحتضنه بكل مشاعرها حتى نسيت في حبه النفس والأهل والمال.

في ذلك الحين تذكرت زيد بن الدثنة.. وما أدراك ما زيد بن الدثنة !؟

لقد أخرجه أعداؤه من أهل مكة من الحرم ليقتلوه، فقال له أبو سفيان: (أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك لضرب عنقه وإنّك في أهلك؟) فقال زيد: (والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإنّي جالس في أهلي)، فقال أبو سفيان: (ما رأيت الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا)(1)

وذكرت تلك الأنصارية التي قتل أبوها وأخوها وزوجها، فأخبروها بذلك، فقالت: (ما فعل الله برسول الله؟) قالوا: (بحمد الله كما تحبين)، قالت: (أرونيه حتى أنظره)، فلما رأته قالت: (كل مصيبة بعدك جلل)(2)

وذكرت ذلك الرجل الصالح الذي ادخر لآخرته أعظم زاد يمكن أن يدخره مؤمن.. فعن أنس قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (ما أعددت لها ؟) قال: (ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله)، قال: (فأنت مع من أحببت)(3)

1) رواه ابن اسحاق وابن سعد.

2) رواه ابن اسحاق.

3) رواه الطبراني في الكبير.

وذكرت تلك الأمنية العزيزة التي كانت تتردد في نفس ربيعة بن كعب الأسلمي.. فلما واتته الفرصة راحة يطلبها من رسول الله ﷺ.. قال يحدث عن نفسه: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: (سل) فقلت: (يا رسول اللّه أسألك مرافقتك في الجنة)، فقال: (أو غير ذلك؟) قلت: (هو ذاك)، قال: (فأعني على نفسك بكثرة السجود)(1)

وذكرت قول أنس، وهو يبين الأثر العظيم الذي أحدثه غياب رسول الله ﷺ.. لقد قال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)(2)

***

لم يخطر على بالي أولئك المحبين في تلك اللحظات اللذيذة فقط.. فقد كانوا بعضا من آلاف.. بل من عشرات الآلاف.. بل من ملايين المسلمين عبر أجيال المسلمين الطويلة..

كلهم كانوا على قلب رجل واحد يمتلئون محبة وتعظيما لرسول الله.. يجتمعون به وبحبه وبالشوق إليه، ويفترقون على ذلك.

وكانت المعاني النبيلة التي أشرقت عليهم من شمس محمد ﷺ تملؤهم بالسعادة والسكينة.. وتحول قلوبهم إلى قلب رجل واحد، فهم إخوة في الله، لهم شمس واحدة يستنيرون بنورها، ويستدفئون بدفئها.

لكن مرارة الحسرة عادت، فكدرت ذلك الشوق اللذيذ..

لقد اختلط ذلك الشوق اللذيذ لتلك الأجيال السامية بحسرة وألم على أجيالنا التي امتلأت قلوبها بالأهواء، فراحت تبحث في القمامات والمزابل والمستنقعات عن حب تملأ به قلوبها، فلم تجد في المزابل إلا الجرذان والخنافس.

***

التفت الغريب، فرآني، فقام من مجلسه، ودعاني أن أدخل عليه.

دخلت، وحييته معتذرا عن تنصتي عليه، فقال: لا بأس عليك.. ربما لا يصلح لحديثنا إلا

---

1) رواه أبو داود والترمذي.

2) رواه الترمذي.

هذا المجلس.. وفي هذا الوقت من الليل الذي يفترش فيه المحبون أقدامهم ليتنعموا بحرارة الأشواق الرفيعة.

قلت: لقد سمعتك تنشد أبياتا ممتلئة حبا ساميا، وأشواقا طاهرة.

قال: تلك بعض نفثات قلوب المحبين التي امتلأت بحرارة الإيمان والمحبة والشوق.

قلت: أيام جميلة هي تلك الأيام التي عاصرها أولئك الشعراء.

قال: وتلك الأيام لن تنقضي.. إن القلوب التي عبرت لرسول الله ﷺ عن محبتها وأشواقها لا تزال حية تنبض بالحياة.

قلت: أين ذلك.. وقد ملأ الإعلام المنحرف قلوب الناس بالأشواق المدنسة، والهمم المنحطة.. لقد صار الحب بين الناس ـ في ظل هذه الحضارة المتعفنة ـ مرادفا للانحراف والفساد والرذيلة.. وصارت أشواق المحبين الرفيعة سلعة رخيصة تباع في سوق النخاسة.. وصار الأبطال في هذا الزمان هم كل راقص ومطبل ومزمر وناعق.

قال: ذلك سراب سرعان ما يفطن له الناس.. وذلك ضباب سرعان ما تشرق عليه الشمس لينقشع عن الحقيقة.

قلت: إلى متى !؟

قال: ذلك ليس بعيدا.. بل كل شيء يقرب إليه.

نظر من كوة النافذة إلى السماء المزينة بزينة النجوم، ثم قال: لقد عرفت في حياتي الطويلة كثيرا من الناس لاحظت في عيونهم ووجوههم وقلوبهم حرارة الشوق العظيم إلى محمد ﷺ.. لقد تشرفت بلقائهم والحديث إليهم..

قاطعته قائلا: فهل ستحدثني عنهم؟

قال: أجل..سأحدثك اليوم عن القلوب التي امتلأت بحب محمد ﷺ.. أو شعرت في لحظة من لحظات الصدق بتعظيمها لرسول الله ﷺ ولما جاء به.

قلت: في أي بقعة من بقع العالم ظفرت بهذه القلوب؟

قال: في كل بقاع العالم التي زرتها.. ليس هناك محل في الأرض إلا وفيه من يلهج لسانه بذكر محمد، ويلهج قلبه بالشوق إلى محمد.

قال ذلك، ثم قام إلى محفظته، وأخرج دفترا هو أشبه بالسفر، وقد كتب عليه هذا

العنوان (قلوب مع محمد)، ثم سلمنيه، قلت: ما هذا؟

قال: في هذا الدفتر الذي صحبني طيلة فترات حياتي لم أسجل إلا نفحات الصدق التي فاهت بها الألسن في لحظات تقدسها.

فتحت الدفتر، فرأيت فيه أسماء كثيرة.. فسألت: ما هذه الأسماء؟

قال: هذه أسماء من قدر الله لي أن ألقاهم، وأتنعم بالحديث معهم عن رسول الله ﷺ، وقد كان كل فرد منهم شعاعا من الأشعة التي اهتديت بها إلى شمس محمد ﷺ.

رحت أقلب الكتاب فهالتني كثرة الأسماء.. فرحت أسأل: أكل هؤلاء التقيتهم؟

قال: أجل.. كلهم قيض الله أن يكونوا سببا من أسباب هدايتي.

قلت: فهلا أذنت لي، فوضعت فهرسا ييسر عليك الاطلاع عليهم؟

قال: لقد فعلت.. لقد صنفت من رأيتهم إلى عشرة أصناف، يشملون أكثر أنواع الناس.. ففيهم: العامة والخاصة.. وفيهم الأدباء والفنانون.. وفيهم العلماء والأولياء.. وفيهم الأحبار والمفكرون.. وفيهم الأصدقاء والأعداء.

قلت:.. والأعداء !؟

قال: أجل.. حتى الأعداء لم يملكوا ــ في لحظة من لحظات الصدق، أو لحظة من لحظات عودة الوعي ـ إلا أن يعبروا عن تقديرهم الشديد لرسول الله ﷺ.

قلت: فستقص علي قصة كل اسم من هذه الأسماء.

قال: لا يفي العمر جميعا ببعض ذلك.. فلي مع كل اسم قصة من القصص.

قلت: فستحدثني عن بعضها..

قال: سأحدثك عن أفراد من كل صنف.. وأنت تستدل بمن ذكرت على من لم أذكر..

قلت: ألم تلق معلمي (معلم السلام) في بداية هذا النوع من الأشعة!؟

قال: بلى.. لقد لقيته.. وقد كان سببا في أن أتخذ هذا الدفتر..

قلت: فحدثني عنه، فما أعظم شوقي إليه.

قال: كان يوما من أيام الشتاء الباردة.. وكان الثلج يتساقط.. ونحن في مقبرة نشيع

جثمان بطل من أبطال ألمانيا..

قلت: من هو؟

قال: أعفني من هذا السؤال.. فلو عرف أهل عصرنا هذا من هو لاتهموني أو اتهموا أخي بما لا طاقة لنا به.

قلت: فكيف التقيت معلم السلام في ذلك الموقف.. هل كان أحد المشيعين؟

قال: لست أدري.. فجأة استدرت، فرأيته خلفي، وهو ينظر باستغراق لأفواه المتحدثين، وهم يرسلون مراثيهم تصحبها دموعهم.

كنت أحسبه متأثرا كالجمع الحاضر.. ولكن وجهه الواجم لم يبد لي أي أثر أو أي تأثر.

بعد انتهاء حفل التأبين، اقتربت منه، وقلت: لا شك أنك حزين لفقد هذا البطل العظيم الذي امتلأت قلوب الدنيا حزنا عليه.

قال: ويوشك أن تمتلئ بغضا له.

قلت: أخفض من صوتك.. ما الذي تقول؟

قال: أقول الحقيقة.. لقد كنت أطالع وجوه المتحدثين.. فلم أر فيها أي نسمة من نسمات الصدق.. وكنت أحلل تلك الدموع، فلم أرها غير دموع التماسيح.. وكنت أحلل تلك الكلمات، فلم أرها غير أكاذيب المنافقين..

قلت: فكيف عرفت بارتداد القلوب عنه؟

قال: لأن القلوب لا يمكن أن تظل على النفاق.. والأعين لا يمكن أن تظل ترسل دموع التماسيح.

قلت: كل الناس يحصل لهم هذا.. يمدحون، ثم يهجون.. ويشكرون ثم يكفرون.

قاطعني، وقال: إلا الصادقون.. فالقلوب لا تزداد لهم إلا محبة.. والأعين لا تزداد لهم إلا شوقا.. والأفواه لا تزداد لهم إلا مدحا.

قلت: فمن هؤلاء !؟

قال: أنا أبحث عنهم.. لقد اتخذت دفترا أسجل فيه منحنيات الحب والبغض..

قلت: هذه أول مرة أسمع بهذا النوع من المنحنيات.

قال: لأن البشر انشغلوا بمنحنيات العمران عن منحنيات الإنسان.

قلت: عرفت قيمة منحنيات العمران.. فما قيمة منحنيات الإنسان؟

قال: لقد جعل الله في قلوب البشر جواذب نحو الحقيقة.. قد يشردون عنها، ولكنهم سرعان ما يعودون إليها.. هي كإبرة البوصلة.. تحركها ذات اليمين، وذات الشمال، ولكنها تأبى إلا أن تعود إلى المحل الذي تنجذب إليه.

قلت: عرفت قيمة إبرة البوصلة.. فبها نميز الشمال من الجنوب.. وبها نهتدي في طريق البر والبحر.

قال: وببوصلة القلوب نعرف الصادقين من الكاذبين.. ونهتدي إلى أهل الحقائق، وأهل الدجل.

قلت: لقد ذكرتني بما قالت لي العذراء في ذلك الحلم الجميل.. لقد قالت في وصف تلك الشمس المقدسة: (وامتلأت القلوب حبا لها، وشوقا إليها)(1)

قال: لقد ذكرت لك العذراء مقياسا من مقاييس الحقيقة.. فابحث عنه.. فكل من بحث وصل.

قلت: أين !؟

قال: سر في أرض الله.. واتخذ لنفسك دفترا.. وابحث عن نبرات الصدق الحقيقي التي تنطلق من القلوب.. ففي تلك النبرات ما يدلك على تلك الشمس المقدسة.

قلت: لكل شخص وجهة هو موليها.

قال: ولكن الناس يفترقون في كل شيء إلا عند الشمس، فإنهم يجتمعون.. يجتمع الجميع.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد كنا نشيع ذلك البطل الهمام في نظرنا.. وفي نظر أهل بلدنا!؟

قلت: أجل..

---

1) انظر [أنبياء يبشرون بمحمد] من هذه السلسلة.

قال: ولكن قلوب الآلاف.. بل عشرات الآلاف.. بل الملايين.. تلعن هذا النعش الذي كنا نسمع تأبينه.

قلت: أجل.. وهم أحرار فيما يحبون، وفيما يبغضون.

قال: بل هم مجبرون على ذلك.. فلولا ما فعل بهم ما أبغضوه.

قلت: ولكن هؤلاء الذين أحبوه فعل لهم.. فلذلك أحبوه.

قال: وهذا مقياس آخر.

قلت: لم أفهم.

قال: هذا البطل الهمام أرضى هؤلاء على حساب أولئك.. فلذلك أبغضوه.. وسيبغضه هؤلاء أيضا.. لأن القلوب لا بد أن تعود إلى لحظات الصدق لترى الإجرام إجراما والعدل عدلا.

قلت: فأين الذي تجتمع عليه كل القلوب؟

قال: ذاك ما أبحث عنه.. فمن ظفر به ظفر بالإكسير الذي يجعله إنسانا.

قلت: فسلمني دفتر قلوبك لأنطلق مما وصلت إليه في بحثي.

قال: لا تسلم لك الحقائق إلا بالمعاناة.. فسر، وسل القلوب، وابحث.. فما وصل إلا من سار.

قال ذلك، ثم انصرف.

في ذلك المساء اشتريت دفترا.. وصرت أبحث عن كل نفحة صدق تفوح بها الألسن في لحظة تقدسها.

وهذا هو الدفتر.. وهذه قصته.

أولا ـ العامة

فتحت دفتر الغريب على فصله الأول، فوجدت عنوانه (العامة)، فقلت: من تقصد بالعامة؟

قال: أقصد بهم أولئك البسطاء الذين لم تسجل أسماؤهم في دفاتير المؤرخين مع أنهم هم الذين صنعوا التاريخ.

قلت: لقد كان هذا الصنف من الناس أكثر من اتبع الرسل.

قال: لأنه لم يكن لديهم من السلطان ما يخافون عليه، فلذلك لم ينحجبوا بما انحجب به غيرهم.

كان أول اسم سجله الغريب في هذا الفصل اسم (الراعي)، فسألته عنه، فقال: هذا (الراعي).. وهو أول من رأيت حرارة الصدق في كلماتهم.. فلذلك كان أول من سجلت اسمه في هذا الدفتر.. والذي كان في ذلك الحين خاليا من أي عنوان.

قلت: فحدثني حديثه.

قال: في ذلك اليوم من أيام الربيع.. وفي بلدي الذي ولدت فيه.. وبعد لقياي لمعلم السلام وإقناعه لي بتخصيص دفتر للكلمات الصادقة الصادرة عن القلوب المخلصة، خرجت إلى الحقول المجاورة لأتنسم عطر الهواء الذي لم يدنس بالمداخن، ولألتقي بالبشر الذين لم تخرجهم الحضارة عن فطرتهم.

وفي ذلك الحقل، التقيت ذلك الراعي الصادق الذي كان يمتلئ شوقا لمحمد.

لقد وجدته جالسا بجنب نعجاته من غير أن يراه أحد، أو يسمعه أحد، وهو ينشدها بصوت عذب قول الشاعر:

يا حبيباً علم الوجد هواه ... ياتراني بعد صبر هل أراه؟

يا جميلا ليس خلق في البرايا ... قط مثل أو قريب من بهاهُ

بان في الأفلاك بدر أو هلال ... يسلب الألباب بعض من سناه

ليس حسن في البرايا أو جمال ... أو بديع من جمال ما عداه

يا حبيبا لست أدري كيف أوفي ... قدره العالي وفيضا من عطاه

ذاك قلبي هام وجداً يا حبيبي والهوى في وجدكم حقا سباه
يا دموعا ذارفات في الليالي هل لقاءُ في تعيم منتهاه
يا لسعدي ساعة اللقيا بحبي يا حبيبا حق سعدي في حماه!
كيف أسلو يا حبيبا في فؤادي جاوز الأحباب عشقا فاكتواه
كيف أسلو والحنايا لم تزل ترقب الوصل ووصلي لا أراه ُ!
يا ليال ذبت فيها من هواكم والتياعي يا حبيبي من شِفاه؟
طال بعدي بت ليلي من هواكم ضج قلبي هائما دمعي ذراه
مال قلبي نحو حب ليس فيه غضة للقلب رقراق نقاهُ!
كلما همت وزاد الحب فيكم زاد سعدي بالغاً بي منتهاهُ
كيف لا والوعد منكم يا حبيبي أن ينال محبكم حقا مناه

اقتربت منه، وقد هزني إنشاده، فقلت: أنت عربي.. لاشك في ذلك.

قال: لا.. بل أنا ألماني.. نبتت شجرتي في هذه البلاد.

قلت: ولكن أشجار هذه البلاد لا تتقن العربية.

قال: لقد شوقني في العربية حبيبي الذي همت به.. فضبطت لساني على موجات لسانه، كما ضبطت قلبي على ترددات محبته.

قلت: عهدي بالمحبين في بلادنا يتلاقون بمحبوبيهم كما يشتهون.. ولا يقتنعون بما تقتنع به من ترديد الأشعار.

قال: ومن قال لك بأن حبي قد غاب عني.. إنه معي.

قلت: ولكني لا أراه.

قال: فأنت إذن لا تبصر.

قلت: بل أبصر.. وأنا لا أرى أمامك إلا نعجاتك.

قال: لو نظرت إلى إنسان عيني لرأيته، ولو حدقت في سويداء قلـبي لوجدتـه مسـتويا على عرشه.

قلت: لا طاقة لي بفك ألغازك، فحدثني عن حقيقـة أمـرك.. أخـبرني عن حبيبـك الـذي ملكته قلبك وعقلك وروحك.

قال: محمد هو حبيبي الذي ملك علي عقلي وقلبي وروحي وجميع كياني.

قلت متعجبا: محمد !؟

قال: أجل.. محمد..

ثم راح ينشد بصوت عذب قصيدة البوصيري:

محمد أشرف الأعراب والعجم	محمد خير من يمشي على قدم
محمد باسط المعروف جامعه	محمد صاحب الإحسان والكرم
محمد تاج رسل الله قاطبة	محمد صادق الأقوال والكلم
محمد ثابت الميثاق حافظه	محمد طيب الأخلاق والشيم
محمد رويت بالنور طينته	محمد لم يزل نورا من القدم
محمد حاكم بالعدل ذو شرف	محمد معدن الإنعام والحكم
محمد خير خلق الله من مضر	محمد خير رسل الله كلهم
محمد دينه حق ندين به	محمد مجملا حقا على علم
محمد ذكره روح لأنفسنا	محمد شكره فرض على الأمم
محمد زينة الدنيا وبهجتها	محمد كاشف الغمات والظلم
محمد سيد طابت مناقبه	محمد صاغه الرحمن بالنعم
محمد صفوة الباري وخيرته	محمد طاهر من سائر التهم
محمد ضاحك للضيف مكرمه	محمد جاره والله لم يضم

محمد طابت الدنيا ببعثته　　　محمد جاء بالآيات والحكم

محمد يوم بعث الناس شافعنا　　　محمد نوره الهادي من الظلم

محمد قائم لله ذوهمم　　　محمد خاتم للرسل كلهم

قلت: فكيف اهتديت إلى محمد، وأنت من هذه البلاد التي لا تعرف محمدا.

غضب، وقال: كل البلاد تعرف محمدا.. بل كل الأشجار والحجارة والتربة تعرف محمدا.

قلت: أحدثك عن البشر.. لا عن الأشجار والحجارة.. فأخبرني خبرك.

قال: قصتي طويلة..

قلت: فقصها علي.

قال: سأقص عليك منها ما تحتاجه.. وأرغب بك عما لا تحتاجه.

قلت: كلي آذان صاغية لك.

قال: لقد وقعت في عز شبابي ضحية لشباك الحب المدنس..

قلت: ما الحب المدنس؟

قال: ذلك الحب الذي يتغنى به قومنا.. فيملؤون عروش قلوبهم بالمستنقعات الأسنة.

قلت: فكيف نجوت منه.. عهدي بمن يقع فيه يلم به ما ألم بالمجنون من الجنون، أو ما ألم بعروة ةإخوانه من الموت.

قال: تلك قصتي مع حبيبي محمد.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أذاقتني محبوبتي التي أسلمتها روحي من ألوان الهوان ما امتلأت بـه مـرارة، فبعت لأجلها كل ما أملك، وأرضيتها بكل ما أطقت أن أرضيها به، فلمـا نفـذ مـا عنـدي من مال ومتاع هجرتني.. بل باعتني لمن يملك ما لا أملك، ويقدر على ما لا أقدر.

قلت: فكيف نجوت من خنادق الهوى الوعرة؟

قال: بمحمد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: في تلك الأيام ظهر لي أن أسافر إلى اليمن.. ولست أدري كيف لاح لي ذلك الخاطر.. وقد كانت تلك الأيام تزدهي بميلاد محمد ﷺ.. فكانت الأفراح في كل جانب، وكانت القصائد العذبة تمتلئ بها الحناجر والأسماع.. وكنت أرى الفرحة تمتلئ بها القلوب غير شاعرة بتلك الفاقة التي تصيح بها الأجساد.

لقد أثرت في تلك المشاهد مع كوني لم أكن أعرف من العربية إلا ما أحتاجه في معاملاتي الضرورية.

قلت: فكيف فهمت ما يقولون؟

قال: حرارة الصدق والإخلاص جعلتني أستوعب كل ما يذكرونه، بل أعيه وعيا تاما.

قلت: أكان ذلك وحده هو الذي أنقذك من شباك الحب المدنس؟

قال: كان ذلك هو الباب.. وكانت تلك هي البداية.. لقد كان الإخلاص والصدق هو الذي جعلني أنضم إلى تلك المجالس، وأجلس معها، وأحاول أن أستشعر المشاعر المقدسة التي تستشعرها..

لقد كان كل كل هدفي أن أنسى من جرعتني السموم.. ولم أكن أعلم أن الله الرحيم الرحمن يدخر لي كل ذلك الفضل.

قلت: لم أفهم.

قال: في مجلس من تلك المجالس لاحت أنوار عظيمة غسلت جميع أدران قلبي، ومحت جميع ظلماته.. لقد كانت أنوارا لذيذة وجميلة لا يمكن وصفها.

قلت: أنوار من تلك؟

قال: أنوار الشمس التي لا تغيب..

قلت: لم أفهم..

قال: لم يكن دليلي إلى محمد إلا محمد.

قلت: لا زلت لا أفهم.

قال: أنا لست فيلسوفا، ولا لي قدرة على الجدل، ولا على البحث المضني.. ولكن مع

ذلك لي قدرة على تلمس الصدق والإخلاص.. وقد رأيت في محمد منهما كل ما يملأ القلب بالمحبة السامية.

قلت: والمسيح !؟.. ألم تكن مسيحيا؟

قال: بلى.. ولا أرى أن حبي للمسيح يغني عن حبي لمحمد.. ذلك أني لم أصل للمسيح إلا بعد أن وصلت لمحمد.

قلت: كيف تقول ذلك، ومحمد جاء بعد المسيح.

قال: لقد عرض للمسيح قطاع طرق كثيرون شوهوه.. ولم يعد للمسيح جماله ولا كماله غير محمد.

قلت: فكيف تعلمت العربية.. وعلى من تعلمتها؟

قال: علمتني المحبة.. لقد جعلتني تلك العيون الصادقة أتعلم من غير معلم.

قلت: لقد رأيتك تردد أشعارا بليغة.

قال: تلك الأشعار من تلك المجالس.. لقد كنت جالسا في أحد تلك المجالس الآن.

قلت: أنت هنا الآن.

قال: أنا لم أخرج من هناك.. ويستحيل على قلبي أن يفارق مواطن الأحبة.

قلت: ونعجاتك؟

قال: هي لا تشغلني.. بل لو اجتمع الخلق جميعا على أن يشغلوني فلن يشغلوني.

قال ذلك، ثم انصرف إلى نعجاته، وهو يشدو بقول الشاعر:

دارُ الحبيبِ أحقُّ أن تهواها	وتَحِنُّ من طربٍ إلى ذِكراها
وعلى الجفونِ إذا هممتَ بزورَةٍ	يا ابن الكرامِ عليك أن تغشاها
فلأنتَ أنتَ إذا حللت بطيبةٍ	وظللتَ ترتعُ في ظِلال رُباها
مغنى الجمال من الخواطرِ والتي	سلبتْ قلوبَ العاشقين حلاها
لا تحسبِ المِسكَ الذَكيّ كتُربها	هيهاتَ أين المسكُ من رياها

طابت فان تبغي لطيبٍ يا فتى   فأدم على الساعات لثم ثراها
وابشر ففي الخبر الصحيح تقررا   إن الإله بطيبة سماها
وبهذه ظهرت مزيةٌ طيبةٍ   فغدت وكل الفضل في معناها
حتى لقد خُصت بهجرة حِبِّهِ   الله شرفها بِهِ وحَباها
ما بين قبرٍ للنبي ومنبرٍ   حيا الإلهُ رسولَه وسقاها
هذي محاسِنها فهلل من عاشقٍ   كَلِفٍ شَجِيٍّ ناحلٍ بنواها
إني لأرهبُ من توقع بينها   فيظل قلبي مُجعاً أواها
بجوارِ أوفى العالمين بذمةٍ   وأعز من بالقرب منه يُباهى
من جاء بالآيات والنورِ الذي   داوى القلوب من العَمى فَشفاها
أولى الأنامِ بخطة الشرفِ التي   تدعى الوسيلة خير من يُعطاها
إنسانُ عين الكونِ شرفِ التي   تدعى الوسيلة خير من يُعطاها
حسبي فلستُ أفي ببعضِ صِفاته   لو أن لي عدد الورى أفواها
كثرت محاسنه فأعجز حصرها   فغدت وما تلقى لها أشباها

سالت دموع حارة من عيني الغريب، وهو يحدثني عن قصة هـذا الـراعي، فقلت: أرى أن هذا الراعي قد أثر فيك أيما تأثير؟

قال: أجل.. في ذلك المساء سطرت في هذا الكراس أول اسـم من أسـماء الصـدق.. وفي ذلك اليوم عنونت هذا الدفتر بهذا العنوان، وقد كنت أحسب أني سأضع دفـاتر أخـرى لشخصيات أخرى.. ولكني كلما هممت بذلك انصرفت إلى محمد.

قلت: أراك وضعت في هذا الفصل أسماء كثيرة؟

قال: كل هؤلاء من العامة البسطاء الذين أتيح لي أن ألتقي بهم، وأحادثهم عن سر إقبالهم على محمد ودين محمد.

قلت: كيف أتيح لك ذلك؟

قال: لقد لاحظت مراكز الدراسات المختلفة ــ والتي تزود الفاتيكان بما يحتاجه من معلومات ـ الإقبال الشديد على الإسلام رغم التشويهات الكثيرة التي تناله من وسائل الإعلام، وقد دفع ذلك الكنيسة إلى تكليفي بالبحث عن هؤلاء المسلمين الجدد والتحاور معهم لنعرف سر الإقبال الشديد على الإسلام.

قلت: لقد أتيحت لك فرصة عظيمة إذن؟

قال: أجل.. لقد كانت هذه فرصة لا تعوض.. فقد أتيح لي أن ألتقي بأكبر عدد من المسلمين الجدد، والذين فتحوا لي قلوبهم، وحدثوني بكل إخلاص عن رحلتهم إلى الإسلام [1].

قلت: في أي بلد تمكنت من لقائهم؟

قال: في بلاد كثيرة .. فأنت تعلم سخاء الكنيسة.

قلت: فقد استغللت سخاء الكنيسة إذن؟

قال: لا.. لقد كنت صادقا معها.. ولكن صدقي مع الحق كان أعظم من صدقي معها، فلذلك انشغلت بالبحث عن أسرار الصدق عن البحث الذي طلبته مني الكنيسة، وأحسبني قد عملت بإخلاص، ولم أتقاض على ذلك إلا ما هو حق لي.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أريد من تلك الأموال التي صرفت على رحلاتي أن أسمع الحقائق من أهلها، وأنقلها بكل صدق وموضوعية، وأحسبني لم أفعل إلا ذلك.

---

1) من أهم مراجعي في أخبار المسلمين الجدد كتاب: رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، إعداد: عبدالرحمن محمود، وموقع: http://www.newmuslims.tk/

الفتى عماد:

قلبت دفتر الغريب في هذا الفصل، فرأيت اسم (الفتى عماد)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: قصة هذا الفتى مع الإسلام طويلة، ولا يمكنني في هذا المجلس أن أحدثك عنها جميعا، ولهذا سأكتفي باختصارها لك أو ذكر ما تمس إليه الحاجة فقط منها.

قلت: فمن حدثك بها؟

قال: الشاب عماد نفسه.. لقد أتيحت لي فرصة قدمت له فيها ــ بفضل الله ــ بعض الخدمات، وقد ارتاح إلي، وأخبرني عن قصته بتفاصيلها.

قلت: فحدثتني بما وعدتني منها.

قال: لقد بدأ هذا الشاب الطيب الذي أنار الإسلام عقله وقلبه حديثه بحمد الله على نعمة الإسلام، ثم الصلاة على النبي ﷺ الذي جعله الله واسطة لتلك النعمة، ثم أخذ يحدثني عن أسرته قبل الإسلام وبعد الإسلام، فقال: كانت أسرتي تتكون مني وأختي وأمي وأبي.. أربعة أفراد فقط وكانت أسرة نصرانية متدينة تواظب على دروس الكنيسة وتؤدي العبادات النصرانية بانتظام، وكنت أختلف إلى دروس الكنيسة مع أسرتي وكنت أواظب على أداء الصلوات.. وقد كان أول ما هداني الله به إلى الإسلام أمي.

قلت: أكانت أمه مسلمة؟

قال: لا.. ولكنها كانت سبب دخوله الإسلام.. لقد ذكر لي هذا الشاب الفاضل أنه شعر بتوجه أمه نحو الإسلام وميلها إليه، وقد اكتشف ذلك من خلال تعلقها بدرس التفسير الأسبوعي للشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - فيقول: (لاحظت أن لحديث الشيخ الشعراوي الأسبوعي أثرًا أشبه بالرعد في آذان المتعصبين من النصارى، وساعة الحديث الأسبوعي ساعة نحس عندهم، وتمثل عبئًا نفسيًا ومعاناة لهم، بيد أن الأمر كان مختلفًا مع أمي كل الاختلاف حيث كنت أراها تفتح التلفاز وتشاهد درس الشيخ الشعراوي الأسبوعي يوم الجمعة فأسألها دهشا: ماذا تصنعين ؟! فتجيب قائلة: أتابع هذا الشيخ لأنظر ماذا يقول؟ وأسمعه ربما يخرف!.. ولم أكن أدري أن ردها عليّ وقتها كان من باب التمويه حتى لا أخبر أبي(2)!

---

1) نقلا عن كتاب: قصة الفتى النصراني الذي اهتدى.. (بتصرف)

2) ورد في النصوص ما يدل على جواز اللجوء إلى الكذب في مثل هذه الأحوال من باب الضرورة، فقد جاء في حديث الغلام والراهب والساحر قول الراهب:(إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر) الحديث رواه مسلم.

وهناك برنامج آخر كانت تتابعه أمي، وهو برنامج (ندوة للرأي) أراها تشاهده، فلما أنكر عليها ذلك مستفسرًا ترد قائلة: أشاهد وأسمع لأرى ما يقوله هـؤلاء العلمـاء عن النصـرانية والنصارى!فأسـمع جوابهـا دون تعليـق.. وأواصـل مراقبتهـا، وكـانت أمي سـمحة المعاملـة لطيفـة المعشـر، وكـادت في معاملتهـا تبـدو أقـرب للإسـلام والمسـلمين، حـتى أن أحـد القساوسة سبّها ذات مرة، لأنها قالت أمامه: (والنبي) على طريقـة العامـة من المسـلمين في مصر، فسبّها القس ونهرها قائلاً لها: أي نبي ذلك الذي تقصدين ؟! وعنفها حتى سـالت الدموع من عينها.

ولما فكرت أمي في الإسلام، استدعتني ذات مرة وقالت لي: تعال يـا عمـاد أنت ابـني الوحيد ولن أجد أحدًا يسترني غيرك! فقلت لها خيرًا يا أمي، فقالت: أنت ابـني الكبـير وأنـا مهما كانت الأمور وفي كل الأحوال أمك.. ومن المسـتحيل أن تتخلى عـني أو ترميـني في التهلكة، فقلت لها: نعم يـا أمي. فقـالت: مـاذا تفعـل لـو أن أهلـك قـالوا عـني كلامًـا سـيئًا ورموني بتهم باطلة ؟! فقلت لها: ولم يفعلون ذلك وهم جميعا يحبونك. قـالت: مـاذا تفعـل لو حاولوا قتلي والتخلص مني؟فقلت لها: كيف ذلـك؟ولم يحـاولون قتلـك وهم يحبونـك ؟! قالت: ماذا تفعل لو صرت مسلمة؟هل ستحاربني مثلما الحال مع أبيك وأعمامك وأخوالـك وأقاربك ؟! فكانت إجابتي لها: الأم هي الأم، وأنت أمي في كل الأحوال.

قلت ذلك.. ولكن نفسي كانت ممتلئة بالمخاوف عليها، وقوّى ذلك لدي كثرة مشاجرتها مع أبي في شأن رغبتها في اعتناق الإسلام.. وكان أبي يغضب من تهديدها بترك النصـرانية ويتحداها أن تعتنق الإسلام.

وذات يوم عدت إلى المنزل قادمًا من المدرسة، فلم أجد أمي، فأخذت أسأل عنها في كل مكان يمكن أن تـذهب إليـه … وكـانت الصـدمة أني وجـدت أنهـا أعلنت إسـلامها أمـام الجهات المسؤولة، وأنها لن تعود إلى البيت أبدًا..

لقد جن جنون العائلة كلها وفقدت توازنها وصارت تقول في الإسلام والمسلمين كل ما يمكن أن يقال من ألفاظ السباب واللعن والتهديد والوعيد وصار الجميع من أخوال وأعمام فضلاً عن الأب في حالة عصبية انفعالية في الكلام والسـلوك فهم غاضـبون من كـل شـئ ومن أي شئ …

وكنت أستمع إلى الشتائم توجه إلى أمي من الأقارب والأخـوال والأعمـام، فمن قائـل:

إنها كانت تشبه المسلمين في كذا وكذا، وهذا الخال يوجه كلامه إلي قائلاً: (انظر كيف تركتكم، وتخلت عنك وعن أختك ؟! انظروا من سوف يرعاكم ويقوم على تربيتكم ؟!).. أما العم فقد كان يقول كلامًا مشابهاً ويقول موجهاً كلامه لي ولأختي: (ترى لو ذهبت أنت وأختك إليها وتوسلتما إليها وبكيتما بين يديها.. هل ترجع إليكم؟!)

وكان العم يذهب إليها في الجهات المختصة ليوقع الإقرار تلو الإقرار بعدم التعرض لها.. وأحيانًا كان يلقاها ويستعطفها كي تعود إلى ولديها لشدة حاجتهما إليها، ولكن أمي رفضت بشدة بعدما ذاقت حلاوة الإسلام والإيمان وأسلمت لله رب العالمين وتركتنا وديعة عند من لا تضيع عنده الودائع سبحانه هو خير حافظٍ وهو أرحم الراحمين، وأيقنت أن الله سوف يحرسنا بعينه ويرعانا برعايته(1).

قال الغريب: ثم أخبرني هذا الفتى عن بعض البلاء الذي تعرض له بسبب إسلام أمه، ثم كيف بدأ يتلقى أنوار الإسلام، فقال: أخذت العنوان وقفلت راجعًا إلى منزلنا أفكر في الأمر، وبعد يومين أو ثلاثة عزمتُ على زيارة أمي على عنوانها الجديد في موعد يسبق يوم الثلاثاء اللاحق لموقف القس السابق في درس الكنيسة، وبلغت مسكن الوالدة وشاء الله أن يكون ذلك مع أذان المغرب.. وأستمع إلى أذان المغرب وكأني أسمعه لأول مرة برغم سماعي له آلاف المرات ولكن الأذان هذه المرة وقع مغاير تمامًا لما ألفته من قبل.

وتستقبلني أمي أثناء الأذان مرحبةً بي، وأراها وأسمعها تردد الأذان وهي لا تكاد تنتبه لحديثي إليها، وبعد الأذان ذهبت فتطهرت وتوضأت ثم دخلت في صلاتها وجعلت تتلو القرآن في الصلاة بصوت مسموع فكنت لأول مرة أسمع القرآن من أمي، إنها تتلو سورة الإخلاص، وكان لذلك وقع لا يوصف في قلبي وأثر ساحر في نفسي.

إن مشاعري في تلك اللحظة لا أقوى على وصفها، فقد شملني نورٌ ربانيٌ وتملكني شعور غريب تمنيت معه في تلك اللحظة لو جثوت على ركبي وقبلت قدم أمي وهي تصلي، شعرت بشيء ما يغسل قلبي، وداخلني صفاءٌ ونقاءٌ لم أشعر بهما من قبل، أجل إن شعوري في ذلك اليوم لا يمكن وصفه أو التعبير عنه.. إنه روح جديدة تسري في جسدي وعروقي، أحسست بمدى الظلم الذي وقع على أمي من ذلك القس(2) في درس الثلاثاء الماضي، تمنيت لو خنقته لافترائه على أمي دون وجه حق، لماذا يشوه سيرتها؟! أهذا عدل؟ وهل المسيح أمر بذلك ؟!

ثم حدثني الفتى عن لجوئه إلى الإنجيل ليبحث فيه عن السكينة والهداية والهدوء

---

1) هذا الموقف مع ما فيه من الصدق والإخلاص إلا أن الداخل للإسلام لا ينبغي أن يفرط في أي شيء يرتبط بحياته وبمسؤولياته، بل إن اعتناقه للإسلام لا ينبغي أن يزيده إلا حرصا على هذه المسؤوليات.

2) ذكر هذا الشاب في كلام حذفناه أن قسا من القسس اتهم أمه في عرضها، وأنها سجنت من طرف شرطة الآداب.

فيكتشف أنه محرف، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله حقًا، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال: فالإنجيل عندما طالعته وجدته كتابًا كـأي كتـاب يؤلـف في سيرة شخص أو عظيم حيث تطالعك أخبار عن المسيح الذي يأكل والمسيح الـذي يشـرب والمسيح الذي يموت والمسيح الذي يقوم من الذي يتحدث بهذه الأخبار؟ هـل هـو اللـه؟أم هو المسيح ؟!

إن الإنجيل كتاب كـأي كتـاب يحكي قصـة شـخص أكـل وشـرب ونـام، وفعـل كـذا من المعجزات أو له كذا من المعجزات والخوارق، من المتحدث في كل هذا؟أو من الذي كتب هذه الأخبار بعد وفاة المسيح؟ ولماذا تتعدد الروايات وتختلف وتتناقض أحياناً بتعدد الأناجيل واختلافهـا، حـتى والمسـيح على الصـليب - كمـا يزعمـون - ينـادي: (إيلي إيلي لمـاذا؟ شبقتني !)

أي: إلهي إلهي لماذا تركتني وخذلتني ؟! لماذا؟ينادي مَنْ؟وهـو من؟وكيـف يتخلى الأب عن ابنه وهو يستصرخه ويستنصره ويستنجد بـه ؟! أهـذا منطـق؟! أسئلة كثـيرة رَسـمتْ أمامي علامات استفهام كبيرة.

وقد أصاب الفتى الملل من قراءة الإنجيل ـ كما يحكي ـ لأن قراءتـه الإنجيـل ضـاعفت من حيرته ولم تجب عن أسئلته، ويمضي الفتى قائلاً: ولكن حرصي على الوصول للحقيقـة دفعني لمزيد من المراجعة ومعاودة قـراءة الإنجيـل مـرة أخـرى حـتى انتهيتُ من قراءتـه لأصـل إلى الاطمئنـان النفسـي والعقلي والـروحي فمـا وجـدت إلا المزيـد من الإبهـام والغموض، فاشتدت حيرتي حتى طالعت في الإنجيل قـول السـيد المسـيح: (الحـق الحـق أقول لكم: إن من يتبع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية)

الله أكبر. الله أكبر إذاً جاءت صريحة وعلى لسان المسيح عبارتـه تلـك الـتي تؤكـد أنـه رسول من عند الله، فقوله: (الحق. الحق) قسم وقوله: (إن من يتبع كلامي ويـؤمن بالـذي أرسلني) تأكيد على أنه رسول من عند الله وقوله: (فله حياة أبديـة) أي لـه الجنـة والحيـاة الخالدة في الجنة.

قلت للبابا: فقد أسلم الفتى بعد هذا إذن؟

قال: أجل.. لقد أسلم.. وأسلمت بعد ذلك عائلته بعد عناء شديد تعرض لـه، ولكن اللـه أنقذه بفضله وكرمه كما ينقذ كل صادق ومخلص.

إيفا ماريا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هـذا الفصـل اسـم (إيفـا ماريـا)، فسـألت

الغريب عنه، فقال: هذه سيدة ألمانية، وقد التقيت بها في بلـدي ألمانيـا، وقـد حـدثتني عن قصة دخولها الإسلام، فقالت: لقد وجدت بادىء الأمر أن صورة المعبود عند النصارى قريبة جداً منا معشر البشر، وقد أضيفت عليها صفات الإنسان لدرجة لا تجعلها تنطبق على خالق كل شىء، كما أن صورة السيد المسيح عليه السلام التى يجمـع فيهـا بين الإنسـان وصـفة الخالق، هذه الصورة لا يمكن تصديقها أبداً.

إلى جانب ذلك، فقد ورد بخاطرى أن المسـيحية ليسـت إلا علاقـة بين الإنسـان وربـه، ولاشأن لها بأى حال من الأحوال بشئون الناس الاعتيادية كالشـئون الماليـة مثلا أو العمالـة أو أى نوع من أنواع التقنين لحياة الناس، أضف إلى ذلك التوجيهـات العامـة، الـتى وجـدت أنها عسيرة التطبيق، ومن ذلك مبدأ المحبة، محبة الإنسـان لأخيـه الإنسـان، هـذا المبـدأ لا يمكن أن تطبقه جماهير الناس فى ظل العقيدة النصرانية.

هذه الأفكار التى كانت بخاطرى وقعت إبـان الفـترة الـتى تسـمى فـترة تمـرد الطلاب على الرأسمالية، فعندما بحثت هذه القضايا مع زميل مسلم ــ أصـبح فيمـا بعـد زوجـاً لى ــ وجدت أن الإسلام قد وضـع فى اعتبـاره كـل هـذه المشـكلات، واهتم بهـا أعظم الاهتمـام كمشـكلة الاسـتغلال أو القـوانين العامـة الديقراطيـة وغـير الديمقراطيـة ومشـكلة المـال والإقتصاد وغيرها.. فقد أوجد الإسلام الحلول المناسبة لكافة هذه المشكلات الدنيوية.

وكم كان تأثرى عظيماً حينما علمت أن الإسلام يعـترف بالإنسـان باعتبـاره مخلوقـاً لـه روح وجسد فى آن واحد، كما أحببت مبدأ الاتصال المباشـر بين الإنسـان وخالقـه دون أيـة وساطة من أى نوع بينهما، فقد شعرت أن من اللائق جداً للإنسان أن يخضع لخالقـه فقـط لا لأى أحد من خلقه.

كذلك شرح لى زميلى المسلم بأنه لا يوجد فى الإسـلام أى فصـل بين الـدين والدولـة، فاقتنعت بذلك تماماً، حيث وجدت من الضرورى أن لا يقتصر الإيمان والاعتقاد الدينى على الشئون الشخصية فحسب، بل لابد أن يشمل كافة جوانب الحيـاة الإنسـانية.. وهـذه صـفة مميزة وخاصية فريدة للدين الإسلامى الحنيف، فهو لا يرفع شعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، بل على العكس من ذلك تماماً إذ أن العبادة فى الإسلام لا تقتصر على المساجد، بل تمتد لتشمل الحياة البشرية بأسرها.

سكتت قليلا تسترجع ذكرياتها، ثم قالت: عندما كنت أمر فى هـذه المرحلـة من تجميـع المعلومات والقيام بدراسات دينية صادفت بعض المصاعب والعقبـات، وكـان عسـيراً على نفسى أن أتقبل القيود التى يفرضها الإسلام على المرأة، والـتى ظننت خطـأ حينـذاك أنهـا

تحد من حريتها الشخصية، وهذه على كل حال هى نفس الحرية والتسيب الذى أعتدت أن انتقده فى ديانتى السابقة، وهى حرية يساء فهمها واستخدامها فقد اكتشفت أن الفهم النظرى شىء والتطبيق العلمى شىء آخر تماماً، وأذكر هنا اللباس الإسلامى للمرأة، فقد كان فى البداية مشكلة كبرى بالنسبة لى، وأظن أن هذا ينطبق على معظم السيدات الألمانيات المسلمات، فإلى جانب الإحساس بعدم الارتياح والشعور بالحر الشديد والمرأة فى لباس كامل فى الصيف، فقد كان من العسير على أن أصمد أمام اسئلة التهكم والاحتقار التى كانت توجه لى، وقد استمر ذلك حتى وفقنى الله إلى الرد بإجابات كريمة وردت لى اعتبارى أمام نفسى وأمام الناس، دون أن أحس بأننى قد أوذيت أو أخدش حيائى.

ثم تعرفت على مجموعة من الشابات المسلمات، فكم كان تأثرى عظيماً لما لمسته بين أفرادها من حب وجو أخوى يسود بين الجميع، وهو جو يختلف تماماً عما هو سائد بين أى جماعة عرفتها من قبل، فقد منحنى الانضمام إلى هذه الجماعة الإسلامية إحساساً بالسعادة واليقظة، وهكذا اقتنعت أننى اتخذت القرار الصحيح حين أصبحت مسلمة، وقد كان ذلك الإحساس بمثابة تعويض مناسب لكل ما لقيته من عقبات نتيجة لهذا القرار، ولدينا الآن اجتماع أسبوعى للمرأة المسلمة مع أطفالنا حيث نتعلم المزيد عن ديننا الإسلامى الجديد.

ايريس صفوت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (**إ**يريس صفوت)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لسيدة ألمانية أسلمت، وقد التقيت بها وحدثتني عن قصة إسلامها، ومما ذكرته لي قولها: نشأت في أسرة مسيحية علمانية ابتعدت عن الكنيسة، وعندما كنت في سن العاشرة شعرت بأن شيئا ينقصني في حياتي، وفطرتي دائما تشتد نحو الدين وأخذت أبحث لي عن دين، وكنت في ذلك الوقت أقرأ في الكتب عن الإسلام.. ووقتها شعرت بشيء يشدني بقوة إلى الإسلام كدين سماوي يرفع من كيان الانسان ويحمل جميع الفضائل والاخلاق الفاضلة وأخذت اهتم بهذا الدين وتحدثت الى زميلاتي في المدرسة وعن الإسلام وأنني أحب هذا الدين، وحينئذ كنت بلغت الثانية عشرة من عمري، وبالفعل أسلمت وكتمت إسلامي لأن زميلاتي وصفنني بالجنون.

قلت: أسلمت في ذلك السن.. فما كان موقف أسرتك؟

قالت: في البداية اعتبرت أسرتي أنني أمر بمرحلة اضطراب وتقلب في المزاج..

1) انظر: صحيفة الشرق الأوسط 4-10-2002.

لكن عندنا في الغرب حريـة، واذا بلـغ الابنـاء سـن الثالثـة عشـرة فمن حقهم أن يتصـرفوا كيفما شاءوا، ومن حقهم أيضا أن يتركوا أهلهم، ولهذا تركوا لي حرية الديانة.

وعندما وصلت للثانوية العامة، وكان عمري حيئذ ثلاثة عشرة سـنة، وذلـك عـام 1967 وكنت في رحلـة الى لنـدن، ذهبت الى المركـز الإسـلامي هنـاك والتقيت بالشـيخ محمـد الجيوشي (عميد كلية الدعوة الاسبق بجامعة الازهر) وكان امامـا للمركـز، وقلت لـه: إنـني اريد ان اعلن إسـلامي، وأذهب إلى الازهـر وأدرس الـدين الإسـلامي واللغـة العربيـة، كمـا التقيت بالشيخ أحمد حسن البـاقوري (وزيـر الاوقـاف المصـري الاسـبق) في ذلـك الحين، ووعدني بالدراسة في الازهر، واعلنت اسلامي أمام الشيخين ونطقت بكلمة التوحيد، وفي عـام 1969 سـافرت الى مصـر، وتعلمت اللغـة العربيـة، ثم عـدت الى المانيـا لدراسـة الماجستير في جامعة كيسين، وفي اثناء دراستي للماجسـتير تعـرفت على شـاب مصـري كـان يـدرس في مرحلـة الـدكتوراه، وتزوجنـا وسـافرنا عـام 1975 إلى مصـر وواصـلت دراستي للغة العربية، وزادت معرفتي بالإسلام.

قلت لها: لقد مر أكثر من ثلاثين عامـا منـذ اعتناقـك الإسـلام.. فهـل اسـتطعت إيصـال الإسلام إلى أهلك؟

قالت: منذ اللحظة الاولى لاسـلامي، وأنـا انتمي لهـذا الـدين وادعـو اليـه والحمـد للـه استطعت ان اقنع اثنين من اقاربي بأن يسلما هم جدتي ورجل آخر من أقاربي، والـذين لم يسلموا كنت أعطي لهم فكرة عن الإسلام، وهم عندما يسمعونني كانوا يحترمون الإسلام.

قلت: فعلاقتك بأسرتك جيدة إذن؟

قالت: علاقتي بأسرتي في ألمانيـا جيـدة منـذ أعلنت إسـلامي، لأن في المانيـا تسـامح واحترام لحرية العقيدة، ويعتبرون الدين مسألة شخصية.

سـألتها عن أكـبر مـا جـذبها للاسـلام، فقـالت: قبـل ان أعلن اسـلامي كنت اقـرأ عن شخصية الرسول ﷺ وسيرته فأحببت هذه الشخصية كثيرا لما تتميز به من خصال لا توجـد في بشر على وجه الارض.

عبدالرحمن محمود داود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (عبـدالرحمن محمـود داود)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل ينحـدر من أسـرة هنديـة برهميـة، تنصـرت على أيدي المبشرين الذين قاموا مع طلائع الاستعمار، وكـان كثـير القـراءة للكتب الدينيـة،

1) رجال ونساء أسلموا، 7 / 116 – 118.

ولما أتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان جوابه هو انتماؤه للإسلام، وقد ذكر ذلك في بعض تصريحاته لمن سألوه، فقال: (تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبّر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحيّر: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرآت الآيات (30ـ39) من سورة البقرة.. وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق)

وقال: (إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة)

وقال: (بفضل دراستي الحرّة البعيدة عن كل تعصّب مقيت أصبح إيماني بهذا الدين [الإسلام] قويًا راسخًا، لقد آمنت برسالة القرآن، وأحسست أن الإسلام هو دين الفطرة والكمال، أنزله الله على قلب آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.. لقد اكتشفت أن الإسلام يخاطب الناس مباشرة ودون أية واسطة من أي نوع. من أجل ذلك كان هذا الدين متمشيًا مع الفطرة البشرية)

وقال: (إن الإسلام يخاطب الإنسان الكامل. وهكذا أيقنت أن هذا الدين هو خير الأديان جميعًا. لقد شرعت في التحدث عن معتقداتي الجديدة، حول الإسلام والنصرانية وصارحت بها العديد من العلماء المرموقين والقسس المعروفين، وكنت صريحًا وصادقًا في مناقشاتي معهم. لقد سألت القسس لماذا يخدعون الناس بإخفاء الحقيقة ولا يخبرونهم بوضوح وصدق أن محمدًا ﷺ هو رسول الله؟ ولما سمعوا مني ذلك غضبوا ولكنهم لم يستطيعوا أن يحيروا جوابًا)

ثانيا ـ الخاصة

فتحت دفتر الغريب على فصله الثاني، فوجدت عنوانه (الخاصة)، فقلت: من تقصد بالخاصة؟

قال: أولئك الذين تعلقوا من الدنيا بحبلها المتين، فراحت الأبصار تحنو عليهم، وراحت القلوب تحن إلى كراسيهم.

قلت: ما أصعب أن يبصر هؤلاء الحق.

قال: أجل.. لقد خالطت بعض هؤلاء، فوجدتهم صنفين، بعضهم ائتم بالنجاشي، والآخر ائتم بهرقل.

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: أما النجاشي، فقد عرف الحق وآمن به، ولم يمنعه منصبه الرفيع من ذلك الإيمان.. وأما هرقل، فقد عرف الحق، ولكنه حجب عنه، وكان منصبه هو الحجاب الأكبر بينه وبينه.

قلت: فحدثني حديثهما قبل أن تحدثني عن أصحابك.

قال: أما النجاشي، فقد حدثتنا بحديثه أم سلمة، فقد قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة.

وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدما كثيرة، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم. ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا فقدما على النجاشي فنحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم. فإن قومهم أعلى بهم

عينا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشـي فقبلهـا منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلـدك منـا غلمـان سـفهاء، فـارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجـاءوا بـدين مبتـدع لا نعرفـه نحن ولا أنت، وقـد بعثنـا إليـك فيهم أشراف قومهم، من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قـالت: ولم يكن شـيء أبغض إلى عبـد اللـه بن أبي ربيعـة وعمـرو بن العـاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيهـا الملـك قـومهم أعلى بهم عينـا وأعلم بمـا عـابوا عليهم، فأسـلمهم إليهمـا فلـيرداهم إلى بلادهم وقـومهم قـال: فغضـب النجاشي ثم قال: لاها الله أيم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوما جاوروني نزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ماذا يقول هـذان في أمـرهم فـإن كـانوا كمـا يقـولان أسـلمتهم إليهم ورددتهم إلى قـومهم إن كـانوا على غـير ذلـك منعتهم منهمـا وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فجاءهم رسوله اجتمعوا ثم قـال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه قال: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوه، وقد دعـا النجاشـي أسـاقفته، فنشـروا مصـاحفهم حوله سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم. قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيهـا الملـك كنـا قوما أهل جاهلية نعبد الأصـنام ونـأكـل الميتـة ونـأتي الفـواحش، ونقطـع الأرحـام، ونسـيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلـك حـتى بعث اللـه إلينـا رسـولا منـا، نعـرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبـد نحن وآباؤنـا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصـلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام.

ثم قال: وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصـلة الـرحم وحسـن الجـوار والكـف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الـزور وأكـل مـال اليـتيم وقـذف المحصـنات، فصدقناه وآمنا واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى: فعبدنا الله تعالى وحـده ولم نشـرك به شيئا وحرمنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينـا قومنـا فعـذبونا وفتنونـا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلمـا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننـا وبين ديننـا خرجنـا إلى بلادك واخترنـاك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا إلا نظلم عندك إيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به من شئ، فقال له جعفر: نعم؟

فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنهم غدا عيبهم عندهم، ثم أستاصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا، لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه؟قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم، ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبرا ذهبا وإني آذيت رجلا منكم - والدبر بلسان الحبشة الجبل - ردوا عليهم هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردودا عليهما ما جاء ا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

وفي رواية: أن النجاشي قال للمسلمين: أيؤذيكم أحد؟قالوا: نعم.

فأمر مناديا ينادي: من آذى أحدا منهم فأغرموه أربعة دراهم.

ثم قال: أيكفيكم؟قلنا: لا.

قال: فأضعفوها.

وعند موسى بن عقبة: من نظر إلى هؤلاء نظرة تؤذيهم فقد غرم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده

مقبوحين مردود عليهما ما جاءا به.

ثم إن الحبشة اجتمعت فقالت للنجاشي: إنك فارقت ديننا ـ وخرجوا عليه ـ فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا حيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له صفين فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟قالوا: خير سيرة؟قال: فما لكم؟قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد، هو ابن الله.

فقال النجاشي ـ ووضع يده على صدره على قبائه ـ: هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني ما كتب، فرضوا عنه وانصرفوا(1).

قلت: هذا النجاشي، وهو إمام المهتدين من الخاصة، وقد علمت أن رسول الله ﷺ صلى عليه الجنازة لما مات.. فحدثني خبر هرقل.

قال: أما هرقل، فقد حجب المسكين بملكه عن الإسلام، وقد حدث بخبره أبو سفيان ـ الذي كان زعيم أعداء رسول الله ﷺ ـ فذكر أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشأم، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟قلت: لا.

---

1) روى القصة ابن إسحق وابن سعد وغيرهما.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه[1].

قال: ماذا يأمركم؟قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله.. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده

---

1) وقد كذب في هذه أيضا، فقد انتصر رسول الله ﷺ في كل الحروب التي خاضها مع المشركين أو غيرهم حتى غزوة أحد.. هي نصر عظيم للمسلمين لا يقل عن أي نصر آخر.. لأن قصد المشركين كان القضاء على الإسلام وعلى الأعمدة التي يقوم عليها الإسلام، ولم يتحقق لهم ذلك.

لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقــل، فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتـك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَـابِ تَعَـالَوْا إِلَى كَلِمَـةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَـيْئاً وَلا يَتَّخِـذَ بَعْضُـنَا بَعْضـاً أَرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(آل عمران:64)

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمـر ابن أبي كبشـة، إنـه يخافـه ملـك بني الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

وكان ابن الناطور، صاحب إيلياء وهرقل، أسقفا على نصارى الشـأم، يحـدث أن هرقـل حين قدم إيلياء، أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قـد اسـتنكرنا هيئتـك، قـال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقـال لهم حين سـألوه: إني رأيت الليلـة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟

قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شـأنهم، واكتب إلى مـداين ملكـك، فيقتلـوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملـك غسـان يخـبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: أذهبـوا فـانظروا أمختتن هـو أم لا؟ فنظـروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافـق رأي هرقـل على خـروج النـبي ﷺ، وأنـه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة لـه بحمص، ثم أمـر بأبوابهـا فغلقت، ثم اطلـع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبـايعوا هـذا النـبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجـدوها قـد غلقت، فلمـا رأى هرقـل نفـرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختـبر بهـا شـدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل(1).

قلت: لقـد عـرفت خـبر هـؤلاء.. فهـل سـتحدثني عن أصـحاب هرقـل أم عن أصـحاب

---

1) رواه البخاري.

النجاشي؟

قال: بل سأكتفي بالحديث عن أصحاب النجاشي.

قلت: وأصحاب هرقل.. ألم تلتق بهم؟

قال: بلى.. وما أكثرهم.. ولكني لو كتبت أخبارهم، فسيملؤون الدنيا ضجيجا، ويصادرون كل ما تكتبه حرصا على مصالحهم.

اللورد جلال الدين برانتون:

من أول الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (اللـورد جلال الـدين برانتون)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم.. وقـد كـان باروناً إنجليزيًّا، ورجلاً ذا شعبيَّةٍ كبيرةٍ وسمعةٍ عريضـة.. وقـد أتمَّ دراسـته في جامعـة أكسـفورد.. وقد حدثني حديثه الأستاذ محمد كامل عبدالصمد[1]، فقال: ولد ونشأ بين أبوين مسيحيين.. وولع بدراسة اللاهوت وهو في سن مبكـرة، وارتبـط بالكنيسـة الإنجليزيـة، وأعطى أعمـال التبشير كل اهتمامه.

وحدث ذات يوم أن زاره صديق هندي مسلم تحدث معه في موضوع العقائد المسيحية ومقارنتها بالعقيدة الإسلامية، وانتهت الزيارة، إلا أنها لم تنته في نفسه، فقد أثـارت انفعـالاً شديداً في ضميره وعقله، وصار يتدبر كل ما قيـل فيهـا من جـدال، ممـا دفعـه إلى إعـادة النظر في العقائد المسيحية.

وقد عبر عن ذلك، فقال: عندئذ قررت أن أبحث بنفسي، متجاهلاً عقائد الناس، بعـد أن أيقنت بضرورة البحث عن الحقيقة مهما طال المدى في هذا السبيل، ومهمـا كـان الجهـد، حتى أصل لمزيد من المعرفة بعد أن قيل إن الإنجيل وتعاليم المسيح قد أصابها التحريف..

فعـدت ثانيـاً إلى الإنجيـل أوليـه دراسـة دقيقـة، فشـعرت أن هنـاك نقصـاً لم أسـتطع تحديده.. عندئذ ملـك عليّ نفسـي رغبـة أن أُفـرغ كـل وقـتي لدراسـة الإسـلام.. وبالفعـل كرست كل وقتي وجهدي له، ومن ذلـك دراسـة سـيرة النـبي محمـد ﷺ، ولم أكن أعلم إلا القليل النادر عنه، برغم أن المسيحيين أجمعوا على إنكار هذا النبي العظيم الذي ظهـر في الجزيرة العربية.

ولم يمض بي وقت طويل حتى أدركت أنه من المستحيل أن يتطرق الشـك إلى جديـة

1) انظر: كتاب (الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء) لمحمد كامل عبد الصمد.

وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله.

ثم أخذ يكرر هذا المعنى، وهو يقـول: (نعم شـعرت أنـه لا خطيئـة أكـبر من إنكـار هـذا الرجل الرباني بعد أن درست ما قدمه للإنسانية، وجعل من المسلمين أقوى مجتمـع رفيـع يعاف الدنايا.. إني غير مستطيع أن أحصي ما قدمه هذا الرسول من جليل الأعمال)

بعدها تساءل في ألم ووجوم قـائلاً: (أمـام كـل هـذا الفضـل وهـذا الصـفاء.. أليس من المحزن الأليم حقاً أن يقدح في شأنه المسيحيون وغيرهم !؟)

وقد حانت لي فرصة للاستماع إليه في جمع كان قـد دعي إليـه، وكـان من أقوالـه في ذلك الجمع: أشعر بعميق الامتنان على إتاحة هـذه الفرصـة لي لأُعبِّر فيهـا ببعض الكلمـات عمَّا دفعني لإعلان إسلامي، لقد تربَّيْت تحت تأثير أبـويْن مسـيحيَّيْن. وأصـبحت في سـنوات عمري المبكِّرة مهتمًّا بعلم اللاهـوت. فشـاركت بنفسـي في الكنيسـة الإنجليزيَّة، واهتممت بالعمل التبشيريِّ دون أن يكون لي فيه مشاركةً فعليَّة.

وقبل بضع سنواتٍ مضت انصبَّ اهتمامي على عقيدة (العذاب الأبدي)[1] لكـلِّ البشـريَّة عدا بعض المختارين، وأصبح الأمر بالنِّسبة لي مقيتاً جداً بحيث صار يغلب عَلَيَّ الشكُّ، فقـد فكَّرت منطقيّاً بأنَّ ذاك الإله الَّذي يمكن أن يسـتخدم قدرتـه لخلـق الكائنـات البشـريَّة الَّتي يجب أن تكون ـ في سابق علمـه وتقـديره ـ مُعذَّبـةً للأبـد، لابـدَّ أنَّه ليس حكيمـاً، أو مُحِبّاً ـ سبحانه وتعالى عمَّا يصفون علوّاً كبيراً ـ فمستواه لابدَّ وأن يكون أقلَّ من الكثير من البَشَر، ومع ذلك واصـلت الاعتقـاد بوجـود اللـه تعـالى، ولكنِّي لم أكن راغبـاً بقبـول الفهم السـائد للتعاليم الَّتي تقول بالوحي الإلهيِّ للرِّجال، فحوَّلت اهتمامي للتَّحقيـق في الأديـان الأخـرى، ممَّا أشعرني بالحيرة فقط.

وكَبُرَت في داخلي رغبةٌ جديَّةٌ للخضوع للإله الحق وعبادته، ومع أنَّ المذاهب المسـيحيَّة تدَّعي أنَّهـا أُسِّسْـت على الإنجيـل إلَّا أنَّني وجـدتها متناقضـة، فهـل من الممكن أنَّ الإنجيـل وتعليم السيِّد المسيح ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كانا مُحرَّفيْن؟!

لذلك صببت اهتمـامي ــ وللمـرَّة الثانيـة ــ على الإنجيـل، وصـمَّمت أن تكـون الدِّراسـة عميقة، وشعرت بأنَّه كان هناك شيء ناقص وصمَّمت على فعل ذلك لنفسي، بغضِّ النظـر عن مذاهب البشـر، فبـدأت أتعلَّم بـأنَّ النَّاس يمتلكـون الـرُّوح، وقـوَّةً مـا غـير مرئيَّةٍ، وهي خالدة، وأنَّ الآثام سيُعاقَب عليها في هذا العالم وفي العالم الآخر، وأنَّ اللـه تعـالى برحمتـه

[1] في رسالة (أسرار الأقدار) للمؤلف توضيحات كثيرة حول هذه الناحية، وهي كافيـه ــ بفضـل اللـه ــ في رد جميع الشبهات المثارة حول هذا الموضوع.

وإحسانه يمكنه دوماً أن يغفر ذنوبنا إذا ما تبنا إليه حقّاً.

ولإدراكي أهميَّة البحث العميق والعيش على مستوى الحق، ولكي أجد الجوهرة الثمينة، كرَّست وقتي مرَّةً أخرى لدراسة الإسلام. كان هناك شيءٌ في الإسلام شدَّني في ذلك الوقت.

وفي زاويةٍ مغمورةٍ -بالكاد معروفة- من قرية (إتشرا) كنت مكرِّساً وقتي وعبادتي لله العظيم بين أدنى طبقات المجتمع مع رغبةٍ صادقةٍ لرفعهم إلى مستوى معرفة الإله الحقّ والواحد، ولغرس الشعور بالأخوَّة والطَّهارة.

ليس في نيَّتي أن أحدِّثكم كيف عملت بين هؤلاء الناس، ولا ما هي التضحيات الَّتي قدَّمتها، ولا المصاعب الجمَّة الَّتي مررت بها، فقد واصلت العمل ببساطةٍ من أجل هدفٍ واحدٍ، وهو أن أخدم هذه الطبقات ماديّاً ومعنويّاً.

وأخيراً بدأت بدراسة حياة النبيِّ محمَّد ﷺ كنت أعرف القليل عمَّا فعله، ولكنِّي كنت أعرف وأشعر بأنَّ المسيحيِّين ـ وبصوتٍ واحدٍ ـ أدانوا مجد النبيِّ العربيِّ ﷺ وأردت حينها أن أنظر في المسألة دون تعصُّبٍ وحقد، وبعد القليل من الوقت وجدت أنَّه من غير الممكن وجود شكٍّ في جديَّة بحثه ﷺ عن الحقِّ وعن الله تعالى.

فأدركت بأنَّه من الخطأ ـ في نهاية الأمر ـ إدانة هذا الرجل المقدَّس بعد قراءتي عن الإنجازات الَّتي حقَّقها للبشريَّة.

فالنَّاس الَّذين كانوا في الجاهليَّة يعبدون الأصنام، ويعيشون على الجريمة، وفي القذارة والعُري، علَّمهم ﷺ كيف يلبسون، واستُبدلت القذارة بالطهارة، واكتسبوا كرامةً شخصيّةً واحتراماً ذاتيّاً، وأصبح كرم الضِّيافة واجباً دينيّاً، وحُطِّمت أصنامهم، وبدأوا يعبدون الله تعالى الإله الحق، وأصبحت الأمَّة الإسلاميَّة هي المجتمع الشَّامل القويُّ والأكثر منعةً في العالم. وأنجزت الكثير من الأعمال الخيِّرة والَّتي هي من الكثرة بحيث لا يمكننا ذكرها هنا(1)، فكم من المحزن -أمام كلِّ هذا، وأمام صفاء عقله ﷺ حين نفكِّر كيف استطاع المسيحيُّون أن يحطُّوا من شخصه الكريم، واستحوذني تفكيرٌ عميق.

وخلال لحظات تأمُّلاتي زارني سيِّدٌ هنديٌّ اسمه (معن أمير الدِّين)، وكان من الغريب حقّاً أنَّه هو الَّذي أعطى النار الَّتي في حياتي الهواء لتزداد اشتعالاً، فتأمَّلت في المسألة بشكلٍ عميق؛ وقدَّمت الحجَّة تلو الأخرى مُتحاملاً على الدِّين المسيحيِّ المعاصر، ومستنتجاً كلَّ شيءٍ لصالح الإسلام، وشاعراً بالاقتناع أنَّه دين الحقِّ، واليُسْرِ، والتَّسامحِ، والإخلاص،

---

1) انظر (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

والأخوَّة.

وقد ختم كلماته العذبة الصادقة بقوله: (لم يعد لي الآن سوى القليل من الزَّمن لأعيش على هذه الأرض، وأريد أن أكرِّس كلَّ ما بقي لي في خدمة الإسلام)

الدكتور روبرت كرين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (الدكتور روبرت كـرين)، فسألت الغريب عنه، فقال: هو أحد كبار الخبراء السياسـيين في أمريكـا، وهـو المؤسـس والمنشىء لمركز الحضارة والتجديد في أمريكا، وبعد حصوله على شـهادة الماجسـتير في الأنظمة القانونيّة المقارنة من جامعة هارفارد، وبعد تأسيسـه لصـحيفة (هارفـارد) للقـانون الدوليّ وتسلّمه منصب الرئيس الأوّل لجمعيّة هارفارد للقانون الدوليّ عمل لمدّة عقـد من الزمن فيما يسمّى بـ (المراكز الاستشاريّة لصنّاع السياسة في واشنطن)

وفي عام 1962م شارك في تأسيس مركز الدراسات الاستراتيجيّة الدوليّة، وفي عـام 1963م وحتّى عام 1968م كان أكبر مستشاري الـرئيس السـابق ريتشـارد نيكسـون في السياسة الخارجيّة.. وفي عام 1969م عيّنه نيكسون نائباً لمدير مجلس الأمن القوميّ في البيت الأبيض.. وفي عام 1981م عيّنه رونالد ريغان سفيراً للولايات المتّحدة في الامـارات العربيّة.

وقد اعتنق الإسلام عام 1980م، وصار اسمه بعد إسـلامه (فـاروق عبـد الحـق)، وبعـد إسلامه، عمل كمدير للقسم القانوني للمجلس الإسلامي الأمريكي، وهو الرئيس المؤسس لرابطة المحامين الأمريكيين المسلمين، وهو حاصل على دكتوراه في القانون عـام 1959 م.

وقد نشر عشـرة كتب وخمسـين مقالـة اختصاصـيّة حـول الأنظمـة القانونيّـة المقارنـة والاستراتيجيّة العالميّة وإدارة المعلومات.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فسألته عن سر إسـلامه، فكـان ممـا أجـابني قولـه: في عـام 1980م، وعلى أثر انتصـار الثـورة الإسـلاميّة في إيـران، ازداد اهتمـام النـاس في الغـرب بالإسلام، ولم يكن اهتمامهم اعجاباً به، وانّمـا اعتـبروه تهديـداً لهم، لـذلك نـادى العديـد من صنّاع الفكر الى عقد الندوات والمؤتمرات، حول هذا الموضوع.

وقد حضرت إحدى المؤتمرات كي أرى ماهيّة هذه الدراسـات والاطروحـات المقدّمـة، (في خريف 1980م)، وكان مشاركاً في المؤتمر الكثير من قادة الفكـر الإسـلاميّ، ومنهم

الدكتور حسن الترابيّ الذي تكلّم عدّة مرّات، وشرح الإسلام تماماَ، كما كنتُ أبحث عنه، فادركتُ أنّه متقدّم في أفكاره، ثمّ رأيته وهو يصلّي ويسجد، وكنتُ ضدّ مسألة السجود، لأنّ الانسان في نظري لا يجب أن يسجد لأحد، ففي هذا إهانة له ولانسانيّته.

ولكنني أدركتُ أنّ الشيخ حسن الترابي ينحني لله ويسجد له، فالأولى أن أنحني وأسجد أيضاً، وهكذا فعلتُ ودخلتُ الإسلام، من يومها، على يد الدكتور حسن الترابيّ.

وقد حدثني عن الهواجس التي كانت تملأ عليه نفسه، ولم يجد إجابة لها إلا في الإسلام، فقال: كان والدي يعمل استاذاً في جامعة هارفارد، وقد علّمني أن أهتم وادافع عمّا هو صواب، وأن احاول تجنّب الخطأ، وقد قضيتُ معظم وقتي في التحرّي عن العدل والعدالة قبل أن أصبح مسلماً.

وفي الندوة التي جمعتني مع البروفسور (روجيه غارودي) في دمشق سمعته يتحدث ويهاجم الرأسمالية منذ كان شيوعياً، وكلانا كان لديه نفس الهدف، وهو أن يدعم العدالة، وكلانا كان ضدّ التركيز على الثروة، لأنّ الاهتمام بجمع الثروة ليس بعدل.

لقد اتّبع غارودي المبدأ الماركسي الذي يسعى لتحطيم الملكيّة(1)، في حين أنّي كنتُ أعتبر الملكيّة مفتاحاً للحريّة، لكن كلانا كان يرى أن الملكيّة تؤدّي في النهاية الى الظلم وعدم انتشار العدل، وكلانا كان يدعو الى نظام يدعو الى إنتاج واعطاء العدالة للجميع.. لذلك وجدنا أنّ الإسلام هو الحلّ الوحيد، فهو الذي يحمل العدالة في مقاصد الشريعة وفي الكليّات والجزئيّات والضروريّات، وأنا كمحام كنتُ أسعى الى مبادىء ليست من وضع البشر.

انطلاقا من هذه القناعات بدأتُ أسعى وأُفتش عن العدالة، والمفارقة أنّني عندما ذهبتُ إلى جامعة هارفارد وحصلتُ على شهادتي في القانون، مكثتُ هناك ثلاث سنوات لم أسمع خلالها كلمة العدل ولا مرّة واحدة.

قلت: كيف اختاروك لذلك المنصب الخطير؟

قال: تقصد (مستشاراً للشؤون الخارجيّة الأميركيّة)

قلت: أجل.. وغيرها من المناصب الخطيرة.

قال: لقد كان ذلك في عام 1963م، وذلك بعد أن كتبتُ مقالة طويلة عن الصّراع بين روسيا وأميركا، وقد قرأ الرئيس نيكسون هذه المقالة وهو في الطائرة.

---

1) وقد أسلم بعد ذلك، وسنتحدث عنه في فصل (مفكرون)

واستدعاني بعدها، وكلّفني بوضع كتاب حول السياسة الخارجيّة الأمريكية، وحول الشيوعيّة، ثمّ عملت مستشاراً للشؤون الخارجيّة منذ عام 1968م.

وكنتيجة لهذا الكتاب عُينتُ نائباً للرئيس نيكسون للأمن القوميّ في البيت الأبيض، وكان هناك أربعة نوّاب للرئيس كنتُ أحدهم.

وفي عام 1969م عندما استلم هنري كيسنجر وزارة الخارجية أنهى عملي بسبب 25 ورقة كانت في كتابي تضمّنت موضوع فلسطين، وقد اقترحتُ يومها تشكيل دولتين: يهوديّة وفلسطينية، وقد بُحِثَ هذا الموضوع لسنوات عديدة على أعلى المستويات في دوائر الولايات المتحدة وفي البيت الأبيض. ولكنّ كيسنجر كان ضدّ كل إنسان يبحث في هذا الموضوع.

ووقف كيسنجر ضدّي في كلّ مجال دخلتُ أو عملتُ فيه، ثمّ عينني نيكسون نائباً لإدارة شؤون احدى الولايات في البيت الأبيض، كما عملتُ في مسألة (ووترغيت).

بعد فضيحة (ووتر غيت) وجدتُ أنّني لا أستطيع أن أؤثّر على سياسة الولايات المتحدة بشكل فعّال من داخل الدولة، ورأيتُ أنّ الحلّ الوحيد لإزالة الظلم هو إنشاء حركة فكريّة تعود للمثاليّات في أمريكا، وتنادي باستعادة التراث الأمريكي الذي كاد أن يضيع.

وهذا التراث الذي ضاع، وتلك المثل العُليا لم تعد موجودة في أمريكا، لكنّي وجدتها في الإسلام، لذلك أرى أنّ الطريق إلى إنعاش التراث الأمريكي سيكون عن طريق الإسلام، وهذا ما أقوم بالعمل عليه منذ إسلامي عام 1980م.

وقد أخبرني بأنّ الحاجة قائمة الى صناع فكر إسلامي لكي يشرحوا للأمريكيين كيف يجب على أمريكا أن تدير سياستها الخارجيّة، وأن يبيّنوا أنّ العدل هو الطريق الطويل الذي يجب أن تسلكه أمريكا.

وفي الوقت الذي لا يبدي فيه د. فاروق قلقاً على بقاء الإسلام في أمريكا، غير أنّه يجب التركيز على بناء فكر عال للمفهوم الإسلامي بين الشباب بشكل خاص، وقد قال في ذلك: (يجب أن يفهموا العالم الحديث، ويجدوا ردوداً اسلاميّة لكل المشاكل المطروحة في المجتمع، ومن جانب آخر يجب أن ننمّي ونطوّر قيادة فكريّة بين المسلمين وفي كلّ حقول المعرفة، ويكون الهدف من كلا الأمرين هو تدعيم العدل والعدالة في العالم.. وهذا يجعل الإسلام قوّة إيجابيّة من أجل الخير في العالم، وهذه الأولويّات تنطبق على الغرب كما تنطبق على العالم الإسلاميّ)

وقد قرأت عليه بعد ذلك آراء وتصوّرات عميقة في أمّهات القضايا والتحدّيات التي

تواجـه المسـلمين في عـالم اليـوم، وهـو حين يوجّـه النقـد الى الغـرب لنظرتـه المنحـازة والقاصرة تجاه الإسـلام، فانّـه لا ينسـى توجيـه اللّـوم الى بعض المسـلمين في الشّـرق أو الغرب ممّن لا يفهمون التعاليم الإسلامية، ومن الصّـعب ــ كمـا يقـول ــ أن تفهم الغربـيين حقيقــة الإسـلام لأنّ الكثـير من المسـلمين الـذين يعيشـون في الغــرب لا يمارسـون ولا يعيشون حسب تعاليم الإسلام.

ديفد كيربا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسـم (ديفـد كيربـا)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هذا الرجـل تبـوأ أعظم منصـب يمكن أن يتبـوأه امـرؤ في بلـده.. هـذا الرجل كان رئيسا لجمهورية جامبيا.

قلت متعجبا: رئيس جمهورية!؟

قال: أجل.. ولا تكمن الغرابة في كونـه رئيسـاً لجمهوريـة، وإنمـا لأن هـذا الـرئيس ولـد مسلماً ثم أبحر للغرب، وتشرب من فكره وقيمه وعقيدته، ودخل عـالم السياسـة، فـدانت لـه، واسـتهوته شـهوة المناصـب الـتي وصـل إلى أقصـاها، ولكن حين اقـترب من القصـر السياسي أكتشف أنه قد نسي شيئاً مهماً.. نسي فطرته، فعاد إليها مسرعاً، وقـد عـبر عن ذلك بقوله: (كنت أشعر دائمـاً أن لي قلـبين في جـوفي.. قلب لي وقلب علي.. أمـا القلب الذي لي، فكان يدفعني إلى الدراسة والسياسة وخوض معركة الحيـاة.. وأمـا القلب الـذي علي، فكان ما يفتأ يلقي على عقلي وقلبي سؤالاً لم يبرحه قط، هـو: من أنت ؟... ومـا بين القلبين مضت بي الرحلة الطويلة استطعت معها ومن خلالها أن أحقق كل مـا أصـبو إليـه، تحرير وطن أفريقي أسود، ووضعه على خريطة الدنيا كدولة ذات سيادة)

واسـتطرد قـائلاً: (وكـان هـذا نصـراً منتزعـاً من فم الأسـد، يكفي لأن يـدير الـرؤوس، ويصيب الشبان الحالمين من أمثالنا في هـذا الـوقت بـدوار السـلطة.. كـانت تلـك معركـة كـبرى سـلخت من أعمارنـا نصـف قـرن من الزمـان مـع الحـرب والنضـال، والمفاوضـات وتكوين الأحزاب، وخسارة المعارك والفوز بها أيضاً، ومـا كـان أسـعدنا حينئـذ ونحن ننشـل وطننا من وهده الاحتلال والتخلف والضياع الفكري والاقتصادي.. ولم يكن هذا الفوز سـوى لإرضاء النفس وغرورها، أما فطرة النفس فأخذت تحضني على خوض المعركـة الكـبرى.. لقد كسبت معركتك مع الحياة فاكسب معركتك مع نفسك، عد إلى ذاتك، اكتشف المعـدن الثمين الذي بداخلك.. أزح ما عليه من هـذا الركـام من التغـريب والعلمانيـة والدراسـة في مدارس اللاهوت.

كان الصوت يخرج من داخلي يقول لي: عد إلى الطفل الـبريء الـذي كـان يجلس بين

أيدي شيوخه ومعلميه يتلو القرآن ويسعى للصلاة.. وهنا أحسست أن قلبي يصدقني وأن لا شيء في الدنيا يعادل أن يخسر الإنسان نفسه، أن أعود لإسلامي الذي ضاع مني وأنا في خضم في الحياة ومشاغلها ومباهجها، أستشعر الآن أني قد كسبت نفسي وتعلمت درساً لا يتعلمه إلا من كان في قلبه حس نابض، وعقل واع)

لقد عاد هذا الرئيس إلى فطرته الصحيحة وأعاد اسمه إلى (داود جاوارا) بعد أن كان اسمه (ديفد كيربا)

مستر وليم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (مستر وليم)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا الرجل كان مدير دريم بارك الأمريكي في مصر، وقد التقيت به في بعض رحلاتي إلى مصر، وقد سألته عن علاقته بالإسلام، فقال: عندما جئت إلى مصر لم أكن متعودًا كما هو الحال في الغرب أن أرى الناس عندما يسمعون الآذان يتجمعون ويصلون، فكان هذا غريبًا عليّ في بداية الأمر، كما أن هناك مهندسين وزملاء آخرين مصريين بدأوا يكلمونني عن الإسلام، وبدأت أحس أن بداخلهم طمأنينة وراحة نفسية معينة لم أحسها من قبل هي سبب تمسكهم بهذا الدين، مما جعلني أبدأ في التفكير في الإسلام وأقرأ عنه وأقارنه بالمسيحية، ومن خلال قراءاتي والخبرة الواقعية حولي عن طريق زملائي المسلمين اعتنقت هذا الدين، ومن أهم الكتب التي قرأتها عن الإسلام [تفسير معاني القرآن الكريم] باللغة الإنجليزية.. وكتاب دين الحق، الزواج في القانون الإسلامي وكتب أخرى كثيرة تشرح ما يحويه الإسلام، كما أنني أحمل مصحفًا معي دائمًا، وأحاول تعلم اللغة العربية حتى أستطيع قراءة القرآن الكريم.

قلت: ما هي المعاني الإسلامية التي جذبتك إلى الإسلام؟

قال: لا يمكنني أن أحصر لك تلك المعاني في هذا المجلس، ولكني أقول لك بأني في البداية سمعت عن الإسلام قبل أن أعتنقه لكن ليس بالقدر الكافي، وبدأت بالفعل في القراءة عنه، وأخبرني زملائي المسلمون أن أهم شيء في معرفة الإسلام معناه البسيط بداية، وليس شرطًا أن أعرف قواعده وقوانينه في بداية الأمر، فقد تكون صعبة ومعقدة بعض الشيء بالنسبة إلى وسأستطيع معرفتها بعد ذلك، وقد أشهرت إسلامي، ولم أغير اسمي، ولكن أضفت إليه اسم [يوسف] فأنا معجب بشخصية سيدنا يوسف عليه السلام فقد قرأت عنه قبل وبعد اعتناق الإسلام فاحترمته وأحببت اسمه، ولكن في نفس الوقت لم أغير اسمي لأنه لقب والدي وعمومًا فأنا أعتز بالإسمين معًا.

قلت: ألم تعترض أسرتك على إسلامك؟

قال: والدي ووالدتي متمسكان بـدينهما وملتزمـان بتعـاليم المسـيحية، وكانـا يحبـانني، ولذلك عندما أخبرتهما أنني سأعتنق الإسلام سألا عن هـذا الـدين وذهبـا إلى القسـيس في الكنيسة وطرحا عليه عددًا من الأسئلة حول الإسلام فهما لم يكونا يعرفان عنه شيئًا، وقـالا لي طالما ستظل كما أنت أبيض القلب وطيب النفس، وأن هذا الدين لن يغـير فيـك ذلـك، فليس هناك مانع.

أما أصحابي فربما لم يفهموا موقفي، ولكنهم يعرفونـني جيـدًا، وهم متأكـدون أنـني لن أتحول عن ديني إلى دين آخر إلا إذا كان هذا الـدين سيحسـن من نفسـي وسـيزيد إيمـاني وسيجعلني أحس بشعور أفضل، ولذلك تقبلوا الموقف ولكن لم يفهموه بالضبط.

قلت: هل واجهتك ضغوط للحيلولة دون اعتناقك للإسلام؟

قال: لم تواجهني أي ضغوط عنـدما قـررت اعتنـاق الإسـلام، بـل إن من حـولي تقبلـوا الأمر، ولكن لم يكونوا قد تفهموه بعد، خاصة أن الغرب لا يرانا مثلاً ونحن نصلي بـل يـرون جانب التعصب في المسلمين، فوسائل الإعلام تنقـل إليهم صـورة غـير حقيقيـة، ولا تنقـل إليهم صورة الإسلام الحقيقية، فالتعصب ليس من الإسلام في شيء، ولكن الغرب للأسف لا يرى سوى ذلك، وبالنسبة إلي لم أجد مشـاكل في أمريكـا بسـبب إسـلامي ولكن أقابـل أناسًا لا يفهمون موقفي.

قلت: فكيف تعلمت إقامة شعائر الدين الجديد مع أنك لا تتقن العربية(1)؟

قال: للأسف لم أتعلم اللغة العربية بعد، ولكن قالوا لي ليس هناك مشـكلة الآن طالمـا أنك تصلي وتقف أمام الله بقلب سليم وتعرف كيف تصح صلاتك وعندما أقول (اللـه أكـبر) أحس أنني قريب من الله وصلاتي ستقبل كما أخبرني بذلك علمـاء من الأزهـر، وأن الأمـر يأتي خطوة خطـوة، وزملائي المسـلمون يصـلون بي دائمًـا، والفرصـة المتاحـة لي هي أن أتعلم العربية ممن حولي، فليس عندي وقت كثير فأنا أعمل من 12 إلى 16 ساعة يوميًـا، وبالنسبة لصيام شهر رمضان فلم تكن عندي مشكلة في الامتنـاع عن الطعـام فأنـا متعـود على ذلك في العمل، ولكن عانيت بعض الشيء أولاً، ثم اعتدت ــ بحمـد للـه ــ على ذلـك، وأنا أنوي الحج إلى بيت الله برفقة زوجتي [منى] التي ارتبطت بها بعد اعتناقي الإسلام.

قلت: هل ترى أي فروق بين الإسلام والمسيحية؟

قال: الإسلام منحني الأمان والسلام، وهو دين لم يتغـير ولم يتبـدل ولم يطـرأ عليـه أي

1) قد ذكرنا عدم اشتراط تعلم العربية لمن يريد الإسلام، بل يمكنه أداء شعائر الإسلام جميعا بلغته الأصلية.

تغيير، أما المسيحية، فقد حدث فيها تغيير وتحريف من قبل القساوسة والكهنة، فمنهم من يؤمن بأن عيسى عليه السلام هو الله، وهذا خطأ فعيسى هو عبد الله ورسوله، ونحن ـ المسلمين ـ نؤمن بجميع الرسالات، وأن المسيح هو رسول من رسل الله، ونؤمن بالدين الذي جاء به، وهنا يقف المسيحيون عند الإيمان بالمسيحية فقط، فلم يؤمنوا بأي شيء بعدها أما نحن فقد آمنا بمحمد ﷺ ودينه، وهذا هو الفرق.

قلت: ما الجديد في حياتكم إثر تحولكم إلى الإسلام؟

قال: منحني الإسلام شيئًا جديدًا وقوة وجعلني لا أخشى أحدًا إلا الله، بل أنا لا أهتم بأي مشكلة مهما كانت طالما أنها مشكلة دنيوية، ولا تتعلق بالآخرة، ولا تمس حياتنا بعد الموت، وهذا ما لاحظته في تعاملي مع بعض الزملاء، فمثلاً توفيت أختي الصغيرة بعد إسلامي بفترة، فتقبلت الأمر لأنه من الله، وعليّ أن أؤمن بالقضاء والقدر، ولو حدث ذلك قبل إسلامي لكان من الممكن أن أعترض وأتساءل لماذا يحدث ذلك.

قلت: هل طرأ تغير على تعامل المحيطين بك بعد اعتناقك الإسلام؟

قال: إن زملائي المسلمين سعدوا جدًا بإسلامي لدرجة الانبهار، وقالوا لي: (مبارك)، وهم يعاملونني جيدًا حتى قبل أن أسلم أو أخبرهم أنني أفكر في الإسلام، ومعاملتهم لي لم تجعلني أشهر إسلامي، ولكن جعلتني أفكر بإيجابية في اعتناق هذا الدين، وأعتقد أنه لو كانت سيئة ربما لم أعتنق الإسلام، لأنه طالما أن هؤلاء المسلمين معاملتهم سيئة وتصرفاتهم خاطئة، فلماذا أكون على دينهم؟

قلت: هل حاولت أن تدعو أحدًا من الشعب الأمريكي إلى الإسلام؟

قال: لقد تحدثت مع أصدقائي عن الإسلام والجديد فيه، ولكنني أعتقد أن المهم هو تصرفاتي وأفعالي، فهي أفضل دعوة صريحة للتأثير في الآخرين، وحثهم على تقليدي واعتناقهم الإسلام.

وللأسف هناك كثير من الناس، لا يعرفون أي شيء عن الإسلام ومعلوماتهم بشأنه تكاد تكن منعدمة حتى أن أصدقائي لم يستطيعوا أن يسألوني سؤالاً محددًا، فكانت استفساراتهم ما هو الإسلام؟ فهم لا يعرفون أن الإسلام دين يدعو للتسامح مع كل الأديان وأن سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والمشكلة تكمن في أن الغرب لا يعرف الكثير عن الإسلام، فالصلة التي تربطه بالشرق تتركز في النواحي السياسية.

قلت: من وجهة نظرك ما هي رؤية الأمريكيين للإسلام؟

قال: الناس في الولايات المتحدة يتقبلون الأديـان، ولـذلك تجـد مزيجًـا من الأديـان في دول الغرب، وليس هناك مشكلة أن تكون مسلمًا، ولكن للأسف هناك من يسيئون لصورة الإسلام.

د.مراد هوفمان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (مراد هوفمان)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم، وقد كان سـفير ألمانيـا في المغـرب وفي مصر، وقد نال شهادة دكتوراه في القانون من جامعة هارفرد.

وبعد إسلامه ابتـدأ د.هوفمـان مسـيرة التـأليف، ومن مؤلفاتـه: كتـاب (يوميـات مسـلم ألماني)، و(الإسلام عام ألفين) و(الطريق إلى مكة) وكتاب (الإسـلام كبـديل) الـذي أحـدث ضجة كبيرة في ألمانيا.

ولما أشهر إسلامه حاربته الصحافة الألمانية محاربة ضارية، وحتى أمه لما أرسـل إليهـا رسالة أشاحت عنها، وقالت: (ليبق عند العرب)

ولكن هوفمان لم يكترث بكـل هـذا، بـل قـال: (عنـدما تعرضـت لحملـة طعن وتجـريح شرسة في وسـائل الإعلام بسـبب إسـلامي، لم يسـتطع بعض أصـدقائي أن يفهمـوا عـدم اكتراثي بهذه الحملة، وكان يمكن لهم العثور على التفسير في هذه الآية: إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{ (الفاتحة:5)

وقد التقيته مرات عديدة حدثني خلالها عن سر إسـلامه.. وسـأعرض لـك بعض مـا دار بيننا لتعلم سر انجذاب مثله إلى الإسلام(1).

لقد ذكر لي في أول لقاء لي به أن الله تعالى بكرمه وفضله من عليه بأن يعيش ثلاثـة أحداث كبرى كان لها تأثيرها الكبير في توجيهه للإسلام، وهي ذات طبيعة انسانية، وجماليـة فنية، وفلسفية.

أما الحدث الأول فيرتبط بالجزائر، قال: في أثناء عملي بالجزائر في عامي 61/1962، عايشـت فـترة من حـرب اسـتمرت ثمـاني سـنوات بين قـوات الاحتلال الفرنسـي وجبهـة التحرير الوطني الجزائرية، وانضم اثناء فترة وجودي هناك طرف ثالث هو (منظمة الجيش السري)، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مسـتوطنين وجنـودا متمـردين، ولم يكن يـوم

1) انظر كتابه (الطريق الى مكة)

يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر.

وغالبا ما كانوا يقتلون رميا بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة، ولم يكن لذلك من سبب، إلا كونهم عربا، أو لأنهم مع استقلال الجزائر(1)، وكنت عند سماعي صوت سلاح آلي، أتصل تليفونيا بزوجتي الاميركية لتسرع إلى شراء ما تحتاج اليه، لان الهجوم التالي في المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة.

وكانت أنبل مهماتي هي إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الالمان الفارين الى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية، وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل، منذ فر قائد قوات المظلات في العام السابق. وكم كان الموت يجذبهم! وكانت منظمة الجيش السري قد جندت عددا منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز). ومن ثم وجدوا انفسهم بين نارين. كما أن فرص نجاتهم من الموت كانت ضئيلة جدا. وكنت، بصفتي ممثلا للقنصلية العامة الالمانية، أضع الزهور على قبور الكثير منهم.

كنت، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى في المستشفيات، أحمل سلاحي معدا للاستخدام. وكنت أدقق النظر في وجه من يقابلني، بل وفي يديه. وعندما كانت القامات تتقابل، كان كل شخص يبتعد عن الآخر عائدا الى الخلف، طلبا للامان، وفي بعض الأحيان كانت زوجتي المذعورة تصر على حماية ظهري، فكانت تسير خلفي على مسافة عدة خطوات حاملة في كم ثوبها سكينا حادة.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: ما تزال بعض ذكريات تلك الايام تثير كآبة في نفسي حتى الآن، فعندما كنت في طريقي إلى مقر إذاعة فرنسا 5، حيث كان من المقرر أن ألقي، تنفيذا لتكليف من القنصل العام، محاضرة عن (وضع الرقص المسرحي) في ألمانيا، تعطلت مضخة البنزين في سيارتي في شارع ايزلي الضيق، كثير المنحنيات، وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتي، مطلقة اصوات النفير، وفي تلك الاثناء، كان امامي رجل يعبر الشارع، واطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل، فسقط جريحا أمام رفرف سيارتي الايسر، واذا بالمهاجم يشير لي بسلاحه آمرا ان اواصل سيري، كي اخلي ساحة اطلاق الرصاص.

ولم اكن ارغب في ذلك، بل ولم اكن استطيعه ايضا، وأخيرا، تقدم الشخص الذي يحمل السلاح من الرجل المصاب وأطلق عليه رصاصة اخرى أردته قتيلا، ثم اختفى في زحام البشر في تؤدة وعلى مهل، ولقد استأت كثيرا ايضا، عندما رأيت مضطرا اعضاء منظمة الجيش السري، وهم يشعلون النار في سيارات شحنوها سلفا ببراميل من الوقود،

---

1) اهتممنا بسياق هذا الكلام هنا بحروفه لنبين من هو الأسبق للإرهاب، أو من علم الإرهابين ما يمارسونه من أساليب الإرهاب التي يبرأ منها الإسلام.

ويدفعونها من فوق منحدر الى حي يسكنه العرب، ولا بد للمرء من ان يتوقع ان يكون على قائمة القتلى، اذا ما اصبح شاهدا غير مرغوب فيه.

وكان حلاقي في الابيار يدرك ذلك جيدا، فحين هاجمت قوات (منظمة الجيش السري) مكتب التلغراف المقابل لمحله في شارع جاليني، ادار مقعده حتى لا يكون شاهدا على ما يجري. ولم يكن تصرفه اقل غرابة من تصرف احد افراد الشرطة الذي عرض عليّ في مايو (ايار) عام 1962 ان يحرس سيارتي، بينما كانت النيران مشتعلة خلف ظهره في مكتبه بالابيار.

عندما توصل الرئيس الفرنسي شارل ديجول، في ايفيان في مارس (اذار) عام 1962، الى اتفاق مع الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطني الجزائري على وقف اطلاق النار في يوليو (تموز) التالي، صعدت منظمة الجيش السري من اعمالها الارهابية، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق، فبدأ أفرادها في تصفية النشء الاكاديمي الجزائري، وراحوا يقتلون، رميا بالرصاص، النساء اللاتي يرتدين الحجاب.

وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قلائل، اطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائري جائل في الابيار، فأردوه قتيلا أمام مكتبي مباشرة، وكان هذا البائع قد عاش ينادي على أسماكه منذ عقود طويلة، دون أن يلحق أذى بأي إنسان كائنا من كان، وفي الشارع الذي كنت اقطنه، كان جيراني من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المنتصرين بكل ما لا يبخلون به.

قلت: فقد عرفت المسلمين إذن انطلاقا من هذه المشاهد المأساوية؟

قال: أجل.. لقد شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قرب بالاسلام المعيش، وقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الانساني، وسط ما يعانون من آلام. وكنت ادرك ان لدينهم دورا في كل هذا.

ولقد أدركت إنسانيتهم في أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للاجهاض تحت تأثير الاحداث الجارية آنذاك، فقد بدأت تنزف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الاسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحا، بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار (القتل دون سابق انذار) المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، ادركت وانا اطل من نافذة مسكني في الطابق الرابع، ان سيارة الاسعاف لا تستطيع العثور علينا، لان منظمة الجيش السري كانت قد غيرت في تلك الليلة اسماء كل شوارع الحي الذي اقطنه، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع (سالان) وشارع (يهود) وشارع (منظمة الجيش السري)

بعد تأخير طال كثيرا، كنا في طريقنا متجهين الى عيادة الدكتور شمعون (قبل ان تنسفها منظمة الجيش السري بوقت قصير)، حيث صادفنا حاجزا أقامته الجمعية الجمهورية للامن، وعلى الرغم من صفير البوق الذي كان السائق يطلقه، فانه لم يكن باستطاعته ان يشق طريقه الا ببطء شديد، وكانت زوجتي تعتقد، في تلك الاثناء، انها ستفقد وعيها. ولذا، وتحسبا للطوارئ، راحت تخبرني ان فصيلة دمها هي O سالب. وكان السائق الجزائري يسمع حديثها، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من نفس فصيلة دمها. ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه.

ولكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الاصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ كتابهم (القرآن) في ترجمته الفرنسية لــPesle/Tidjani. ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين، حتى الآن، وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن الا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في ميزاب جنوب الجزائر، حيث يحفظه اطفال البربر، ويتلونه في لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيرا. وفيما بعد ادركت ان حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة.

وقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين، عندما حدثته في بار فندق ترانس ميدترانيان في غرداية، عن قراءتي للقرآن، اذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح، وجود ترجمات له، واعتبر محاولة ترجمة كلام الله الى لغة اخرى بمثابة تجديف.

ولم استغرق وقتا طويلا قبل ان استوعب رد فعله. فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه. فالمفردات التي تشير الى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على امر حدث في الماضي ايضا. ناهيك عن ان اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي ان يفهمه تلميحا. وبغض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن ذات المعنى في لغتين لا تتطابق في ما يختص بتداعي الخواطر الا نادرا. ومن ثم، فان كل ترجمة للقرآن ان هي الا تفسير يفقر المعنى ويجرده من مضمونه. وهكذا كان الرجل في البار على حق.

لم تشأ هذه الجزائر، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني لحالي، وانما تبعتني كالقدر، فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر، في عام 1966، كان عليّ أن أعمل من السفارة الالمانية في برن على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية. وكان البريد المرسل من بون الى الجزائر، يمر من خلالي اسبوعيا.

وبعد 25 عاما من عملي بالجزائر لأول مرة، عدت اليها سفيرا في عام 1987، ومنذ اعتمدت سفيرا في المغرب، المجاور للجزائر، في عام 1990، يندر أن تفارق مخيلتي صورة الجزائر التي ما تزال تعاني آلاما مأساوية، فهل يمكن ان يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

قلت: فحدثني عن الجانب الثاني الذي تعرفت من خلاله على الإسلام، وهو الجانب الجمالي الفني.

قال: لذلك قصة.. وهي تتلخص في أنني كنت منذ صباي معجبا بالجانب الشكلي للجمال، وأرغب في الغوص في أعماقه حتى عندما كانت حماتي الاميركية تقول ـ استنادا الى المنهج البيوريتاني ـ إن الجمال مجرد أمر سطحي، وانه ليس الا خداعا على السطح.

وعندما تلقيت في عام 1951 الدفعة الاولى من منحة التفوق، التي تمنحها وزارة الثقافة في بافاريا للموهبين جدا، دفعتها بأكملها ثمنا لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان (الفتاة وثمار المانجو)، وبما أنني لم اكن ممن يقطنون حي Maximilianeum الواقع على اليمين من نهر ايزار، وانما كنت اقيم في المستوطنات السكنية للثوريين الديمقراطيين، عند ميدان ماسمان، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها، فقد نقلت لوحة جوجان التي اشتريتها الى مسكني هناك، ورحت أحللها، ولم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن ـ الرسم والنحت والعمارة والخط والاعمال الفنية الصغيرة ـ مدين بالفضل في تأثيره الجمالي للحركة المجمدة، ومن ثم، فانه مشتق من الرقص. ولذلك، يزداد احساسنا بجمال الفن التشكيلي كلما ازدادت قدرته على الايحاء بالحركة. وهذا ما يفسر انبهاري الشديد بالرقص الذي دفعني الى مشاهدة عروض الباليه كافة في مسرح برينزرجنتن في ميونخ، ومنذ ذلك الحين ازداد اهتمامي بالرقص، واتسع ليشمل كل ما يتصل به. وكنت اقضي كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة في صالات عروض الباليه، بالقرب من قصر العدل، وحصلت على تمارين للباليه، لكي أتعلم ـ ولو على نحو متخلف ـ رقص الباليه الكلاسيكي، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه.

وكعاشق للباليه، ذلك الفن المجرد الذي يجسد الموسيقى، كنت في الواقع أبحث عن الأسباب التي ترغمنا على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها. ولهذا السبب، كنت أقبع لأسابيع طويلة في احدى الغابات البافارية باحثا في أسس علم جمال الحركة.

وهناك تبين لي أننا كبشر لا نملك إلا أن نحس جمال الجسد البشري الصحيح وما يتطابق مع مقاييسه. وهو ما ينطبق ايضا علينا كمحللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع.

يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور في ذات الاتجـاه الـذي نكتب فيـه، وتـبين لي أخـيرا أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من مخاطر. وتبين لي آخـرا أننا نعجب بحركات الطرد المركزي، لاننا نستطيع ان نتخيلها ممتدة في ما لا نهاية.

عبر هذا الطريق، صار الفن الاسلامي بالنسبة لي تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة، ألا يماثل في سكونه تماما ما أسـعدني في حركـات الباليـه، التجريديـة: القـدرة الانسـانية، والحركة الداخلية، والامتداد في ما لا نهاية؟ وذلك كله في اطار الروحانيـة الـتي يتسـم بهـا الاسلام.

وألهمتني أعمـال معماريـة، مثـل الحمـراء في غرناطـة والمسـجد الكبـير في قرطبـة، اليقين بأنها افراز حضارة راقية رفيعة. واستوعبت جيدا ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارتـه لكاتدرائية قرطبة، اذ كتب: (تملكني منذ زيارة قرطبة عداء وحشي للمسـيحية، إنـني اقـرأ القرآن وهو يتجسد لي صوتا يستوعبني بقوة طاغية، واندفع بداخلـه كمـا تنـدفع الـريح في الارغن)

وصار الفن الاسلامي لي وطنا جماليا، مثلما كان الباليه الكلاسيكي من قبـل، وأصـبحت ارى الاعمال الفنية للعصور: الاغـريقي والرومـاني والقـوطي، ولعصـر النهضـة والروكوكـو مثيرة، وعريقة، واصيلة، بل وعبقريـة، ولكنهـا لا تنفـذ الى داخلي، ولا تحـرك عـواطفي ولا مشاعري.

سكت قليلا، ثم قال: إنني أدرك قـوة جاذبيـة فن هـذا الـدين الآن افضـل من ذي قبـل، حيث انني محاط في المنزل الآن بفن تجريدي، ومن ثم بفن اسلامي فقط. وأدركهـا أيضـا عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزا عن مجرد تعريف الفن الاسـلامي. ويبـدو أن سـره يكمن في حضور الاسلام في حميمية شديدة في كـل مظـاهر هـذا الفن، كمـا في الخـط، والارابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المسـاجد والمنـازل والمـدن. إنـني أفكـر كثـيرا في أسرار إضاءة المساجد وفي بنائها الديمقراطي، وفي بناء القصور الاسـلامية، الـذي يـوحي بحركة متجهة الى الـداخل، بحـدائقها الموحيـة بالجنـة بظلالهـا الوارفـة وينابيعهـا ومجاريهـا المائية، وفي الهيكل الاجتماعي ـ الوظيفي المبهر للمدن الاسلامية القديمة (المدينة) الـذي يهتم بالمعيشة المتجاورة تماما كما يهتم بابراز موقع السوق وبالمواءمة او التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل في منطقة السـوق ومنطقـة السـكن. وان من يعـرف واحـدا من هـذه الاسـواق ــ وليكن في دمشـق، او اسـطنبول او القـاهرة او تـونس او فـاس ــ يعـرف الجميـع، فهي جميعـا، كـبرت ام صـغرت، منظمـات اسلامية من ذات الطراز الوظيفي. فما اكثر ما تجولت في سـوق مدينـة سـالي المؤاخيـة للرباط لكي استعيد حيويتي، إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل انسان مكانا لـه، شـيخا

كان ام شابا، صحيحا كان ام مريضاَ، فقيرا ام غنيا، ابيض ام اسود، ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق وقت، ولا مبالغة في تقييم الذات، ولا خمور ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياج ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية، وكل عملية شراء ترتبط بـ (دردشة)، وحيث تغلق الحوانيت ابوابها وقت الصلاة.

كان ما احسست منذ البداية أنه إسلامي وباعث على السعادة هو في واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامي، وللإحساس بالحياة والمكان الاسلاميين على العقل والروح. وهذا ما احسست به في متحف جولبينكيان الاسلامي في لشبونة، مثلما أحسست به في المسجد الاموي بدمشق، وفي مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفي مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمي في درنة.

وقبل أن يقودني الدرب الفلسفي إلى الاسلام، الذي قادني بدوره الى تجربة اساسية ثالثة في حياتي، كنت قد حصلت، وانا بعد في سن المراهقة في مدينة اشفنبرج، على قسط وافر من التعليم الجيزويتي، من خلال عضويتي لجمعية Congregatio Mariana وهي المقابل لحركة (المانيا الجديدة) المتمركزة في الشمال.

ويعود ارتباطنا، بل تعلقنا الرومانسي، بهذه المنظمة إلى فترة حكم النازي، وذلك لان الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سرا. ولم يكن حتى ابي المشتت الفكر يعلم بعضويتي لهذه المنظمة. وكنا نجتمع أسبوعيا مع أحد القساوسة الجيزويت في احدى المقابر، في ظل اجراءات أمنية مشددة. فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب. ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية. وقطعنا بذلك الطريق على منظمة (شبيبة هتلر)، أي أننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازي، ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب 80 فردا، بعد أن انقضت الحرب، عدنا الى الاستمتاع بحياة واساليب منظمات الشباب التي كانت سائدة في عشرينات هذا القرن.

ونظرا لما سبق ذكره، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية، وبأدق شؤونها من الداخل، ولكنني في الوقت ذاته، كنت قد بدأت اضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك. كنت أنا وCarl Jacob Burckherdt نتساءل دوما عما اذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الاديان مسيحيي الديانة.

وبالرغم من اعجابي بفلسفة Ludwig Wittgenstein فإني كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفي وجود الله، وكنت شديد التمسك بالرأي القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفي وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة

ويقين الفرد، وقد حسمت هذا باعتقادي في وجود الله.

وبعد ذلك، ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله الانسان، وقد كنت شديد الاقتناع بامكانية، بل قل بضرورة، تدخل الله وتسييره لمجريات الامور.

ويرتكز اقتناعي هذا على دراستي ودرايتي بتاريخ الانسانية والعلوم والحق، التي استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة علاقتنا ببيئتنا وبالله. ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها ان الحقائق العلمية يغير بعضها بعضا بسرعة شديدة؟! كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقيني بامكانية، بل بضرورة، الوحي والدين، ولكن اي دين؟ واي عقيدة؟ هل هي اليهودية، او المسيحية او الاسلام !؟

وهنا تداركني الله بلطفه، فجاءتني الإجابة من خلال تجربتي الثالثة التي تتلخص في قراءتي المتكررة للآية 38 من سورة النجم: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾(لنجم:38)، ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد في المسيحية مأخذ الجد، لانه يدعو في ظاهر الامر إلى النقيض. ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ اخلاقي، وانما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساسا وجوهرا لفكر ديني، هما:

1 ـ انها تنفي وتنكر وراثة الخطيئة.

2 ـ انها تستبعد، بل وتلغي تماما، إمكانية تدخل فرد بين الانسان وربه، وتحمل الوزر عنه.

وهذه المقولة الثانية تهدد، بل وتنسف مكانة القساوسة وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذي يرتكز على وساطتهم بين الانسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم. والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية.

أما نفي وراثة الخطيئة وذنوب البشر، فقد شكل لي أهمية قصوى، لانه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: ضرورة الخلاص، التجسيد، الثالوث، والموت على سبيل التضحية. وبدا لي ان تصور فشل الله في خلقه، وعدم قدرته على تغيير ذلك الا بانجاب ابن والتضحية به ـ أي أن الله يتعذب من أجل الإنسانية ـ أمر فظيع ومروع، بل وتجديف وإهانة بالغة.

وبدت لي المسيحية وكأنها تعود لترتكز في أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة، وتبين لي جليا الدور الخطير والشرير الذي لعبه بولس الرسول.. لقد قام بولس، والذي لم

يعرف المسيح ابدا ولم يصاحبه في حياته، بتغيير بل وبتزوير التعاليم اليهودية ــ المسيحية والتي ترى في المسيح أحد رسل الله وأنبيائه. وتيقنت ان المجلس الملي، الذي انعقد في نيقيا (عام 325)، قد ضل طريقه تماما، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الاصلية، عندما اعلن ان المسيح هو الله، واليوم، اي بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرنا، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة.

ومجمل القول انني بدأت انظر الى الاسلام كما هو، بوصفه العقيدة الاساسية الحقة التي لم تتعرض لأي تشويه او تزوير.. عقيدة تؤمن بالله الواحد الاحد الذي:﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾(الاخلاص)

رأيت في الإسلام عقيدة التوحيد الاولى، التي لم تتعرض لما في اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الاولى، عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار، كما أنها لا تؤله أحد انبياء اليهود.

لقد وجدت في الاسلام أصفى وأبسط تصور لله، تصور تقدمي، ولقد بدت لي مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الاخلاقية منطقية جدا حتى أنه لم تعد تساورني أدنى شكوك في نبوة محمد.

ولقد سمعت مرارا قبل اعتناقي الاسلام مقولة أن التحول من دين الى دين آخر ليس له أي أهمية، حيث أن الاديان كلها تؤمن في آخر الامر بإله واحد، وتدعو الى الاخلاقيات والقيم ذاتها، وأن السلوكيات والاخلاق الحميدة، بالاضافة الى الايمان بالله في قلب الانسان، وان يتوجه الانسان الى الله سرا، لأهم من الصلاة خمسا، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج، كم من مرة اضطررت الى الاستماع الى هذه المقولات من مسلمين أتراك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك.

إن إلها خاصا سريا ليس بإله، وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية، اذا ما تيقنت ان الله يتحدث الينا في قرآنه. ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفرا من ان يكون مسلما بأعمق معاني هذه الكلمة.

سكت قليلا يسترجع أفكاره التي ربطته بالإسلام.. ثم قال: لقد كنت قريبا من الاسلام بأفكاري قبل أن اشهر إسلامي في عام 1980، بنطق الشهادتين متطهرا كما ينبغي، وإن لم اكن مهتما حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية.

لقد كنت مسلما من الناحية الفكرية او الذهنية، ولكني لم اكن كذلك بعد من الناحية

العملية، وهذا على وجه اليقين ما يتحتم ان يتغير الآن جذريا. فلا ينبغي ان اكون مسلما في تفكيري فقط، وانما لا بد أن اصير مسلما أيضا في سلوكياتي.

اذا كان الدين يعني رباطا يربط الانسان بربه، واذا كان الاسلام يعـني أن يهب المسـلم نفسه لله، فقـد كـانت أهم واجبـاتي، كمسـلم حـديث عهـد بالاسـلام، في الخمسـينات من العمر، أن أتعلم صلاة الاسلام. وليس من الضـروري ان يكـون المـرء خبـيرا في الحاسـب الآلي ليدرك أن الامر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟

ومن المؤكد، على اي حال، انه لا شيء يعرض إسلام المـرء للخطـر اكـثر من انقطـاع صلته بربه، من ثم يصبح التسبيح بحمد اللـه هـو العنصـر المحـوري في حيـاة كـل من يعي ويدرك معنى ما يقوله، عندما يقول انه يؤمن بالله.

وبناء على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من وجهة نظـري(1)، فمن يؤكـد لامـرأة غائبة حبه لها، دون ان تكون لديه رغبة في التحدث اليها تليفونيا أو في الكتابـة اليهـا، ودون ان يلقي نظرة واحدة على صورتها طوال اليوم، ليس محبا لها في حقيقة الامر.

وهذا ما ينطبق تماما على الصلاة، فمن يعي ويدرك حقا المعـنى الحقيقي لوجـود اللـه، ستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه الى الله كثيرا. وبذلك فقط، يصـير مـا يردده المسلم كثـيرا وهـو يقـرأ سـورة الفاتحـة:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ ﴾ (الفاتحـة:5) حقيقة واقعة.

وكنت حتى تلك اللحظات أجهل ما يجب فعله واتباعـه في الصـلاة. ناهيـك عن قـدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربيـة، ومن ثم كـانت أولى أولويـاتي آنـذاك هي التغلب على هذا النقص. وقبل أن امعن في دراسة مقدمة مصـورة باللغـة الالمانيـة للصـلاة الاسـلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة، طلبت من صديق تـركي أن يعلمـني الوضـوء وكيفيـة الوقـوف في الصلاة، والركوع والسجود، والجلوس على الأرض مستندا على القـدم اليسـرى، ورفـع الذراعين، واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهرا، ومتى يقرأ سرا مـع تحريـك الشـفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفا صحيحا خلف الامام، وكيـف يتصـرف المـرء عنـدما يـأتي متأخرا الى المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد، إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنــه من الخطر أن يتصرف المسلم كمسلم دون أن يكون كذلك.

وتبدأ الصلاة الاسلامية، وإن بدا ذلك امرا غريبـا، في الحمـام أو عنـد مصـدر الميـاه في الفناء الامامي للمسجد بالوضوء، وينبغي تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله، وكيـف يغسـل

---

1) بل هو كذلك من حيث الأدلة الشرعية، فالكثير منها يعتبر الصلاة مظهرا لا يستغنى عنـه لإثبـات الإيمـان، وقـد ورد في الحديث الصحيح (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها، فقد كفر)

المرء اليدين، وكيف يمسح الرأس، وكيف يتأكد من غسل الكعبين، كل شيء وضع وحدد على نحو دقيق تماما. وحينما ينوي المرء الصلاة ويرفع اليدين الى الرأس مكبرا مفتتحا الصلاة، فانه ينفصل تماما عن مشاغل حياته اليومية، مما يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له.

وينبغي أن يتعلم المرء ايضا عدد الركعات في كل من الصلوات الخمس: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وان يعرف مواقيتها، وما ينبغي على المسافر ان يراعيه من احكام الصلاة.

وتعلمت أخيرا كيفية الوقوف في صلاة الجماعة، حيث ينبغي ان يصطف المسلمون في صف مستقيم تتلاصق فيه الاقدام وتسد الفرج، وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لي اكثر من مجرد ضم صفوف. انه يرمز الى التضامن على نحو يؤثر فيّ مجددا كل مرة. ويتجدد هذا التضامن في نهاية كل صلاة مع تحية (السلام عليكم) التي ينطقها المصلي وهو يلتفت يمينا ثم يسارا، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه اعلانا عن انتهاء الصلاة، وبعدها يمد يديه الى جاره في الصلاة مصافحا ومتمنيا أن يتقبل الله صلاته (تقبل الله صلاتك)

وروى لي عبد الوهاب عبادة، السكرتير العام لوزارة الخارجية الجزائرية أنه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلا، فقد بدا له انه من الاقرب الى المنطق ان يقول (السلام عليك)، وكانت نتيجة ذلك انه تلقى تأنيبا من والده الذي علمه أن المسلم يقول دائما: (السلام عليكم)، لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية، تشمل الملائكة وتشمل الصراصير.

قلت: لقد كنت أسمع بحبك للخمر، وهو شيء طبيعي بين قومنا وأهل بلدنا، فكيف استطعت أن تتخلص منها، أو كيف لم تقف الخمر حجابا بينك وبين الإسلام؟

قال: لقد ظننت في بادئ الأمر انني لن استطيع النوم جيدا دون جرعة من الخمر في دمي، ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماما، فنظرا لأن جسمي لم يعد بحاجة الى التخلص من الكحول، أصبح نبضي أثناء نومي اهدأ من ذي قبل.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: كنت في جاهليتي الشخصية قبل اعتناقي الاسلام خبيرا بالخمور حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لساني.

لقد وجدت مع ذلك ان التحريم القرآني للخمر والمخدرات ليس ضرورة اجتماعية فحسب، وانما هو ايضا منفعة شخصية للفرد، اذ يمكنه ان يكون متيقظا صافي الذهن دائما، ومن ثم، انهيت هذه المرحلة من حياتي مرة واحدة، وإلى الابد، فان الانسان، بفضل

قدرته على التفكير وإعمال عقله، يفاخر بأنه اعظم المخلوقات. فنحن البشـر نسـتطيع ان نمعن التفكير في العالم من حولنا وفي احوالنا، وان نتصرف بحكمة، وهـذه الصـفات الـتي ترقى بنا، هي ذات الصفات التي نـدمرها على نحـو منتظم بتعـاطي الخمـور والمخـدرات، ونحن بذلك نمتهن انفسنا ونحط من قدرتنا داخل المنظومـة الكونيـة، وننحـدر بالتـالي الى مكانة ادنى من مكانة الحيوانات، الـتي لا يغيب عنهـا وعيهـا ابـدا. فادمـان تعـاطي الخمـور والمخدرات نوع من التشويه الذهني الذاتي. وكانت مديرة منزلي الصربية في بلغراد مثـالا منذرا لي، اذ كانت تعود دائما الى ادمان الخمر، حتى بعد علاج لفترات طويلة.

إن مشـهد مـدمني تعـاطي الخمـر مشـهد مهين، يبعث على الاكتئـاب، ويثـير الشـفقة، وكثـيرا مـا يقـدم هـؤلاء على الانتحـار، وهم يعلمـون حقيقـة حـالهم، ولكنهم لا يسـتطيعون الرجوع عما هم فيه، لان الخمر سلبتهم العزيمـة والارادة والقـدرة على اتخـاذ القـرار. من النادر ان تجد عدد مدمني الخمر في المجتمع الاحدث في المدن التركية الكبـيرة أقـل من عددهم في المانيا. فهم يمسكون ـ من وقت الظهيرة ـ بكأس الراكيا في يـد، وبالسـيجارة في اليـد الاخـرى، مبرهـنين بـذلك على انهم لم يعـودوا سـادة انفسـهم، وهم من الناحيـة الدينية، يمارسون بذلك نوعا من الشرك بالله، لأن الخمر ونيكوتين الدخان اهم عندهم من كل ما عداهما في العالم بمن في ذلك ربهم الـذي خلقهم. فهم يسـتطيعون ــ في ظنهم ــ ان يعيشوا بدونه، ولكن ليس بدون الراكيا.

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر الى منع البدء في تعاطيها، حيث لا يبـدو ضارا في حالة احتساء كأس واحدة. فالكأس الواحدة لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما ان تصبح كؤوسا عديدة، ومن المعتاد الا يرى المدمن انه معرض للخطر، وان يقـدم ما لا حصر له من الاعذار والحجج لتبرير اعتياده التدخين او احتساء الخمر، في هذا الـوقت بصفة خاصة، ومن ذلك كون المدمنين سعداء او تعسـاء، يعـانون من ضـغط العمـل او في اجازة منه، جماعة او فرادى، مرضى او اصحاء، جوعى او شبعى.

لقد واجهت كرئيس مسؤول هذه المشكلة، فكنت، عندما انبه احد العاملين معي حـتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد، كنت اعد معتديا على حقه في ان يعبر عن شخصيته بحرية (وواجه بذلك مشكلة مع مستشـار شـؤون العـاملين). ومـع ذلـك، كـان مستشـار شـؤون العاملين نفسه يستطيع ان يتأكد في اليوم التالي ان الموظف المعني صار في واقع الامـر مدمنا للخمر. ومن ثم، فانه يعد رسميا من هذه اللحظة مريضا بادمان الخمر.

قلت: ألا ترى تحريم الخمر سببا حائلا بين قومنا، وبين الإسلام؟

قال: هذا صحيح.. فالألماني قد ينادي بحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ولكنـه من

الصعب أن يتنازل عن الخمر.

قلت: ألا ترى الإسلام قاسيا بهذا النوع من التشريع؟.. أو أنه لم يلاحظ في هذا التشريع خصوصيات المناطق المختلفة التي قد تستدعي القول بإباحة الخمر؟

قال: إن ما تطرحه خطير جدا.. فالخمر هي الخمر.. فما يزال النساء والاطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر.. بل تسقط الطائرات اليوم تحت تأثيره، وقد تسبب قائد احدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع اسوأ كارثة بيئية حتى الآن.

وعلى الرغم من توفر احصاءات عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فانه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التي تصيب المجتمع الغربي بسبب ادمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية، تتجاور أقسام علاج الادمان واقسام علاج الامراض العقلية، لما ينطوي عليه ذلك من انذار، ان عاجلا او آجلا، هذا اذا ما دمر العقل قبل ان يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحدا من ضحايا حوادث المرور التي تقع تحت تأثير الخمر، ففي نهاية عام دراسي في كلية الاتحاد بشينيكتادي بولاية نيويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة الاميركية بطريقة الاوتوستوب (اي ايقاف السيارات والانتقال بها مجانا من موقع الى آخر). وفي اثناء هذه الجولة، تعرضت يوم 28 من يوليو (تموز) عام 1951 لحادث سيئ بالقرب من هول سبرنجز بولاية مسيسيبي، فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من اتلانتا بولاية جورجيا الى ممفيس في ولاية مسيسيبي، ظهر امامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح، ولا اتذكر شيئا عما حدث بعد ذلك. ولكني علمت في ما بعد ان هذا الشبح لم يكن سوى سيارة اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسيا كميات كبيرة من الخمر في تنيسي، التي تسمح باحتسائه اثناء القيادة، قبل ان يتوجها الى مسيسيبي التي تمنع احتساءه اثناءها.

وقد تبين لي بوضوح أن ذراعي المصابة الآن، والتي كنت اضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتني مما هو أكثر، ومع ذلك، كانت خسارتي في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقني وشفتي السفلى، سألني قائلا: إنه من الممكن إصلاح وجهي بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل، وأضاف قائلا: (إن مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدخر لك يا عزيزي شيئا خاصا جدا)

وقد كنت أفكر في هذا الامر، وانا اتجول في هول سبرنجز بذراع مربوطة وضمادة تحيط بالذقن وفم مخيط، وكنت أفكر في ما أرفه به عن نفسي في يوم عيد ميلادي العشرين، ولكن كل شيء كان يؤلمني.. تناول الطعام او الشراب، او التنزه، او الاجابة عن

الاسئلة، وأخيرا ذهبت لأقص شعري، فهذا على الاقل لا يـؤلم، ولم أدرك المغـزى الحقيقي لنجاتي وبقائي على قيد الحياة الا بعد ثلاثين سنة، عندما اشهرت اعتناقي للاسلام.

مالكولم إكس:

من الأسـماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (مـالكولم إكس)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد كان هـذا الرجـل زعيم الملـوّنين الأمريكـيين، وكـان يُلقَّب قبل إسـلامه بالشـيطان و(أحمـر دويـترويت) إذ كـان زعيمـا عنصـريا متطرفـا في عداوتـه للبيض، ولكنه عدل عن هذا النهج بعد إسلامه.

قلت: فهل التقيته؟

قال: لا.. لم أتشرف بلقائه، ولكني ـ عندما كنت في أمريكا ـ قرأت رسالة له كانت أهم عندي وأعظم أثرا من أي لقاء.

قلت: فما كتب في تلك الرسالة؟

قال: بعد رحلته للحج أرسل إلى أتباعه من مكة رسالة يقول فيها: (ما رأيت قط كرمـاً أصيلاً، ولا روحاً غامرة من الأخوة كهذه التي تسود هنا بين الناس من كل لـون وجنس، في هذه الأرض المقدسة، وطن إبراهيم ومحمد ... فها هنا عشرات الألوف من الحجـاج قـدموا من كل أنحاء العالم، ليؤدّوا المناسـك نفسـها بـروح من الوحـدة والأخـوة، مـا كنت أظن – بحكم خبراتي في أمريكا – أنها يمكن أن تنشأ بين البيض والسود ...

وإن أمريكا في حاجة إلى أن تفهم الإسلام، لأنه هو الدين الوحيد الـذي يمكن أن يمحـو المشكلة العنصرية في مجتمعها ... لقد تقابلت مع مسلمين بيض وتحدثت معهم، بل تناولت الطعام معهم!ولكن النزعة العنصرية محاها من أذهانهم دين الإسلام..

إننا هنا نصلي لإله واحد، مع أخوة مسلمين لهم أعين زرقاء كأصفى مـا تكـون الزرقـة، ولهم بشرة بيضاء كأنصع ما يكون البياض)

اللورد هدلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (اللورد هـدلي)، فسـألت الغـريب عنـه، فقـال: هـذا الرجـل سـليل الأسـرة المالكـة في بريطانيـا، وهـو من أغـنى البريطانيين، ومن أرفعهم حسبا، درس الهندسة في كامبردج، وقـد أسـلم وأصـدر مجلـة (The Islamic renew)، وأصدر كتاب (إيقـاظ العـرب للإسـلام)وكتـاب (رجـل غـربي يصـحو فيعتنق الإسلام)، وقد تسمى بعد إسلامه باسم (رحمة الله فاروق)

قلت: فحدثني عنه.

قال: سأحدثك بما حدثني به بعض من لقيه وعرفه خير معرفة، فقد ذكر لي أنه رغم مولده في بيت مسيحي عريق، لم يشعر يوماً في قرارة نفسه بإيمان صادق نحو المسيحية، بل طالما راودته الشكوك في صحة التعاليم التي تروج لها الكنيسة، والطقوس التي يمارسها آباء الكنيسة في صلواتهم وأقداسهم، وطالما توقف بفكره عن أسرار الكنيسة السبعة.

إذ لم يستطع ـ وهو المثقف الواعي ـ أن يهضم فكرة أكل جسد المسيح أو شرب دمه، ولم يقتنع بفكرة الفداء التي هي من أسس عقيدة الكنيسة...

وشاء قَدَرُ الله أن يسافر إلى منطقة كشمير التي يدين أهلها بالإسلام، وذلك من أجل مشروعات هندسية، حيث كان يعمل ضابطاً في الجيش البريطاني ومهندساً...

وهناك أهدى إليه صديق ضابط بالجيش نسخة من المصحف الشريف حين لمس انبهاره بسلوكيات المسلمين، وكان هذا الإهداء بداية تعرفه الحقيقي على الإسلام، إذْ وجد في كتاب الله ما يوافق طبيعة نفسه ويلائم روحه...

لقد وجد أن مفهوم الألوهية ــ كما جاء في القرآن الكريم ــ يتوافق مع المنطق والفطرة، ويتميز ببساطة شديدة، كما لمس في الدين الإسلامي سمة التسامح، وهي السمة التي لم ير لها وجوداً بين أهله من النصارى الذين عُرِفُوا بتعصبهم ضد الديانات الأخرى، بل ضد بعضهم بعضاً، فالكاثوليك يتعصبون ضد البروتستانت، وهؤلاء بدورهم يتعصبون ضد الأرثوذكس، الذين لا يقلون عن الطائفتين السابقتين تعصباً ضدهما، فكل فريق يزعم أن مذهبه هو الحق وما عداه باطل، ويسوق في سبيل ذلك من الحجج أسفاراً يناقض بعضُها بعضاً.

ولم يكن بوسع اللورد هدلي إلا أن يميل للإسلام بعد اطلاعه على ترجمة معاني القرآن الكريم، وما قرأه عن العقيدة الإسلامية، وأبطال الإسلام الأوائل الذين استطاعوا أن يصيروا أعظم قواد العالم، وبقوة عقيدتهم أسسوا حضارة عظيمة ازدهرت لقرون طويلة، في وقت كانت أوربُا ترزح تحت وطأة الجهل وطُغيان البابوات والكرادلة.

كما وجد اللورد هدلي في الشريعة الإسلامية وسيرة الرسول محمد ﷺ وصحابته ومن تلاهم من التابعين القدوة الحسنة التي تروّى روحه العطشى للحق.

وبرغم اقتناع اللورد هدلي بالإسلام فقد ظل قرابة عشرين عاماً يكتم إسلامه لأسباب

عائلية، حتى كتب له الله أن يعلنه على الملأ في حفل للجمعية الإسلامية في لندن..

ففي ذلك المحل صاح بصوت مرتفع قائلا: إنـني بـإعلاني إسـلامي الآن لم أَجِـدْ مطلقـاً عمَّا اعتقدته منذ عشرين سنة، ولمّا دعتني الجمعية الإسلامية لوليمتها سُرِرْتُ جداً، لأتمكن من الذهاب إليهم وإخبارهم بالتصاقي الشديد بدينهم، وأنا لم أهتم بعمل أي شـيء لإظهـار نبذي لعلاقتي بالكنيسة الإنجليزية التي نشأت في حجرهـا، كمـا أني لم أحفـل بالرسـميات في إعلان إسلامي، وإن كان هو الدين الذي أتمسك به الآن.

سـكت قليلا، ثم قـال: إن عـدم تسـامح المتمسـكين بالمسـيحية كـان أكـبر سـبب في خـروجي عن جـامعتهم، فإنـك لا تسـمع أحـداً من المسـلمين يـذم أحـداً من أتبـاع الأديـان الأخرى، كما نسمع ذلك من النصارى بعضهم في بعض.

نظـر إلى الجمـع الملتـف بـه، والمشـدوه لـذلك الإعلان الخطـير، ثم قـال: إن طهـارة الإسلام وسهولته وبُعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضـوح حجتـه ـ كـانت كـل هـذه الأمور أكبر من أثَّرَ في نفسي، وقد رأيت في المسلمين من الاهتمام بـدينهم والإخلاص لـه ما لم أرَ مثله بين النصارى، فإن المسيحي يحترم دينـه ـ عـادة ـ يـوم الأحـد، حـتى إذا مـا مضى يوم الأحد نسي دينه طول الأسبوع... وأمـا المسـلم فبعكس ذلـك، يحب دينـه دائمـاً، سواء عنده أكان هو الجمعة أو غيره، ولا يفتر لحظة عن التفكير في كـل عمـل يكـون فيـه عبادة الله.

قلت: إن رجلا بهذا المحل من أهل بلده لا بد أن يكون لإسلامه تأثيرا كبيرا.

قال: أجل.. لقد كان لإسلامه أكبر الأثر في تقوية نشاط المسـلمين في بريطانيـا، إذْ لم تكـد تمـر أشـهر قليلـة على إعلان إسـلامه حـتى اقتفى أثـره أكـثر من أربعمائـة بريطـاني وبريطانية، بعد ما استرعى انتباههم ما تَحَدَّثَ به عن محاسن الإسلام، فـأقبلوا على قــراءة الكتب الإسلامية، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

قلت: ألم يصبه ما يصيب المسلمين الجدد من الأذى؟

قال: بلى.. لقد كان لإشهار إسلامه صَدىً واسعا في بريطانيا للَّقَبِ الكبير الذي يحملـه، ولكونه سياسياً بارزاً، وعضواً قيادياً في مجَلسٍ اللوردات، فقد انتقدته الصـحف البريطانيـة، واتهمته في صدق دينه مُحاوِلةً تفسير موضوع إشهار إسلامه بأنه لتحقيـق مكسـب رخيص، وهو أن يصبح ممثل المسلمين في مجالس اللوردات وزعيماً لهم.

وقد دفعته هذه التهمة إلى الرد عليها بمقال عنوانه (لماذا أسـلمت؟) قـال فيـه: نحن ـ البريطانيين ـ تعودنا أن نفخر بحبنا للإنصـاف والعـدل، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم ـ

كما يفعل أكثرنا ـ بفساد الإسلام قبل أن نلم بشيء من عقائده، بل قبل أن نفهم معنى كلمة إسلام !؟

وقال فيه: (من المحتمل أن بعض أصدقائي يتوهم أن المسلمين هم الذين أثروا فيَّ، ولكن هذا الوهم لا حقيقة له، فإن اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيتُ فيه عدة سنين... ولا حاجة بي إلى القول بأني مُلِئْتُ سروراً حينما وجدتُ نظرياتي ونتائجي متفقة تمام الاتفاق مع الدين الإسلامي)

ومن ردوده على هؤلاء ما نشرته مجلة (إسلاميك رفيو) حيث قال: (إن كل هذه المحاولات العقيمة والوسائل الدنيئة التي يقوم بها المُتَنَصَّرُونَ لتحقير شريعة النبي العظيم ﷺ، بالبذاءة وبالسفاسف لا تمسه بأذىً، ولا تغيّر عقيدة تابعيه قَيْدَ أنملة)

ورد على المبشرين قائلاً: (لا عَجَبَ أن يكذب المنصرون وقد افتروا على الله كذباً، فكم تظاهر اللص بالأمانة والداعر بالاستقامة والزنديق بالتدين، ولكن لا عجَبَ، فقد غاض من وجههم ماء الحياء، وقد قال نبي الإسلام ﷺ: (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فاصنع ما شِئْتَ).. فلو كانوا يستحيون من أنفسهم ـ أو على الأقل من الناس ـ لما أقدموا على هذا الادعاء الباطل، والافتراء الواضح)

سكت الغريب قليلا، ثم قال: لقد حفظت من كلامه جواهر من الحكم سأعرضها عليك لتكتشف من خلالها سر اعتناقه للإسلام، وإخلاصه له:

لقد قال معبرا عن ساعة اعتناقه الإسلام: (لا ريب إن أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي جاهرت فيه على رؤوس الأشهاد بأنني اتخذت الإسلام ديناً.. فإذا كنت قد ولدت مسيحياً، فهذا لا يحتم عليّ أن أبقى كذلك طوال حياتي، فقد كنت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالمبدأ القائل: إذا لم تأكل جسد المسيح، وتشرب دمه، فلن تنجو من عذاب جهنم الأبدي!

ويقول: (إنني بإسلامي أعتبر نفسي أقرب إلى المسيحية الحقة مما كنت من قبل، ومن يعادي المسيحية الحقة فلا أمل فيه ...)

ويقول: (لم أولد في الخطيئة، ولست مولود سخط وغضب، ولا أحب أن أكون مع الخاطئين)

ويقول: (لقد تملك الإسلام لبي حقا، وأقنعني نقاؤه، فأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، اذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل)

ويقول: (بما أننا نحتاج إلى نموذج كامل ليفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي تسد تلك الحاجة، فهي كمرآة نقية تعكس علينا الأخلاق التي تكون الإنسانية، ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة..

خذ أي وجه من وجوه الآداب، تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياة الرسول ﷺ)

ويقول: (الإسلام هو الدين الذي يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة مدى الحياة!لا في أيام الآحاد فقط .. أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تنيره شمس النهار، وأخذ يستنشق هواء البحر النقي الخالص)

اللادي ايفلين كوبولد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (اللادي ايفلين كوبولد)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام، وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وقد كتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة)، والذي ترجم إلى العربية بعنوان (البحث عن الله)

قلت: فهل التقيت بها لتسألها عن سر إسلامها؟

قال: لا.. لم أتشرف بذلك.. ولكني قرأت كتابها الذي ذكرت فيه رحلتها إلى الله، وتعرفها على الإسلام، وفيه يتجلى سر إسلامها.

قلت: فما الذي جذبها إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبها إليه القرآن الكريم .. فقد قالت في بيان تأثيره في الحضارة الإسلامية: (إن أثر القرآن في كل هذا التقدم الحضاري الإسلامي لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانًا وحضارة)(1)

وذكرت موقف القرآن من العلم، وما في القرآن من سبق علمي، فقالت: (وذكرتُ أيضًا ما جاء في القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات

1) البحث عن الله، ص 51.

امتدت أجيالاً عديدة)(1)

وذكرت تأثرها بأسلوب القرآن في مواضع عديدة، فقالت: (الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفًا ولا تعريفًا، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: (إذا لم يكن شعرًا، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخًا ولا وصفًا، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطبًا فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميًا في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد في كل الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس)(2)

وقالت: (أشار الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال: (أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي يصدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًا. والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتيابًا وشكًا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحدّ الذي جعل أجانب المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن. ذلك أن هذا الأسلوب.. الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس. كان له الأثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى)(3)

وقالت: (الواقع أن للقرآن أسلوبًا عجيبًا يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فَحُسنُ تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ أن تجد فيها غريبًا، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تُحِسُّ فيها لفظًا نابيًا عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سموّ معانيه أدركت بلاغته

---

1) البحث عن الله، ص 45.

2) البحث عن الله، ص 111.

3) البحث عن الله، ص 112.

وإعجازه)(1)

بالإضافة إلى هذا، فقد ذكرت الثمرات العظيمة التي أنجزها محمد ﷺ والتي تبرهن على صدق الإسلام، وكونه من عند الله، فقالت: (كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً)(2)

وقالت: (هذه هي مدينة الرسول.. تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلهية)(3)

وقالت: (لعمري، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول روعة ما يستطيع لها تفسيرًا، وهي روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولاً ورجاء وخوفًا وأملاً، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم.. إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية)(4)

وقالت: (لقد استطاع النبي القيام بالمعجزات والعجائب، لَمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية.. لقد وفّق إلى خلق العرب خلقًا جديدًا ونقلهم من الظلمات إلى النور)(5)

وقالت: (مع أن محمدًا كان سيد الجزيرة العربية.. فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفيًا بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريمًا بارًا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه)(6)

بالإضافة إلى هذا ذكرت إعجابها الشديد بالمنهج الإسلامي في العقيدة والشريعة والسلوك، واعتبرته من الأسباب الأولى لإسلامها، فقالت: (سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام

---

1) البحث عن الله، ص 113.

2) البحث عن الله، ص 51.

3) البحث عن الله، ص 39.

4) البحث عن الله، ص 52.

5) البحث عن الله، ص 66.

6) البحث عن الله، ص 67.

أمامي فارتضيت الإسلام دينًا. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا ما راح المرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)(1)

وقالت: (الإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضًا، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفاقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع الله وعباده. ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانية إلهية، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبدع والتصاقه اللصوق كله بما في الحياة من أمور عملية.. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبدًا)(2)

وقالت: (من فوائد الحج أنه يوطد الوحدة الإسلامية ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد وهو يدعو المسلمين في كل عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب والتحدث فيما بينهم.. فالحج والحالة هذه ليس فرضًا دينيًا فحسب، وإنما هو إلى ذلك كله، جمعية أمم عظمى. ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك هيروغرنجه المستشرق الهولندي فقال: (لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلاً، ولعمري إن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يخجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها)(3)

وقالت: (إذا لم يكن في الإسلام إلا هذه الأخوة التي قتلت التفرقة وجعلت من الإنسانية شخصًا واحدًا لا يعلو واحدها على رفيقه إلا بالتقوى والعمل الصالح، لكفى ولكان الإسلام خير الأديان وأقربها إلى الله وأرفعها درجات. ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنكليزي، إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعمّ الغرب من أقصاه إلى أقصاه ويفصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أن الإسلام يقف وحيدًا في هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات)(4)

وقالت: (إن الإسلام دين حي، حي في قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به

1) البحث عن الله، ص 9.

2) البحث عن الله، ص 12.

3) البحث عن الله، ص 13.

4) البحث عن الله، ص 13.

الأيام زادت حيويته وقوي أمره وتبسط سلطانه وفشـت دعوتـه ولـولا ذلـك لمـا أمكنـه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره وحب أتباعه له)(1)

وقالت: (إن روحانية الإسلام قوية شديدة، فهي أبدًا تدفع المسـلمين بعضـهم إلى بعض وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ممـا لا يوجـد مثلـه في العـالم الحاضر)(2)

وقالت: (الحق أقول: إن الحب عندنا وكما يفهمه الغربيون ما يـزال قريبًـا من الغريـزة الجنسية، مقصورة دائرته أو تكاد، على ما تلهمه هذه الغريزة.. فأما المنـاطق العليـا الـتي يرتفع الحب المهذب إليها، أمـا الحب بمعنـاه الإنسـاني السـامي.. الحب على أنـه عاطفـة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقي النفسي إلى عالم الخير والجمال والحـق فهـذا ما لا يفكر به أحد أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام، منطوٍ في هذه الأخوة الإسلامية التي تجعل من الفرد عبدًا يعمل لخير المجموع وفـردًا قصـارى همـه أن يعمل للإحسان والإحسان أبدًا)(3)

وذكرت إعجابها بالتسـامح الإسـلامي، فقـالت: (إن الإسـلام لا يعـرض لمعتنقي الأديـان الأخرى بسوء وهو لا يحملهم على قبول دينه والـنزول تحت شـرعته.. كمـا أنـه لم يحـارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقهم وتعذيبهم كما فعل غيره وسـواه، وآيـة القرآن الكريم ظاهرة بينة:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة:256)(4)

قلت: ألم يصرفها عن الإسلام تلك الشبهات الكثيرة التي تثار حول موقف الإسـلام من المرأة؟

قال: لقد كانت هذه المرأة الفاضلة صادقة في بحثها عن اللـه، فلـذلك هـداها اللـه إلى التعرف عن كثب على حقيقة موقف الإسلام والمسلمين من المرأة، ومما ذكرتـه في هـذا قولها: (لم تكن النساء المسلمات متأخرات عن الرجال في ميدان العلوم والمعـارف فقـد نشأ منهن عالمات في الفلسفة والتاريخ والأدب والشعر وكل ألوان الحياة)(5)

وقالت: (لما جاء الإسلام ردّ للمرأة حرّياتها، فإذا هي قسيمة الرجل لها من الحق ما لـه

---

1) البحث عن الله، ص 13.

2) البحث عن الله، ص 13.

3) البحث عن الله، ص 28.

4) البحث عن الله، ص 93.

5) البحث عن الله، ص 51.

وعليها ما عليه ولا فضل له عليها إلا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد، واتساع الحيلة، فيلي رياستها فهو لذلك وليها يحوطها بقوّته ويذود عنها بدمه وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك فهما في السّرّاء والبأساء على السواء. ذلك ما أجمله الله بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحق، وكما قرن الله سبحانه بينهما في شؤون الحياة، قرن بينهما في حسن التوبة وادخار الأجر وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة. وإذا احتمل الرجل مشقات الحياة، ومتاعب العمل وتناثرت أوصاله، وتهدّم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجه فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المرأة إذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها وأحسنت القيام في شأن دارها)(1)

وقالت: (كتبت اللادى ماري مونتكاد، زوجة السفير الإنكليزي في تركيا إلى شقيقتها تقول: (يزعمون أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه فإن مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون الحقيقة ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا، وأنني اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان إلى ذلك سبيل، وإني أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى، لذهبت أصدق ما يكتب هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكما رأيتها في الأستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيتية، ثم إنهن يعشن في مقصورات جميلات ويستقبلن من يرد من الناس)(2)

وقالت: (إن جهل النساء في الإسلام أمرٌ لا يتفق وأوامر الرسول الكريم، فقد أمر رسول الله النساء بطلب العلم وحظر الإسلام الجهل على المؤمنين به وشدّد في ذلك بما لا يدعو مجالاً للشبهة والتأويل)(3)

---

1) البحث عن الله، ص 81.

2) البحث عن الله، ص 85.

3) البحث عن الله، ص 86.

ثالثا ـ الأدباء

فتحت دفتر الغريب على فصـله الثـالث، فوجـدت عنوانـه (الأدبـاء)، فقلت: من تقصـد بالأدباء؟

قال: أولئك الذين فتحت لهم خزائن الكلام، ونبعت لهم من منابع المشاعر عيون عبروا بها عما لم يطق غيرهم التعبير عنه.

قلت: فما الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم؟

قال: هؤلاء هم لسان البشر الذي يعبر عنهم.

قلت: ولكنهم قد يتيهون في أودية الأماني، كما قال تعـالى: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَـاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُـلِّ وَادٍ يَهِيمُـونَ) (الشـعراء:224ـ 225)، وقـد روي في الحـديث عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج، إذ عَرَض شـاعر يُنشـد، فقـال النـبي ﷺ: (خذوا الشيطان -أو امسكوا الشيطان -لأن يمتلئ جوف أحـدكم قيحًـا خـير لـه من أن يمتلئ شعرًا)(1)

قال: وقد يصدقون، فيمتلئ غيرهم صدقا، وقد استثنى الله تعالى المؤمنين، فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَـرُوا مِنْ بَعْـدِ مَـا ظُلِمُـوا وَسَـيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُـوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُـونَ (الشـعراء:227)، وقـد ورد في الحـديث أنـه لمـا نـزلت: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، جاء حسان بن ثابت، وعبد اللـه بن رَوَاحـة، وكعب بن مالـك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنـزل هـذه الآيـة أنـا شـعراء. فتلا النبي ﷺ: إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثم قال: (أنتم) وَذَكَـرُوا اللَّهَ كَثِـيرًا قـال:

1) رواه أحمد.. فهم البعض هذه النصوص فهما خاطئا، فراحوا يذمون الشعر ذما مطلقا، حتى حكي عن بعض الزهـاد أنه كان لا يتمثل ببيت شعر، ولما سئل عن ذلك قال: لا أحب أن أرى في صحيفتي يوم القيامة بيت شعر!

وهم يستدلون لهذا بأحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ منها (مَنْ قرض بيت شعر بعد العشاء لم تُقْبَلْ له صـلاة تلـك الليلة)، وقد قال ابن كثير في تخريجه: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يَرْوِهِ أحد من أصحاب الكتب الستة.

أما الحديث الذي جاء عن النبي ﷺ في ذم الشعر: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خـير لـه من أن يمتلئ شـعرا) رواه البخاري في باب الأدب، ومسلم في باب الشـعر.. فقـد حمـل على الشـعر المشـتمل على الفحش، أو على الوعيـد على ما إذا غَلَبَ عليه الشعر، وملك نفسه؛ حتى اشتغل به عن القرآن والفقه في الدين ونحوهما؛ ولذلك ذكر الامتلاء.

ويدل لهذا ما ذكره من لفظ (الامتلاء) الذي يعني أن يشـغل المـالئ بشـيء جميـع أجزائـه؛ حـتى لا يكـون فيهـا فضـل لغيره.

وأورد مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن) قولا نسبه للرسول ﷺ وهو: لما نشأت.. بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأوثان، وبُغِّضَ إِلَيَّ الشعر.. وهو قول لا أصل له، ولا سند بدليل ماورد من سماع النبي ﷺ للشعر ومحبته له في مواضـع كثـيرة، فقد أخرج البخاري في (الأدب المفرد) عن عمر بن الشريد عن أبيه أنه قال: استنشدني رسول اللـه ﷺ من شـعر أميـة بن أبي الصلت، فأنشدته؛ حتى أنشدته مائة قافية.

وقد ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني ثلاثة وجوه لذم الشعر؛ وهي:

الأول: أن يُذَمَّ الشعر من حيث المضمون. أي: من حيث ما يتضمنه من فُحش ونُبوٍّ عما تقتضيه الأخلاق.

الثاني: أن يُذَمَّ من حيث الوزن والقافية. وهذه ناحية صناعية.

الثالث: أن يُذَمَّ لاعتبارات تتصل بالشاعر.

ونحن في هذا الفصل كما في سائر الرسائل لا نعتبر إلا الأول، باعتبـار الثـاني يرجـع إلى الصـناعة، والثـاني يرجـع إلى شخصية الشاعر، لا إلى ما قاله، والمؤمن يستفيد الحكمة ولا يهمه من أي وعاء خرجت.

(أنتم)، ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلِمُوا ﴾ قال: (أنتم)[1]

وقد روي عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله، عز وجل، قد أنـزل في الشـعّر ما أنزل، فقال ﷺ: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل)[2]

قلت: أما إن قلت هذا، فقد كان في الإسلام شعراء كثيرون يمتلئون صدقا، وقد قـدموا للإسلام أعظم ما يقدمه مسلم ناصح.

قال: ولذلك تراني قد بدأت بهم في هذا الدفتر.

شعراء من الصحابة

قلت: قد رأيت ذلك، وتعجبت منه، فكيف التقيت بابن رواحة، أو بحسان.

قال: لقد التقيت بشـعرهم، وأعجبت بـه، ولاحظت فيـه من الصـدق مـا لم ألحظـه في جميع أشعار الدنيا، فليس هناك من هو أحق بالمدح من رسول الله ﷺ.

عبد الله بن رواحة:

قلت: فلنبدأ بعبد الله بن رواحة، فإني أراه يستهل قائمة الشعراء في دفترك هذا.

قال: أجل.. فلي محبة خاصة لهذا الشاعر المحب الصادق.

قلت: وكيف لا تحبه، وهو من المنتجبين من أصحاب النبي ﷺ ، وقد حضر بيعتي العقبـة الأولى والثانية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق.. وأكرمه الله بالشهادة في حياة رسول الله ﷺ.

قال: وفوق ذلك كان أحد شعراء النبي ﷺ، وكان بين يدي النبي ﷺ في عمرة القضـاء، وكان يقول:

خَلُّوا بني الكُفَّار عَنْ سَبيلِهِ   نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ   وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيـله

فنادى عليه عمر وقال له: في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول هذا الشعر؟ فقـال

---

1) رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق، وقد شكك في صحة هـذه الروايـة باعتبـار السـورة مكيـة، وهؤلاء كانوا في المدينة، ومنهم من تأخر إسلامه، ولكن هذا ومثله لا يحمل على سبب النزول وإنما يحمل على التفسـير، فهؤلاء الصحابة الشعراء طبقوا على أنفسهم المعنى السلبي للآيات، فصحح لهم رسول الله ﷺ ذلك.

2) رواه أحمد.

له النبي ﷺ: (خَلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وَقْعِ النبل)(1)

وقد أنشد ذات يوم من شعره بين يدي النبي ﷺ قوله:

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الخَيْرَ أَعْرِفُهُ ... وَاللهُ يَعْرِفُ أنْ ما خَانَنِي الخَبَرُ
أَنْتَ النبي وَمَنْ يُحْرَمْ شَفَاعَتُهُ ... يَوْمَ الحِسَابِ لَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ
فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حُسْنٍ ... تَثَبِيتَ مَوسى وَنصْرًا كَالذي نصَروا

فدعا له الرسول ﷺ قائلا: (وإياك فثبَّتَكَ الله)(2)

وكما نصر عبد الله الإسلام في ميدان الكلمة، فقد نصره باقتدار في ميدان الحرب والجهاد بشجاعته وفروسيته.

ففي شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، علم الرسول ﷺ أن الروم قد حشدوا جيوشهم استعدادًا للهجوم على المسلمين، فأرسل النبي ﷺ جيشًا إلى حدود الشام عدده ثلاثة آلاف مقاتل؛ ليؤمِّن الحدود الإسلامية من أطماع الروم، وجعل زيد بن حارثة أميرًا على الجيش، وقال لهم: (إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رَواحة)

فلما وصل جيش المسلمين إلي حدود الشام، علموا أن عدد جيش الروم مائتا ألف فارس، فقالوا: نكتب إلى النبي ليرسل إلينا مددًا من الرجال، أو يأمرنا أن نرجع أو أي أمر آخر، فقال لهم ابن رواحة: (يا قوم، والله إن التي تكرهون هي التي خرجتم تطلبون، إنها الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة)

فكبر المسلمون وواصلوا مسيرتهم حتى نزلوا قرية بالشام تسمى مؤتة، وفيها دارت الحرب، وقاتل المسلمون أعداءهم قتالاً شديدًا، وأخذ زيد بن حارثة يقاتل ومعه راية المسلمين، فاستشهد زيد، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وراح يقاتل في شجاعة حتى استشهد، فأخذ عبد الله الراية، فأحس في نفسه بعض التردد، ولكنه سرعان ما تشجع، وراح يقاتل في شجاعة ويقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّه ... طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرِهِنَّه

1) رواه أبو يعلي.

2) رواه ابن سعد.

فَطَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّة مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّةْ

يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِى تَمُوتي وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيت

إِنْ تَفْعَلِى فَعْلَهُمَا هُدِيتِ وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَد شُقِيتِ

ونال عبد الله الشهادة، ولحق بصاحبيه زيد وجعفر.

وقد كان فوق هذا مثال المسلم الصادق، وقد أرسله النبي ﷺ إلى يهود خيبر؛ ليأخذ الخراج والجزية مما في أراضيهم، فحاولوا إعطاءه رشوة؛ ليخفف عنهم الخراج، فقال لهم: يا أعداء الله، تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم.

حسان بن ثابت:

كان الاسم الثاني في دفتر الغريب في هذا الفصل هو اسم الشاعر المشهور (حسان بن ثابت) فطلبت من الغريب أن يحدثني عنه، فقال:

لقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ)[1]

ومن قصائده التي رثى بها رسول الله ﷺ [2]:

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تمتحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وواضح آثار وباقي معالم وربع له فيه مصلى ومسجد

بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد

1) رواه أبو داود.

2) هذه القصيدة والقصائد التالية من رواية ابن إسحق في سيرة ابن هشام.

معارف لم تطمس على العهدآيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبرا بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى ... لها محصيا نفسي فنفسي تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره ... ولكن لنفسي بعد ما قد توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد ؟
تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
يدل على الرحمن من يقتدي به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله ... فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبينا هم في نعمة الله بينهم ... دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى		حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثنى جناحه		إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم في ذلك النور إذ غدا		إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فأصبح محمودا إلى الله راجعا		يبكيه حق المرسلات ويحمد
وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها		لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
قفارا سوى معمورة اللحد ضافها		فقيد يبكينه بلاط وغرقد
ومسجده فالموحشات لفقده		خلاء له فيه مقام ومقعد
وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت		ديار وعرصات وربع ومولد
فبكي رسول الله يا عين عبرة		ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما لك لا تبكين ذا النعمة التي		على الناس منها سابغ يتغمد
فجودي عليه بالدموع وأعولي		لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
وما فقد الماضون مثل محمد		ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة		وأقرب منه نائلا لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالد		إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتا في البيوت إذا انتمى		وأكرم جدا أبطحيا يسود
وأمنع ذروات وأثبت في العلا		دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعا في الفروع ومنبتا		وعودا غذاه المزن فالعود أغيد
رباه وليدا فاستتم تمامه		على أكرم الخيرات رب ممجد
تناهت وصاة المسلمين بكفه		فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند

أقول ولا يلقى لقولي عائب   من الناس إلا عازب العقل مبعد
وليس هواي نازعا عن ثنائه   لعلي به في جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره   وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

ما بال عينك لا تنام كأنما   كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويا   يا خير من وطئ الحصى لا تبعد
وجهي يقيك الترب لهفي ليتني   غيبت قبلك في بقيع الغرقد
بأبي وأمي من شهدت وفاته   في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متبلدا   متلددا يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم   يا ليتني صبحت سم الأسود
أو حل أمر الله فينا عاجلا   في روحة من يومنا أو من غد
يا بكر آمنة المبارك بكرها   ولدته محصنة بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها   من يهد للنور المبارك يهتدي
يا رب فاجمعنا معا ونبينا   في جنة تثنى عيون الحسد
في جنة الفردوس فاكتبها لنا   يا ذا الجلال وذا العلا والسودد
والله أسمع ما بقيت بهالك   إلا بكيت على النبي محمد
يا ويح أنصار النبي ورهطه   بعد المغيب في سواء الملحد
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا   سودا وجوههم كلون الإثمد

ولقد ولدناه وفينا قبره ... وفضول نعمته بنا لم نجحد

والله أكرمنا به وهدى به ... أنصاره في كل ساعة مشهد

صلى الإله ومن يحف بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

نب المساكين أن الخير فارقهم ... مع النبي تولى عنهم سحرا

من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي ... ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا

أم من نعاتب لا نخشى جنادعه ... إذا اللسان عتا في القول أو عثرا

كان الضياء وكان النور نتبعه ... بعد الإله وكان السمع والبصرا

فليتنا يوم واروه بملحده ... وغيبوه وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله منا بعده أحدا ... ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا

ذلت رقاب بني النجار كلهم ... وكان أمرا من امر الله قد قدرا

واقتسم الفيء دون الناس كلهم ... وبددوه جهارا بينهم هدرا

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

آليت ما في جميع الناس مجتهدا ... مني ألية بر غير إفناد

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل الرسول نبي الأمة الهادي

ولا برا الله خلقا من بريته ... أوفى بذمة جار أو بميعاد

من الذي كان فينا يستضاء به ... مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

أمسى نساؤك عطلن البيوت فما ... يضربن فوق قفا ستر بأوتاد

مثل الرواهب يلبسن المباذل قد   أيقن بالبؤس بعد النعمة البادي

يا أفضل الناس إني كنت في نهر   أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

ومن شعره القصصي الذي أرخ به لبعض أحداث السيرة النبوية قوله مؤرخا لما حصل في غدير خم(1):

يناديهم يوم الغدير نبيهم   بخم وأسمع بالرسول

فقال: فمن مولاكم   فقالوا ولم يبدوا هناك

إلهك مولانا وأنت نبينا   ولم تلق منا في

فقال له: قم يا علي؟   رضيتك من بعدي

فمن كنت مولاه فهذا   فكونوا له أتباع صدق

هناك دعا اللهم وال   وكن للذي عادا عليا

كعب بن زهير:

من أسماء الشعراء التي رأيتها في دفتر الغريب اسم (كعب بن زهير)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا كعب بن زهير، كان شاعرا فحلاً مجيداً، وهو صاحب البردة المعروفة، والتي يقول فيها:

بانَتْ سُعَادُ فقَلْبي اليومَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لم يُجَزَ مَكْبُولُ

وما سُعادَ غَداةَ البَيْن إِذ عَرَضَتْ   إلاَّ أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرفِ مَكْحُولُ

وما تَدُومُ على العَهْدِ الذِي زَعَمَتْ   كما تَلَوَّنُ في أَثْوَابِها الغُولُ

ولا تَمَسَّكُ بالوُدِّ الذي زَعَمَتْ   إِلاَّ كما تُمْسِكُ الماءَ الغَرَابِيلُ

كانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَلاً   وما مَوَاعِيدُه إِلاَّ الأَباطيلُ

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعدَني   والعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَبْذُولُ

1() من رواته الحافظ أبو نعيم الاصبهاني المتوفى 430 أخرجه في كتابه - ما نزل من القرآن في علي ج 1 ص 232 وفيه: فقال حسان: إئذن لي يا رسول الله؟ أن أقول في علي أبياتا تسمعهن. فقال: قل على بركة الله. فقام حسان فقال: يا معشر مشيخة قريش؟ أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية.. وقد كتب العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني في ذلك كتابا بعنوان: حسّان بن ثابت وشعره في الغدير.

مَهْلاً هَدَاكَ الذي أعْطَاكَ نافلَةَ الْـ قُرْآنَ فيها مَوَاعِيظٌ وتَفْصِيلُ
لا تأْخُذَنِّي بأَقْوَالِ الوُشاةِ ولم أُذْنِبْ ولَوْ كَثُرَتٍ فِيَّ الأَقاويلُ

فلما بلغ قوله:

إنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ به وصارمٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
في عُصْبَة مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فما زالَ أَنْكَاسٌ ولا كُشُفُ يَوْمَ اللِّقَاءِ ولا سُودٌ مَعَازِيلُ

نظر رسول الله ﷺ إلى من عنده من قريشٍ، كأنه يومي إليهم أن يسمعوا، حتى قال:

يَمْشُونَ مَشْىَ الجمال البُهْمِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ

يعرض بالأنصار، لغلظتهم عليه، فأنكرت قريشٌ عليه وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم، فقال:

مَنْ سَرَّهُ شَرَفُ الحَيَاةِ فلا يَزَلْ في مِقْنَب من صالِحِي الأَنْصَار
اَلباذِلينَ نُفُوسَهم لِنَبِيِّهِمْ يَوْمَ الهيَاجِ وسَطْوَةِ الجَبَّار
يَتَطَهَّرُونَ كأَنَّهُ نُسُكٌ لهم بدِماءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ

فكساه النبي ﷺ بردةً..

شعراء البردة

قلت: لقد ذكرتني بالبردة..

قال: بردة البوصيري !؟

قلت: أجل.. فالصبيان عندنا لا يزالون يحفظونها ويرددونها.

قال: بوركت تلك البردة، وبورك قائلها.. لقد فتحت في سماء الشعر المحب لرسول الله ﷺ فتوحا عظيمة.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد سن البوصيري في الشعر سنة حميدة لا زلنا نحيا آثارها إلى اليوم، فقد وجه الشعر الذي تاه فيه الكثير في أودية الأماني نحو قبلة رسول الله ﷺ.

قلت: صدقت.. فلا زال للبردة ومن نهج نهجها آثار طيبة إلى اليوم.

البوصيري:

قال: فلذلك تراني وضعت البوصيري في قمة المادحين للنبي ﷺ.

قلت: لقد كان شاعرا فحلا.

قال: لم يكن شاعرا فقط، بل كان أمير شعراء المديح النبوي بلا منازع.. فقد وقف شعره على مدح النبي ﷺ(1) ، وكان من ثمار مدائحه النبوية (بائياته الثلاث)، التي بدأ إحداها بلمحات تفيض عذوبة ورقة استهلها بقوله:

وافاكَ بالذنب العظيم المذنبُ   خجلا يُعنفُ نفسَه ويُؤنِّبُ

ويستهل الثانية بقوله:

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ   وتُغتفرُ الخطايا والذنوبُ

أما الثالثة، وهي أجودها جميعًا، فيبدؤها بقوله:

أزمعوا البين وشدوا الركابا   فاطلب الصبر وخلِّ العتابا

وله عدد آخر من المدائح النبوية الجيدة، من أروعها قصيدته (الحائية)، التي يقول فيها مناجيا الله عز وجل:

يا من خزائن ملكه مملوءة   كرمًا وبابُ عطائه مفتوح

ندعوك عن فقر إليك وحاجة   ومجال فضلك للعباد فسيح

فاصفحْ عن العبد المسيء تكرُّمًا   إن الكريم عن المسيء صفوح

1() ترك البوصيري عددًا كبيرًا من القصائد والأشعار ضمّها ديوانه الشعري الذي حققه محمد سيد كيلاني، وطُبع بالقاهرة سنة (1374 هـ= 1955م)، وقصيدته الشهيرة البردة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، والقصيدة (المضرية في مدح خير البرية)، والقصيدة (الخمرية)، وقصيدة (ذخر المعاد)، ولامية في الرد على اليهود والنصارى بعنوان: (المخرج والمردود على النصارى واليهود)، وقد نشرها الشيخ أحمد فهمي محمد بالقاهرة سنة (1372 هـ= 1953م)، وله أيضا (تهذيب الألفاظ العامية)، وقد طبع كذلك بالقاهرة.. وقد تُوفِّي البوصيري بالإسكندرية سنة (695 هـ= 1295م) عن عمر بلغ 87 عامًا.

وقصيدته الدالية التي يبدؤها بقوله:

إلهي على كل الأمور لك الحمد ... فليس لما أوليتَ من نعمٍ حدُّ

لك الأمر من قبل الزمان وبعده ... وما لك قبل كالزمان ولا بعدُ

وحكمُك ماضٍ في الخلائق نافذ ... إذا شئتَ أمرًا ليس من كونه بُدُّ

وله قصيدة أخرى على وزن (بانت سعاد)، ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغولُ ... وأنت عن كل ما قدمتَ مسئولُ؟!

قلت: ولكن تظل قصيدته التي يقول فيها:

أَمِنْ تذكّر جيرانٍ بذي سلم ... مزجتَ دمعًا جرى من مقلة بدمْ؟

أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ ... وأومضَ البرقُ في الظلماء من إِضَمْ؟

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا؟ ... وما لقلبك إن قلت استفق يهمْ؟

والتي سماها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، والمعروفة باسم (البردة) تظل من عيون شعره، بل من عيون الشعر العربي، ومن أروع قصائد المدائح النبوية.

وقد زاد في جمالها أنها قصيدة طويلة تقع في 160 بيتًا، كل بيت منها يمتلئ محبة وشوقا لرسول الله ﷺ، ويدل على الصدق العظيم الذي كانت تمتلئ به نفس صاحبها.

قال: ومن دلائل هذا الصدق أنه لم تلق قصيدة في الدنيا ذلك الاهتمام الذي لقيته البردة حيث ولدت شعرا كثيرا في مدح النبي ﷺ لا يزال مادة هامة للفن الإسلامي الرفيع.. فقد شطرت وخمست وسدست وسبعت:

فممن شطرها الإمام أحمد بن شرقاوى، كما في قوله:

(أكرم بخلق نبى زانه خلق) ... مولاه عظمه في أفصح الكلم

و خصنا بنبى طاب محتده ... (بالحسن مشتمل بالبشر متسم)

وممن خمسها الإمام شمس الدين الفيومى، كما في قوله:

كأنه البدر باد وسط هالته ... كأنه الغيث يرجى حسن حالته

كأنه الليث يخشى من بسالته (كأنهوهو فرد من جلالته)

(في عسكر حين تلقاه وفى حشم)

وممن سدسها الأستاذ عباس الديب، كما في قوله:

يا رب بالمصطفى عشنا نصائحه كيما يطهرذو شوق جوارحه

مذ جئت للساح صبا كى أصالحه أصبحت في الحبوالأحباب صادحه

(ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه وجدته لخلاصى خير ملتزم)

وممن سبعها الإمام القاضى البيضاوى صاحب التفسير، كما في قوله:

الله منه إلينا الخير مستبق على لسان نبى وجهه طلق

فالشمس من نوره والبدر والفلق والمسك من ريحه فى الأفق يعتبق

والجود من كفه فى الخلق مندفق (أكرم بخلق نبى زانه خلق)

(بالحسن مشتمل بالبشر متسم)

قلت: أفلا نتبرك بروايتها والاستماع إليها؟

قال: لا ينبغي أن نقصر في ذلك.. وقد وفقني الله فحفظتها عن ظهر قلب.

قلت: لقد بدأها بذكر حبه..

قال: أجل.. فقد قال في بدايتها:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ مَزَجْتَ دَمعا جرى مِن مُقلَةٍ بِدَمِ

أَم هَبَّتِ الريحُ مِن تلقاءِ كاظِمَةٍ وأومَضَ البرقُ في الظَّلماءِ مِن اِضَمِ

فما لِعَينيك اِن قُلتَ اكْفُفَا هَمَتَا وما لقلبِكَ اِن قلتَ استَفِقْ يَهِمِ

أيحَسب الصَبُّ أنَّ الحبَّ مُنكَتِمٌ ما بينَ منسَجِمٍ منه ومُضْطَرِمِ

لولا الهوى لم تُرِقْ دمعا على طَلَلِ ولا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البانِ والعَلَمِ

فكيفَ تُنْكِرُ حبا بعدما شَهِدَت	به عليك عُدولُ الدمعِ والسَّقَمِ
وأثبَتَ الوَجْدُ خَطَّي عَبْرَةٍ وضَنَى	مثلَ البَهَارِ على خَدَّيك والعَنَمِ
نَعَم سرى طيفُ مَن أهوى فأَرَّقَنِي	والحُبُّ يعتَرِضُ اللذاتِ بالأَلَمِ
يا لائِمي في الهوى العُذْرِيِّ مَعذرَةً	مِنِّي اليك ولَو أنْصَفْتَ لَم تَلُمِ
عَدَتْكَ حالي لا سِرِّي بمُسْتَتِرٍ	عن الوُشاةِ ولا دائي بمُنحَسِمِ
مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَستُ أسمَعُهُ	اِنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ في صَمَمِ

قلت: لطالما سمعت هذه الأبيات وتعجبت منها.

قال: تتعجب من حديثه عن الحب في بداية قصيدة يريد منها مدح نبيه ﷺ.

قلت: أجل.. وقد فعل مثل ذلك كعب بن زهير.. وقد قرأت تبريرات لذلك لم أ

قال: أما أنا.. فقد فتح الله علي من الفهم في ذلك ما عرفت به سر ذلك.

قلت: فبشرني به.

قال: لقد رأيت ـ من خلال صحبتي الطويلة للمسلمين ـ أنهم صنفان:

أما أولهما.. فيمتلئون رقة وعذوبة.. وتمتلئ قلوبهم من المشاعر والمواجيد ما لا طاقة لهم بحبسه.

وأما ثانيهما.. فقد يمتلئون عقلا وحكمة.. ولكن عيونهم جامدة، وقلوبهم لا يكاد يحركها شيء.

قلت: لا أرى هذا خاصا بالمسلمين وحدهم.. فجميع البشر يدخلون ضمن هذين الصنفين.

قال: ولذلك ترى هؤلاء الشعراء يبدأون بذكر المحبة ليغلقوا الأبواب أمام الجامدين، وكأنهم يقولون لهم: هذه الكلمات لا يمكنكم أن تفهموها.. لأنكم لم تذوقوا ما ذقنا.. فدعونا وشأننا.

ابتسمت، وقلت: لقد تنبأ البوصيري بما لاقت بردته من الإنكار إذن؟

قال: ألا تعلم أن الشاعر لم يسم شاعرا إلا بعد أن نال من الحس المرهف ما جعله يرى ما لا يرى غيره؟

قلت: صدقت في هذا.. ولكني لم أزل حائرا في هذا المحبوب الذي بدأ البوصيري يتغنى به.

قال: وهل هناك إلا محمد.. البوصيري لا يتحدث إلا عن رسول الله ﷺ ؟

قلت: البعض اعتبرها غزلا لا يختلف عن غزل المجنون.

قال: ولكن البوصيري عاقل وليس مجنونا.. وما كان للعاقل أن يقع في شباك الحب المدنس.

قلت: إن هؤلاء يدافعون على أنها من الغزل المرتبط بالنساء..

قال: فلفهموا ما يشاءون.. ولكن أخبرني أيهما أقوم قيلا: من سمع هذه الأبيات فحركت قلبه شوقا لرسول الله ﷺ.. أو من سمع لهذه الأبيات، فراح يتصور الشاعر يناجي معشوقته ويشكو آلامه لها.

قلت: لاشك أن الفريق الأول أعقل بكثير من الفريق الثاني.

قال: فلا ترغب عن العقلاء إلى غيرهم.

قلت: بعد ذكر البوصيري لمواجيده راح يتحدث عن النفس..

قاطعني الغريب، وقال: لأن النفس هي الحجاب الأعظم بين الأنا ومحمد.. اسمع ما يقول في هذا:

اِنِّي اتَّهَمْتُ نصيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي	والشَّيْبُ أبعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ
فانَّ أمَّارَتِي بالسوءِ ما اتَّعَظَت	مِن جهلِهَا بنذير الشَّيْبِ والهَرَمِ
ولا أعَدَّتْ مِنَ الفِعلِ الجميلِ قِرَى	ضَيفٍ أَلَمَّ برأسي غيرَ مُحتشِمِ
لو كنتُ أعلمُ أنِّي ما أُوَقِّرُهُ	كتمتُ سِرًّا بَدَا لي منه بالكَتَمِ
مَن لي بِرَدِّ جِمَاح مِن غَوَايتِهَا	كما يُرَدُّ جِمَاحُ الخيلِ باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصي كَسْرَ شهوَتهَا	اِنَّ الطعامَ يُقوِّي شهوةَ النَّهِمِ

والنَّفسُ كَالطّفلِ إِنْ تُهمِلْه ُشَبَّ عَلَى حُبِّ الرّضَاع وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ
فاصْرِف هواها وحاذِر أَن تُوَلِّيَهُ اِنَّ الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
وراعِهَا وهْيَ في الأعمال سائِمَةٌ وإِنْ هِيَ استَحْلَتِ المَرعى فلا تُسِمِ
كَم حسَّنَتْ لَذَّةً للمرءِ قاتِلَةً مِن حيثُ لم يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
واخْشَ الدَّسَائِسَ مِن جوعٍ ومِن شِبَعٍ فَرُبَّ مخمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
واستَفرِغِ الدمعَ مِن عينٍ قَدِ امْتَلأتْ مِن المَحَارِمِ والْزَمْ حِميَةَ َالنَّدَمِ
وخالِفِ النفسَ والشيطانَ واعصِهِمَا وإِنْ هما مَحَّضَاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ
ولا تُطِعْ منهما خصمَا ولا حكَمَا فأنت تعرفُ كيدَ الخَصمِ والحَكَمِ

قلت: إن هذه الابيات تمتلئ توجيهات تربوية راقية؟

قال: أجل.. فالنفس التي تحب محمدا ﷺ ينبغي أن يكون لها من الطهارة ما تنال به شرف هذه الصحبة.

قلت: لست أدري لم عقب الشاعر ذكره لمحبوبه بذكر النفس..

قال: لأن الحب هو أعظم الدوافع السلوكية.

قلت: لم أفهم..

قال: من امتلأ قلبه بمحمد ﷺ سيمتلئ قلبه بحب الطهارة.. فإذا أحب الطهار اندفع للسلوك إليها.

قلت: الحب يفعل هذا.

قال: يفعل أكثر من هذا.. فالمحب لا يكل عن طاعة محبوبه.

قلت: بعد ذلك دخل الشاعر حضرة الحبيب..

قال: أجل.. بعد أن طهر أرض القلب بالحب.. وطهر أرض النفس بالدموع دخل على الحبيب..

قلت: لم كل هذا؟

قال: لأنه لا يمكن أن تدخل حضرة الحبيب.. وفي قلبك الأهواء المدنسة، وفي نفسك المستنقعات والمزابل.

قلت: وعيت هذا.. ووعيت من خلال الواقع خطره.

قال: وما خطره؟

قلت: رأيت أقواما من الناس.. عقولهم جامدة.. وقلوبهم خامدة.. ونفوسهم تمتلئ بالأوباء.. ثم يدخلون إلى سنة رسول الله ﷺ.. فلا يرون منها إلا ما يشوه جمال من استنوا بسنته.

قال: فأرشد هؤلاء إلى البوصيري وأحفاد البوصيري.

قلت: كيف أرشدهم إليه.. وهم يحملون سيوفهم عليه.

قال: فأنبئهم أن سنة رسول الله ﷺ تبدأ من الداخل.. فمن لم يزين باطنه بسنة الرحمة واللطف والمودة لم يظهر على ظاهره إلا الخراب.

قلت: صدقت.. وقد بلينا بالخراب الذي تتحدث عنه.. عد بنا إلى البردة.. وعد بنا إلى أجمل أبياتها.

قال: أجمل أبياتها هي الأبيات التي مدح فيها الحبيب ﷺ.. لقد قال في ذلك:

ظَلمتُ سُنَّةَ مَن أحيا الظلامَ الى ... أنِ اشتَكَتْ قدمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ

وشَدَّ مِن سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوَى ... تحتَ الحجارةِ كَشْحَاً مُتْرَفَ الأَدَمِ

وراوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ ... عن نفسِه فأراها أيَّمَا شَمَمِ

وأكَّدَت زُهدَهُ فيها ضرورَتُهُ ... اِنَّ الضرورةَ لا تعدُو على العِصَمِ

محمدٌّ سيدُ الكونينِ والثقَلَيْنِ ... والفريقين مِن عُربٍ ومِن عَجَمِ

نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فلا أَحَدٌ ... أبَرُّ في قَولِ لا منه ولا نَعَمِ

هُو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعَتُهُ ... لكُلِّ هَوْلٍ مِن الأهوالِ مُقتَحَمِ

دَعَا الى اللهِ فالمُستَمسِكُون بِهِ مُستَمسِكُونَ بِحبلٍ غيرِ مُنفَصِمِ
فاقَ النَّبيينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدَانُوهُ في عِلمٍ ولا كَرَمِ
وكُلُّهُم مِن رسولِ اللهِ مُلتَمِسٌ غَرْفَا مِنَ البحرِ أو رَشفَاً مِنَ الدِّيَمِ
وواقِفُونَ لَدَيهِ عندَ حَدِّهِمِ مِن نُقطَةِ العلمِ أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ
فَهْوَ الذي تَمَّ معناهُ وصورَتُهُ ثم اصطفاهُ حبيباً بارِيءُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عن شريكٍ في محاسِنِهِ فجوهر الحُسنِ فيه غيرُ منقَسِمِ
دَع ما ادَّعَتهُ النصارى في نَبِيِّهِمِ واحكُم بما شئتَ مَدحَاً فيه واحتَكِمِ
وانسُبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ من شرف وانسُب الى قَدْرِهِ ما شئتَ مِن عِظَمِ
فَاِنَّ فَضلَ رسولِ اللهِ ليس له حَدٌّ فَيُعرِبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَمِ
لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَمَاً أحيا اسمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ
لم يمتَحِنَّا بما تَعيَا العقولُ به حِرصَاً علينا فلم نرتَبْ ولم نَهِمِ
أعيا الورى فَهْمُ معناهُ فليسَ يُرَى في القُرْبِ والبُعدِ فيه غيرُ مُنفَحِمِ
كالشمسِ تظهَرُ للعينَيْنِ مِن بُعُدٍ صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِن أَمَمِ
وكيفَ يُدرِكُ في الدنيا حقيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوا عنه بالحُلُمِ
فمَبْلَغُ العِلمِ فيه أنه بَشَرٌ وأَنَّهُ خيرُ خلْقِ الله كُلِّهِمِ
وكُلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا فانما اتصَلَتْ مِن نورِهِ بِهِمِ
فاِنَّهُ شمسُ فَضْلٍ هُم كواكِبُهَا يُظهِرْنَ أنوارَهَا للناسِ في الظُّلَمِ
أكرِمْ بخَلْقِ نبيٍّ زانَهُ خُلُقٌ بالحُسنِ مشتَمِلٌ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ
كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبدرِ في شَرَفٍ والبحرِ في كَرَمٍ والدهرِ في هِمَمِ
كأنَّهُ وهْوَ فَرْدٌ مِن جلالَتِهِ في عسكَرٍ حينَ تلقاهُ وفي حَشَمِ

كأنَّمَا اللؤلُؤُ المَكنُونُ في صَدَفٍ مِن مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منه ومبتَسَمِ

لا طيبَ يَعدِلُ تُرْبَا ضَمَّ أعظُمَهُ طوبى لمُنتَشِقٍ منه وملتَثِمِ

قلت: إن هذه الأبيات تختزن محبة عظيمة لرسول الله ﷺ..

قال: لقد رأى صاحبها الناس يتهافتون على حفظ المتون التي تملؤهم فقها ونحوا وبلاغة.. فوضع لهم متنا يملؤهم محبة وتقديرا وأشواقا.

قلت: ولكن هناك من يجادل في كثير مما ذكرت.. فيعتبر هذا الثناء العطر على رسول الله ﷺ شركا..

قال: أين الشرك؟

قلت: إن البوصيري يقول ـ مثلا ـ:

وانسُبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ من شرف وانسُب الى قَدْرِهِ ما شئتَ مِن عِظَم

فَاِنَّ فَضلَ رسولِ اللهِ ليس له حَدٌّ فَيُعرِبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَمِ

لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَمَاً أحيا اسمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ

قال: هذه أبيات رقيقة، تمتلئ تقديرا لرسول الله ﷺ.

قلت: لقد ذكروا أن الله تعالى هو المحيي المميت.. واعتبار اسم محمد محييا ـ ولو من باب الافتراض ـ شرك.

قال: ألم يقرأ هؤلاء ما قاله تعالى في حق رسول الله ﷺ.. فقد قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)(لأنفال:24)

قلت: لكأني أسمع هذه الآية أول مرة.. لقد اعتبر رسول الله ﷺ محييا.. كيف غربت عنهم هذه الآية.

قال: لأنهم مهووسون بالشرك .. هم يتصورون الله كما يتصور ملوكهم رعيتهم.. فالملك يقبح صورة كل من مدحه الناس، أو توجهت له القلوب، خشية على كرسيه أن يسلب منه.

قلت: صدقت.. بل إنهم يرسمون لله صورة لا تختلف عن صورة الملوك والأمراء.

قال: لا تذكر لي أحاديث هـؤلاء.. ودعنـا في حضـرة محمـد ﷺ.. فلا ينبغي لمن أنعم الله عليه بالدخول إلى حضرته أن يزيغ بصره أو أن يطغى.

قلت: فأكمل لي ذكر ما بقي من أبيات البردة.

قال: في باقي أبيات البردة جلس الشاعر أمام الحـبيب، وراح يشـكو إليـه همومـه وآلامه.. وحينها راحت تتنازعه حاجات شتى عبر عنها بقوله:

خَدَمْتُهُ بمديحٍ أستَقِيلِ بِهِ	ذُنوبَ عُمْر مَضَى في الشِّعرِ والخِدَمِ
اِذ قَلَّدَانِيَ ما تُخشَى عواقِبُهُ	كأنني بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ
أَطَعتُ غَيَّ الصِّبَا في الحالَتَيْنِ وما	حَصَلتُ الا على الآثامِ والنَّدَمِ
فيا خَسَارَةَ نَفْسٍ في تِجَارَتِهَا	لَم تَشتَرِ الدِّينَ بالدنيا ولم تَسُمِ
ومَن يَبِعْ آجِلا منه بعاجِلِهِ	بِينَ له الغَبْنُ في بَيْعٍ وفي سَلَمِ
اِنْ آتِ ذَنْباً فما عَهدِي بِمُنتَقِضٍ	مِنَ النَّبِيِّ ولا حَبلِي بمُنصَرِمِ
فاِنَّ لي ذِمَّةً منه بتَسمِيَتِي	مُحمَّدَاً وهُوَ أوفَى الخلقِ بالذِّمَمِ
اِنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذَاً بِيَدِي	فَضْلا والا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ
حاشاهُ أنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ	أو يَرجِعَ الجارُ منه غيرَ مُحتَرَمِ
ومُنذُ أَلزَمْتُ أفكَارِي مَدَائِحَهُ	وجَدْتُهُ لخَلاصِي خيرَ مُلتَزِمِ
ولَن يَفُوتَ الغِنَى منه يَدَاً تَرِبَتْ	اِنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأزهارَ في الأَكَمِ
ولَم أُرِدْ زَهرَةَ الدنيا التي اقتَطَفَتْ	يَدَا زُهَيْرٍ بما أثنَى على هَرِمِ
يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُ به	سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ
ولَن يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بي	اذا الكريمُ تَجَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ

قلت: هذه أبيات تنم عن حب عظيم لرسول الله ﷺ وتقدير عظيم له.

قال: ذلك لا يستغرب من الصالحين.. فلن يصير الصالح صالحا حتى يملأ عليه رسول الله ﷺ شغاف قلبه.

قلت: ولكن المجادلين يجادلون في أبيات كثيرة مما ذكرت.. فهم ـ مثلا ــ يجادلون في قوله:

اِنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذَاً بِيَدِي ... فَضْلا والا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ

ابتسم، وقال: ويعتبرون ذلك شركا !؟

قلت: أجل.. أليس ذلك شركا؟

قال: ما يقول هؤلاء في منكر الشفاعة؟

قلت: هم يبدعونه.. بل قد يكفرونه.

قال: ففي الشفاعة لا يأخذ رسول الله ﷺ بيد الشاعر فقط.. بل يأخذ بيد البشر جميعا(1)، فيسأل الله تعالى في الموقف الذي يقف فيه الكل .. وهو يأخذ بعد ذلك بيد كل محب لينال من بركات محبته ما لم يكن يحلم به(2).

ابن جابر الأندلسي:

سكت الغريب قليلا، فقلت: لقد تحدثنا عن صاحب البردة الشريفة.. فلنتحدث عمن نهج نهجها.

قال: كثيرون هم..

قلت: سمعت أن من بينهم ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة 780هـ.

قال: أجل.. فله قصيدة رائعة يقول فيها:

بِطَيبَةَ انزِل وَيَمِّم سَيِّدَ الأُمَمِ ... وَانشُر لَهُ المَدحَ وَاِنثُر أَطيَبَ الكَلِمِ

وَابذُل دُموعَكَ واعذُل كُلَّ مُصطَبِرٍ ... وَالحَق بِمَن سارَ وَالحَظ ما عَلى العَلَمِ

سَنا نَبيٍّ أَبى أَن يُضَيِّعَنا ... سَليلِ مَجدٍ سَليمِ العِرضِ مُحتَرَمِ

---

1) هذا في الشفاعة العظمى.

2) ذكرنا أسرار الشفاعة، وعلاقتها بالتوحيد والعدالة والحكمة في رسالة (أسرار الأقدار) من هذه السلسلة.

جَميلِ خَلقٍ عَلى حَقٍّ جَزيلِ نَدىً … هَدى وَفاضَ نَدى كَفَّيهِ كالدِّيَمِ
كَفَّ العُداةَ وَكَدَّ الحادِثاتِ كَفى … فَكَم جَرى مِن جَدا كَفَّيهِ مِن نِعَمِ
وَكَم حَبا وَعَلى المُستَضعَفينَ حَنا … وَكَم صَفا وَصَفا جوداً لِجَبرِهِمِ
ما فاهَ في فَضحِهِ مَن فاءَ لَيسَ سِوى … عَذلٍ بِعَدلٍ وَنُصحٍ غَيرِ مُتَّهَمِ
حانٍ عَلى كُلِّ جانٍ حابٍ إن قَصَدوا … حامٍ شَفى مِن شَقا جَهلٍ وَمِن عَدَمِ
لَيثُ الشَّرى إِذ سَرى مَولاهُ صارَ لَهُ … جاراً فَجازَ وَنَيلاً مِنهُ لَم يَرُمِ
كافي الأَرامِلِ وَالأَيتامِ كافِلُهُم … وافي النَدى لِمُوافي ذَلِكَ الحَرَمِ
أَجارَ مِن كُلِّ مَن قَد جارَ حِينَ أَتى … حَتّى أَتاحَ لَنا عِزّاً فَلَم نُضَمِ

وفيها يقول:

فَلُذ بِبَرٍّ رَحيمٍ بالبَرِيَّةِ إِن … عَقَّتكَ شِدَّةُ دَهرٍ عاقَ واِعتَصِمِ
يُروى حَديثُ النَّدى وَالبِشر عَن يَدِهِ … وَوَجهُهُ بَينَ مُنهَلٍّ وَمُبتَسِمِ
تَبكي ظُباهُ دَماً وَالسَّيفُ مُبتَسِمٌ … يَخُطُّ كالنونِ بَينَ اللامِ وَاللِّمَمِ
دَمعٌ بِلا مُقَلٍ ضِحكٌ بِغَيرِ فَمٍ … كَتبٌ بِغَيرِ يَدٍ خَطٌّ بِلا قَلَمِ
جاوِرهُ يَمنَع وَلُذ يَشفَع وَسَلهُ يَهَب … وَعُد يَعُد واِستَزِد يَفعَل وَدُم يَدُمِ
لَم يَخشَ قِرناً وَيَخشى القِرنُ صَولَتَهُ … فَهوَ المَنيعُ المُبيحُ الأُسدَ لِلرَّخَمِ
وَالشَّمسُ رُدَّت وَبَدرُ الأُفقِ شُقَّ لَهُ … والنَّجمُ أَينَعَ مِنهُ كُلُّ مُنحَطِمِ
سَقاهُمُ الغَيثُ ماءً إِذ سَقى ذَهَباً … فَغَيرُ كَفَّيهِ إِن أَمحَلتَ لا تَشِمِ
قَد أَفصَحَ الضَّبُّ تَصديقاً لِبعثَتِهِ … إِفصاحَ قُسٍّ وَسَمعُ القَومِ لَم يَهِمِ
الهاشِمُ الأُسدَ هَشمَ الزّادِ تَبذُلُهُ … بَنانُ هاشِمٍ الوَهّاب لِلطُّعمِ
كَأَنَّما الشَّمسُ تَحتَ الغَيمِ غُرَّتُهُ … في النَّقعِ حَيثُ وجوهُ الأُسدِ كالحُمَمِ

إِذا تَبَسَّمَ في حَربٍ وَصاحَ بِهِم يُبكي الأَسودَ وَيَرمي اللُّسنَ بِالبَكَمِ

صفي الدين الحلي:

قلت: وسمعت أن من بين هؤلاء رجل يقال (صفي الدين الحلي)

قال: أجل.. هذا الرجل من أكبر الشعراء المهتمين بالبديع.. حتى أنه لقب بأبي البديع، حيث كان علم البديع مهجورا قبله..

قلت: لا يستغرب حب بديع اللغة ممن أحب بديع البشر.

قال: وميزة هذا الشاعر أنه جمع في هذه القصيدة بين علم البديع ومدح الحبيب.

قلت: تقصد أن القصيدة متن في البديع؟

قال: أجل.. وهي من أشهر المتون العلمية، حيث جمعت بين مديح المصطفى ﷺ، وبين ذكر جميع شواهد علم البلاغة، وهي (الكافية البديعية)

قلت: لقد شوقتني إليها.. فاروها لي.

قال: هي أطول من أن أرويها لك هنا، ولكني سأكتفي منها ببعض ما قاله فيها مما يمدح به النبي ﷺ:

محمد المصطفى الهادي النبي أجل المرسلين بن عبدالله ذي الكرم

الطاهر الشيم بن الطاهر الشيم بن الطاهر الشيم بن الطاهر الشيم

خير النبيين والبرهان متضح في الحجر نقلا وعقلا واضح اللقم

كم بين من أقسم الله العلي به وبين من جاء بسم الله في القسم

أمي خط أبان الله معجزه بطاعة الماضيين السيف والقلم

مؤيد العزم والأبطال في قلق مؤمل الصفح والهيجاء في ضرم

نفس مؤيدة بالحق تعضدها عناية صدرت عن بارئ النسم

أبدى العجائب فالأعمى بنفثته غدا بصيرا وفي الحرب البصير عمي

له السلام من الله السلام وفي دار السلام تراه شافع الأمم
كم قد جلت جنح نقع الليل طلعته والشهب أحلك ألونا من الدهم
في معرك لا تثير الخيل عثيره مما تروي المواضي تربه بدمي
عزيز جار لو الليل استجار به من الصباح لعاش الناس في الظلم
سهل الخلائق سمح الكف باسطها منزه لفظه عن لا ولن ولم
أغر لا يمنع الراجين ما طلبوا ويمنع الجار من ضيم ومن حرم
شخص هو العالم الكلي في شرف ونفسه الجوهر القدسي في عظم
ومن له حاور الجزع اليبيس ومن بكفه أورقت عجراء من سلم
والعاقب الحبر في نجران لاح له يوم اجتباه لعقبى زلة القدم
والذئب سلم والجني أسلم والث عبان كلم والأموات في الرجم
ومن أتى ساجدا لله ساعته ولم يكن ساجدا في العمر للصنم
ومن غدا اسم أمه نعتا لأمته فتلك آمنة من سائر النقم
من مثله وذراع الشاة حدثه عن سمه بلسان صادق الرنم
هل من ينم بحب من ينم له بما رموه كمن لم يدري كيف رمي
هو النبي الذي آياته ظهرت من قبل مظهره للناس في القدم
محمد المصطفى المختار من ختمت بمجده مرسلوا الرحمن للأمم
فذكره قد أتى في هل أتى وسبا وفضله ظاهر في نون والقلم
إذا رآه الأعادي قال حازمهم حتام نحن نسار النجم في الظلم

محمود سامي البارودي:

سكت الغريب، فقلت: عد بنا إلى عصرنا.. فقد سمعت أن شعراء كثيرين عارضوا البردة.

قال: أجل.. فحب رسول الله ﷺ لا يخلو منه عصر من العصور.. ولا مكان من الأماكن.. ألا تعلم أن رسول الله ﷺ أمان لأمته.

قلت: لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (لأنفال:33).. ولكن رسول الله ﷺ غادرنا، فلم يبق لنا إلا الاستغفار.

قال: الاستغفار لا ينفع وحده ما لم يمتلئ القلب بمحبة سيد المستغفرين.. فلذلك إن ذهب جسد رسول الله ﷺ.. فإن روحه لا زالت تعمر القلوب والأرواح.

قلت: لقد سمعت بأن الوزير محمود سامى البارودى عارضها في قصيدة عصماء من 450 بيتا.

قال: أجل.. وقد سماها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة)

قلت: فاروها لي.

قال: سأقتصر لك منه ما يتعلق بالحبيب (1).. اسمع:

مُحَمَّدٌ خاتَمُ الرُسلِ الَّذي خَضَعَت ... لَهُ البَرِيَّةُ مِن عُربٍ وَمِن عَجَمِ

سَميرُ وَحيٍ وَمَجنى حِكمَةٍ وَنَدى ... سَماحَةٍ وَقِرى عافٍ وَرِيُّ ظَمِ

قَد أَبلَغَ الوَحيُ عَنهُ قَبلَ بِعثَتِهِ ... مَسامِعَ الرُسلِ قَولاً غَيرَ مُنكَتِمِ

فَذاكَ دَعوَةُ إِبراهيمَ خالِقَهُ ... وَسِرُّ ما قالَهُ عِيسى مِنَ القِدَمِ

أَكرِم بِهِ وَبِآباءٍ مُحَجَّلَةٍ ... جاءَت بِهِ غُرَّةً في الأَعصُرِ الدُّهُمِ

قَد كانَ في مَلَكوتِ اللَهِ مُدَّخراً ... لِدَعوَةٍ كانَ فيها صاحِبَ العَلَمِ

نُورٌ تَنَقَّلَ في الأَكوانِ ساطِعُهُ ... تَنَقُّلَ البَدرِ مِن صُلبٍ إِلى رَحِمِ

حَتّى اِستَقَرَّ بِعَبدِ اللَهِ فَاِنبَلَجَت ... أَنوارُ غُرَّتِهِ كَالبَدرِ في البُهَمِ

1) ننقل بعض القصيدة هنا بتصرف.

وَاِختارَ آمِنَةَ العَذراءَ صاحِبَةً لِفَضلِها بَينَ أَهلِ الحِلِّ وَالحَرَمِ
كِلاهُما فِي العُلا كُفءٌ لِصاحِبِهِ وَالكُفءُ في المَجدِ لا يُستامُ بِالقِيَمِ
فَأَصبَحَت عِندَهُ في بَيتِ مَكرُمَةٍ شِيدَت دَعائِمُهُ في مَنصِبٍ سِنمِ
وَحِينما حَمَلَت بِالمُصطَفى وَضَعَت يَدُ المَشيئَةِ عَنها كُلفَةَ الوَجَمِ
وَلاحَ مِن جِسمِها نُورٌ أَضاءَ لَها قُصُورَ بُصرى بِأَرضِ الشَّأمِ مِن أمَمِ
وَمُذ أَتى الوَضعُ وَهوَ الرَّفعُ مَنزِلَةً جاءَت بِرُوحٍ بِنُورِ اللَهِ مُتَّسِمِ
ضاءَت بِهِ غُرَّةُ الإِثنَينِ وَاِبتَسَمَت عَن حُسنِهِ في رَبيعٍ رَوضَةُ الحَرَمِ
وَأَرضَعَتهُ وَلَم تَيأَس حَليمَةُ مِن قَولِ المَراضِعِ إِنَّ البُؤسَ في اليَتَمِ
فَفاضَ بِالدرِّ ثَدياها وَقَد غَنِيَت لَيالياً وَهيَ لَم تطعَم وَلَم تَنَمِ
وَاِنهَلَّ بَعدَ اِنقِطاعٍ رِسلُ شارِفِها حَتّى غَدَت مِن رَفِيهِ العَيشِ في طُعَمِ
فَيَمَّمَت أَهلَها مَملُؤَةً فَرَحاً بِما أُتيحَ لَها مِن أَوفَرِ النِّعَمِ
وَقَلَّصَ الجَدبُ عَنها فَهيَ طاعِمَةٌ مِن خَيرِ ما رَفَدَتها ثَلَّةُ الغَنَمِ
وَكَيفَ تَمحَلُ أَرضٌ حَلَّ ساحَتَها مُحَمَّدٌ وَهوَ غَيثُ الجُودِ وَالكَرَمِ
فَلَم يَزَل عِندَها يَنمُو وَتَكلَؤُهُ رِعايَةُ اللَهِ مِن سُوءٍ وَمِن وَصَمِ
حَتّى إِذا تَمَّ مِيقاتُ الرَّضاعِ لَهُ حَولَينِ أَصبَحَ ذا أَيدٍ عَلَى الفُطُمِ
وَجاءَ كَالغُصنِ مَجدُولاً تَرِفُّ عَلى جَبِينِهِ لَمحاتُ المَجدِ وَالفَهَمِ
قَد تَمَّ عَقلاً وَما تَمَّت رَضاعَتُهُ وَفاضَ حِلماً وَلَم يَبلُغ مَدى الحُلُمِ
فَبَينَما هُوَ يَرعى البَهمَ طافَ بِهِ شَخصانِ مِن مَلَكوتِ اللَهِ ذي العِظَمِ
فَأَضجَعاهُ وَشَقّا صَدرَهُ بِيَدٍ رَفِيقَةٍ لَم يَبِت مِنها عَلى أَلَمِ
وَبَعدَ ما قَضَيا مِن قَلبِهِ وَطَراً تَوَلَّيا غَسلَهُ بِالسَّلسَلِ الشَّبِمِ

ما عالَجا قَلبَهُ إِلّا لِيَخلُصَ مِن شَوبِ الهَوى وَيَعِي قُدسِيَّةَ الحِكَمِ
فَيا لَها نِعمَةً لِلّهِ خَصَّ بِها حَبيبَهُ وَهوَ طِفلٌ غَيرُ مُحتَلِمِ
وَقالَ عَنهُ بُحَيرا حِينَ أَبصَرَهُ بَأَرضِ بُصرى مَقالاً غَيرَ مُتَّهَمِ
إِذ ظَلَّلَتهُ الغَمامُ الغُرُّ وَانهَصَرَت عَطفاً عَلَيهِ فُروعُ الضَّالِ وَالسَّلَمِ
بِأَنَّهُ خاتَمُ الرُّسلِ الكِرامِ وَمَن بِهِ تَزُولُ صُرُوفُ البُؤسِ وَالنِّقَمِ
هَذا وَكَم آيَةٍ سارَت لَهُ فَمَحَت بِنُورِها ظُلمَةَ الأَهوالِ وَالقُحَمِ
ما مَرَّ يَومٌ لَهُ إِلّا وَقَلَّدَهُ صَنائِعاً لَم تَزَل فِي الدَّهرِ كَالعَلَمِ
حَتّى اِستَتَمَّ وَلا نُقصانَ يَلحَقُهُ خَمساً وَعِشرِينَ سِنُّ البارِعِ الفَهِمِ
وَلَقَّبَتهُ قُرَيشٌ بِالأَمينِ عَلى صِدقِ الأَمانَةِ وَالإِيفاءِ بِالذِّمَمِ
وَحِينَ أَدرَكَ سِنَّ الأَربَعينَ وَما مِن قَبلِهِ مَبلَغٌ لِلعِلمِ وَالحِكَمِ
حَباهُ ذُو العَرشِ بُرهاناً أَراهُ بِهِ آيات حِكمَتِهِ في عالَمِ الحُلُمِ
فَكانَ يَمضي لِيَرعى أُنسَ وَحشَتِهِ في شاسِعٍ ما بِهِ لِلخَلقِ مِن أَرَمِ
فَما يمُرُّ عَلى صَخرٍ وَلا شَجَرٍ إِلّا وَحَيّاهُ بِالتَّسليمِ مِن أَمَمِ
حَتّى إِذا حانَ أَمرُ الغَيبِ وَاِنحَسَرَت أَستارُهُ عَن ضَميرِ اللَوحِ وَالقَلَمِ
نادى بِدَعوَتِهِ جَهراً فَأَسمَعَها في كُلِّ ناحِيَةٍ مَن كانَ ذا صَمَمِ
فَكانَ أَوَّلُ مَن في الدِّين تابَعَهُ خَدِيجَةٌ وَعَلِيٌّ ثابِتُ القَدَمِ
ثُمَّ اِستَجابَت رِجالٌ دُونَ أُسرَتِهِ وَفي الأَباعِدِ ما يُغني عَنِ الرَّحِمِ
وَمَن أَرادَ بِهِ الرَّحمنُ مَكرُمَةً هَداهُ لِلرُّشدِ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ
ثُمَّ اِستَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ مُعتَزِماً يَدعُو إلى رَبِّهِ في كُلِّ مُلتَأَمِ

وَالنّاسُ مِنهُم رَشيدٌ يَستَجِيبُ لَهُ طَوعاً وَمِنهُم غَوِيٌّ غَيرُ مُحتَشِمِ

حَتّى اِستَرابَت قُرَيشٌ وَاِستَبَدَّ بِها جَهلٌ تَرَدَّت بِهِ في مارِجٍ ضَرِمِ

وَعَذَّبوا أَهلَ دِينِ اللَّهِ وَاِنتَهَكوا مَحارِماً أَعقَبَتهُم لَهفَةَ النَّدَمِ

قلت: بورك في هذا الشاعر الفاضل.. لقد تألم المسكين كثيرا في حياته.

قال: من قال مثل هذه الأبيات لا يتألم.. فالحب إكسير أحمر يحول الألم لذة.. والتعب راحة.. والحزن سرورا.

قلت: صدقت.. ومذ هجر الناس هذا الحب الشريف وقعوا ضحية للمخدرات والخمور والليالي الماجنة..

قال: وفوق ذلك صرتم تسمعون بالانتحار الذي لم يسمع به أسلافكم.

قلت: فهل ترى نشر مثل هذا الحب الشريف يقي الأمة مثل هذه الأوباء؟

قال: لا يقيها فقط.. بل يرفعها لتعتلي عرش الحضارة الذي نزلت منه بعد هجرها لحبيبها.

أحمد شوقي:

قلت: لاشك أن من أكبر المعارضين للبردة أحمد شوقي.

قال: أجل.. فله في ذلك قصيدته العصماء (نهج البردة) والتى صاغها على نسق البردة للإمام البوصيرى.

قلت: لقد كان شوقى ذا ذوق رفيع وأدب عال جعله يعترف بأفضلية الإمام البوصيرى، وسبقه عليه، فقال:

يا أحمد الخير، لى جاه بتسميتى وكيف لا يتسامى بالنبى سمى؟

المادحونوأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

مديحه فيك حب خالص وهى وصادق الحب يملى صادق الكلم

الله يشهد أنى لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العمم

و إنما أنا بعض الغابطينومن يغبط وليك لا يذممولا يُلم

قال: أجل.. ومما ورد فيها من مدح النبي ﷺ:

لزِمتُ بابَ أَمير الأَنبياءِ، ومَنْ يُمْسِكْ بمِفتاح باب الله يغتنِمِ

فكلُّ فضلٍ، وإِحسانٍ، وعارفةٍ ما بين مستلمٍ منه ومُلتزمِ

علقتُ من مدحهِ حبلاً أعزُّ به في يوم لا عِزَّ بالأَنسابِ واللُّحَمِ

يُـــزرِي قَرِيضِـــي زُهَيْـــرًا حين أَمدحُه ولا يقـــاسُ إِلى جـــودي لـــدَى هَـــرِمِ

محمدٌ صفوةُ الباري، ورحمتُه وبغيَةُ الله من خَلْقٍ ومن نَسَمِ

وصاحبُ الحوض يومَ الرُّسْلُ سائلةٌ متى الورودُ؟ وجبريلُ الأَمين ظَمي

سناؤه وسناهُ الشمسُ طالعةً فالجِرمُ في فلكٍ، والضوءُ في عَلَمِ

قد أَخطأَ النجمَ ما نالت أُبوَّتُه من سؤددٍ باذخ في مظهَرٍ سَنِم

نُمُوا إِليه، فزادوا في الورَى شرَفًا ورُبَّ أَصلٍ لفرع في الفخارِ نُمي

حَوَاه في سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلهم نوران قاما مقام الصُّلبِ والرَّحِم

لما رآه بَحيرا قال: نعرِفُه بما حفظنا من الأَسماءِ والسِّيمِ

سائلْ حِراءَ، وروحَ القدس: هل عَلما مَصونَ سِرٍّ عن الإِدراكِ مُنْكَتِمِ؟

كم جيئةٍ وذهابٍ شُرِّفتْ بهما بَطحاءُ مكة في الإِصباح والغَسَمِ

ووحشةٍ لابنِ عبد الله بينهما أَشهى من الأُنس بالأَحباب والحشَمِ

يُسامِر الوحيَ فيها قبل مهبِطه ومَن يبشِّرْ بسِيمَى الخير يَتَّسِمِ

لما دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظمإٍ فاضتْ يداه من التسنيم بالسَّنِمِ

وظلَّلَته، فصارت تستظلُّ به غمامةٌ جذَبَتْها خِيرةُ الديَمِ

محبةٌ لرسولِ اللهِ أشرِبَها ... قعائدُ الدَّيْرِ، والرُّهبانُ في القِممِ
إِنّ الشمائلَ إِن رَقَّتْ يكاد بها ... يُغْرَى الجَمادُ، ويُغْرَى كلُّ ذي نَسَمِ
ونودِيَ: اقرأْ. تعالى اللهُ قائلُها ... لم تتصلْ قبل مَن قيلتْ له بفمِ
هناك أَذَّنَ للرحمنِ، فامتلأَت ... أَسماعُ مكَّةَ مِن قُدسيّة النَّغمِ
فلا تسلْ عن قريش كيف حَيْرتُها؟ ... وكيف نُفْرتُها في السهل والعَلمِ؟
تساءَلوا عن عظيمٍ قد أَلمَّ بهم ... رمَى المشايخَ والولدانَ باللَّممِ
يا جاهلين على الهادي ودعوتِه ... هل تجهلون مكانَ الصادِقِ العَلمِ؟
لقَّبتموهُ أَمينَ القومِ في صِغرٍ ... وما الأَمينُ على قوْلٍ بمتّهَمِ
فاق البدورَ، وفاق الأَنبياءَ، فكمْ ... بالخُلْق والخَلق مِن حسْنٍ ومِن عِظمِ
جــاءَ النــبيون بالآيــاتِ، فانصــرمت ... وجئتنـــا بحكيمٍ غـــيرِ مُنصَـــرمِ
آياتُه كلّما طالَ المدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهنّ جلالُ العِتق والقِدمِ
يكـــاد في لفظـــةٍ منـــه مشـــرَّفةٍ ... يوصِــيك بــالحق، والتقــوى، وبــالرحمِ
يا أَفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً ... حديثُك الشّهدُ عند الذائقِ الفهِمِ
حَلَّيتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيانِ به ... في كلِّ مُنتَثِر في حسن مُنتظِمِ
بكلِّ قولٍ كريمٍ أَنت قائلُه ... تُحْيي القلوبَ، وتُحْيي ميِّتَ الهِممِ
سَـــرَتْ بشـــائِرُ بالهـــادي ومولِـــده ... في الشــرق والغــرب مَسْــرى النــور في الظلمِ
تخطَّفتْ مُهَجَ الطاغين من عربٍ ... وطيَّرت أَنفُسَ الباغين من عجمِ
رِيعت لها شُرَفُ الإِيوان، فانصدعت ... من صدمة الحق، لا من صدمة القُدمِ
أَتيتَ والناسُ فَوْضَى لا تمرُّ بهم ... إِلاّ على صَنم، قد هام في صنمِ

والأرض مملوءَةٌ جورًا، مُسَخَّرَةٌ ... لكلّ طاغيةٍ في الخَلْق مُحتكِمِ

مُسَيْطِرُ الفرْسِ يبغى في رعيّتهِ ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أَصمٌّ عَمِ

يُعذِّبان عبادَ اللهِ في شُبهٍ ... ويذبَحان كما ضحَّيتَ بالغَنَمِ

والخلقُ يَفْتِك أَقواهم بأَضعفِهم ... كاللَّيث بالبَهْم، أَو كالحوتِ بالبَلَمِ

ومما ورد فيها من وصف النبي ﷺ ورد الشبهات المثارة حول رسالته:

البدرُ دونكَ في حُسنٍ وفي شَرفٍ ... والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرمِ

شُمُّ الجبالِ إِذا طاولتَها انخفضت ... والأَنجُمُ الزُّهرُ ما واسمتَها تسِمِ

والليثُ دونك بأْسًا عند وثبتِه ... إِذا مشيتَ إِلى شاكي السلاح كَمِي

تهفو إِليكَ - وإِن أَدميتَ حبَّتَها ... في الحربِ - أَفئدةُ الأَبطالِ والبُهَمِ

محبةُ اللهِ أَلقاها، وهيبتُه ... على ابن آمنةٍ في كلِّ مُصطَدَمِ

كأَن وجهَك تحت النَّقْع بدرُ دُجًى ... يضيءُ مُلْتَثِمًا، أَو غيرَ مُلتثِمِ

بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ، فغُرَّتُه ... كغُرَّةِ النصر، تجلو داجيَ الظلَمِ

ذُكِرْت باليُتْم في القرآن تكرمةً ... وقيمةُ اللؤلؤ المكنونِ في اليُتمِ

اللهُ قسّمَ بين الناسِ رزقَهُمُ ... وأَنت خُيِّرْتَ في الأَرزاق والقِسمِ

إِن قلتَ في الأَمرِ:"لا"، أَو قلتَ فيه: "نعم" ... فخيرَةُ اللهِ في "لا" منك أَو "نعمِ"

أَخوك عيسى دَعَا ميْتًا، فقام لهُ ... وأَنت أَحييتَ أَجيالاً مِن الرِّممِ

والجهْل موتٌ، فإِن أُوتيتَ مُعْجِزةً ... فابعثْ منالجهل،أَو فابعثْ من الرَّجَمِ

قالوا: غَزَوْتَ، ورسْلُ اللهِ ما بُعثوا ... لقتْل نفس، ولا جاءُوا لسفكِ دمِ

جهلٌ، وتضليلُ أَحلامٍ، وسفسطةٌ ... فتحتَ بالسيفِ بعد الفتح بالقلمِ

لما أَتى لكَ عفوًا كلُّ ذي حَسَبٍ ... تكفَّلَ السيفُ بالجهالِ والعَمَمِ
والشرُّ إِن تَلْقَهُ بالخيرِ ضِقتَ به ... ذَرْعًا، وإِن تَلْقَهُ بالشرِّ يَنحسِمِ
سَل المسيحيّةَ الغراءَ: كم شرِبت ... بالصّاب من شَهوات الظالم الغَلِمِ
طريدةُ الشركِ، يؤذيها، ويوسعُها ... في كلِّ حينٍ قتالاً ساطعَ الحَدَمِ
لولا حُماةٌ لها هبُّوا لنصرَتِها ... بالسيف; ما انتفعتْ بالرفق والرُّحَمِ
لولا مكانٌ لعيسى عند مُرسِلهِ ... وحُرمَةٌ وجبتْ للروح في القِدَمِ
لَسُمِّرَ البدَنُ الطُّهرُ الشريفُ على ... لَوْحَيْن، لم يخشَ مؤذيه، ولم يَجمِ
جلَّ المسيحُ، وذاقَ الصَّلبَ شانِئهُ ... إِن العقابَ بقدرِ الذنبِ والجُرُمِ
أَخُو النبي، وروحُ اللهِ في نُزُل ... فُوقَ السماءِ ودون العرشِ مُحترَمِ
علَّمْتَهم كلَّ شيءٍ يجهلون به ... حتى القتالَ وما فيه من الذِّمَمِ

السيد عبدالله الهدار الحضرمي:

قلت: ومن الصالحين الذين سمعت أنهم ساروا على أقدام البردة الشـريفة السـيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي.

قال: أجل.. ذلك الشاعر الصالح المحب..

قلت: فارو لي من قصيدته ما يذكرنا بالحبيب..

قال: لا بأس.. يقول في قصيدته العصماء في مدح حبيبه ﷺ:

أبيت أرعى نجوم الليل في الظلم ... لم تغمض العين من وجدي ولم تنم
أبيت ليلي أناجي الشهب مرتقباً ... ضوء الصباح كملسوع من الصمم
والقلب ما زال خفّاقاً ومضطرباً ... مما احتوى من عظيم الشوق والألم
والعين تذرف بالدمع الغزير أسى ... من لوعة الوجد يحكي فائض الديم

يا قلب مالك طول الدهر مضطرباً | لم تستفق وإذا قيل استفق تهم
رميتني عامداً قصداً بلا سبب | هل ينبغي الرمي للأحباب بالحمم
رفقاً على دنف رفقاً على كلف | من الصبابة والأشواق في سقم
سقم الصبابة في قلبي له ضرم | أواه من لوعة الأشواق والضرم
ليت الحرارة من قلبي قد انطفأت | ياليتها أصبحت كالمورد الشبم
أبيت ليلي من الأشواق في قلق | والقلب يخفق من شجواه كالعلم

ثم يقول:

بسيد الخلق شمس الحق معتصمي | محمد خير معصوم ومعتصم
له فررت حبيب الله حجته | ومصدر الفضل والعرفان والكرم
أصل الوجود وروح الكون بهجته | زين الشمائل والآداب والشيم
مطهر الأرض من رجس ومن درن | من عابدي وثن من عابدي صنم
لله من منقذ الإنسان من سقر | خير البرية من عرب ومن عجم
لولاه ما سارت الركبان عن طرب | إلى مدينته الغراء والحرم
أسمى الورى فطرة أعلاهم نسباً | أرقى الخليقة في قدس وفي العظم
أصوله طهر المولى عقائدهم | طهراً جرى سابقاً من سالف القدم
كرامة وامتيازاً للحبيبـ | عليه الله صلى عظيم الشان والهمم
من أسعد الكون إسعاداً وطهره | وسن أعظم ماقد سن من نظم
أتى لنا بكتاب الله معجزة | يهدي إلى الرشد كم يحلو بكل فم
وجاء يقرؤه باسم الرشاد | على الوجود من كان ذا سمع وذا صمم

سبت عقول بني الإنسان لهجته لا يستطيع لعمري وصفها قلمي

تفجرت منه أنهار الفصاحة والبيان والعلم والآداب والحكم

كلامه معجز الله ميزه وهديه خير هدي للناس كلهم

قد خصه الله بالتقدير قدره في سابق العلم قد والاه بالنعم

فكل فضل فمن فضل النبي وقل ماشئت في فضل رب التاج والشمم

تعاظمت أشرقت أرجاء ساحته بنوره في نواحي الأرض كالنجم

لله ماناله المختار من شرف مقامه الفذ لم يدرك ولم يرم

أثنى الإله على أخلاقه وأتى في سورة النون في الفرقان والقلم

يكفي القرآن ثناء في شمائله لله ما جاء في القرآن من قسم

لله من قسم ماناله أحد لا فخر أرفع من هذا لدى الأمم

وقد دعا أمم الدنيا بأجمعها وكان ذلك بعد الرعي للغنم

أخلاقه قط لم يظفر بها بشر رتل شمائله الحسناء بالنغم

أزكى البرية أخلاقاً وأنبلهم قصداً وأوفاهم بالعهد والذمم

يسدي النوال بلا من يكدره يحنو على الناس من صحب ومن حشم

وأزهد الخلق في الدنيا وزهرتها حول الملذات والزينات لم يحم

لم يمتليء جوفه والله من شبع وساده حشوه ليف من الأدم

والمال وافاه لكن كان ينفقه على المقلين من ذي الجوع والعدم

قـــد ارتضـــى بحيـــاة الكـــد عن رغب من يحـــذ حـــذو حيـــاة الطهـــر يتسم

شعراء مسيحيون

بعد أن أنشد لي الغريب القصيدة بصوته العذب قال: لم يقتصر مدح النبي ﷺ على المسلمين وحدهم.. حتى المسيحيون لهم نصيب من هذا.

قلت: المسيحيون !؟

قال: أجل.. ألم تعلم أن مسيحيي العرب أقرب إلى الإسلام من قـربهم للمسـيحية نفسها، حتى أني سمعت بعضهم يدافع على انتمائه للحضارة الإسلامية، ويفخر بـذلك.. ويعتبر الحضارة الغربية حضارة شذوذ (1).

قلت: فسم لي بعض هؤلاء الشعراء الأفاضل.

وصفي قرنفلي:

قال: منهم وصفي قرنفلي **(**1911 ـ 1978)، الذي كان في طليعة رابطة الكتاب السوريين، وصدر له ديوان وحيد بعنوان (وراء السراب)

وقد خاف قرنفلي أن يوصف بمجاملة المسلمين أو مداهنتهم لحاجـات في نفسـه، فبدأ بالدفاع عن نفسه، وتبرير مدحه رسول الله ﷺ، فأعلن أن طائف الحب طاف بـه، فأترع كؤوس الهوى، والإعجاب بالنبي اليعربي فقال:

قـــد يقولـــون: شـــاعرٌ نصـــراني ... يرســـل الحب في كِـــذابِ البيـــانِ

يتغنى هوى الرسولِ.. ويهذي ... بانبثاق الهدى من القرآنِ

ينتحي الجبهة القويةَ يحدوها ... رياءً والشعر (لا وجداني)

كذبوا – والرسولِ – لم يجرِ يومًا ... بخلاف الذي أكن لساني

ما تراءيتُ بالهوى بل سقاني ... طائفٌ من الحب والهوى ما سقاني

أوَعارٌ على فتىً يعربي ... أن تغنى بالسيد العدناني ؟!

أوليس الرســول منقــذَ هــذا الشــرق ... من ظلمــــة الهـــوى والهـــوانِ ؟

أفكُنا لولا الرسول سوى العبدان ... بئست معيشة العبدان ؟!

أو ليس الوفاء أن تخلِص المنقذ ... حبًّا إن كنت ذا وجدان ؟!

1) انظر رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (حضارة)

فالتحيات والسلام أبا القاسم ... تُهدى إليك في كل آن !

جورج صيدح:

ومنهم جورج صيدح الكاتب المهجري الذي كتب قصيدة رائعة في مدح النبي ﷺ باسم (حراء يثرب) يستنهض فيه الأمة، مذكرًا إياها بما بعث النبي ﷺ من الحمية والهمة والأنفة، مشيرًا إلى تدنيس القدس الشريف ؛ حتى إنه ليقتبس آية من القرآن ـ من سورة الرحمن ـ يضمنها القصيدة، فيقول:

يا من سريتَ على البراق ... وجُزت أشواط العَنان

آن الأوان لأن تجدّد ... ليلة المعراج.. آن

عرّج على القدس الشريف ... ففيه أقداسٌ تهان

ماذا دهاهم؟هل عصوْك ... فأصبح الغازي جبان ؟

أنت الذي علمتهم ... دفع المهانة بالسنان

ونذرت للشهداء جنات ... وخيرات حسان

يا صاحبيّ: بأي آلاء ... النبي تكذبان ؟!

جورج سلستي:

ومنهم الشاعر المهجري جورج سلستي الذي كتب قصيدة بعنوان (نجوى الرسول الأعظم) وهي قصيدة مليئة بالعاطفة الصادقة، وكأنما كتبها مسلم:

أقبلتَ كالحق وضّاحَ الأسارير ... يفيض وجهُك بالنعماء والنور

على جبينك فجرُ الحق منبلجٌ ... وفي يديك جرت مقاليدُ الأمورِ

فرحتَ فينا، وليل الكفر معتكر ... تفري بهديك أسداف الدياجير

وتمطر البيد آلاءً وتُمرِعها يمنًا ... يدوم إلى دهر الدهاريرِ

أبيتَ إلا سموّ الحق حين أبى ... سواك إلا سموَّ البُطل والزورِ!

وقال يصف الصحراء العربية التي أطلعت شمس المصطفى ﷺ:

ما أنتِ بالمصطفى يا بيدُ مجدبةً كلا ولا أنتِ يا صحراءُ بالبورِ

أطلعتِ من تاهت الدنيا بطلعته ونافستْ فيه حتى موئلَ الحورِ

بوركتِ أرضًا تبث الطهرَ تربتُها كالطيبِ.. بثته أفواه القواريرِ

الدين ما زال يزكو في مرابعها والنبل ما انفك فيها جدَّ موفورِ

والفضل والحلم والأخلاق ما فتئت تحظى هناك بإجلال وتوقيرِ

ويعتذر للنبي ﷺ عن تقصير شعره في الوفاء بحقه، فيقول:

يا سيدي يا رسول الله معذرةً إذا كبا فيك تبياني وتعبيري

ماذا أوفيك من حق وتكرمةٍ وأنت تعلو على ظني وتقديري ؟!

وأنت ربُّ الأداء الفذ في لغةٍ تشأو اللُّغى حسنَ تنميقٍ وتصويرِ

على لسانك ما جن البيان به فذلك الشعر يرنو شبهَ مسحور !

آي من الله.. ما ينفك مُعجزُها يعيي على الدهرِ أعلام التحاريرِ

تلوتَهـــــا فســـــرت كـــــالنور مؤتلقًا يطـــوي الـــدنا بين مـــأهولٍ ومهجـــورِ !

محبوب الخوري الشرتوني:

ومنهم محبوب الخوري الشرتوني، وهو من شعراء المهجر الشمالي، الذين كتبوا في رسول الله ﷺ رافعًا إياه إلى مستوى النموذج البشري الأتم، أو مثال البطولة الأوحد، وقد كتب قصيدة بعنوان (قالوا تحب العرب؟) يقول فيها:

قـــــالوا تحب العُـــــرْب؟قلت: أحبهم يقضـــــي الجـــــوارُ عليّ والأرحـــــامُ

قالوا: لقد بخلوا عليك، أجبتهم أهلي وإن بخلوا عليّ كرام

قالوا الديانة؟قلت: جيل زائل وتزول معْه حزازةٌ وخصامُ

ومحمد.. بطل البرية كلها هو للأعارب أجمعين إمام

الشاعر القروي:

ومن أشهر شعراء المهجر الجنوبي رشيد سليم الخوري الذي اشتهر بالشاعر القروي، وقد كتب قصيدة بعنوان (عيد البرية) يستحث فيها المسلمين لاستعادة مجدهم القديم منها، ويقرئ رسول الله ﷺ سلاماته وحبه، داعيًا إلى التحاب والتآخي بين المسلمين والنصارى، فيقول:

يا فاتح الأرض ميداناً لدولته ... صارت بلادُك ميداناً لكل قوي

يا قومُ هذا مسيحيٌّ يذكّركم ... لا يُنهِض الشرقَ إلا حبُّنا الأخوي

فإن ذكرتم رسول الله تكرمة ... فبلّغوه سلام الشاعر القروي

خليل مطران:

ومنهم خليل مطران الذي كتب قصيدة تسمى (رأس السنة الهجرية) يقول فيها:

عانى محمد ما عانى بهجرته ... لمأرب في سبيل الله محمود

وكم غَزاةٍ وكم حربٍ تجشمها ... حتى يعود بتمكين وتأييد

صعبان راضهما: توحيدُ معشرهم ... وأخذُهم بعد إشراك بتوحيد

وبدؤه الحكم بالشورى يتم به ... ما شاءه الله من عدل ومن جود

وله قصيدة احتفالية أخرى شارك فيها المسلمين، عنوانها: (عظة العيد الهجري)، يمدح فيها ويُكبِر الهلال رمز الإسلام، أو هو الرسول ﷺ نفسه فيقول:

سلام على هذا الهلال من امرئ ... صريح الهوى، والحر لا يتكتم

سلام وتكريم.. بحق كلاهما ... وأشرف من أحببتَه من تكرم

هويتك إكبارًا لمن أنت رمزه ... من المأرب العلوي لو كان يفهم

مارون عبود:

ومنهم مارون عبود الشاعر اللبناني الذي كتب قصيدة مطولة في مدح النبي ﷺ

يقول فيها:

لولا كتابُك ما رأينا معجزًا   في أمةٍ مرصوصة البنيانِ
حملت إلى الأقطار من صحرائها   قبسَ الهدى ومطارفَ العمرانِ
هادٍ يُصوَّر لي كأن قوامه   متجسدٌ من عنصر الإيمان

إلياس فرحات:

ومنهم الشاعر الشهير إلياس فرحات الذي يقول في قصيدته (يا رسولَ الله):

غَمَرَ الأَرْضَ بِأَنْوَارِ النُّبُوَّةْ   كَوْكَبٌ لَمْ تُدْرِكِ الشَّمْسُ عُلُوَّهْ
لَمْ يَكُدْ يَلْمَعُ حَتَّى أَصْبَحَتْ   تَرْقُبُ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا دُنُوَّهْ
بَيْنَمَا الكَوْنُ ظَلاَمٌ دَامِسٌ   فُتِحَتْ فِي مَكَّةَ لِلنُّورِ كُوَّةْ
وَطَمَى الإِسْلاَمُ بَحْرًا زَاخِرًا   بِأَوَاذِيِّ الْمَعَالِي وَالفُتُوَّةْ
مَنْ رَأَى الأَعْرَابَ فِي وَثْبَتِهِمْ   عَرَفَ البَحْرَ وَلَمْ يَجْهَلْ طُمُوَّهْ
إنَّ فِي الإِسْلاَمِ لِلْعُرْبِ عُلاً   إنَّ فِي الإِسْلاَمِ لِلنَّاسِ أُخُوَّةْ
فَادْرُسِ الإِسْلاَمَ يَا جَاهِلَهُ   تَلْقَ بَطْشَ اللهِ فِيهِ وَحُنُوَّهْ
يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا أُمَّةٌ   زَجَّهَا التَّضْلِيلُ فِي أَعْمَقِ هُوَّةْ
ذَلِكَ الجَهْلُ الذِي حَارَبْتَهُ   لَمْ يَزَلْ يُظْهِرُ لِلشَّرْقِ عُتُوَّهْ
قُلْ لأَتْبَاعِكَ صَلُّوا وَادْرُسُوا   إِنَّمَا الدِّينُ هُدَىً وِالْعِلْمُ قُوَّةْ

عبد الله يوركي حلاق:

ومنهم الشاعر السوري عبد الله يوركي حلاق مؤسس مجلة الضاد في حلب، فله قصيدة بعنوان (قبس من الصحراء)، يشيد فيها بالرسول ﷺ.. يقول فيها:

بعث الشــــريعة من غيــــاهب رمسِــــها   فــــــــرعى الحقــــــــوق وفتَّح الأذهانا

أمحمدٌ.. والمجدُ نسج يمينه   مجدَّت في تعليمك الأديانا
ولأنــــــــه داس الجهالـــــــــة وانتضى   ســـــــيف الجهـــــــاد، وحطَّم الأوثانا
فلقد ربينا في ظلال عروبة   عرباء.. تشرق عزة وأمانا
ما نحن إلا إخوةٌ نسعى إلى   إسعاد أمتنا.. وصونِ حمانا

جاك صبري شماس:

ومنهم الشاعر السوري جاك صبري شماس الذي تشهد معظم دواوينه الشعرية، ومقالاته على محبته وولائه للعروبة وإشادته بالدين الإسلامي، وافتخاره بالرسول ﷺ.. يقول في قصيدة له بعنوان (أوراق اعتمادي):

إني مسيحيٌّ أجلُّ محمدًا   وأجلُّ ضادًا.. مهدُه الإسلامُ
وأجلُّ أصحاب الرسول وأهله   حيث الصحابة صفوةٌ ومقام
كحَّلت شعري بالعروبة والهوى   ولأجل طه تفخر الأقلام
أودعت روحي في هيام محمد   دانت له الأعراب والأعجام

إلياس قنصل:

ومنهم الشاعر إلياس قنصل الذي ثم يخاطب رسول الله ﷺ معتذرًا، مشيدًا بالقرآن ومن جاء به، فيقول:

رسولَ الله: عفوَك ؛ إن عذلي   لتنبيه النفوس الغافلات
كتابك زينة الأجيال تزهو   بمعجز آيهِ أمُّ اللغات
ودينُك نعمةٌ في الكون ضاءت   فنوَّرَت النواحي المظلمات
تكرم يا إله العرش واجعل   بلاد العُرب للعرب الاباة

شبلي الملاط:

ومنهم الشاعر اللبناني شبلي الملاط، وهو أحد أبرز الشعراء العرب في النصف

الأول من القرن العشرين الذي ينفي عن الإسلام والقرآن دعوى تفريق للأمة، فيقول:

لمن البلاد؟أليس من أصحابها أنتم ونحن؟فما لنا لا نهتدي ؟
حتى متى لا نستفيق ؟! وكلنا نحيا وندفن تحت جو أوحد ؟
حتى متى التفريق يلعب دوره فينا ونصغي سامعين لمفسد ؟
ويظل مَن بث المفاسد سيدًا والصالح الأعمال مغلولَ اليد
ويبيت من تدعو البلاد أئمة متشاغلين ببِيعةٍ وبمسجد
والله ما قال المسيح تباغضوا حتى نكون ولا كتاب محمد
لكنما أيدي الجهالة بدّلت أبناء هذا القطر شر مبدد

ثم يطالب بإنهاء التعصب الذي يوقع الأمة في الهوان والمذلة، فيقول:

وتساهلوا عند الأمور وأعرضوا عمن يقول بعيسوِي ومحمدي
ودعوا التعصب إنه الداء الذي يقضي عليكم بالهوان السرمدي
ولتشعلوا هذي العواطف وليكن كل من الأعياد عيد المولد

أدباء أسلموا

قلبت دفتر الغريب.. فرأيت أسماء غـير عربيـة، فتعجبت من ذلـك، فقلت: أرى في الدفتر أسماء أخرى غير عربية.. من أين لها أن تتعلم العربية، وتكتب بها مدح النبي ﷺ !؟

قال: أصحاب تلك الأسماء أدباء من سائر الأمم جذبتهم أشعة شمس محمد ﷺ إلى الإسلام، فلذلك سجلتهم في هذا الفصل.

قلت: فهل تعلم هؤلاء العربية؟

قال: الشعر موجود في كل لغات العـالم.. والحب موجـود في كـل الكلمـات نثرهـا وشعرها.. والمحب الصادق يعبر بكل الألسنة.

ويليام بيكارد:

كان من تلك الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (ويليام بيكارد)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا هو المؤلف والروائي والشاعرالبريطاني ويليام بيكارد، وهو حاصل على شهادة البكالوريوس في الفنون والآداب (كانتاب)، والدكتوراه في الأدب (لندن)، وهو مؤلِّفٌ واسع الشهرة، من أعماله: ليلى والمجنون، ومغامرات القاسم، والعالم الجديد، ومؤلَّفاتٌ أخرى.

قلت: هل التقيت به؟

قال: لا.. ولكني قرأت رساله له يتحدث فيها عن رحلته للإسلام، ومما ورد فيها: (لم أُدرك حقيقة أنِّي وُلِدت على فطرة الإسلام إلَّا بعد مضيِّ العديد من السنين. ففي المدرسة والجامعة كنت مشغولاً ـ وربما بقوَّة ــ بقضايا اللحظة الآنيَّة وشؤونها.. لم أكن أعتبر مهنتي في تلك الأيام مهنةً لامعة، ولكنَّها كانت في تطوُّر، ووسط محيطٍ مسيحيٍّ تعلَّمت عن الحياة الطيِّبة، وكان الإيمان بالله تعالى والعبادة والحق من الأمور الَّتي تسرُّني، وإن كنت أُقدِّس أيَّ شيءٍ فإنَّ ذلك كان هو النُبل والشَّجاعة)

وفيها يقول: (أنا القادم من كامبريدج، ذهبت إلى أواسط أفريقيا، حيث حصلت على تعيينٍ في إدارة الوصاية على أوغندا. كان وجودي هناك ممتعاً ومثيراً أكثر مما كنت أحلم به في بريطانيا، وكنت مجبراً ـ تبعاً للظروف المحيطة ــ أن أعيش وسط الأخوَّة السوداء من الإنسانيَّة، ويمكنني القول بأنِّي تعلَّقت بهم بمحبةٍ بسبب بساطة نظرتهم السعيدة للحياة. لقد شدَّني الشَّرق دائماً. ففي كامبريدج قرأت (الليالي العربيَّة)؛ ووحيداً في أفريقيا قرأت (الليالي العربيَّة)؛ ووجودي في تجوالٍ موحشٍ في أوغندا لم يقلل من عزة الشرق في نفسي.

ثم ـ وبعد تحطُّم حياتي الهادئة في الحرب العالمية الأولى ـ عدت أدراجي مسرعاً تجاه الوطن في أوروبا؛ وساءت صحَّتي. ومع استعادة صحَّتي تطوَّعت للجيش، لكنَّ طلبي رُفض على أُسسٍ صحيَّة. لذلك عملت على تقليل الخسائر وسجَّلت في (الجندرمة) ـ بعد أن عملت بطريقةٍ ما على اجتياز الفحص الطبِّي ــ وشعرت بالرَّاحة حين تسلَّمت بدلتي العسكريَّة كجنديٍّ في فرقةٍ للمشاة. خدمت حينئذٍ في الجبهة الغربيَّة في فرنسا، واشتركت في معركة السوم سنة 1917، حيث جُرحت وأُسرت. نُقلت عبر بلجيكا إلى ألمانيا حيث كنت في المشفى. وفي ألمانيا رأيت الكثير من المعاناة الإنسانيَّة، وخاصَّةً الرُّوس المصابين بالديزنطاريا. ووصلت إلى حافَّة الموت جوعاً. جُرحي ـ وهو كسرٌ في ساعدي الأيمن ــ لم يُشف بسرعة، فكنت عديم النَّفع

للألمان، فأرسلت إلى سويسرا من أجل عمليَّةٍ جراحيَّة.

أذكر جيِّداً كم كان عزيزاً عليَّ حتى في تلك الأيام حين كنت أفكِّر بـالقرآن الكـريم، في ألمانيا كنت قد كتبت رسالةً للأهل ليرسلوا لي نسخةً من القـرآن الكـريم. وعلمت في السنوات اللاحقة أنَّهم أرسلوا لي نسخةً ولكنَّها لم تصلني أبداً.

في سويسرا ـ وبعد عمليَّةٍ في ساعدي ورجلي ــ تحسَّـنت صـحَّتي، فكـان بإمكـاني الخروج بين الحين والآخـر، فاشـتريت نسـخةً من الترجمـة الفرنسـيَّة لمعـاني القـرآن الكريم ـ وهي اليوم من أعز ممتلكاتي ــ وعندئـذٍ شـعرت بسـعادةٍ عظيمـة. كـان ذلـك وكأنَّ شعاعاً من الحقيقة الخالدة قد أشرق عليَّ بالبركة. كانت يـدي اليمـنى مـا تـزال غير ذات نفع، فتمرَّنت على كتابـة القـرآن الكـريم بيـدي اليسـرى. وارتبـاطي بـالقرآن الكريم يظهر بوضوح أكبر عندما أقول بـأنَّ واحـدةً من أشـدِّ الـذكريات وضـوحاً وعـزَّة لديّ من كتاب (الليالي العربية) كانت عن فتىً وُجد وحيداً في المدينة البائـدة، جالسـاً يقرأ القرآن الكريم، غافلاً عمَّا يحيط به.

في تلك الأيام في سويسـرا، أعـدت تسـجيل نفسـي رسـمياًّ كمسـلم. وبعـد توقيـع الهدنة عدت إلى لندن، وذلك في شهر كانون الأول من سـنة 1918، وبعـد ذلـك ــ في عام 1921 ـ سجَّلت لدراسة الأدب في جامعة لندن. وكان أحد المواضيع الَّتي اخترتهـا هي اللغة العربيَّة، وكنت أحضر محاضراتها في الكلية الملكيَّة. وكـان في يـومٍ أن ذكـر أستاذي في اللغة العربيَّة ـ السيِّد بلشا من العراق رحمه الله تعـالى ــ القـرآن الكـريم وقال: إن كنت تؤمن به أم لا، فإنَّك ستجد أنَّه أكثر الكتب إثارةً وأنَّه يستحقُّ الدِّراســة. فأجبت: أوه، ولكنِّي أُومن به. فاجأ هـذا الجـواب أسـتاذي بشـدَّة وأثـار اهتمامـه، وبعـد حديثٍ قصيرٍ دعاني لأُرافقـه إلى مسـجد لنـدن في نوتينـغ هيـل جيت. وبعـد ذلـك كنت أحضر للصلاة باستمرار في هذا المسجد لكي أتعلَّم أكـثرعن تطـبيق الإسـلام، إلى أن أعلنت ارتباطي بالأمَّة الإسلاميَّة في رأس السنة الجديدة لعام 1922.

كان هذا قبل ما يقارب الربع قرن، ومنذئذٍ وأنا أعيش حياةً إسلاميَّةً قولاً وعملاً بكلِّ ما في استطاعتي، فقوَّة الله تعالى وحكمته ورحمته ليس لها حدود. وحقـول المعرفـة تمتدُّ أمامنا إلى مـا وراء الأفـق. وفي حجِّنـا خلال هـذه الحيـاة أشـعر بيقينٍ أقـوى بـأنَّ اللباس الوحيد المناسب الَّذي نستطيع لبسه هو الخضـوع للـه تعـالى، وأن نعتمـر على رؤوسنا عمامةً من الحمد، وأن نملأ قلوبنا حباًّ للخالق الواحد سبحانه وتعـالى. والحمـد

لله ربِّ العالمين)

فانسان مونتييه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذ االفصل اسم (فانسان مونتييه)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا أديب فرنسي كان يشغل منصب أستاذ اللغـة العربيـة والتاريخ الإسلامي بجامعة باريس، وشغل منصب رئيس (مؤسسة الدراسات الإسلامية في داكار)... وله عـدة مؤلفـات منهـا: كتـاب (الإرهـاب الصـهيوني)، و(المسـلمون في الاتحاد السوفيتي)، و(الإسلام في إفريقيا السوداء)، و(مفاتيح الفكر العـربي)، كمـا قـد قام بترجمة ابن خلدون إلى الفرنسية، وقد أسلم وتسمى بـ (المنصور بالله الشافعي)

وقد تشرفت بالالتقـاء بـه والحـديث معـه عن سـبب اختيـاره الإسـلام، فقـال: لقـد اخترت الإسلام ديناً، ألقى به وجه ربي لأسباب شتى، منها الأسباب الدينيـة، والأسـباب الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية والعاطفية.

ثم استطرد في تفصيل ما أجملـه قـائلا: لقـد اخـترتُ دين الفطـرة، وهـو الإسـلام، وكنت فيما مضى كاثوليكيّاً.. وفي الكاثوليكية أمور كثيرة لم أقتنع بها، ولم أفهمها، مثل كرسي الاعتراف، والوسيط لدى الإله، فضلاً عن اعتمادها على أسرارٍ، وقربـان، وغـير ذلك من أمـور لم أسـتطع الإيمـان بهـا.. في حين أن دين الإسـلام بـرئ من هـذا كلـه، فيكفي المسـلم أن يتوجـه إلى ربـه مباشـرة بـدون وسـيط، وبـدون كرسـي اعـتراف، فيستجيب الله دعاءه.

لقد كانوا يُعلمونني كما يُعلمون غيري أن عيسـى إلـه ابن إلـه، وكـانوا يزعمـون أن محمداً ليس نبيّاً، وبالتالي ينكرون الإسلام.. ثم حدث أن وقع بين يدي ــ لأول مـرة في حياتي ـ ترجمة لمعاني القرآن الكريم، واستوقفتني معاني كلماته، مثل: ﴿ قُلْ هُـوَ اللـهُ أَحَدٌ اللهُ الصّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص)

واسَتَوقَفَني قول الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:30)

كما أذكر أني قرأت حديثاً لرسول الله ﷺ، شعرت تجاهه بأن الإسـلام دين الفطـرة بحق، وهـو قـول رسـول اللـه ﷺ: (كـل مولـود يُولَـدُ على الفِطْـرة، فـأبواه يُهَوّدِانـه أو يُنَصّرِانه، أو يُمَجّسَانِهِ)

1) انظر: صحيفة الاتحاد التي تصدر في الإمارات العربية المتحدة، الصادرة في العاشر من نوفمبر 1989 (بتصرف)، والجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبدالصمد.

ولذلك كله آمنت برسالة محمد ﷺ ومصداقيتها، مثلما آمنتُ تماماً بوحدانية الله.. إن محمداً رسول الله حقاً.. والقرآن الكريم مُوحىً به من عند الله وليس من إنشاء محمد أو صُنعه... ورسالته السماوية السمحاء ليست مقصورة على العرب.. وإنما هي للناس كافة.

لقد رأيت في الإسلام تسامحاً مدهشاً، والأخلاق الرفيعة هدف كل مسلم.. كما رأيت رفضاً للرهبنة التي تجافي طبيعة الإنسان البشرية، فالإسلام يحفظ للإنسان إنسانيته، فيمنع عليه الرهبنة، ويدفعه إلى التمتع بالحياة وطيباتها، ما لم تتعارض المتعة مع تعاليم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج:78)

سكت قليلا، وقد بدت على وجهه قسمات ألم لم يستطع كتمها، ثم قال: أعداء الإسلام يَدَّعُون أن المسلمين لا يرضون من غيرهم إلا أن يكونوا مسلمين، فإذا لم يكونوا مسلمين أشهروا عليهم سيف الجهاد.. في حين أنهم لو عقلوا ذلك جيداً لعلموا أن الجهاد الإسلامي مفروض، ولكن من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

إنهم يتهمون الإسلام بالقسوة المفرطة، مع أن الإسلام دين السلام، والتسامح، والعفو، والمغفرة... لقد تناسى هؤلاء كل العقوبات النصرانية فيما مضى، والتي أفرطت في القسوة، والتعذيب الذي وصل إلى حد الإحراق، وفصل أجزاء الجسد، فضلاً عن كثرة حالات الإعدام، وهو ما لم يشهده الإسلام في تاريخه.

كما أنهم يتهمون الإسلام بظاهرة الرَقّ التي وُجِدَتْ قبل الإسلام وليس بعده، بل حين انتشر الإسلام وطُبقت تعاليمه كان يسعى لإلغاء الرّق، بل إن كثيراً من الكفَّارات للذنوب التي يقدم عليها المرء هو تحرير الرقاب الذي عَدَّه الإسلام تقرباً وطاعة لله.

ثم يحاولون الإساءة إلى الإسلام من زاوية تعدد الزوجات، ولو عقلوا لوَجَدُوا أنه وأن سمح حقّاً بذلك، فإنه في الوقت ذاته وضع شروطاً دقيقة أساسها العدل المطلق، والمعاملة الطيبة، كما نظر إلى النساء التي حالت ظروفهن دون الزواج، أو لمرض الزوجة، أو لأسباب أخرى.

إن الإسلام بعظمته وعمقه، وبنقائه ورقُيه، وبتسامحه ودعوته لكرامة الإنسان في كل زمان ومكان لن يستطيع أحدٌ أن ينال منه.. لأن الإسلام في ذاته قوي.. وتعاليمه تدعو إلى القوة بعدم ارتكاب المعاصي والذنوب التي تضعف القوة، مثل الزِّنَى، وشُرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وغير ذلك مما يحرمه الدين الحنيف.

ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة عذبة، وقال: لهذا اخـترت الإسـلام.. من أجـل أن أشعر بالراحة في رحابه وظلاله.. نعم، اعتنقتُ الإسلام لأشعر وأدرك أنني اعتنقت ديناً لا يفصل بين البدن والروح، بين النفس والجسد.. يكفيـني أن الإسـلام دين نقي، يـدفع إلى الأخلاق والتحلي بها، وإلى الكرامة الإنسانية والتمسك بها، من أجـل ذلـك شـهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.. وعلى ذلك ألقى ربي.

رابعا ـ الفنانون

فتحت دفتر الغريب على فصله الرابع، فوجدت عنوانه (الفنانون)، فقلت: من تقصد بالفنانين؟

قال: أولئك الذين تذوقوا الجمال وعاشوه وراحوا بما أوتوا من مواهب يحاولون تصويره وإمتاع الخلق به.

قلت: فما علاقة هؤلاء بأشعة محمد ﷺ ؟

قال: أقرب الناس إلى النبي ﷺ هم الفنانون..

قلت: ما تقول؟

قال: إن المعاني النبيلة التي يوجهنا إليها الإسلام، والتي تتناسب مع الجمال الذي يمتلئ به الكون لا يتذوقه إلا صاحب حس مرهف، وذوق رفيع.

قلت: ولكني أرى الفنانين أعظم الناس غفلة، فهم يجرون في أودية الغواية أكثر من الشعراء.

قال: أولئك أحد أربعة: إما لا حظ لهم في الفن، وإنما هم أدعياء فيه، وإما أن الإسلام عرض لهم بصورة مشوهة جعلتهم ينفرون منه، وإما أن الإسلام لم يعرض لهم أصلا.

قلت: أرأيت لو أن الإسلام عرض لهم بصورته سيقبلونه؟

قال: لا يقبلونه فقط.. بل يقبلون عليه بكل كيانهم، ويسخرون كل طاقاتهم في سبيل خدمته.

قلت: ولكن البعض يأمرهم بتطليق الفن قبل اعتناق الإسلام.

قال: أولئك حجب بين الله وبين عباده.. الإسلام يطلق الطاقات ولا يعطلها.. والفنان المسلم هو الذي يعبد الله في محراب فنه.. فيجعل فنه مرقى من مراقي الهداية ومعراجا

من معارج الروح.

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة في هذا الفصل.. فهل التقيت بهم جميعا؟

قال: هناك من التقيت به.. وهناك من حدثني بحديثه الثقاة.. وهناك من قرأت له، أو قرأت عنه.

الفونس إيتان دينيه:

كان من أول الأسماء التي وضعت في هذا الفصل اسم (الفونس إيتان دينيه)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذ الرجل من كبار الفنانين والرسامين العالميين، وقد دُوّنت أعماله في معجم (لاروس)، ولا تزال جدران المعارض الفنية في فرنسا تزين بلوحاته الثمينة، وفيها لوحته الشهيرة (غادة رمضان)

وقد أسلم، وألّف بعد إسلامه العديد من الكتب القيمة، منها كتابه الفذ (أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(ربيع القلوب)، و(الشرق كما يراه الغرب)، و(محمد رسول الله)، و(الحج إلى بيت الله الحرام).. وغيرها.

وقد ذكر في هذه الكتب أسرار انجذابه الإسلامه، ومن أقواله في ذلك:

(لقد أكد الإسلام من الساعة الأولى لظهوره أنه دينٌ صالحٌ لكل زمان ومكان، إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجة الحضارة)(2)

(لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله إلينا اليوم لكان ميسورًا له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم)(3)

(أحسّ المشركون، في دخيلة نفوسهم، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم وكلهم كثيرًا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ

---

1) ايتين دينيه (1861 – 1929) Et. Dinet تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (1927)، وحج إلى بيت الله الحرام (1928).

2) محمد رسول الله، ناصر الدين دينيه، ص (345)
3) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 35.

الأخاذة التي ألهمها إيمان سماوي، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا)(1)

(إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمدًا كانت في الواقع معجزات وقتية وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة) وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة)(2)

(إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يحدث مثل هذا التّأثير في [نفوس علماء] لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟.. لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمِّروا فيه. أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ذلك الأمي الذي لم ينل حظًا من المعرفة؟.. كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات)(3)

(لا عجب أن نرى النبي الأمي يتحدى الشعراء، ويعترف لهم بحق نعتهم له بالكذب، أن ائتوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك)(4)

1) محمد رسول الله، ص 106.

2) محمد رسول الله، ص 118.

3) محمد رسول الله، ص 119.

4) محمد رسول الله، ص 121.

وتحدث عن تأثير دراسته لشخصية محمد ﷺ في انجذابه للإسلام، ومن أقواله في هذا قوله: (إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جدًا حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع وأعطاها صفة الشيء الجديد)(1)

وقوله: (إن نبي الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم)(2)

(إن سنة الرسول الغرّاء باقية إلى يومنا هذا، يجلوها أعظم إخلاص ديني تفيض به نفوس [مئات الملايين] من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة)(3)

(كان النبي يعنى بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه في المرآة.. ليتمشط أو ليسوي طيات عمامته.. وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق سبحانه وتعالى)(4)

(لقد (دعا) عيسى إلى المساواة والأخوة، أما محمد فوفق إلى (تحقيق) المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته)(5)

وتحدث عن تأثير المناهج الإسلامية في انجذابه للإسلام، فقال: (إن الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس. بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل أسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون)(6)

(إن الإسلام [هو] عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية التي تقوم عليها تلك العقيدة.. [ونحن نطلب] من خصومنا أن يدلونا عليها في الإنجيل أو في كتاب مقدس آخر إن كانوا صادقين)(7)

---

1) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 15.

2) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 16.

3) محمد رسول الله، ص 51.

4) محمد رسول الله، ص 312.

5) محمد رسول الله، ص 323.

6) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 15.

7) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 15.

(إن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا)(1)

(كما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات.. وبينما تجد الإسلام يهيج من نفسه الرجل العملي في أسواق لندن حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات.. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن وتملكه الشعر)(2)

(عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام كان هذا الدين القويم قد تمّ تنظيمه نهائيًا، وبكل دقة، حتى في أقل تفاصيله شأنًا)(3)

وتحدث عن إعجابه الشديد بسماحة الإسلام والمسلمين، فقال: (من الحقائق التاريخية أن النبي أعطى أهل (نجران) المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيين في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي يحبها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميثون الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم)(4)

(ليس من فخار المسيحية أن تضم في تعدادها أولئك الذين يباعون لها من ولدان العبيد ولا أولئك اليتامى الذين ينشأون في مهادها نشأة دينية مسيحية. أما الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم فإنما هم الخاصة سواء كانوا من الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية)(5)

(إن الإسلام بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلاً، ففي أقل من مائة عام، ورغم قلة

---

1) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 18.

2) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 38.

3) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 315.

4) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 18.

5) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص 39.

عددهم، استطاع العرب الأمجاد وقد اندفعوا لأول مرة في تاريخهم، خارج حدود جزيرتهم.. أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس)(1)

(المسلمون، على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يستخدموا القوة أبدًا خارج حدود الحجاز.. لإكراه غيرهم على الإسلام. وإن وجود المسيحيين في أسبانيا لدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط قرطبة. ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تامًا على المسلمين)(2)

(إن القدوة الحسنة التي لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة، لهي أقوى أثرًا في النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين. ولقد اضطر العالم (دوزي) – رغم تعصبه ضد الإسلام – إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا في إسبانيا (اعتنقوا الإسلام عن عقيدة)(3)

(وكيف لا يكون المسلم متسامحًا وهو يجل الأنبياء الذين يجلّهم اليهود والنصارى فموسى بالنسبة إليه (كليم الله) وعيسى (روح الله) يجب تبجيله كما يبجل محمد (حبيب الله):﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ (البقرة: 285)(4)

كات ستيفنس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (كات ستيفنس)(5)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا هو الاسم القديم للمغني الإنجليزي (يوسف إسلام)

قلت: أعرفه.. ويعلم الله شدة محبتي له.. فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد تشرفت بذلك، وقد جمعني معه ــ ومعنا بعض الناس ــ مجلس من

---

1) محمد رسول الله، ص 315.

2) محمد رسول الله، ص 332.

3) محمد رسول الله، ص 333.

4) محمد رسول الله، ص 333.

5) ولد يوسف إسلام تحت اسم ستيفن ديمتري جورجيو في شهر يوليو/ تموز 1947 لأم سويدية وأب من القبارصة اليونانيين. وتربى ستيفن في حي ويست إند بلندن في شقة تقع فوق المطعم المملوك لوالديه.

ونظراً لأن والده كان من القبارصة اليونانيين، فإنه كان يعتنق مذهب الأورثوذكس اليونان لكنه تلقى تعليمه في مدرسة كاثوليكية. وحصل ستيفنز على 8 ألبومات ذهبية متتالية، وحازت أغانيه على شهرة واسعة في بريطانيا والولايات المتحدة.

المجالس، وقد سأله بعضهم عن قصة إيمانه، فقال: أود أن أبدأ قصتي بما تعرفونه جميعًا، وهو أن الله قد أستخلفنا في الأرض وأرسل لنا الرسل وآخرهم رسولنا محمد ﷺ ليهدينا إلى الطريق القويم، وعلى الإنسان أن يلاحظ واجبه نحو هذا الإستخلاف وأن يسعى لتحضير نفسه للحياة الخالدة القادمة فمن تفوته الفرصة الآن لن تأتيه أخرى فلن نعود ثانية حيث يقول القران الكريم: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: 12-14)، وقال: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (فاطر: 37)

وقد نشأت في بيئة مرفهة تملؤها أضواء العمل الفني الإستعراضي المبهرة.. وكانت أسرتي تدين بالمسيحية، وكانت تلك الديانة التي تعلمتها، وقد تعلمت من خلالها أن الله موجود، ولكن لا يمكننا الإتصال المباشر به، فلا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق عيسى فهو الباب للوصول إلى الله، وبالرغم من اقتناعي الجزئي بهذه الفكرة إلا أن عقلي لم يتقبلها بالكلية.

وكنت أنظر إلى تماثيل النبي عيسى فأراها حجارة لا تعرف الحياة، وكانت فكرة التثليث أو ثلاثية الإله تقلقني وتحيرني، ولكني لم أكن أناقش أو أجادل احتراما لمعتقدات والدي الدينية.

ثم بدأت أنصرف عن الدين شيئا فشيئا.. لأنشغل بالموسيقى والغناء، فقد كنت أرغب في أن أكون مغنيا مشهورا.

وقد أخذتني تلك الحياة البراقة بمباهجها ومفاتنها فأصبحت هي إلهي، وأصبح الثراء المطلق هو هدفي تأسياً بأحد أخوالي الذي كان واسع الثراء، وبالطبع كان للمجتمع من حولي تأثير بالغ في ترسيخ هذه الفكرة داخلي حيث أن الدنيا كانت تعني لهم كل شيء وكانت هي إلههم.

ومن ثم اخترت طريقي وعزمت أن يكون المال هو هدفي الأوحد، وأن تكون هذه الحياة هي مبلغ المنى ونهاية المطاف بالنسبة لي، وكان قدوتي في هذه المرحلة كبار مطربي البوب العالميين، وانغمست في هذه الحياة الدنيوية بكل طاقتي، وقدمت الكثير من الأغاني ولكن داخلي وفي أعماق نفسي كان هناك نداء إنساني ورغبة في مساعدة الفقراء عند تحقيقي للثراء المنشود.

ولكن النفس البشرية ـ كما يخبرنا القرآن الكريم ـ لا تفي بكل ما تعد به، بل تزداد طمعاً كلما منحت المزيد، وقد حققت نجاحاً واسعاً، وأنا لم أتعد سنواتي التسعة عشرة بعد، واجتاحت صوري وأخباري وسائل الإعلام المختلفة، فجعلوا مني أسطورة أكبر من الزمن وأكبر من الحياة نفسها، وكانت وسيلتي لتعدي حدود الزمن والوصول إلى القدرات الفائقة هي الانغماس في عالم الخمور والمخدرات.

بعد مضي عام تقريباً من النجاح المادي والحياة الراقية وتحقيق الشهرة أصبت بالسل ودخلت المستشفى، وأثناء وجودي بالمستشفى أخذت أفكر في حالي وفي حياتي: هل أنا جسد فقط، وكل ما عليَ فعله هو أن أسعد هذا الجسد؟ ومن ثم فقد كانت هذه الأزمة نعمة من الله حتى أفكر في حالي، وكانت فرصة من الله حتى أفتح عيني على الحقيقة وأعود إلى صوابي.. لماذا أنا هنا راقداً في هذا الفراش؟

وأسئلة أخرى كثيرة بدأت أبحث لها عن إجابة، وكان اعتناق عقائد شرق أسيا سائداً في ذلك الوقت، فبدأت أقرأ في هذه المعتقدات، وبدأت لأول مرة أفكر في الموت وأدركت أن الأرواح ستنتقل لحياة أخرى، ولن تقتصر على هذه الحياة، وشعرت آنذاك أني على بداية طريق الهداية، فبدأت أكتسب عادات روحانية مثل التفكر والتأمل وأصبحت نباتياً كي تسمو نفسي وأساعدها على الصفاء الروحي، وأصبحت أؤمن بقوة السلام النفسي وأتأمل الزهور.. ولكن أهم ما توصلت إليه في هذه المرحلة هو إدراكي أني لست جسدا فقط.

وفي أحد الأيام بينما كنت ماشياً إذا بالمطر يهطل، وأجدني أجري لأحتمي من المطر، فتذكرت مقولة كنت قد سمعتها قبل ذلك، وهي أن الجسد مثل الحمار الذي يجب تدريبه حتى يأخذ صاحبه أينما يريد، وإلا فإن الحمار سيأخذ صاحبه إلى المكان الذي يريده هو.

إذاً فأنا إنسان ذو إرادة، ولست مجرد جسد كما بدأت أفهم من خلال قراءتي للمعتقدات الشرقية، ولكني سئمت المسيحية بالكلية، وبعد شفائي عدت لعالم الغناء والموسيقى ثانية، ولكن موسيقاي بدأت تعكس أفكاري الجديدة، وأتذكر إحدى أغنياتي التي قلت فيها:

ليتني أعلم

ليتني أعلم من خلق الجنة والنار

ترى هل سأعرف هذه الحقيقة وأنا في فراشي

أم في حجرة متربة

بينما يكون الآخرين في حجرات الفنادق الفاخرة.

وعندها عرفت أني على الطريق السليم.

وفي ذلك الوقت كتبت أيضاً أغنية أخرى (الطريق إلى معرفة الله)

وقد ازدادت شـهرتي في عـالم الموسـيقى، وعـانيت من أوقـات عصـيبة لأن شـهرتي وغناي كانتا تزدادان بينما كنت من داخلي أبحث عن الحقيقة.

وفي تلك المرحلة أصبحت مقتنعاً أن البوذية قد تكـون عقيـدة نبيلـة وراقيـة ولكـني لم أكن مستعداً لترك العالم والتفرغ للعبادة، فقـد كنت ملتصـقاً بالـدنيا ومتعلقـاً بهـا، ولم أكن مستعداً لأن أكون راهباً في محراب البوذية وأعزل نفسي عن العالم.

وبعدها حاولت أن أجد ضالتي الـتي أبحث عنهـا في علم الأبـراج أو الأرقـام ومعتقـدات أخرى لكني لم أكن مقتنعاً بأي منها.

ولم أكن أعرف أي شيء عن الإسلام في ذلك الوقت وتعرفت عليـه بطريقـة أعتبرهـا من المعجزات، فقـد سـافر أخي إلى القـدس وعـاد مبهـوراً بالمسـجد الأقصـى وبالحركـة والحيوية التي تعج بين جنباته على خلاف الكنائس والمعابد اليهوديـة الـتي دائمـاً مـا تكـون خاوية.

وقد أحضـر لي أخي من القـدس نسـخة مترجمـة من القـرآن، وعلى الـرغم من عـدم إعتناقه الإسلام إلا أنه أحس بشيئ غريب تجاه هذا الكتاب وتوقع أن يعجبني وأن أجـد فيـه ضالتي.

وعندما قرأت الكتاب وجدت فيه الهداية، فقد أخبرني عن حقيقة وجـودي والهـدف من الحياة وحقيقة خلقي ومن أين أتيت، وعندها أيقنت أن هذا هو الدين الحق، وأن حقيقة هذا الدين تختلف عن فكرة الغرب عنه وأنها ديانة عمليـة وليسـت معتقـدات تسـتعملها عنـدما يكبر سنك وتقل رغبتك في الحياة مثل المعتقدات الأخرى.

ويصـم المجتمـع الغـربي كـل من يـرغب في تطـبيق الـدين على حياتـه والإلـتزام بـه بالتطرف، ولكني لم أكن متطرفاً فقد كنت حائراً في العلاقة بين الـروح والجسـد فعـرفت أنهمـا لا ينفصـلان وأنـه بالإمكـان أن تكـون متـديناً دون أن تهجـر الحيـاة وتسـكن الجبـال، وعرفت أيضاً أن علينا أن نخضع لإرادة الله وأن ذلك هو سبيلنا الوحيد للسمو والرقي الذي قد يرفعنا إلى مرتبة الملائكة، وعندها قويت رغبتي في اعتناق الإسلام.

وبدأت أدرك أن كل شئ من خلق الله ومن صنعه وأنه لاتأخـذه سـنة ولا نـوم، وعنـدها

بدأت أتنازل عن تكبري لأني عرفت خالقي وعرفت أيضاً السبب الحقيقي وراء وجودي وهو الخضوع التام لتعاليم الله والانقياد له وهو ما يعرف بالإسلام.

وعندها اكتشفت أني مسلم في أعماقي، وعند قراءتي للقرآن علمت أن الله قد أرسل بكافة الرسل برسالة واحدة، إذاً فلماذا يختلف المسيحيين واليهود؟ نعم، لم يتقبل اليهود المسيح لأنهم غيروا كلامه، وحتى المسيحيون أنفسهم لم يفهموا رسالة المسيح وقالوا أنه ابن الله، كل ما قرأته في القرآن من الأسباب والمبررات بدا معقولاً ومنطقياً.

وهنا يكمن جمال القرآن فهو يدعوك أن تتأمل وأن تتفكر وأن لا تعبد الشمس أو القمر، بل تعبد الخالق الذي خلق كل شيء، فالقرآن أمر الإنسان أن يتأمل في الشمس والقمر وفي كافة مخلوقات الله. فهل لاحظت إلى أي مدى تختلف الشمس عن القمر؟ فبالرغم من إختلاف بعدهما عن الأرض إلا أن كل منهما يبدو وكأنه على نفس البعد من الأرض! وفي بعض الأحيان يبدو وكأن أحدهما يغطي الأخر! سبحان الله.

وعندما صعد رواد الفضاء إلى الفضاء الخارجي ولاحظوا صغر حجم الأرض مقارنة بالفضاء الخارجي أصبحوا مؤمنين بالله لأنهم شاهدوا آيات قدرته.

وكلما قرأت المزيد من القرآن عرفت الكثير عن الصلاة والزكاة وحسن المعاملة.. ولم أكن قد اعتنقت الإسلام بعد، ولكني أدركت أن القرآن هو ضالتي المنشودة، وأن الله قد أرسله إليّ، ولكني أبقيت ما بداخلي سرا لم أبح به إلى أحد.

وبما أن فهمي يزداد لمعانيه عندما قرأت أنه لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من الكفار تمنيت أن ألقى إخواني في الإيمان.

وفي ذلك الوقت فكرت في الذهاب إلى القدس مثلما فعل أخي، وهناك بينما أنا جالس في المسجد سألني رجل: ماذا تريد؟ فأخبرته بأني مسلم، وبعدها سألني عن اسمي فقلت له: (ستيفنس)، فتحير الرجل، وانضممت إلى صفوف المصلين، وحاولت أن أقوم بالحركات قدر المستطاع.

بعد عودتي إلى لندن قابلت أختا مسلمة اسمها نفيسة، وأخبرتها برغبتي في إعتناق الإسلام، فدلتني على مسجد نيو ريجنت، وكان ذلك في عام 1977 بعد عام ونصف تقريباً من قراءتي للقرآن، وكنت قد أيقنت عند ذلك الوقت أنه عليّ أن أتخلص من كبريائي وأتخلص من الشيطان وأتجه إلى اتجاه واحد.

وفي يوم الجمعة بعد الصلاة اقتربت من الإمام وأعلنت الشهادة بين يديه.

سكت قليلا، ثم قال: رغم تحقيقي للثراء والشهرة إلا أني لم أصل إلى الهداية إلا عن طريق القرآن، والآن أصبح بإمكاني تحقيق الاتصال المباشر مع الله بخلاف الحال في المسيحية والديانات الأخرى.

لقد أخبرتني سيدة هندوسية ذات مرة قائلة: (أنت لا تفهم الهندوسية، فنحن نؤمن بإله واحد، ولكننا نستخدم هذه التماثيل للتركيز).. ومعنى كلامها أنه يجب أن تكون هناك وسائط لتصلك بالله، ولكن الإسلام أزال كل هذه الحواجز، والشيء الوحيد الذي يفصل بين المؤمنين وغيرهم هو الصلاة، فهي السبيل إلى الطهارة الروحية.

وأخيراً أود أن أقول: إن كل أعمالي أبتغي بها وجه الله، وأدعو الله أن يكون في قصتي عبرة لمن يقرؤها.. وأود أن أقرر أني لم أقابل أي مسلم قبل اقتناعي بالإسلام، ولم أتأثر بأي شخص، فقد قرأت القرآن ولاحظت أنه لا يوجد إنسان كامل، ولكن الإسلام كامل، وإذا قمنا بتطبيق القرآن وتعاليم الرسول ﷺ، فسوف ننجح في هذه الحياة.

ويل سميث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (ويل سميث)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا ممثل أمريكي وفقه الله، فأسلم بعد ما أثار فضوله للبحث في الإسلام تمثيله لفيلم (علي)، الذي يحكي قصة حياة لاعب الملاكمة الأمريكي المسلم (محمد علي كلاي)، فعندما قرأ قصة حياة محمد علي، بدأ يتساءل حول ماهية هذه الديانة العظيمة، وبدأ يبحث في أسرارها وكيف تزداد قوة يوما بعد يوم وكيف يزداد كذلك عدد معتنقيها يوما بعد يوم، وخاصة في الولايات المتحدة أكثر منها في أي بلد آخر.

واكتشف ويل سميث، بعد قراءة الكثير عن الإسلام، الحقيقة، التي تؤكد أن الإسلام هو الطريق الذي يجب اتباعه في هذه الحياة، وكان قد اتصل ببعض الإتحادات والمراكز الإسلامية بالولايات المتحدة، وقرر اعتناق الإسلام.

وقد ذكر هذا الممثل العالمي أنه سوف يواصل الدراسة والبحث حول الإسلام لكي يستطيع أن يطبقه كما ينبغي أن يطبق.

وقد ذكر السيد سفيان زاكوت.. وهو مدير رابطة مسلمي أمريكا الشمالية.. أن محمد علي هو مثل جيد للمسلمين، وكذلك هو متحدث جيد عن الإسلام في الولايات المتحدة في كافة المجالات، وإذا استطاع ويل سميث أن يقوم بنفس الدور فسوف يكون ذلك مفيد جدًا للمسلمين في أمريكا.

وكان ويل سميث قد ظهر في برنامج في التليفزيون الأمريكي لجمع التبرعات لحـادث سبتمبر إلى جوار محمد علي، وقد دافعا عن الإسلام، وقالوا عنه: إنه دين السلام والمحبة.

جينو لو كابوتو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (جينو لو كابوتو)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا فنان إيطالي، وقد كان يرأس مهرجان البحر الأبيض المتوسط في مدينة بيشيله الإيطالية منذ عام 1996 وله اهتمامات عدة في المسرح والسينما والشعر وكذلك في ثقافة الأطفال وفنونهم بالإضافة الي كونه رائد المهرجان الدولي شعر ـ موسيقي ـ مسرح الذي يقام في مدينة كونفر سانو بجنوب إيطاليا.

وقد قدر الله أن ألتقي به بعد إعلان إسلامه في عمان، وقد سألته عن سر اعتناقه للإسلام، فأجاب: منذ أكثر من عشرين سنة، وأنا أطوف في بلدان عربية وإسلامية وأعيد مخزوني الثقافي متوغلاً في تفاصيل الإسلام حيث تعلمت أركانه والآذان والصلاة فضلاً عن اقترابه الشديد من الدين المسيحي وعرفت أن الإسلام هو إلى الأبد، مدعوماً بنصائح ودروس كنت أتلقاها من صديقي الدكتور سلطان العويضة الملحق الثقافي السعودي إذ تفرغ لي كثيراً وأعطاني الكثير من المعلومات والقصص وسير المسلمين وأهمية القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء محمد ﷺ لدرجة أني شعرت بانتصار روحي فور دخولي الدين الإسلامي، هذا وقررت تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم والمواظبة علي حفظ حدود الله بالإضافة الي دراسة تاريخ الصحابة من المسلمين الأوائل.

وأضاف: لقد وجدت أن كل الحضارات الإنسانية تستلهم قيمها من الدين الإسلامي نفسه، وأن ابن خلدون وابن رشد هما عربيان وللأسف ان الغرب ينظر الي الإسلام نظرة خاطئة.

وقال: أرى أن الإسلام يحمل المعاني السامية والنبيلة ويهذب الذات ويعطي للإنسان أملاً وحياة تنبض بالخير والعطاء والإيمان والسلام، وأدركت أن الإنسان لا يمكن أن يعيش لوحده من دون الله.

جيرمان جاكسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (جيرمان جاكسون)[1]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا مغن أمريكي.. وهو شقيق المغني المعروف (مايكل جاكسون)، وقد قدر الله أن ألتقي به لأسأله عن سر إسلامه، فكان من جوابه لي: عند زيارتي إلى عدد من دول منطقة الشرق الاوسط في عام 1989 بصحبة أختي الكبرى،

1) انظر قصة إسلامه في حوار أجرته معه مجلة (المجلة) في العدد 966.

حيث زرنا خلال هذه المرحلة البحرين ورحب بنا الكثيرون.

وكنت مـرة أتبـادل الحـديث مـع الاطفـال في المنامـة خلال تلـك الرحلـة، فمن جملـة أسئلتهم البريئة سؤال كان عن ديني، فأجبتهم بأنني مسيحي، وسـألتهم بـدوري عن دينهم، فأجابوني بصوت واحد أن دينهم الإسلام، وكانوا فخورين جدا بالانتماء لهذا الدين، وانطلقـوا في الحديث عنه، وسألتهم أكثر عنه، وصـار كـل واحـد منهم يحـدثني عن الإسـلام بطريقـة أدهشتني، فهؤلاء الاطفال الذين أحببتهم كانوا فخورين جدا بدينهم ويتحـدثون عنـه بسـعادة غامرة.

بعـد عـودتي من البحـرين والحـديث مـع أولئـك الاطفـال عن الإسـلام تيقنت من أنـني سأصبح مسلماً.. وتحدثت مع صديق لي اسمه علي قنبر عن هذا الشعور الذي بـدأ ينتـابني منـذ فـترة، وأفصـحت لـه عن رغبـتي في تعلم المزيـد عن الإسـلام، وسـافرت معـه الى المملكة العربية السعودية لأتعرف على الإسلام أكثر فأكثر، وهناك أعلنت اسلامي.

سكت قليلا، ثم قال: سافرت مع صديقي علي قنبر الى مدينة الرياض لمعرفـة المزيـد عن الإسلام، ومن هناك سافرت الى جدة واصطحبتني اسرة سعودية كريمة بعـد اعتنـاقي للاسلام الى مكة المكرمة لاداء العمرة.

وقد وصف جاكسون أنه بعد إسلامه شعر بأنه ولد من جديد، يقول: كـانت لـدي العديـد من الاسئلة الحائرة التي ابحث لها عن اجابات، خاصة الاسئلة المتعلقة بالمسيحية وعيسى عليه السلام، فوجدت إجابات جاهزة ومقنعة لكل هذه الاسئلة لحظة اعتناقي الإسلام.

وقد كنت في حيرة من امري كمسيحي نشأ في أسرة متدينة، اذ كان يحيرني دائما أن الانجيل مكتوب على ايدي اشخاص عاديين، وكان دائما يخطـر ببـالي أن هـؤلاء بشـر فكـل واحد منهم سيراعي نفسه ومجموعته في ما يكتب، بينمـا القـرآن كتـاب اللـه حفظـه اللـه على مر السنين والاجيال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9)

وفي السـعودية وجـدت اشـرطة جميلـة جـدا للمغـني البريطـاني السـابق والداعيـة الإسلامي يوسف اسلام، وفيهـا منـاظرة حـول الإسـلام والمسـيحية ومنهـا تعلمت الشـيء الكثير.

وقد حدثني في لقائي معه عن الحملة الإعلامية الجائرة التي يعترض لها الإسـلام، وقـد ذكر لي عجبه من أن الناس العاديين في اميركا يصـدقون هـذه الحملـة الاعلاميـة الجـائرة لجهلهم بحقيقة الإسلام وسماحة هذا الدين.

قال جاكسون: ان الحملة الاعلامية الجائرة في اميركا ضد الإسلام والمسلمين لم تقتصر على اجهزة الاعلام المختلفة، بل ان هوليوود عاصمة صناعة السينما الاميركية تحاول فيما تنتجه من أفلام أن تصور للناس ان المسلمين ارهابيون وقتلة واشرار. ولقد عرفت من خلال تجربتي قبل اعتناقي الإسلام وبعده ان الناس عليهم الا يصدقوا ما تنتجه هوليوود من افلام تسيء الى الإسلام والمسلمين. وان هذا التشويه يؤلم كل مسلم ويجعله يتمنى لو انه يستطيع تغيير هذه الصورة بصورة الإسلام الحقيقية اسلام الحضارة والنور، اسلام التسامح والاخاء.

وقد ذكر لي تأثير الإسلام فيه، فقال: لقد قدم لي الإسلام حلا لكل مشكلاتي، فأصبحت إنسانا بلا أي مشاكل، وكنت من داخلي أتغير بشكل رائع، حيث امتنعت عن شرب الخمر تماما وغيرها من الاشياء المحرمة امتثالا لأوامر ديني الجديد.

براين هوايت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (براين هوايت)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم موسيقي بريطاني هداه الله للإسلام، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه (إبراهيم هويت)

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ولست أدري لم اختار أن يبدأ حديثه بقوله: من المحتمل أن أكون عنصريا متطرفا في عنصريتي قبل اعتناقي للدين الإسلامي، الدين الذي علمني معنى التسامح والتراحم بين الناس ونزع عني شرور التطرف والكراهية والقسوة.

ثم أضاف: اعتقد أنه من فرط عنصريتي وتطرفي أنني لم اتحدث مع شخص غير أبيض لمدة 21 عاما من حياتي، فكنت شخصا معتدا بنفسه وبلون بشرته أكثر من اللازم، وأعيش حياة نظيفة وراقية، وأجتهد في عملي كسائر أبناء الشمال البريطاني. وكنت أحسب أن العالم ينتهي عند مدينة ميدلسبره البريطانية، حيث تنشئتي وتربيتي هناك.

ثم حدثني عن كون هذا هو سر إسلامه فيما بعد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد ذكر لي أنه ذهب إلى أحد المساجد في مدينة جوهانسبرج بجنوب إفريقيا، وشاهد مصلين من مختلف الاجناس والألوان يصلون مع بعضهم بعضا، فاندهش لذلك اندهاشا كان مقدمة لإسلامه، قال لي: عندما رأيت ذلك المشهد الرهيب قلت لنفسي: ما

1) انظر: المسلمون الجدد -إعداد: إمام محمد إمام.

هي حقيقة الإسلام؟ هذا الدين الذي يستطيع أن يجمع النـاس في جنـوب افريقيـا من كـل الاماكن ومن مختلف الاجناس والألوان؟ وعندما عدت الى بريطانيا حرصت على البـدء في القراءة عن الدين الإسلامي.

ثم قررت اشهار اسلامي بعد دراسة عميقة للدين الإسلامي، وشعرت بارتيـاح وسـعادة بالغتين، لان الله سبحانه وتعالى هداني الى هذا القرار الخاص باعتناقي للاسلام. وسارعت الى تعليق آلاتي الموسيقية وهجرت شرب الخمر والذهاب الى الحانات والليالي الصاخبة.

كريستيان باكر:

من الأسماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (كريسـتيان بـاكر)، فسألت الغريب عنه، فقال: هـذا اسـم مغنيـة من قنـاة إم تي في (MTV) الأوروبيـة، وقـد ولدت في عائلة بروستانتية وعاشت في هامبورج، بألمانيـا، وقـد حـدثتني عن نفسـها قبـل إسلامها، والألم يعتصرها، فقالت: عنـدما كنت في سـن الواحـدة والعشـرين اشـتركت في راديو هـامبورج كمذيعـة في الراديـو.. وعشـت في نـوتينج هيـل، وكنت البنت الجديـدة في المدينة، لقد دعيت إلى كل مكان، وصورني المصورون وتابعتني الصحافة.. التقيت بـالكثير من المشاهير، واسـتمتعت بوقـتي.. لقـد أنفقت معظم مـالي في الملابس، وسـافرت إلى كل أوروبا، وإلى أفضل الأماكن.

لقد كنت الفتاة الأولى في قناة إم تي في، وظهرت في شاشة التلفـاز طـوال الـوقت، وعرفني الناس في أوروبا كلها، وفي وقت من الأوقات وقفت على المنصـة أمـام سـبعين ألف شخص.. لسبع سنوات قدمت برامج كثيرة، وقابلت الكثيرين من نجوم الغناء.

قلت: فكيف تحولت عن هذه الحياة إلى حياة الإيمان؟

قالت: لقد كنت ـ في كل ذلك الضجيج ـ منجذبة نحو الحياة الروحية، ولكن لم أفعل أي خطوات عملية نحو تلـك الحيـاة إلى أن التقيت في عـام 1992م بعمـران خـان، وهـو من فريق لعبة الكريكت الباكستاني، وكانت تلك أول مرة ألتقي فيها بمسلم.

وقد كان عمران في ذلك الوقت يبحث عن حقيقة الإيمان، وقـد دارت بيننـا الكثـير من النقاشات عن الإسلام، وقد أعطاني بعض الكتب عن الإسلام، وبدأت أقرأ عن دين الله.

وفي ذلك الحين بدأت في تحدي انحيازاتي، وبدأت أنظر بين السطور، وقـرأت القـرآن وبدأ كل شئ يكون له معنى.

قلت: إن قومنا يشوهون موقف الإسلام من المرأة، ألم يؤثر ذلك فيك؟

قالت: كامرأة غربية عصرية وذات درجة علمية، احتجت لأن أنظر إلى رؤية الإسلام للمرأة، لا يمكن أن أقبل بأن أظلم، فاكتشفت أن رسالة الإسلام مؤيدة للمرأة ومؤيدة للرجل، في الإسلام كان للمرأة حق التصويت في عام 600، الرجال يلبسون ملابس محتشمة، والنساء يلبسون ملابس محتشمة، لا أحد من الجنسين يطلق العنان لنظره...بل كلا الجنسين يغض بصره، لا أظن أنها ظاهرة صحية بأن يطلق الناس العنان لشهواتهم الجنسية..إن ذلك يثير الشهوة الخاطئة مرة أخرى.

قلت: فبم اشتغلت بعد إسلامك؟

قالت: لقد فتح الإسلام لي نوافذ كثيرة كانت مغلقة في وجهي.. أنا الآن أصلي الصلوات الخمس، وأصوم شهر رمضان.. وكنت أشرب الخمر في باريس..ولكن الآن لا ألمسها.. وفي عام 2001 ذهبت إلى مكة.. وكانت تجربة رائعة.. لقد عدت بالسعادة والطمأنينة.. وعندما عدت بدأت بالدراسة الجامعية في جامعة ويست مينيستر، حيث درست الطب الطبيعي، والأعشاب، والطب الصيني.. لقد فتحت أمامي أبواب أخرى لعالم عجيب، النظرة الأخرى للإنسان والطبيعة، والصحة والمرض.

هذا ما حدثتني به، وقد كان آخر ما ذكرته لي قولها، والبشر يعلو وجهها: الإسلام هو أكبر هدية حصلت عليها.

خامسا ـ العلماء

فتحت دفتر الغريب على فصله الخامس، فوجدت عنوانه (العلمـاء)، فقلت: من تقصـد بالعلماء.. علماء الدين، أم علماء الدنيا.. أم كلاهما؟

قـال: عنـدما وضـعت هـذا العنـوان كنت لا أزال على دين قـومي، ولهـذا كنت أعتقـد المفاصلة بين الدين والعلم.. فلهذا أطلقت اسم (الأحبار) على علماء الـدين، وأطلقت هـذا الاسم على علماء الدنيا.

قلت: فكيف أتيح لك أن تلقى من علماء الدنيا من يبثك نفحات صدقه.. وأنا لا أراهم إلا مشغولين بمخابرهم وبحوثهم وشهاداتهم وتنافسهم في كل ذلك.

قال: ما تقوله صحيح.. ولكن من هؤلاء العلماء من كان يتيح المجـال لعقلـه ليبحث في أسرار الكون.. وهؤلاء عادة لا يجدون دينا يملؤهم بالقناعة غير الإسلام.

لقد ذكر القرآن الكريم تأثير الإيمـان في العلمـاء، فقـال: ﴿ إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:28)

وقد أخبر القرآن الكريم أن الذين أوتو العلم أقرب الناس إدراكا للحـق، فقـال: ﴿ وَيَـرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ هُـوَ الْحَـقَّ وَيَهْـدِي إِلَى صِـرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ ﴾ (سـبأ:6)

لقد حصل الكثير مما ذكر القرآن الكريم.. بل أنا أجزم أن المسلمين لـو اسـتطاعوا أن ينشروا تلك العجائب التي امتلأ بها القرآن لتحول جميع علماء الدنيا إلى مسلمين..

لقد سمعت مرة الدكتور زغلول النجار[1]، وهو يتحدث عن تأثير نواحي الإعجـاز العلمي في النصـوص المقدسـة.. فقـال: دعيت مـرة لحضـور مـؤتمر عقـد للإعجـاز في موسـكو، فكرهت في بادئ الأمر أن أحضره، لأنه يعقد في بلد كانت هي عاصمة الكفر والإلحاد لأكثر من سبعين سنة، وقلت في نفسي: ماذا يعلم هؤلاء الناس عن الله حـتي نـدعوهم إلي مـا نادي به القرآن الكريم !؟

فقيل لي: لابد من الـذهاب، فـإن الـدعوة قـد وجهت إلينـا من قبـل الأكاديميـة الطبيـة الروسية.. فذهبنا إلي موسكو، وفي أثناء اسـتعراض بعض الآيـات الكونيـة، وبالتحديـد عنـد قول الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَـانَ مِقْـدَارُهُ أَلْـفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة:5) وقف أحد العلمـاء المسـلمين وقـال: إذا كـانت ألـف سـنة

1) من كتاب (الذين هدى الله) للدكتور زغلول النجار.

تساوي قدران من الزمان غير متكافئين دل ذلك علي اختلاف السرعة. ثم بدأ يحسب هذه السرعة فقال: ألف سنة..لابد أن تكون ألف سنة قمرية، لأن العرب لم يكونوا يعرفون السنة الشمسية، والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمرياً، ومدة الشهر القمري هي مدار القمر حول الأرض، وهذا المدار محسوب بدقة بالغة، وهو 2،4 بليون كم.. و2،4 بليون مضروب في 12، وهو عدد شهور السنة، ثم في ألف سنة، ثم يقسم هذا الناتج علي أربع وعشرين، وهو عدد ساعات اليوم، ثم علي ستين ــ الدقائق ــ ثم علي ستين ــ الثواني ـ فتوصل هذا الرجل إلي سرعة أعلي من سرعة الضوء.

فوقف أستاذ في الفيزياء ـ وهو عضو في الإكاديمية الروسية ــ وهو يقول: لقد كنت أظنني ـ قبل هذا المؤتمر ـ من المبرزين في علم الفيزياء، وفي علم الضوء بالذات، فإذا بعلم أكبر من علمي بكثير، ولا أستطيع أن أعتذر عن تقصيري في معرفة هذا العلم إلا أن أعلن أمامكم جميعاً أني (أشهدأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)

ثم تبعه في ذلك أربعة من المترجمين،الذين ماتحدثنا معهم علي الإطلاق، وإنما كانوا قابعين في غرفهم الزجاجية يترجمون الحديث من العربية إلي الروسية والعكس، فجاءونا يشهدون أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ليس هذا فحسب وإنما علمنا بعد ذلك أن التلفاز الروسي قد سجل هذه الحلقات وأذاعها كاملة، فبلغنا أن أكثر من 37 عالماً من أشهر العلماء الروس قد أسلموا بمجرد مشاهدتهم لهذه الحلقات.

التفت الغريب إلي، وقال: هذه ثمرات مؤتمر أكاديمي واحد، فكيف لو اجتهد المسلمون للوصول إلى مخابر هؤلاء العلماء ومحادثتهم وجها لوجه !؟

موريس بوكاي:

كان أول اسم سجل في هذا الفصل اسم (موريس بوكاي)، فقلت: من هذا الرجل.. وكيف أتيح لك أن تلتقي به.. وماذا قال لك.. وما !؟

قاطعني الغريب قائلا: هذا رجل عظيم، وهو من أكثر الشخصيات التي أحترمها.. وهو يمثل العالم المنصف، والباحث الواصل.

قلت: لم؟

قال: هو ـ أولا ـ طبيب فرنسي، بل هو رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس، وقد

منحته الأكاديمية الفرنسية عام 1988م جائزة في التاريخ.. ويُعتبر كتابه (التوراة والقرآن والعلم) من أهم الكتب التي درست الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، وله ـ بالإضافة إليه ـ كتاب (القرآن الكريم والعلم العصري)

قلت: فكيف كانت رحلته إلى الإسلام؟

قال: لقد ذكر ذلك في كتبه.. وقد تشرفت بلقائه، فسمعت ذلك منه مشافهة، ومما ذكره لي قوله: (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل.. فإننا نجد نصّ إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض)(1)

قلت: فقد اهتدى إلى الإسلام بسبب مقارنته بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في النواحي العلمية؟

قال: أجل.. لقد كان شديد الإعجاب بما في القرآن الكريم من نواحي الإعجاز العلمي، وقد قال لي ـ في لقائي معه ـ: (لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نصّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا.. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام.. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة)(2)

لقد (تناولتُ القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية.. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي

1) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 150.

2) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 145.

تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة والتي لم يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة)(1)

لقد كنت أقول لنفسي: (كيف يمكن لإنسان – كان في بداية أمره أمّيًا -.. أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟)(2)

ليس ذلك فقط هو الذي جعل موريس بوكاي يمتلئ قناعة بالإسلام، هناك شيء آخر له أهميته الكبرى.

قلت: تقصد موقف الإسلام من العلم؟

قال: أجل.. فهو موقف مختلف كثيرا، بل مناقض لموقف الكنيسة، لقد قال لي ـ وهو الباحث المنصف ـ (إن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا)(3)

وقال لي: (في الإسلام كان الموقف إزاء العلم مختلفًا [عن المسيحية] إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي يقول: (اطلب العلم من المهد إلى اللحد) أو ذلك الحديث الآخر الذي يقول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) هناك أمر رئيسيّ: القرآن، إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوي أيضًا على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق تمامًا مع معطيات العلم الحديث)(4)

وقد ذكر لي أن تلك المقارنات التي كان يجريها بين موقف المسلمين من العلم طيلة تاريخهم الطويل مقارنة بموقف الكنيسة كانت سببا من أسباب إسلامه، فهو يقول: (علينا أن نتذكر أنه في عصر عظمة الإسلام، أي بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا

---

1) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 145.

2) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص 150.

3) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص 14.

4) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص 140.

المسيحية، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والاكتشافات بالجامعات الإسلامية.. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة، ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمائة ألف مجلد.. [وكان] الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها، ولكن كم هي كثيرة تلك المخطوطات القديمة التي وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة، ولكم نحن مدينون للثقافة العربية في الرياضيات (فالجبر عربي) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلم النباتات والطب إلى غير ذلك. لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية في جامعات العصر الوسيط الإسلامية. في ذلك العصر كان الناس أكثر تأثرًا بالروح الدينية مما هم عليه في عصرنا، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا في آن واحد مؤمنين وعلماء. كان العلم الأخ التوأم للدين. لكم كان ينبغي على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك)[1]

قلت: أحسبني.. بل أحسب كل من قرأ كتب موريس يعلم هذا.. ولكني أبحث عن الشعاع الأول الذي اهتدى به إلى شمس محمد.

قال: لقد ذكر لي قصة ذلك[2].. بل أخبرني عن حياته الشخصية فذكر لي أنه ولد من أبوين فرنسيين، وترعرع كما ترعرع أهله في الديانة النصرانية ، ولما أنهى تعليمه الثانوي انخرط طالبا في كلية الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب ، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة.

فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته وغيرت له كيانه.

التفت الغريب إلي، وقال: أنت تعلم أن فرنسا من أكثر الدول اهتماما بالآثار والتراث، ولهذا عندما تسلم الرئيس الفرنسي (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام 1981 طلبت فرنسا من دولة (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة..

فتم نقل جثمان فرعون من مصر.. وهناك وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسي منحنيا هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه مازال حيا.

وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا حملت مومياء فرعون بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة

1) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص 140 – 141.

2) انظر في هذا مقالا لد.محمد يوسف المليفي في كتاب (لماذا أسلموا)

تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هـذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

لقد كان المعالجون ـ في ذلك الموقف ـ مهتمين بـترميم المومـيـاء، بينمـا كـان اهتمـام رئيسهم (موريس بوكاي) مختلفا عنهم غاية الاختلاف.. فقد كـان يحـاول أن يكتشـف كيـف مات هذا الملك الفرعوني.

وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية ..

لقد كانت بقايـا الملح العـالق في جسـده أكـبر دليـل على أنـه مـات غريقـا، وأن جثتـه استخرجت من البحر بعد غرقه فورا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه.

لكن ثمـة أمـراً غريبـاً مـازال يحـيره، وهـو كيـف بقيت هـذه الجثـة دون بـاقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر..!

كان موريس بوكاي يعد تقريراً نهائيا عما كان يعتقـده اكتشـافاً جديـداً في انتشـال جثـة فرعون من البحـر وتحنيطهـا بعـد غرقـه مباشـرة ، حـتى همس أحـدهم في أذنـه قـائلا: لا تتعجل، فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

لكنه استنكر بشدة هـذا الخـبر ، واسـتغربه ، فمثـل هـذا الإكتشـاف لايمكن معرفتـه إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة ، فقال له أحدهم: إن قـرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولا وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلا إلا في عـام 1898 ميلادية أي قبل مائتي عام تقريبا ، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألـف وأربعمئـة عام.

وكيف يستقيم في العقل هذا ، والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونـوا يعلمـون شيئا عن قيام قدماء المصـريين بتحنيـط جثث فـراعنتهم إلا قبـل عقـود قليلـة من الزمـان فقط.

جلس (موريس بوكـاي) ليلتـه محـدقا بجثمـان فرعـون ، يفكـر بإمعـان عمـا همس بـه صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثـة بعـد الغـرق.. بينمـا الكتـاب المقدس يتحدث عن غـرق فرعـون أثنـاء مطاردتـه لسـيدنا موسـى عليـه السـلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى !؟

وهل يعقل ان يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه !؟

لم يستطع (موريس) أن ينام ، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله (فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد).. وبقي موريس بوكاي حائراً.

حتى الكتاب المقدس لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه.

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون.. ولكن (موريس) لم يهنأ له قرار ولم يهدأ له بال منذ أن هزه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة.

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (يونس:92)

لقد كان وقع الآية عليه شديدا.. بل رجت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن)

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذى ذهب به.. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع القرآن الكريم ، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة نص عليها قوله تعالى: لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت:42)

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجا ، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)

قلت: كيف كان تأثير هذا الكتاب على الأوروبيين؟

قال: لقد كان تأثيرا خطيرا.. فهو من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات.. ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنكليزية والأندونيسية والفارسية والصربكرواتية والتركية والأوردوية والكجوراتية والألمانية، لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب.

قلت: ألم يلق هذا الكتاب ردا من الدوائر الرسمية التي تعودت على بث الشبهات عن الإسلام؟

قال: بلى.. لقد بذلوا كل جهودهم للرد عليه.. ولكنهم لم يكتبوا غير تهريج جدلي، ومحاولات يائسة أملتها عليهم وساوس الشيطان.. وقد كان آخرهم الدكتور (وليم كامبل) في كتابه المسمى (القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم) فقد شرق وغرب ولم يستطع في النهاية أن يحرز شيئا.

بل الأعجب من هذا أن بعض العلماء في الغرب بدأ يجهز رداً على الكتاب ، فلما انغمس بقراءته أكثر وتمعن فيه زيادة.. أسلم ونطق بالشهادتين على الملأ.

كيث مور:

رأيت اسم (كيث مور)، فسألت الغريب عنه، فقال: تعرفت على هذا الرجل في بعض الجامعات حيث تقدم ليلقي محاضرة بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة)، وقد قدمه مدير الجامعة(1) بقوله: محاضرنا اليوم هو الأستاذ كيث مور.. وهو أستاذ علم التشريح والأجنة في جامعة تورنتو بكندا، وقد تدرج فيها حتى وصل إلى هذه المرتبة في جامعات عديدة، منها جامعة توينابك في الغرب الكندي حيث كان هناك لمدة 11 سنة، ورأس العديد من الجمعيات الدولية، منها على سبيل المثال جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية الأخرى، كما انتخب عضواً بالجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وعضواً في إتحاد الأمريكتين في التشريح أيضاً، وقد ألف العديد من الكتب، بعض هذه الكتب في مجال التشريح الأكلينكي وعلم الأجنة، وله ثمانية كتب تعتبر مرجعاً لطلاب كليات الطب، وقد ترجمت إلى ست لغات: الإيطالية، والألمانية، والبرتغالية، والإسبانية، واليونانية، والصينية)

بعد هذا التقديم تقدم الدكتور مور لإلقاء محاضرته، فقال: (لقد أسعدني جداً أن أشارك في توضيح هذه الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخلق في القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله لأن كل هذه

(1) المقدم هو الدكتور عبدالله نصيف مدير جامعة الملك عبدالعزيز في ذلك الحين، وقد تولى منصب أمين العام لرابطة العالم الإسلامي بعد ذلك.

المعلومات لم تكتشف إلا حديثاً، وبعد قرون عدة وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله)

ثم قال: (إنني أشهد بإعجاز الله في خلق كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمداً أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين، لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين، وأريد أن أؤكد على أن كل شيء قرأته في القرآن عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين)

لاحظت في وجوه الجمع الحاضر سرورا عظيما، واهتماما كبيرا بما يقوله هذا الدكتور الباحث المنصف، ولاحظت فوق ذلك نفحات الصدق التي ذكرها لي معلم السلام.

حاولت أن أقترب منه لأستوضح أسرار ذلك التصريح الخطير، لكني لم أتمكن، ولكني مع ذلك رأيت الدكتور زغلول النجار الذي ذكر لي أنه قال في مؤتمر موسكو للإعجاز العلمي (إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول مالم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل علي شئ فإنما يدل علي أن هذا القرآن لايمكن أن يكون إلا كلام الله، وأن محمداً رسول الله)

فقيل له بعد انتهاء محاضرته: هل أنت مسلم؟.. فقال: لا.. ولكني أشهد أن القرآن كلام الله.. وأن محمداً مرسل من عند الله، فقيل له: إذاً.. فأنت مسلم، قال: أنا تحت ضغوط اجتماعية تحول دون إعلان إسلامي الآن[1]، ولكن لاتتعجبوا إذا سمعتم يوماً أن كيث مور قد دخل الإسلام.

قال زغلول النجار: ولقد وصلنا في العام الماضي أنه قد أعلن إسلامه فعلاً، فلله الحمد والمنة.

حاولت أن أقترب منه في مناسبة أخرى، لكني لم أتمكن، وقد أخبرني بعضهم عن سر ذلك التوجه فقال: لقد كان النور الذي أطل منه هذا العالم الفاضل على الإسلام هو

---

1) قد ذكرنا في مناسبات مختلفة عدم اشتراط الإعلان بالطرق المعمول بها، بل قد يكون من الحكمة عدم هذا الإعلان، خاصة إذا ترتبت عليه مفاسد تتعلق بالمعلن عن إسلامه أو من يرتبطون به، وقد ذكر القرآن مؤمن آل فرعون الذي لم يعلن إيمانه إلا بعد أن رأى المناسبة الداعية لذلك، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر:28)

مراحل خلق الإنسان السبعة التي ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون 12ـ14)

فقد وجد هذا العالم أن علم الأجنة بأجهزته المتطورة يثبت هذه المراحل وتطابقها مع المراحل المذكورة في القرآن.

تيجاتات تاجسن:

رأيت اسم (تيجاتات تاجسن)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا البروفيسور (تيجاتات تيجاسون).. وهو رئيس قسم علم التشريح في جامعة شيانك مي، وهو من تايلند.

وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني[1]، فقد قال لي: بدأت صلتي بالبروفيسور تاجات تاجاسون عندما عرضنا عليه بعض الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه في مجال علم التشريح.

وعندما أجاب عليها قال لي: ونحن كذلك يوجد لدينا في كتبنا المقدسة البوذية أوصاف دقيقة لأطوار الجنين.

فقلت له: أنا بشوق لكي أعرف هذه الأوصاف، وأريد أن أطلع على ما كتب في هذه الكتب.

وعندما جاء ممتحناً خارجياً لطلاب الطب في جامعة الملك عبدالعزيز بعد عام سألته، فاعتذر لي، وقال: كنت قد أجبتك دون أن أتثبت لهذا الأمر، ولما بحثت عنه وجدت أنه لا توجد النصوص التي ذكرتها لك.

عندئذٍ قدمت له محاضرة مكتوبة للدكتور (كيث مور)، وكان عنوان المحاضرة (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة)، وسألته عن الأستاذ كيث مور: هل تعرفه؟ فقال: إنه رجل من كبار علماء العالم المشهورين في هذا المجال.

وبعد أن اطلع على هذه المحاضرة اندهش، وسألناه عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه كان منها ما يتعلق بالجلد، قلت له: هل هناك مرحلة ينعدم عندها الإحساس بألم

---

1) انظر: إنه الحق، للشيخ الزنداني، ببعض التصرف، وانظر شهادته المصورة في: http://alhakekah.com/aduio/tejasen-1-56k[1].ﷺam

الحرق ؟

قال: نعم إذا كان الحرق عميقاً ودمر عضو الإحساس بالألم.

قلت: حسناً ما رأيك إذن أن القرآن الكريم الذى عند تاريخ نزوله على محمد ﷺ لأكثر من ألف وأربعمائة عام قد أشار إلى تلك الحقيقة العلمية عندما ذكر الطريقة التى سيعاقب الله به الكافرين يوم القيامة حيث يقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء:56)

فالقرآن هنا يقرر أنه عندما ينضج الجلد يخلق الله للكفار جلداً جديداً كى يتجدد إحساسهم بالألم وذلك تأكيد من جانب القرآن على أن الأطراف العصبية التى تجعل الإنسان يشعر بالألم موجودة فى الجلد.

قال: هذا أمر يدعو للدهشة والغرابة حقيقة، فتلك معرفة مبكرة جداً عن مراكز الإحساس والأعصاب فى الجلد ولا أدرى كيف ذكر قرآنكم هذا؟

قلت: ترى أيمكن أن تكون هذه المعلومات قد استقاها محمد نبى الإسلام من مصدر بشرى؟

قال: بالطبع لا.. ففى ذلك الوقت لم تكن هناك معارف بشرية حول هذا الموضوع.

قلت: من أين إذن وكيف عرف ذلك ؟

قال: المؤكد عندى هو استحالة المصدر البشرى، ولكنى أسألكم أنتم من أين تلقى محمد هذه المعلومات الدقيقة ؟

قلت: من عند الله.

قال: الله !! ومن هو الله ؟

قلت: إنه الخالق لهذا الوجود. إذا رأيت الحكمة، الحكمة تدل على الحكيم، وإذا رأيت العلم في هذا الوجود دلك على أنه من صنع العليم، وإذا رأيت الخبرة في تكوين هذه المخلوقات دلتك على أنها من صنع الخبير. وإذا رأيت الرحمة شهدت لك على أنها من صنع الرحيم، وهكذا إذا رأيت النظام الواحد في هذا الوجود والترابط المحكم دلك ذلك على أنه من صنع الخالق الواحد سبحانه وتعالى.

بعد أن شرحت له المفهوم الإسلامى للفظ الجلالة الأعظم راقته تلك الرؤية، وعاد إلى بلاده ليحاضر عن هذه الظاهرة القرآنية التى عايشها، وتأثر بها حتى جاء موعد المؤتمر الطبى السعودى الثامن، واستمع فى الصالة الكبرى التى خصصت للإعجاز على مدى أربعة أيام لكثير من العلماء، ولا سيما غير المسلمين يحاضرون عن ظاهرة الإعجاز العلمى.

وفى ختام جلسات المؤتمر وقف البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) يعلن: بعد هذه الرحلة الممتعة والمثيرة، فإنى أؤمن أن كل ما ذكر فى القرآن الكريم يمكن التدليل على صحته بالوسائل العلمية، وحيث أن محمداً نبى الإسلام كان أمياً إذن لابد أنه قد تلقى معلومات عن طريق وحى من خالق عليم بكل شئ.. وإننى أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ألفريد كرونير:

رأيت اسم (البروفيسورألفريد كرونير)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا من بلدي.. هو من ألمانيا.. وهو أحد أكبر جيولوجيي العالم المشاهير، وهو أستاذ علم طبقات الأرض، ورئيس قسم علم طبقات الأرض في معهد جوسيينسيس، وجامعة يوهانز جوتينبيرج، مينز، بألمانيا.

وقد حدثني حديثه عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابي، وعرضنا عليه عدداً من الآيات وأحاديث رسول الله ﷺ المرتبطة بمجال تخصصه، فأجاب عليها، وناقشناه فيها فقال: إن التفكير في كثير من مسائل الجيولوجيا، ونشأة الأجرام يحتاج إلى علم كثيرة وأجهزة حديثة، فمن أين جاء بكل ذلك محمد.. فقد كان بدوياً على أية حال يجعلنا نعتقد أنه من المستحيل أن يكون قد عرفها بنفسه أو بمعارف عصره لأن العلماء اكتشفوا ذلك فقط خلال السنوات القليلة الماضية بوسائل معقدة جداً ومتقدمة جداً تكنولوجياً.

قال الشيخ عبدالمجيد الزنداني: وقد اختار مثلاً للتدليل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون قد جاء من عند محمد النبي الأمي، وهو المتعلق بوصف القرآن للبداية الواحدة لهذا الكون والمتعلقة بقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾(الانبياء:30)، فـ ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما أي أنهما كانتا ملتزقتين، ففصلتا[1].

---

1) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية في (معجزات علمية)من هذه السلسلة.

وقد ضرب البروفيسور كرونر مثلاً بهذه الآية لبيـان أن هـذا لا يمكن أن يكـون من عنـد محمد، ولا يمكن أن يكون من المعلومات البشـرية في عصـره، فقـال: وشـخص لا يعـرف عن الفيزياء النووية منذ 1400 سنة ما كان لـه في رأيي أن يكـون في وضـع يكشـف فيـه بعقله هو مثلاً أن الأرض والسماوات كانت لهما نفس الأصول أو كثيراً من المسائل الأخرى التي ناقشناها هنا.

قال الشيخ الزنداني: لقد كان البروفيسور كرونر لا يترك لنا فرصة يمكنه أن يفـر منهـا إلا فر، سأذكر مثالاً على ذلك.

فعندما كنا نتناقش معه كيف كانت بلاد العرب سـألناه: هـل كـانت بلاد العـرب بسـاتين وأنهاراً؟ فأجاب: نعم، فقلنا: متى كان هذا؟ قال: في العصـر الجليـدي الـذي مـر بـالأرض.. فالجليد يتراكم في القطب المتجمد الشـمالي، ثم يزحـف نحـو الجنـوب، فـإذا اقـترب من جزيرة العرب قرباً نسبياً طبعاً تغير الطقس وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم بسـاتين وأنهاراً، قلنا له: وهل ستعود بلاد العـرب بسـاتين وأنهـاراً؟ قـال: نعم، هـذه حقيقـة علميـة، فعجبنا كيف يقول هذه حقيقة علمية وهي مسألة تتعلق بالمستقبل. فسألناه: لماذا؟

فقال: لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلـوج تزحـف من القطب المتجمـد الشـمالي مرة ثانية نحو الجنوب وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب.

ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التي تضرب في كل شتاء المدن الشمالية في أوروبا وأمريكـا. هـذه من أدلـة العلمـاء على ذلـك، لهم أدلـة كثيرة إنها حقيقة علمية.

فقلنـا لـه: إن هـذا الـذي تـذكره أنت لم يصـل إليـه العلمـاء إلا بعـد حشـد طويـل من الاكتشافات، وبعد آلات دقيقة يسرت لهم مثل هذه الدراسات، لكنا قد وجدنا هـذا مـذكوراً على لسان محمد النبي الأمي قبل 1400 عام، فقد جاء في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم (1): (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجـاً وأنهاراً)، أي بسـاتين وأنهـاراً فقلنـا لـه: من قـال لمحمـد ﷺ أن بلاد العـرب كـانت بسـاتين وأنهاراً؟ فأجاب على الفور قائلا: الرومان.

فتذكرت قدرته على التخلص من المآزق، فقلنا: إذاً نوجه له سؤالاً آخر، فقلنـا لـه: ومن أخبره بأنها ستعود مروجاً وأنهاراً؟.. لقد كان يفر إذا أحرج وإذا وجد فرصة، ولكنـه إذا وجـد

1) رواه مسلم.

الحقيقة يكون شجاعاً، ويعلن رأيه بصراحة، فقال: إن هـذا لا يمكن أن يكـون إلا بـوحي من أعلى.

وبعد مناقشتنا معه علق على هذه المناقشة بكلمته هـذه: (أعتقـد أنـك لـو جمعت كـل هذه الأشـياء، وجمعت كـل هـذه القضـايا الـتي بسـطت في القـرآن الكـريم والـتي تتعلـق بالأرض وتكوين الأرض والعلم عامة، يمكنك جوهرياً أن تقول: إن القضايا المعروضـة هنـاك صحيحة بطرق عديدة، ويمكن الآن تأكيدها بوسائل علمية، ويمكن إلى حد ما أن نقـول: إن القرآن هو كتاب العلم المبسط للرجل البسيط وإن كثيراً من القضـايا المعروضـة فيـه في ذلك الوقت لم يكن من الممكن إثباتهـا. ولكنـك بالوسـائل العلميـة الحديثـة الآن في وضـع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد منذ 1400 سنة)

علي سليمان:

من الأسماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (علي سـليمان)[1]، فسـألت الغـريب عنـه، فقـال: هـذا دكتـور في الطب.. وهـو ينتمي إلى أسـرة فرنسـية كاثوليكية.. وقد التقيت به في فرنسا، وسألته عن سـر إسـلامه، فقـال لي: كـان لاختيـاري لهذه المهنة أثره في انطباعي بطباع الثقافة العلمية البحتة، وهي لا تؤهلـني كثـيرا للناحيـة الروحية.. وهذا لا يعني أنني لم أكن أعتقد في وجود اله، إلا أنني أقصد أن الطقوس الدينية النصرانية عموما والكاثوليكية بصفة خاصة، لم تكن لتبعث في نفسـي الإحسـاس بوجـوده، وعلى ذلك فقـد كـان شـعوري الفطـري بوحدانيـة اللـه يحـول بيـني وبين الإيمـان بعقيـدة التثليث، وبالتالي بعقيدة تأليه عيسى المسيح.

ولهذا كنت قبل أن أعرف الإسلام مؤمنا بالقسم الأول من الشهادتين (لا الـه إلا اللـه).. ومؤمنا معها بهذه الآيات من القرآن قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4)(الإخلاص)

لهذا فإنني أعتبر أن الإيمان بعالم الغيب وما وراء المادة هو الذي جعلني أدين بالإسلام، على أن هناك أسبابا أخرى حفزتني لذلك أيضا، منها مثلا، أنني لا أستسيغ دعوى الكاثوليـك أن من سلطانهم مغفرة ذنـوب البشـر نيابـة عن اللـه، ومنهـا أنـني لا أصـدق مطلقـا ذلـك الطقس الكـاثوليكي عن العشـــاء الربـاني والخـبز المقـدس، الـذي يمثـل جسـد المسـيح عيسى، ذلك الطقس الطوطمي الذي يماثل مـا كـانت تـؤمن بـه العصـور الأولى البدائيـة،

1) انظر: كتاب لماذا أسلمنا؟ تأليف: عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني.

حيث كانوا يتخذون لهم شعارا مقدسا، يحرم عليهم الاقتراب منـه، ثم يلتهمـون جسـد هـذا المقدس بعد موته حتى تسري فيهم روحه.

ومما كان يباعد بيـني وبين النصـرانية، أنهـا لا تحـوي في تعاليمهـا شـيئا يتعلـق بنظافـة وطهارة البدن، لا سيما قبل الصلاة، فكان يخيل لي أن في ذلك انتهاكا لحرمـة الـرب، لأنـه كما خلق لنا الروح فقد خلق لنا الجسد كذلك، وكان حقا علينا ألا نهمل أجسادنا.

ونلاحظ كذلك أن النصرانية التزمت الصمت فيما يتعلق بغرائـز الإنسـان الفسـيولوجية، بينما نرى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينفرد بمراعاة الطبيعة البشرية.

أما مركز الثقل والعامل الرئيسي في اعتناقي للإسلام، فهو القرآن.. فقد بدأت قبل أن أسلم في دراسته.. وأنا مدين بالكثير للكتاب العظيم الذي ألفه مستر مالك بن نبي واسمه (الظاهرة القرآنية)، فاقتنعت بأن القرآن كتاب وحي منزل من عند الله.

إن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحى الله به منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ما يحمـل نفس النظريات التي كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية.

لقد كان هذا كله كافيا لإقنا عي وإيماني بالقسم الثاني من الشـهادتين (محمـد رسـول الله)

وهكذا تقدمت يوم 20 فبراير سنة 1953 م إلى المسجد في بـاريس، وأعلنت إيمـاني بالإسلام، وسجلني مفتي مسجد بـاريس في سـجلات المسـلمين، وحملت الاسـم الجديـد (علي سلمان)

قال ذلك.. ثم ابتسم قائلا: إنني أشعر بالغبطة الكاملة في ظل عقيدتي الجديدة وأعلنها مرة أخرى (أشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله)

مارشال جونسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب اسم (مارشال جونسون)(1)، فسألت الغـريب عنه، فقال: هذا هو البروفيسور (مارشال جونسـون)، وهـو رئيس قسـم التشـريح، ومـدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد حدثني حديثه الشيخ (عبـد المجيـد الزنـداني)، فقـال: لقـد التقيت بـه مـع نفـر من أصحابنا في المؤتمر الطبي السعودي الثامن، وقـد خصصـت لنـا لجنـة تبحث في موضـوع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فالتقينا به أول مـا التقينـا في هـذه اللجنـة، وقـد بـدأنا

1) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزنداني.

بالسؤال التالي: ما هو موضوع لجنتنا هذه؟

فقلنا له:موضوعنا هو دراسة العلاقة بين ما ذكر في القـرآن والسـنة قبـل 1400 عـام وما ذكرته العلوم الحديثة.

فقال: مثل ماذا؟

قلنا: مثلاً ذكر العلم أن الإنسان يخلق في أطوار وذكر القرآن الكريم هذه الأطوار قبـل 1400عام.

كان جالساً فوقف يصيح: لا. لا. لا.

فقلنا: اجلس يا دكتور.

فقال: أجلس.. ما هذا الكلام الذي تقوله؟

قال الشيخ: لقد كنا ندرك أثر هذا عليه، وهو أحد العلماء المشـهورين في أمريكـا، وهـو يعلم أن البشرية بعد اكتشاف الميكروسكوب في القرن السادس عشر كان الأطباء طوال القرن السابع عشر يعتقـدون أن الإنسـان يخلـق خلقـاً كـاملاً في الحيـوان المنـوي أي في نطفة الرجل أي في السلالة التي تخرج من الرجل، واستمر هذا الاعتقاد إلى القرن الثامن عشر، وبعد اكتشاف البُييضة في القرن 18 غير العلماء جميعاً آراءهم، فقالوا: إن الإنســان يخلق خلقاً كاملاً في بُييضة المرأة لأنها أكبر، وأهمل دور الرجل بعد أن أهمل القرن السابع عشر دور المرأة، وفي منتصف القرن 19 فقط بـدأ الإنسـان، وبـدأ العلمـاء يكتشـفون أن الإنسان يخلق في أطوار.

لذلك لما قيل للبروفيسور (مارشال جونسون) هذا مذكور في القرآن قبل 1400 عـام وقف يصرخ لا لا لا، فقمنا إليه، وقدمنا له المصحف، وقلنا له: تفضل اقرأ وقرأنا عليه قولـه تعالى: مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (نوح:13-14)، وقرأ ترجمة معناها باللغة الإنجليزية. ثم قرأنا عليه قول الله سبحانه وتعالى: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (الزمر:6)

فجلس، وقال: لكن هذا يمكن أن يكـون لـه ثلاثـة تفسـيرات، الأول: أن يكـون صـدفة، فجمعنا له أكثر من خمسة وعشرين نصاً، ووضعناها بين يديه، وقلنا: كل هذه النصـوص قـد تكون صدفة؟ ثم إن القرآن الكريم قد أعطى لهذه الأطوار أسماء هذا نطفـة والـذي بعـده علقة والذي بعده مضغة والذي بعده العظام والذي بعده كساء العظام بـاللحم. إنـه سـمى هذه الأطوار بأسماء أيكون هذا صدفة؟ فقال:لا.

قلنا: فماذا بقي؟

قال: يمكن أن يقال: إن محمداً عنده ميكروسكوبات ضخمة.

قلنا: أنت تعلم أن مثل هذه الأطوار والدقائق والتفاصيل وما عرفه العلم من تفاصيل هذه الأطوار وذكره القرآن كذلك هذا لا يتيسر إلا بميكروسكوبات ضخمة جداً والذي عنده هذه الميكروسكوبات الضخمة لا بد أن يكون له تقنية عالية جداً وتنعكس على طعامه وشرابه وحربه وسلمه ولا بد أن يتلقى هذا من الجيل الذي قبله، ويسلمه للجيل الذي بعده.

فضحك بعد ذلك، وقال: لقد رأيت في معرض من المعارض أول ميكروسكوب اخترع في العالم، إنه لا يكبر أكثر من عشر مرات، ولا يستطيع أن يظهر الصورة واضحة.. لا.. لم يكن عند محمد أجهزة ولا مكروسكوبات، فما بقي إلا أن نقول هو رسول من عند الله.

ثم بعد ذلك تبنى هذه الأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمي، وركز في بعض أبحاثه على أطوار الجنين، فبينما كان الدكتور كيث مور وغيره من الدكاترة يتكلمون عن الشكل الظاهري أخذ يقدم بحثه هو عن وصف القرآن الدقيق لشكل الجنين الخارجي ولتركيبات الجنين الداخلية.

فقد قال: القرآن في الواقع شرح المراحل الخارجية، ولكنه يؤكد أيضاً المراحل التي داخل الجنين أثناء خلقه وتطوره مؤكداً على أحداث رئيسية تعرف عليها العلماء المعاصرون.

فالمضغة مثلا تعطينا الشكل الخارجي للجنين الذي يكون مقوساً كما ويكون في نهاية هذا القوس آثار وكأنها طبع الأسنان ليوحي بشكل المضغة ونرى انتفاخات وأخاديد ونرى سطحاً منفرجاً يعطي انطباع المضغة.

ولو أننا وضعنا قطاعاً منها، وجئنا نشرح الأجزاء الداخلية سنجد معظم الأجهزة قد تخلقت وسنرى في هذا أن جزءاً من الخلايا قد تخلق، وجزءاً آخر لم يتخلق بعد.

فإذا أردنا أن نصف هذه المضغة ماذا نقول؟.. هل نقول هي مخلقة؟ هذا ينطبق على الجزء الذي تخلق.. أو نقول غير مخلقة؟.. وهذا سيصدق على الجزء الذي لم يخلق فقط.

قال جونسون: فلا بد لنا أن نصف المضغة في تركيبها الداخلي بالوصف الذي وصفت به في القرآن فنقول كما قال القرآن: ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (الحج:5) مخلقة وغير مخلقة

ثم جاء بملخص لبحثه هذا فقال: (إنني كعالم أستطيع فقط أن أتعامل مع أشياء أستطيع أن أراها بالتحديد أستطيع أن أفهم علم الأجنة وتطور علم الأحياء أستطيع أن أفهم الكلمات التي تترجم لي من القرآن كما ضربت لكم أمثلة من قبل.

إنني لا أرى شيئاً لا أرى سبباً لا أرى دليلاً على حقيقة تفند مفهوم هذا الفرد محمد الذي لا بد وأنه يتلقى هذه المعلومات من مكان ما، ولذلك إنني لا أرى شيئاً يتضارب مع مفهوم أن التدخل الإلهي كان مشمولاً فيما كان باستطاعته أن يبلغه.

قال الشيخ الزنداني: هذا هو البروفيسور مارشال جونسون الذي بدأ رافضاً لما قلناه من أول وهلة وانتهى به الأمر متبنياً لهذه الأبحاث في عديد من المؤتمرات.

وعندما سئل عن رأيه في تفسير هذه الظاهرة ـ ظاهرة ما كشفه العلم من تصديق لما جاء في القرآن والسنة ـ أجاب بقوله: نعم، إنه الوحي.

يوشيودي كوزان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور يوشيودي كوزان)، فسألت الغريب عنه، فقال: إنه البروفيسور يوشيودي كوزان مدير مرصد طوكيو، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابي، فعرضنا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بوصف بداية الخلق وبوصف السماء وبعلاقة الأرض بالسماء، فلما قرأ معاني هذه الآيات، وسألنا عن القرآن، وعن زمن نزوله، فأخبرناه أنه نزل منذ 1400 عام، وسألناه نحن عن هذه الحقائق التي تعرضت لها هذه الآيات، فأجاب، وكان بعد كل إجابة يجيب بها نعرض عليه النص القرآني.

لقد عبر عن دهشته فقال: إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود، فكل شيء أمامه مكشوف.. إن الذي قال هذا القرآن، يرى كل شيء في هذا الكون، فليس هناك شيء قد خفي عليه.

سألناه عن الفترة الزمنية التي مرت بها السماء يوم أن كانت في صورة أخرى فأجاب: لقد تظافرت الأدلة وحشدت وأصبحت الآن شيئاً مرئياً مشاهداً نرى الآن نجوماً في السماء تتكون من هذا الدخان الذي هو أصل الكون.

ثم أخرج لنا صورة، وقال: هذه الصورة حصل عليها العلماء أخيراً بعد أن أطلقوا سفن الفضاء.. إنها تصور نجماً من النجوم وهو يتكون من الدخان.. انظروا إلى الأطراف الحمراء للدخان الذي في بداية الالتهاب والتجمع وإلى الوسط الذي اشتدت به المادة وتكدست

فأصبح شيئاً مضيئاً.. وهكذا النجوم المضيئة كانت قبل ذلك دخاناً وكان الكون كله دخاناً.

وعرضنا عليه الآية وهي قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:11)، فقال: إن بعض العلماء يتكلمون عن هذا الدخان، فيقولون إنه ضباب.. ولكن لفظ الضباب لا يتناسب مع وصف هذا الدخان، لأن الضباب يكون بارداً، وأما هذا الدخان الكوني فإن فيه شيئاً من الحرارة. نعم، الدخان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة. ويكون معتماً وهذا وصف الدخان الذي بدأ منه الكون. قبل أن تتكون النجوم كان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة وكان معتماً.. وكذلك كان حاراً، فلا يصدق عليه وصف الضباب، بل إن أدق وصف هو أن نقول: هو دخان.

وهكذا أخذ يفصل فيما عرض عليه من آيات، وأخيراً سألناه: ما رأيك في هذه الظاهرة التي رأيتها بنفسك، العلم يكشف بتقدمه أسرار الكون، فإذا بكثير من هذه الأسرار قد ذكرت في القرآن، أو ذكرت في السنة.. هل تظن أن هذا القرآن جاء إلى محمد ﷺ من مصدر بشري؟

قال: قبلنا كان الفلكيون المعاصرون يدرسون تلك القطع الصغيرة في السماء. لقد ركزنا مجهودنا لفهم هذه الأجزاء الصغيرة لأننا نستطيع باستخدام التلسكوب أن نرى كل الأجزاء الرئيسية في السماء، ولذلك أعتقد أنه بقراءة القرآن وبإجابة الأسئلة أنني أستطيع أن أجد طريقاً في المستقبل للبحث في الكون.

وقال: إننا نحن العلماء نركز على جزء صغير في دراستنا، أما من يقرأ القرآن فإنه يرى صورة واسعة لهذا الكون.

وقال: إنني عرفت منهجاً جديداً في دراسة الكون لا بد أن ننظر إليه نظرة شاملة لا أن ننظر إليه من هذه النقطة الضيقة الجزئية المحدودة.

وقال: إنني سأنهج هذا المنهج وقد عرفت بعد أن قرأت القرآن وهذه الآيات المتعلقة بالكون عرفت مستقبلي، أي إنني سأخطط أبحاثي على هذه النظرة الشاملة التي استفدتها من كتاب الله.

جولي سمسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور جولي سمسون)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا أستاذ أمراض النساء والولادة في جامعة نورث وستون في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد

1) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزنداني.

المجيد الزنداني، فقال: قصدته مع نفر من أصحابنا، وحدثناه عن مجال اختصاصه، وما ورد عنه في القرآن الكريم.. فكان في شك أول الأمر.. فقد كان يريد أن يتأكد هل هذه نصوص القرآن؟.. هل هذه نصوص السنة؟.. فلما اطمأنت نفسه، ورأى النصوص المتعلقة بالوراثة، والتي تحدث في المراحل الأولى في الجنين عندما يكون نطفة، وعرف دقة الأوصاف، وكيف أن القرآن يقرر أن الإنسان يخلق بعد أن تجمع النطفتان، فيتقرر خلق الإنسان، وبعد ذلك يقرر البرنامج الوراثي في هذه الكروموزومات التي نشاهدها الآن.

هذه الكروموزومات فيها تفاصيل الإنسان الذي يولد لون العينين، لون الجلد، لون الشعر، كثير من تفاصيل الإنسان مقررة هنا، فالإنسان في هذه الكروموزمات مقدر، وهذه الكروموزمات في مرحلة النطفة، إذاً فهذا الإنسان يقدر وهو في مرحلة النطفة، كما قال تعالى: قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) (عبس)، والجنين قبل أربعين يوماً ـ خلال الأربعين يوماً الأولى ـ تجمع جميع أجهزته، فتكون جميع الأجهزة قد ظهرت، وإن كانت تظهر تباعاً، بدأت الأجهزة تتخلق وتجمع، والجنين يكون منحنياً على نفسه، والرسول ﷺ يقول: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً)

تعرض البروفيسور جولي سممسون لهذا الحديث والحديث الآخر: (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها)، وأخذ يقارن بين الحديثين والحد الفاصل بينهما، وبعد أن رأى هذه الدقائق والتفاصيل وقف في أحد المؤتمرات يعلن رأيه حول هذا الموضوع، فقال: من هذين الحديثين يمكننا استخلاص جدول محدود حول التطور الرئيسي للجنين قبل أربعين يوماً.

ولم يكتف بهذه الشهادة، بل إنه قال: إن بإمكان الدين أن يقود العلم قيادة ناجحة.

وقال: وعليه أعتقد أنه لا يوجد خلاف بين المعرفة العلمية وبين الوحي بل إن الوحي ليدعم أساليب الكشف العلمية التقليدية المعروفة حينئذٍ. وجاء القرآن قبل عدة قرون مؤيداً لما تطرقنا إليه مما يدل على أن القرآن هو كلام الله.

البروفيسور هاي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور هاي)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا البروفيسور من أشهر علماء البحار في أمريكا، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: ذهبت إليه مع نفر من أصحابنا، وسألناه عن كثير من الظواهر البحرية التي تتعلق بسطح البحر، والتي تتعلق بالحد الفاصل بين البحر السطحي وبين البحر العميق، والتي قد تتعلق أيضاً بقاع البحار وجيولوجيا البحار..

سألناه عن هذا كله، وسألناه عن الحواجز المائية بين البحار المختلفة، وعن الحواجز المائية بين مياه البحار والأنهار [1].

وقد كان يجيبنا عن هذا كله، وبتفصيل، وعندما تعرضنا لشرح الحواجز بين البحار المالحة وضح لنا أن البحار المالحة ليست كما تشاهدها العين بحراً واحداً، إنها بحار مختلفة، تختلف في درجة الحرارة، والملوحة والكثافة، حيث نرى فيها خطوطاً بيضاء تمثل الحواجز بين الكتل البحرية، وكل حاجز يفصل بين كتلتين بحريتين مختلفتين فيما بينهما، في الحرارة والملوحة والكثافة، والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأوكسيجين.

وقد أخرج لنا من محفظته صورة توضح ذلك، ثم قال: هذه الصورة أول ما عرفت في عام 1942 بهذا الشكل بعد أن أقام العلماء مئات المحطات المائية في البحار لدراسة خصائص البحار.. وهي توضح حداً فاصلاً بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلنطي.. في الوسط الذي في الصورة مثلث هو عتبة جبل طارق أسفل.. وهذه منطقة جبل طارق نرى فيها كيف يوجد الحد الفاصل، وهو مبين باللون بين الكتلتين المائيتين يفصل بينهما.

ثم التفت إلينا، وقال: هذا أمر لا تشاهده الأبصار، ولكنه أصبح الآن حقيقة واضحة، وبتطور الأقمار الصناعية ودراستها واستشعارها من بعد تمكنت هذه الأقمار الصناعية أن تصور هذه المناطق البحرية، الحدود البحرية بين الكتل المختلفة.. كما نرى في هذا الشكل الذي التقط بالأقمار الصناعية بالخاصية الحرارية فظهرت البحار بألوان مختلفة، كما نرى بعضها بلون أزرق فاتح وبعضها بلون أزرق قاتم وبعضها بلون أسود وبعضها بلون يميل إلى الأخضر.. هذه الألوان المختلفة السبب فيها اختلاف درجات الحرارة على سطح البحار، ولكنك لو وقفت على سطح البحر لا ترى.. لا ترى إلا ماءً أزرق في كل هذه البحار والمحيطات.. إنها حواجز لا ترى إلا بالدراسة وبالتقنية الحديثة.

عندما عرض لنا ذلك، وشرحه لنا بالتفصيل قرأنا عليه من القرآن الكريم ما يدل عليه دلالة واضحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: 19-20)، ثم سألناه: ما رأيك في هذه الظاهرة؟.. نصوص نزلت قبل 1400 عام تصف دقائق لا يمكن لبشر أن يعرفها في ذلك الزمان، وجاء العلم اليوم شاهداً بها مبيناً لدقائقها فما هو رأيك؟

فقال البروفيسور هاي: إنني أجد من المثير جداً أن هذا النوع من المعلومات موجود في آيات القرآن الكريم، وليست لدي طريقة أعرف بها من أين جاءت، ولكنني أعتقد أنه

---

1) انظر الجوانب العلمية المرتبطة بهذا، وما ورد في القرآن مما يقررها في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

من المثير للغاية أنها موجودة فيه، وأن العمل مستمر لكشف معاني بعض الفقرات.

فقلنا: إذن فقد أنكرت تماماً أنها من مصدر بشري.. فممن إذن يأتي في اعتقادك أصل أو مصدر هذه المعلومات؟

فقال: أعتقد أنه ولا بد أن يكون من الله.

البروفيسور فان برسود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور فان برسود)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا البروفيسور فان برسود، وهو رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فذكر أن الدكتور (كيث مور) الذي سبق الحديث عنه ذكر له أن هناك علماء أحرارا يهمهم البحث عن الحقيقة، ومنهم البروفيسور فان برسود.. وهو مؤلف مشهور له عدد من الكتب ألفها في علم أمراض النساء، وهو ممن أضاف ـ بعد ذلك ـ إلى كتبه بعض ما جاء في القرآن والسنة، وأشار إلى هذه الآيات والأحاديث في كتبه، وقدم عدداً من البحوث في عدد من المؤتمرات، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه حول حديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم وهو قول رسول الله ﷺ: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء)

وقدم البروفيسور برسود أبحاثاً كثيرة حول علاقة القرآن والسنة بالعلوم الحديثة، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه في معنى حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه والحاكم وهو قول رسول الله ﷺ: (ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم)

ومما قاله في بحثه هذا: من المعترف به الآن على نطاق واسع أن هذه التغيرات الخبيثة في عنق الرحم لها صلة بعمر النساء، وعدد مرات الجماع، وعدد مرات الولادة، فعديد من دراسات علم الأوبئة قد أظهرت بوضوح علاقة متبادلة هامة بين التعرض للعلاقات الجنسية المتعددة، والسرطان العرضي المحتمل الحدوث بدرجة عالية.

وقال: إن نتائج ومخاطر العلاقات الجنسية غير الشرعية، والممارسات الجنسية المنحرفة، قد ذكرت في هذا الحديث منذ 1400 سنة وأرجو أن أكون مصيباً ــ مشيراً إلى مرض الإيدز ـ: (ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم)، فالفاحشة هي الخيانة والشذوذ الجنسي غير المعلن والبوهيمية، وكل العلاقات الجنسية الأخرى، وليس من اتساع الخيال أن نعتبر

الهربز والإيدز كأمثلة واضحة لأمراض جديدة في الوقت الحاضر ليس لدينا العلاج لها.

وقد قال الشيخ الزنداني معلقا على هذا مخاطبا الحاضرين: انظروا إلى هذا الربط بين قول الرسول ﷺ: (ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم)، فلما أعلنت أوروبا وأمريكا إباحة الشذوذ وإباحة الزنا والفجور بأشكاله ما إن أعلنوا هذا وأذاعوا به حتى ظهرت بعد ذلك بأعوام هذه الأمراض التي تهز كيانهم هزاً.

وصدق رسول الله ﷺ، فهي أمراض جديدة، طاعون فشا، وأمراض تفشو وتسري بين الناس وهم يخافونها.

وقد ذكر الشيخ أن البروفيسور برسود عندما سئل عن رأيه في هذه الظاهرة التي اطلع بنفسه عليها وشارك بأبحاثه فيها قال: الطريقة التي شرح لي بها هو أن محمداً ﷺ كان رجلاً عادياً جداً، ولم يكن يقرأ ولم يكن يكتب، بل كان في الواقع أمياً، ونحن نتحدث عنه أنه كان منذ 1400 سنة رجلاً أمياً يدلي بتصريحات عميقة ودقيقة بصورة مدهشة، وذات طبيعة علمية، وأنا شخصياً لا أستطيع أن أرى كيف يكون هذا مجرد مصادفة، هناك أشياء كثيرة دقيقة مثل دكتور كيث مور لا أجد صعوبة في أن أوافق في عقلي أن هذا إلهام إلهي أو وحي قاده إلى هذه البيانات.

البروفيسور بالمار:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور بالمار)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من أشهر علماء الجيولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان رئيس اللجنة التي أشرفت على الاحتفال المئوي للجمعية الجيولوجية الأمريكية.

وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: عندما التقينا معه وعرضنا عليه أوجه الإعجاز العلمي للقرآن والسنة كان يندهش، وأذكر قصة لطيفة بدأت معه عندما قلنا له: إن القرآن يذكر أخفض منطقة في الأرض وبين أنها قرب بيت المقدس، حيث دارت المعركة بين الفرس والروم، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)﴾(الروم)، وأدنى تأتي بمعنى أقرب، وتأتي بمعنى أخفض.

وذكرنا له أنه عندما درسنا أخفض منطقة في الأرض وجدنا أنها هي نفس المنطقة التي دارت فيها المعارك.. فلما قلنا هذا للبروفيسور بالمار، قال: لا... هناك مناطق كثيرة أخفض من هذه المنطقة.

قال ذلك، ثم أخذ يذكر لنا مناطق في أوروبا ومناطق في أمريكا، فقلنا له: يا دكتور نحن قد تأكدنا من ذلك.

كان معه مصور جغرافي مجسم فيه الارتفاعات والانخفاضات، فقال: إذاً الأمر بسيط، هذا هو المجسم يبين لنا أخفض منطقة، فأدار الكرة الأرضية بيده ـ وهي كرة مجسمة ـ ووجه نظره على المنطقة المحددة، وهي قرب بيت المقدس، فإذا به يرى سهماً قد خرج من تلك الخريطة مكتوباً عليه (أخفض منطقة على وجه الأرض)

ثم بعد ذلك تحول بسرعة، وقال: هذا كلام صحيح.

وقد رغبه هذا السبق القرآني في المزيد.. وقد ازداد اندهاشه عندما وجد القرآن يصف الماضي كيف بدأ، وخلق الأرض كيف بدأ، وخلق السماء، وكيف خرجت المياه من باطن الأرض، وكيف أُرسيت الجبال، وكيف خرجت النباتات.. وغيرها كثير.

واندهش عندما رأى القرآن يصف هذه الأحداث، ثم كيف يصف سطح الأرض اليوم ويصف الجبال ويصف ما عليها من ظواهر، ثم يصف الأحوال التي تمر بها الأرض، كما حدث بالنسبة لجزيرة العرب، بل ويصف ما سيكون عليه حال بلاد العرب، وما سيكون عليه حال الأرض.فقال: (هذا الكتاب عجيب يصف لنا الماضي، ويصف لنا الحاضر، ويصف لنا المستقبل)

وقد قدم بحثاً في القاهرة حول الإعجاز في مجال علم الجيولوجيا، ثم ختم بحثه هذا بقوله: (أنا لا أعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه الناس في زمن محمد.. ولا أدري في أي مستوى علمي كانوا، فإذا كان الأمر كما نعرف عن أحوال الأولين والمستوى العلمي المتواضع والذي ليس فيه هذه الإمكانيات، فلا شك أن هذا العلم الذي نقرؤه الآن في القرآن هو نور من العلم الإلهي قد أوحي به إلى محمد)

وقد أنهى بحثه بالتصريح التالي: (لقد قمت ببحث في تاريخ الحضارة المبكر للشرق الأوسط لأعرف إذا كان في الواقع قد وردت أنباء جادة كهذه، إذا لم يكن هناك سجل كهذا فإن هذا يقوي الاعتقاد بأن الله قد أرسل من خلال محمد مقادير ضئيلة من علمه اكتشفناها فقط في الأزمنة الحديثة، إننا نتطلع إلى حوار مستمر في موضوع العلم في القرآن في سياق الجيولوجيا)

وقد علق الشيخ الزنداني على تصريحه هذا تعليقا هاما، فقال: نعم، هذا علم من أعلام الجيولوجيا في عالمنا المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية لا يتردد في أن يعترف ويقدم ويبين ولكنه بحاجة إلى من يوضح له الحقيقة، لقد عاش الغربيون وكذلك الشرقيون

معركة بين الدين والعلم، وكان لا بد أن تحدث هذه المعركة، لأن كل الأديان قد حرفت وما بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام إلا لتصحيح ما أفسده هؤلاء.

وأذكر أن بعض الناس سأله حينها: كيف سيقبل منا هؤلاء الناس ونحن في تخلف ونحن في بعد عن ديننا؟

فأجاب: إن العلم يفتح بصائر أهله، إنهم ينظرون إلى الحقائق ولا ينظـرون إلى الصـور، إن رصيد الإسلام اليوم هو هذا العلم والتقدم العلمي. فإن هـذا العـالم يحـني رأسـه إجلالاً لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ثم إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تطمئن إلا مع الإيمان.. إن الناس بدون إيمان في قلق وضـياع، ثم إن هـذه الحريـة الـتي يتمتـع بهـا أهـل الغرب تعين علماءهم على أن يقولوا الكلمة التي يعتقدونها، وهم لا يبالون ولا يحسـبون أي حساب، وها هم كما سمعناهم في كثـير من هـذه الحلقـات، يقـرون ويعـترفون بـالمعجزة القرآنية الحية المتجددة إلى قيام الساعة.

البروفيسور سياويدا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسـور سـياويدا)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيـد الزنـداني، فـذكر أنـه من أشهر علماء جيولوجيا البحار في اليابان، بل هو من العلمـاء المشـاهير في العـالم في هـذا المجال.

وقد ذكر لي أنه ممن حجبوا عن الإسلام بسبب الشبهات الكثيرة التي يسـوقها أعـداؤه عنه كل حين.. بل ملئ رأسه بتشويشات وشبهات عن كل الأديان.

وقد ذكر لي حواره معه الذي حاول من خلاله تخليصه من تلك الشبهات، فقال: عنـدما التقينا معه أول مرة ـ أنا ونفر من أصحابنا ـ قـال لنـا: لا يصـح أن تتحـدثوا أنتم أهـل الـدين أبداً.. يجب أن تسكتوا في الدنيا كلها.

قال الشيخ: فقلت له: لماذا يا بروفيسور؟.. لماذا؟

قال: لأنكم إن تكلمتم أشعلتم الحرب بين الناس في العالم كله.

فقلت له: وحلف وارسو.. وحلف الأطلسي.. لماذا يحشدون هذه الترسانات الهائلة من الأسلحة النووية في الفضاء وفي البحار وعلى الأرض وتحت الأرض؟.. لماذا هذا؟.. أبسبب ديني؟

فلم يجد ما يجيب به، فقلنا له: على أي حال نحن نعلم أنك تتخذ موقفاً من الدين كلـه،

ولكن نريد منك، وطالما أنت لا تعرف ما هو الإسلام أن تسمع أولاً، وأن نرى ما عندك.

قال الشيخ: فوجهنا له عدداً من الأسئلة في مجـال تخصصـه، وعن الآيـات والأحـاديث التي تصف تلك الظواهر التي يتحدث عنها، وكان منها ما طلبنـا منـه أن يبينـه في موضـوع الجبال، فقد سألناه: ما هو شكل الجبل؟.. هل هو في شكل وتد؟

فأجاب: الجبال القارية والجبال المحيطيـة تتكـون من مـواد مناسـبة، فالجبـال القاريـة مكونة جوهرياً من مواد راسبة، بنيما الجبال المحيطية مكونة من صـخور بركانيـة، والجبـال القاريـة تكـونت بواسـطة قـوى ضـاغطة، بينمـا الجبـال المحيطيـة تكـونت بواسـطة قـوى تمديدية، ولكن النقاط المشتركة بين النوعين من الجبال هي: أن لها جذوراً لتدعم الجبال.

في حالة الجبال القارية فإن المادة الخفيفة القليلة الكثافة التي تكون الجبل تمتد تحت الأرض كجذر.. وفي حالة الجبال المحيطية هنـاك أيضـاً مـادة خفيفـة تـدعم الجبـل كجـذور ولكن في حالة الجبال المحيطية فإن مادتها الخفيفة مناسبة للتركيب الخفيف ولكنه ساخن ولذلك، فإنها ممتدة بطريقـة رقيقـة، ولكن من وجهـة نظـر الكثافـة، فإنهمـا تؤديـان نفس المهمة، وهو دعم الجبل، ولذلك فإن مهمة الجذور هي دعم الجبال وفق قانون أرشميدس عن الطفو.

قال الشيخ: ثم شرح لنا البروفيسور سياويدا شكل كل جبـل سـواء كـان على اليابسـة في القارات أو في قاع المحيطات، وذكر في كل ذلك على شكل وتد، وهو يوافق تماما ما ذكره القرآن من وصف الجبال بكونها أوتادا.

قال الشيخ: وعندما سألنا البروفيسور سياويدا عن وظيفة الجبـال: ألهـا دور في تثـبيت القشرة الارضية؟ فقال: إلى الآن لم يكتشف العلم هذا.

فأخذنا نبحث، ونسأل فوجدنا كثيراً من علماء الجيولوجيا يجيبون علينا بنفس الجواب إلا القليل ـ ومن هؤلاء أصحاب كتاب (الأرض) وهو مرجـع علمي في كثـير من الجامعـات في العالم.. ومن الذين كتبوه فرانك برس، وقد كان رئيس أكاديمية العلوم في أمريكافقد ذكـر في صفحة 435 عن وظيفة الجبال يقول:إن للجبال دوراً كبيراً في تثبيت قشرة الأرض.

فذكرنا ذلك لهذا البروفيسور وعرضنا عليه تقريرات القرآن المرتبطـة بهـذا، ومن ذلـك قوله تعالى: وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) (النازعـات:32)، وقوله تعـالى: وَالْجِبَـالَ أَوْتَـاداً) (النبـأ:7)، وقوله تعالى: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ) (النحـل: 15)

وقلنا له: يا أستاذ.. ما رأيك في هذا الذي رأيته من ظاهرة حديث القـرآن والسـنة عمـا

في هذا الكون من أسرار، الأمر الذي لم يكتشفه العلم إلا في هذا الزمان.

فأجاب على سؤالنا بقوله: أعتقد أنه يبدو لي غامضاً جداً جداً غير معقـول تقريبـاً، إنـني أعتقد حقيقة إن كان ما قلته صحيحاً، فإن هذا الكتاب جدير جداً بالملاحظة، إنني أوافقك.

قال الشيخ: ماذا يستطيع العلماء أن يقولوا، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم الـذي أنزلـه الله على محمد ﷺ في هذا الكتـاب، لا يمكنهم أن ينسـبوا هـذا العلم في هـذا الكتـاب إلى مصدر بشري، أو إلى جهة علمية في ذلك العصر، فإن جميع العلماء ما كانوا يعلمون شـيئاً عن هـذه الأسـرار.. إن البشـرية كلهـا لم تعلم شـيئاً عن ذلـك، إنهم لا يملكـون أن يجـدوا تفسيراً إلا أن يقولـوا هـذا من جهـة أخـرى هي وراء هـذا الكـون.. نعم، إنـه وحي من اللـه سبحانه وتعالى، أوحى بـه إلى عبـده النـبي الأمي محمـد ﷺ، وجعلـه معجـزة باقيـة دائمـة تستمر مع البشرية إلى قيام الساعة.

البروفيسور آرمسترونج:

من الأسـماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (البروفيسـور آرمسترونج)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا البروفيسور آرمسترونج، وهـو أحـد مشـاهير علمـاء الفلـك في أمريكـا، ويعمـل في وكالـة الفضـاء الأمريكيـة ناسـا، وهـو من مشـاهير علمائها.

وقد حدثني بخبره الشيخ عبـد المجيـد الزنـداني، فقـال: قصـدته مـع نفـر من أصـحابنا لنسأله عن عدد من الآيات الكونية المتعلقة بمجال تخصصه في الفلك.

وكـان من جوابـه لنـا قولـه: سـأحدثكم كيـف تكـونت كـل العناصـر على الأرض، لقـد اكتشفناها.. بل لقد أقمت عدداً من التجارب لإثبات ما أقول لكم.

إن العناصر المختلفة تجتمع فيها الجسيمات المختلفة من الكترونات وبروتونات وغيرها لكي تتحد هذه الجسيمات في ذرة كل عنصر يحتاج إلى طاقة.

وعند حسابنا للطاقة اللازمة لتكوين ذرة الحديد وجدنا أن الطاقة اللازمة يجب أن تكون كطاقة المجموعة الشمسية أربع مـرات، ليسـت طاقـة الأرض ولا الشـمس ولا القمـر ولا عطادر ولا زحل ولا المشتري كل هذه المجموعة الشمسية بأكملها لا تكفي طاقتها لتكوين ذرة حديد، بل تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات.

ثم قال هو من نفسه بدون سؤال منا: ولذلك يعتقـد العلمـاء أن الحديـد عنصـر غـريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها.

وهنا ذكرنا قول الله تعالى: وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (الحديد:25)، ثم سألناه: هل في هذه السماء فروج وشقوق؟

فقال: لا، إنكم تتكلمون عن فرع من فروع علم الفضاء اسمه الكون التام، وهذا الكون التام ما عرفه العلماء إلا أخيراً، لو أخذت نقطة في الفضاء وتحركت مسافة معينة إلى اتجاه وتحركت بنفس المسافة في اتجاه آخر لوجدت أن وزن الكتلة في كل الاتجاهات متساو لأن هذه النقطة متزنة فيجب أن تكون الضغوط عليها من كل جانب متساوية. والكتلة يجب أن تكون كذلك. ولو لم يكن هذا الاتزان لتحرك الكون وحدث فيه تصدع وشقوق.

قال الشيخ: فذكرت قول الله تعالى: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) (قّ:6)

ثم تحدثنا معه عن جهود العلماء في محاولاتهم الوصول إلى حافة الكون، وقلنا له: هل وصل العلم إلى معرفة حافة الكون؟

فقال: نحن في معركة للوصول إلى حافة الكون.. إننا نكبر أجهزة، ثم ننظر من خلالها، فنكتشف نجوماً ونكتشف أننا ما زلنا بداخل هذه النجوم ما وصلنا إلى الحافة؟

قال الشيخ: وأنا أعلم من قوله تعالى: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ (الملك:5) أن كل هذه النجوم هي زينة للسماء الدنيا.

قال البروفيسور: ولذلك نحن نفكر في إقامة التلسكوبات في الفضاء حتى لا يكون هذا الغبار والأشياء من الظواهر الجوية الموجودة على الأرض من العوائق التي تحول بيننا وبين هذه الرؤيا.. إن التلسكوبات البصرية التي تستعمل الضوء أو البصر عجزت ولم تستطع أن تتجاوز بنا مسافات كبيرة، فعوضنا عن هذه التلسكوبات البصرية بتلسكوبات لا سلكية فوجدنا مسافات جديدة، ولكن لا زلنا داخل الحدود.

قال الشيخ: فذكرت قول الله تعالى: فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) (الملك)

قال الشيخ: وهكذا بقي يذكر الحقائق العلمية، ونحن نذكر له الآيات المرتبطة بها، وهو يوافق على ذلك، ثم قلنا له: ها أنت ذا قد رأيت بنفسك حقائق علم الفلك الحديث بعد أن استخدم الإنسان هذه الأجهزة والصواريخ وسفن الفضاء واكتشفت هذه المعلومات، ها أنت ذا قد رأيتها ثم رأيت كيف جاءت في نصوص القرآن الكريم قبل 1400 عام فما رأيك في هذا؟

فأجاب: هذا سؤال صعب.. ظللت أفكر فيه منذ أن تناقشنا هنا.. وإنني متأثر جداً كيف أن بعض الكتابات القديمة تبدو متطابقة مع علم الفلك الحديث بصورة ملفتة للأنظار، لست عالماً وافياً في تاريخ البشرية، وفي صورة يعتمد عليها بحيث ألقي بنفسي تماماً في ظروف قديمة كانت سائدة منذ 1400 سنة، ولكنني بالتأكيد أود ألا أزيد على أن ما رأيناه جدير بالملاحظة، ومع ذلك قد لا يترك مجالاً للتفسير العلمي، قد يكون هناك شيء فيما وراء فهمنا كخبرة بشرية عادية ليشرح الكتابات التي رأيناها، ولكن ليس في نيتي أو وضعي عند هذه النقطة أن أقدم إجابة على ذلك، لقد قلت كلمات كثيرة على ما أظن دون أن أعبر بالضبط عما أردتني أن أعبر عنه.

إنه من واجبي كعالم أن أظل مستقلاً عن مسائل معينة، وأعتقد أن هذا عندما توقفت على أفضل وجه عند نقطة أقل قليلاً من إعطائك الإجابة التي قد ترغب فيها؟

قلت: ألا ترى في إجابة هذا البروفيسور نوعا من الهروب؟

قال: نعم.. فهؤلاء العلماء ـ مع ما رزقوا من ذكاء حاد في جميع علوم الدنيا ـ إلا أن لهم بلاهة عجيبة فيما يتعلق بحقائق الأزل.

سكت قليلا، ثم قال: ولكن مع ذلك.. هذه البداية.. والعقل سيبقى محاصرا لهؤلاء.. والحقائق تظل محاصرة لهم إلى أن يعرفوا الحق، ويشهدوا له.

البروفيسور ج. س. جورنجر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور ج. س. جورنجر)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت بهذا الأستاذ مع نفر من أصحابنا، وسألناه: هل ذكر في تاريخ علم الأجنة أن الجنين يخلق في أطوار؟ وهل هناك من الكتب المتعلقة بعلم الأجنة ما قد أشار إلى هذه الأطوار في زمن الرسول ﷺ أو بعده بقرون، أم أن هذا التقسيم إلى أطوار لم يعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر؟

فأجابنا بقوله: لقد كانت هناك عناية من اليونانيين بدراسة الجنين، وقد حاول عدد منهم أن يصف ما يدور للجنين وما يحدث فيه.

فقلنا له: نعم، نعلم هذا، إن هناك نظريات لبعض العلماء منهم أرسطو وغيره، ولكن هل هناك من ذكر أن هناك أطواراً؟ لأننا نعلم أن الأطوار لم تعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر، ولم تثبت إلا في أوائل القرن العشرين.

وبعد نقاش طويل، قال: لا.

قلنا: هل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطـوار، كالمصـطلحات الـتي وردت في القرآن الكريم؟

قال: لا.

قلنا: فما رأيك في هذه المصطلحات التي تغطي أطوار الجنين؟

وبعد مناقشة طويلة معه قدم بحثاً، وألقـاه في المـؤتمر الطـبي السـعودي الثـامن عن هذه الأطوار التي وردت في القرآن الكريم، وعن جهـل البشـرية بهـا، وعن شـمول ودقـة هذه المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم على هـذه الأطـوار لأحـوال الجـنين بعبـارات موجزة وألفاظ مختصرة شملت حقائق واسعة.

وقد قال مصرحا بعد بحثه ذلك: إنه وصف للتطور البشري منذ تكوين الأمشــاج إلى أن أصبحت كتلاً عضوية، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في معظم الحالات إن لم يكن في جميعها يعـود هـذا الوصـف في قدمـه إلى قرون عديدة قبل تسـجيل المراحـل المختلفـة للتطـور الجنيـني البشـري الـتي وردت في العلوم التقليدية العلمية.

قال الشيخ: وتطرق البحث مع البروفيسور جورنجر حول الظاهرة التي كشفت علميــاً، وكشفت حديثاً لتزيل الإشكال الذي كان يثيره النصـارى الـذين يقولـون: هـا هـو ذا عيسـى عليه السلام قد خلق من أم فمن هو أبوه؟.. يثـيرون هـذا الإشـكال لا يتصـورون أن يكـون هناك خلق بدون أب.

ولكن العلم يكشف أن كثيراً من الحيوانات الدنيا وكثيراً من الكائنات الآن تتوالد وتنجب بدون تلقيح الذكور، فهذا النحل: جميع ذكوره عبارة عن بيض لم يلقح بماء الذكور والبيضــة التي تلقح بماء الذكور تكون شغالة أنثى، أما الـذكور فهي مخلوقـة من بيض الملكـة بـدون ماء الذكور.. وغير ذلك من الحيوانات.

بل لقد حدث في التقدم العلمي أن تمكن الإنسان أن ينبه بعض البيض لبعض الكائنـات فتنمو هذه البيضة بدون حاجة إلى تلقيح الذكر.

وقد حدثنا البروفيسور جورنجر عن هذا الأمر، فقال: في نوع آخر لتناول الموضوع فإن البيض غير المخصـب لكثـير من الحيوانـات اللافقاريـة والبرمائيـة والثدييـة السـفلي يمكن تنشيطه بوسائل ميكانيكية، كالوخز بالإبرة، أو بوسائل مادية كالصدمة الحرارية، أو بوسائل

كيميائية بأي عدد من المواد الكيمائية المختلفة، ويستمر البيض إلى مراحل تطور متقدمة، في بعض الأجناس يعتبر هذا النوع من التطور الجيني طبيعياً.

البروفيسور درجا برساد راو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسور درجا برساد راو)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا أستاذ في علم جيولوجيا البحار، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا، وعرضنا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فاندهش لما سمع ولما رأى وهو يقرأ معاني آيات القرآن في بعض الكتب المخصصة لذلك.

وكان مما تعرض لشرحه قول الله تعالى: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (النور:40)

وقد قال في تفسيرها: نعم، هذه الظلمات عرفها العلماء الآن بعد أن استعملوا الغواصات، وتمكنوا من الغوص في أعماق البحار، لا يستطيع الإنسان أن يغوص بدون آلة أكثر من عشرين إلى ثلاثين متراً، فالذين يغوصون من أجل اللؤلؤ في مناطق الخليج يغوصون في مناطق قريبة لا تزيد على هذا العمق، فإذا غاص الإنسان إلى أعماق شديدة حيث يوجد الظلام على عمق 200 متر لا يمكن أبداً أن يبقى حياً.

وهذه الآية تتحدث عن ظاهرة توجد في البحار العميقة، ولذلك قال تعالى: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ .. ليس في أي بحر وصفت هذه الظلمات بأنها متراكمة بعضها فوق بعض، والظلمات المتراكمة والتي تتراكم في البحار العميقة تنشأ بسببين، وكلا السببين يكونان نتيجة اختفاء الألوان في طبقة بعد طبقة.

فالشعاع الضوئي مكون من سبعة ألوان، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى الماء توزع إلى الألوان السبعة.

أخرج لنا صورة طبقات مقسمة من مقطع عرضي لقاع البحر، وقال: نرى في هذا الشكل الذي أمامنا الشعاع في الماء، فالجزء الأعلى قد امتص اللون الأحمر في العشرة الأمتار السطحية العليا، فلو أن غواصاً يغوص على عمق ثلاثين متراً وجرح جسمه وخرج الدم وأراد أن يراه فلا يرى اللون الأحمر لأن الأشعة الحمراء غير موجودة، وبعده يمتص اللون البرتقالي، وكما نرى في هذا الشكل الشعاع الضوئي وهو ينزل في أعماق الماء على مسافة 50 متراً يبدأ امتصاص اللون الأصفر، وعلى عمق100 متر يكون امتصاص اللون الأخضر وهكذا.

ونرى تحت مائتي متر يكون الامتصاص للون الأزرق، فإذاً ظلمة اللون الأخضر عند عمق 100 متر وظلمة الأصفر تكون على عمق 50 متراً، وقبلها ظلمة اللون البرتقالي وظلمة اللون الأحمر، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وأما السبب الثاني فيكون بسبب الحواجز التي تحجب الضوء، فالشعاع الضوئي الذي نراه هنا ينزل من الشمس فتمتص السحب بعضه وتشتت بعضه فتنشأ ظلمة تحت السحب، وهذه الظلمة الأولى، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى سطح البحر المتموج انعكس على سطح الموج فأعطى لمعاناً، ولذلك نرى أنه إذا حدث موج في البحر كان اللمعان شديداً على حسب ميل سطح الموج.

فالموج إذاً يسبب عكساً للأشعة أي يسبب ظلمة ثم ينزل الشعاع الضوئي إلى أسفل، ونجد البحر هنا ينقسم قسمين، قسم سطحي وقسم عميق، أما السطحي فهو الذي يوجد فيه الظلام والبرودة.

ويختلف البحران في خصائصهما وصفاتهما ولكن يوجد موج فاصل بين البحر السطحي والبحر العميق، وهذا الموج الداخلي لم يكتشف إلا عام 1900م تحت الموج العميق الذي يفصل بين البحرين يوجد البحر العميق، ويبدأ الظلام حتى إن الأسماك في هذه المناطق لا ترى بأعينها بل لها مصدر للضوء يصدر من جسمها في هذه الظلمات التي تراكمت بعضها فوق بعض، وقد جاء ذكر هذا في قوله تعالى:﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ وإذا نظرنا أسفل الشكل نرى الظلام ونرى فوق الموج الأول الذي يفصل بين البحر السطحي والبحر العميق ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي من فوق هذا الموج موج آخر، هو الذي يكون على سطح البحر:﴿ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ فوقهم:﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمات هذه الحواجز وظلمات الألوان في طبقات بعضها فوق بعض ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ في هذه المناطق ظلام شديد، والغواصات تنزل إلى هذه المسافات فلا ترى شيئاً، وتستخدم مصادر للضوء والإضاءة حتى ترى طريقها. فمن أخبر محمداً ﷺ عن هذه الآيات؟

قال الشيخ: فكان هذا مما حدثنا عنه البروفيسور راو، ثم استعرضنا معه كثيراً من الآيات المتعلقة بالبحار وفي مجال تخصصه، ثم قلنا له: ما هو تفسيرك يا أستاذ راو لهذه الظاهرة؟.. ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى كيف أخبر محمد ﷺ بهذه الحقائق منذ 1400 عام؟

فقال: من الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة كان موجوداً في ذلك الوقت منذ 1400سنة هجرية، ولكن بعض الأشياء تتناول فكرة عامة، ولكن وصف هذه الأشياء

بتفصيل كبير أمـر صـعب جـداً، ولـذلك فمن المؤكـد أن هـذا ليس علمـاً بشـرياً بسـيطاً، لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هـذه الظـواهر بـذلك القـدر من التفصـيل، ولـذلك فقـد فكرت في قوة خارقة الطبيعة خـارج الإنسـان، لقـد جـاءت المعلومـات من مصـدر خـارق للطبيعة.

البروفيسور شرويدر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفيسـور شـرويدر)، فسألت الغريب عنه، فقال:: هو من علمـاء البحـار في ألمانيـا الغربيـة، وقـد حـدثنا حديثـه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا في نـدوة لعلمـاء البحـار نظمتهـا جامعـة الملـك عبـدالعزيز بجـدة، وقـد طلب مـني حينهـا أن ألقي محاضـرة عن الظواهر البحرية بين الكشوف العلمية والآيات القرآنيـة، وبعـد أن ألقيت المحاضـرة وقـف البروفيسور شرويدر في اليوم الثاني يعقب على هذه المحاضـرة فكـان ممـا قالـه: أود أن أعلق على المحاضرة التي ألقاها علينا الشيخ الزنداني بالأمس، وأود أن أقـول: إنـني أقـدر هذه المحاضرة، في إطار اجتماع علمي كهذا لا يحتاج المرء أن يكون مسلماً، حتى بالنسبة لي كمسيحي من المهم أن أرى العلم ليس فقط كما هو عليه، ولكن أيضاً أن أراه بصـورة أوسع وأقابله بالدين أي أن أراه في إطار الدين.

قال الشيخ: ثم أخذ البروفيسور شرويدر يـبين العلاقـة بين الأديـان والعلم، إنـه يتحـدث عن تلك الفجوة الهائلة بين الأديان كلهـا وبين العلم، فهنـاك تنـافر واضـح بين قـادة العلـوم الدينية وقادة العلوم الكونية، ولكنه اندهش عندما سمع آيات القرآن الكريم وسمع الحقائق التي ذكرها هذا الكتاب الكريم قبل 1400 عام، فعلـق على ذلـك وقـال: في أديـان كثـيرة نجد أن القادة يظنون أن العلم يستطيع أن يأخذ شيئاً من الدين، إذا كان العلم يتقـدم فـإن على الدين أن يتقهقر، هنا لدينا تناول مختلـف تمامـاً، لقـد أراني الشـيخ الزنـداني أن العلم في الحقيقة يؤكد ما يقوله القرآن، وما ورد بالفعل منذ عديـد من السـنين في القـرآن هـو حقيقة ما يكتشفه العلمـاء اليـوم، أعتقـد أنـه من المهم بالنسـبة لنـدوة كهـذه أن تبلـغ إلى العلماء من جميع الأمم، وإنني واثق أننـا جميعـاً سـنعود إلى أوطاننـا ونحن نفكـر أكـثر في العلاقة بين الدين وعلوم البحار، ليس هناك علم في جانب ودين في جانب آخر.

آرثر أليسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (آرثر أليسون)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هو رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعـة لنـدن، ورئيس جمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية.. وقد سمعت حديثه عن بعض الثقـاة، فقـد ذكر لي بأن هـذا الاسـتاذ الفاضـل زار القـاهرة عـام 1985 ليشـارك في أعمـال المـؤتمر

الطبي الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكـريم، كـان يحمـل معـه بحثـه الـذي ألقـاه، وتنـاول فيـه أسـاليب العلاج النفسـي والروحـاني في ضـوء القـرآن الكـريم، بالإضافة الى بحث آخر حول النوم والموت والعلاقة بينهما في ضوء الآية القرآنية الكريمـة: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر:42)

ولم يكن حينها قد اعتنق الإسلام، وإنمـا كـانت مشـاعره تجاهـه لا تتعـدى الإعجـاب بـه كدين من الأديان.

ولكنه ما إن جلس يشارك في أعمال المؤتمر، ويستمع إلى باقي البحوث التي تنـاولت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حتى تملكـه الانبهـار، وازداد يقينـه بـأن هـذا هـو الـدين الحق.. فكل ما يسمعه عن الإسلام يدلل بأنه دين العلم ودين العقل.

لقد رأى ذلك الحشد الهائل من الحقائق القرآنية والنبوية، والتي تتكلم عن المخلوقـات والكائنات، والتي جاء العلم، فأيدها، فأدرك أن هـذا لا يمكن أن يكـون من عنـد بشـر.. ومـا جاء به محمد من أربعة عشر قرناً يؤكد أنه رسول الله حَقّاً.

وأخذ أليسون يستفسر من كل مَن جلس معه عن كل ما يهمه أن يعرفـه عن الإسـلام كعقيدة ومنهج للحياة في الدنيا..

وفي الليلة الختامية للمؤتمر، وأمام مراسـلي وكـالات الأنبـاء العالميـة، وعلى شاشـات التليفزيون، وقف البروفيسور (آرثر أليسون) ليعلن أمام الجميع أن الإسلام هو دين الحـق، ودين الفطرة التي فطر الناس عليها، ثم نطق بالشهادتين أمام الجميع بصوت قوي مؤمن.

وفي تلـك اللحظـات كـانت تكبـيرات المسـلمين من حولـه ترتفـع، ودمـوع البعض قـد انهمرت خشوعاً ورهبة أمام هذا الموقف الجليل.

ثم أعلن البروفيسور البريطاني عن اسـمه الجديـد (عبـد اللـه أليسـون)، وأخـذ يحـدث الحضور عن قصته مع الإسلام فقال: (إنه من خلال اهتمامـاتي بعلم النفس، وعلم مـا وراء النفس، حيث كنت رئيساً لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلـة، أردت أن أتعرف على الأديان، فدرستها كعقائـد، ومن تلـك العقائـد عقيـدة الإسـلام، الـذي وجدته أكثر العقائد تمشياً مع الفطرة التي ينشأ عليهـا الإنسـان، وأكـثر العقائـد تمشـياً مـع العقل، من أن هناك إلهاً واحداً مهيمناً ومسيطراً على هذا الوجـود، ثم إن الحقـائق العلميـة التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبويـة من قبـل أربعـة عشـر قرنـاً قـد أثبتهـا العلم الحديث الآن، وبالتالي نؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشـر على الإطلاق، وأن النـبي محمـد

ﷺ هو رسول الله)

ثم تناول (عبد الله أليسون) جزئية من بحثه الذي شارك به في أعمال المؤتمر، والتي دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية السابقة، فأثبت (أليسون) أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعني الموت، وتعني النوم، وأن الموت وفاة غير راجعة في حين أن النوم وفاة راجعة.. وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية والفحوص الإكلنيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلاً عن توقف التنفس الذي يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أم عدم موته في حالة غيبوبته أو نومه.

وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النّفسُ وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت.

ثم قرر هذا العالم المسلم البروفيسور (عبد الله أليسون) أن الحقائق العلمية في الإسلام هي أمثل وأفضل أسلوب للدعوة الإسلامية، ولا سيما للذين يحتجون بالعلم والعقل.

وقد أعلن البروفيسور أنه سيقوم بإنشاء معهد للدراسات النفسية الإسلامية في لندن على ضوء القرآن المجيد والسنة النبوية.

وأعلن أنه سيظل مهتما بدراسات الإعجاز الطبي في الإسلام، وذلك لكي يوصل تلك الحقائق إلى العالم الغربي الذي لا يعرف شيئاً عن الإسلام.

كما وعد بإنشاء مكتبة إسلامية ضخمة باللغتين العربية والإنجليزية للمساعدة في إجراء البحوث العلمية على ضوء الإسلام.

جفري لانج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (البروفسور جفري لانج)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا أستاذ الرياضيات في الجامعات الأميركية، وهو مؤلف كتاب بعنوان (حتى الملائكة تسأل)، وقد سطر في هذا الكتاب قصة إسلامه.

وقد تشرفت باللقاء معه، والاستماع لتلك القصة منه مشافهة، ومما ذكره لي من ذلك قوله: (لقد كانت غرفة صغيرة، ليس فيها أثاث ما عدا سجادة حمراء، ولم يكن ثمة زينة

على جدرانها الرمادية، وكانت هناك نافذة صغيرة يتسلّل منها النور ... كنا جميعاً في صفوف، وأنا في الصف الثالث، لم أكن أعرف أحداً منهم، كنا ننحني على نحو منتظم فتلامس جباهنا الأرض، وكان الجو هادئاً، وخيم السكون على المكان، نظرت إلى الأمام فإذا شخص يؤمّنا واقفاً تحت النافذة، كان يرتدي عباءة بيضاء ... استيقظت من نومي!رأيت هذا الحلم عدة مرات خلال الأعوام العشرة الماضية، وكنت أصحو على أثره مرتاحاً.

في جامعة (سان فرانسيسكو) تعرفت على طالب عربي كنت أُدرِّسُهُ، فتوثقت علاقتي به، وأهداني نسخة من القرآن، فلما قرأته لأول مرة شعرت كأن القرآن هو الذي (يقرأني)

وفي يوم عزمت على زيارة هذا الطالب في مسجد الجامعة، هبطت الدرج ووقفت أمام الباب متهيباً الدخول، فصعدت وأخذت نفساً طويلاً، وهبطت ثانية لم تكن رجلاي قادرتين على حملي!مددت يدي إلى قبضة الباب فبدأت ترتجف، ثم هرعت إلى أعلى الدرج ثانية ... شعرت بالهزيمة، وفكرت بالعودة إلى مكتبي.. مرت عدة ثوانٍ كانت هائلة ومليئة بالأسرار اضطرتني أن أنظر خلالها إلى السماء، لقد مرت عليّ عشر سنوات وأنا أقاوم الدعاء والنظر إلى السماء!أما الآن فقد انهارت المقاومة وارتفع الدعاء: (اللهم إن كنت تريد لي دخول المسجد فامنحني القوة)، نزلت الدرج، دفعت الباب، كان في الداخل شابان يتحادثان. ردا التحية، وسألني أحدهما: هل تريد أن تعرف شيئاً عن الإسلام؟ أجبت: نعم، نعم .. وبعد حوار طويل أبديت رغبتي باعتناق الإسلام فقال لي الإمام: قل أشهد، قلت: أشهد، قال: أن لا إله، قلت: أن لا إله ـ لقد كنت أؤمن بهذه العبارة طوال حياتي قبل اللحظة ـ قال: إلا الله، رددتها، قال: وأشهد أن محمداً رسول الله، نطقتها خلفه.

لقد كانت هذه الكلمات كقطرات الماء الصافي تنحدر في الحلق المحترق لرجل قارب الموت من الظمأ ... لن أنسى أبداً اللحظة التي نطقت بها بالشهادة لأول مرة، لقد كانت بالنسبة إليّ اللحظة الأصعب في حياتي، ولكنها الأكثر قوة وتحرراً.

بعد يومين تعلمت أول صلاة جمعة، كنا في الركعة الثانية، والإمام يتلو القرآن، ونحن خلفه مصطفون، الكتف على الكتف، كنا نتحرك وكأننا جسد واحد، كنت أنا في الصف الثالث، وجباهنا ملامسة للسجادة الحمراء، وكان الجو هادئاً والسكون مخيماً على المكان !! والإمام تحت النافذة التي يتسلل منها النور يرتدي عباءة بيضاء!صرخت في نفسي: إنه الحلم!إنه الحلم ذاته ... تساءلت: هل أنا الآن في حلم حقاً فاضت عيناي بالدموع، السلام عليكم ورحمة الله، انفتلتُ من الصلاة، ورحت أتأمل الجدران الرمادية! تملكني الخوف والرهبة عندما شعرت لأول مرة بالحب، الذي لا يُنال إلا بأن نعود إلى الله)

(1)

وقد انهالت الأسئلة على الدكتور جيفري لانغ باحثة عن سر إسلامه فكان يجيب: (في لحظة من اللحظات الخاصة في حياتي، منّ الله بواسع علمه ورحمته عليّ، بعد أن وجد فيّ ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدي الاستعداد الكبير إلى مَلء الخواء الروحي في نفسي، فأصبحت مسلماً ... قبل الإسلام لم أكن أعرف في حياتي معنى للحب، ولكنني عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرني، وبدأت أشعر بديمومة الحب في قلبي، فالذي قادني إلى الإسلام هو محبة الله التي لا تقاوَم) (2)

وكان من إجاباته قوله: (الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له، وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة.. إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح) (3)

وكان يجيب بقوله: (القرآن هذا الكتاب الكريم قد أسرني بقوة، وتملّك قلبي، وجعلني أستسلم لله، والقرآن يدفع قارئه إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدّى للقارئ أنه يقف بمفرده أمام خالقه، وإذا ما اتخذت القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقاً عليك!وهو يجادلك، وينتقدك ويُخجلك ويتحداك ... لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحاً أن مُنزل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي ... لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي ... وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي ... لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في صفحات القرآن..) (4)

وكان يقول: (بعد أن أسلمت كنت أُجهد نفسي في حضور الصلوات كي أسمع صوت القراءة، على الرغم من أني كنت أجهل العربية، ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه؟أتمنى أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت إلى الأبد)(5)

وكان يقول: (الصلاة هي المقياس الرئيس اليومي لدرجة خضوع المؤمن لربه، ويا لها

---

1) باختصار عن كتابيه (الصراع من أجل الإيمان) و(حتى الملائكة تسأل)

2) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ: 211.

3) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ:75.

4) حتى الملائكة تسأل،:209.

5) الصراع من أجل الإيمان:34.

من مشاعر رائعة الجمال، فعندما تسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رُفعت إلى الجنة، تتنفس من هوائها، وتشتمُّ تربتها، وتتنشق شذا عبيرها، وتشعر وكأنك توشك أن ترفع عن الأرض، وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم) (1)

وكان يقول: (وإن صلاة الفجر هي من أكثر العبادات إثارة، فثمة دافع ما في النهوض فجراً – بينما الجميع نائمون – لتسمع موسيقا القرآن تملأ سكون الليل، فتشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتسافر مع الملائكة لتمجّد الله عند الفجر) (2)

قلت: أراه شديد التعظيم للصلاة مدركا لقيمتها.

قال: أجل.. وقد حدثني عن أول صلاة صلاها، والصراع الذي حصل بينه وبين نوازع نفسه، فقال: في اليوم الذي اعتنقت فيه الإسلام، قدم لي إمام المسجد كتيباً يشرح كيفية أداء الصلاة، غير أني فوجئت بما رأيته من قلق الطلاب المسلمين، فقد ألحوا عليَّ بعبارات مثل: (خذ راحتك) (لا تضغط على نفسك كثيراً) (من الأفضل أن تأخذ وقتك) (ببطء.. شيئاً، فشيئاً)

وتساءلت في نفسي (هل الصلاة صعبة إلى هذا الحد؟). لكنني تجاهلت نصائح الطلاب، فقررت أن أبدأ فوراً بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها.

وفي تلك الليلة، أمضيت وقتاً طويلاً جالساً على الأريكة في غرفتي الصغيرة بإضاءتها الخافتة، حيث كنت أدرس حركات الصلاة وأكررها، وكذلك الآيات القرآنية التي سأتلوها، والأدعية الواجب قراءتها في الصلاة.

وبما أن معظم ما كنت سأتلوه كان باللغة العربية(3)، فقد لزمني حفظ النصوص بلفظها العربي، وبمعانيها باللغة الإنجليزية، وتفحصت الكتيب ساعات عدة، قبل أن أجد في نفسي الثقة الكافية لتجربة الصلاة الأولى، وكان الوقت قد قارب منتصف الليل، لذلك قررت أن أصلي صلاة العشاء.

ودخلت الحمام ووضعت الكتيب على طرف المغسلة مفتوحاً على الصفحة التي تشرح الوضوء، وتتبعت التعليمات الواردة فيه خطوة خطوة، بتأن ودقة، مثل طاهٍ يجرب وصفة لأول مرة في المطبخ.

---

1) حتى الملائكة تسأل:366.

2) الصراع من أجل الإيمان:111.

3) ذكرنا في المسائل الفقهية المرتبطة بهذا الجانب أنه لا ينبغي التشدد في هذا الباب، فيمكن للمصلي أن يصلي باللغة التي يعرفها، وفي الفقه الإسلامي الأدلة الكثيرة المبينة لجواز هذا، ولعل أقواها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(طـه: من الآية14)، فالغرض من الصلاة هو ذكر الله، وهو يتحقق بأي لغة من اللغات.

وعنـدما انتهيت من الوضـوء، أغلقت الصـنبور وعـدت إلى الغرفـة والمـاء يقطـر من أطرافي، ووقفت في منتصف الغرفة، متوجهاً إلى ما كنت أحسبه اتجاه القبلة.

نظرت إلى الخلف لأتأكد من أنني أغلقت باب شقتي، ثم توجهت إلى الأمام، واعتـدلت في وقفتي، وأخذت نفسـاً عميقـاً، ثم رفعت يـدي، وبراحـتين مفتوحـتين ملامسـاً شـحمتي الأذنين بإبهامي، ثم بعد ذلك، قلت بصوت خافت (الله أكبر).

كنت آمل ألا يسمعني أحد. فقد كنت أشعر بشيء من الانفعـال. إذ لم أسـتطع التخلص من قلقي من كون أحد يتجسس علي.

وفجأة أدركت أنني تـركت السـتائر مفتوحـة، وتسـاءلت: مـاذا لـو رآني أحـد الجـيران؟ تركت ما كنت فيه، وتوجهت إلى النافذة، ثم جلت بنظري في الخارج لأتأكد من عدم وجود أحد.

وعندما رأيت الباحة الخلفية خالية، أحسسـت بالارتيـاح. فـأغلقت السـتائر، وعـدت إلى منتصف الغرفة.

ومـرة أخـرى، تـوجهت إلى القبلـة، واعتـدلت في وقفـتي، ورفعت يـدي إلى أن لامس الإبهامان شحمتي أذني، ثم همست (اللـه أكـبر)... وبصـوت خـافت لا يكـاد يسـمع، قـرأت فاتحة الكتاب ببطء وتلعثم، ثم أتبعتها بسورة قصيرة باللغـة العربيـة، وإن كنت أظن أن أي عربي لم يكن ليفهم شيئاً لو سمع تلاوتي تلك الليلة.

ثم بعد ذلك تلفظت بالتكبير مرة أخرى بصوت خافت وانحنيت راكعاً حتى صـار ظهـري متعامداً مع ساقي واضعاً كفي على ركبتي وشعرت بالإحراج، إذ لم أنحن لأحـد في حيـاتي، ولذلك فقد سررت لأنني وحدي في الغرفة.

وبينما كنت ما أزال راكعاً، كررت عبارة (سبحان ربي العظيم) عدة مـرات، ثم اعتـدلت واقفاً وأنا أقرأ (سمع اللـه لمن حمـده) ثم (ربنـا ولـك الحمـد).... أحسسـت بقلـبي يخفـق بشدة، وتزايد انفعالي عندما كبرت مرة أخرى بخضوع فقد حان وقت السـجود.. وتجمـدت في مكاني، بينما كنت أحدق في البقعة التي أمـامي، حيث كـان علي أن أهـوي إليهـا على أطرافي الأربعة وأضع وجهي على الأرض.

لم أستطع أن أفعل ذلك، لم أسـتطع أن أنـزل بنفسـي إلى الأرض، لم أسـتطع أن أذل نفسي بوضع أنفي على الأرض، شأن العبد الذي يتذلل أمام سيده.. لقد خيل لي أن ساقي مقيدتان لا تقدران على الانثناء... لقد أحسست بكثير من العار والخـزي، وتخيلت ضـحكات

أصدقائي ومعارفي وقهقهاتهم، وهم يراقبونني وأنا أجعل من نفسي مغفلاً أمامهم، وتخيلت كم سأكون مثيراً للشفقة والسخرية بينهم، وكدت أسمعهم يقولون: (مسكين جفـري فقـد أصابه العرب بمس في سان فرانسيسكو)

وأخذت أدعو: (أرجوك، أرجوك، أعني على هذا). أخذت نفساً عميقاً، وأرغمت نفسي على النزول.. الآن صرت على أربعتي، ثم ترددت لحظات قليلة، وبعد ذلك ضغط وجهي على السجادة.. أفرغت ذهني من كل الأفكار، وتلفظت ثلاث مرات بعبارة (سبحان ربي الأعلى)، (الله أكبر) قلتها ورفعت من السجود جالساً على عقبي وأبقيت ذهني فارغاً رافضاً السماح لأي شيء أن يصرف انتباهي. (الله أكبر) ووضعت وجهي على الأرض مرة أخرى. وبينما كان أنفي يلامس الأرض، رحت أكرر عبارة (سبحان ربي الأعلى) بصورة آلية. فقد كنت مصمماً على إنهاء هذا الأمر مهما كلفني ذلك. (الله أكبر) وانتصبت واقفاً، فيما قلت لنفسي: لا تزال هناك ثلاث جولات أمامي. وصارعت عواطفي وكبريائي في ما تبقى لي من الصلاة.

لكن الأمر صار أهون في كل شوط، حتى إنني كنت في سكينة شبه كاملة في آخر سجدة، ثم قرأت التشهد في الجلوس الأخير، وأخيراً سلمت عن يميني وشمالي...

وبينما بلغ بي الإعياء مبلغه، بقيت جالسا على الأرض، وأخذت أراجع المعركة التي مررت بها، لقد أحسست بالإحراج لأنني عاركت نفسي كل ذلك العراك في سبيل أداء الصلاة إلى آخرها، ودعوت برأس منخفض خجلاً: (اغفر لي تكبري وغبائي، فقد أتيت من مكان بعيد ولا يزال أمامي سبيل طويل لأقطعه)

وفي تلك اللحظة، شعرت بشيء لم أجربه من قبل، ولذلك يصعب عليّ وصفه بالكلمات، فقد اجتاحتني موجة لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها كالبرودة، وبدا لي أنها تشع من نقطة ما في صدري، وكانت موجة عارمة فوجئت بها في البداية حتى إنني أذكر أنني كنت أرتعش، غير أنها كانت أكثر من مجرد شعور جسدي، فقد أثرت في عواطفي بطريقة غريبة أيضا.

لقد بدا كأن الرحمة قد تجسدت في صورة محسوسة، وأخذت تغلفني وتتغلغل فيّ.. ثم بدأت بالبكاء من غير أن أعرف السبب، فقد أخذت الدموع تنهمر على وجهي، ووجدت نفسي أنتحب بشدة... وكلما ازداد بكائي، ازداد إحساسي بأن قوة خارقة من اللطف والرحمة تحتضنني. ولم أكن أبكي بدافع من الشعور بالذنب، رغم أنه يجدر بي ذلك، ولا بدافع من الخزي أو السرور.. لقد بدا كأن سداً قد انفتح مطلقاً عنان مخزون عظيم من

الخوف والغضب بداخلي.

ظللت لبعض الوقت جالساً على ركبتي، منحنيـاً إلى الأرض، منتحبـاً ورأسـي بين كفي. وعندما توقفت عن البكاء أخيراً، كنت قد بلغت الغاية في الإرهاق، فقد كانت تلـك التجربـة جارفة وغير مألوفة إلى حد لم يسمح لي حينئذ أن أبحث عن تفسيرات عقلانيـة لهـا.. وقـد رأيت حينها أن هذه التجربة أغرب من أن أستطيع إخبار أحد بها.

أما أهم ما أدركته في ذلك الوقت فهـو أنـني في حاجـة ماسـة إلى اللـه وإلى الصـلاة، وقبل أن أقوم من مكاني، دعوت بهذا الدعاء الأخير: (اللهم، إذا تجرأت على الكفر بك مرة أخرى، فاقتلني قبل ذلك، خلصني من هذه الحياة.. ومن الصعب جداً أن أحيا بكل ما عندي من النواقص والعيوب لكنني لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً آخر وأنا أنكر وجودك) (1)

محمد أكويا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (محمـد أكويـا)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هذا أسـتاذ بإحـدى الجامعـات الأمريكيـة، وقـد ذكـر لي قصـة إسـلامه، فقال: قبل أربع سنوات، ثارت عندنا بالجامعة زوبعة كبـيرة، حيث التحقت للدراسـة طالبـة أميركية مسلمة،وكانت محجبة،وقـد كـان من بين مدرسـيها رجـل متعصـب يبغض الإسـلام ويتصدى لكل لا يهاجمه، فكيف بمن يعتنقهويظهر شعائره للعيان؟

وقد كان هذا الأستاذ يحاول استثارتها كلما وجد فرصة سانحة للنيل من الإسلام، وشـن حربا شعواء عليها،ولما قـابلت هي الموضـوع بهـدوء ازداد غيظـه منهـا، فبـدأ يحاربهـا عـبر طريق آخر، حيث الترصد لها بالدرجات،وإلقاء المهام الصعبة في الأبحاث، والتشـديد عليهـا بالنتائج، ولما عجزت المسكينة أن تجد لها مخرجا تقدمت بشكوى لمـدير الجامعـة مطالبـة فيها النظر إلى موضوعها.

وكان قرار الإدارة أن يتم عقد لقاء بين الطرفين المذكورين الـدكتور والطالبـة لسـماع وجهتي نظرهما والبت في الشكوى.

ولما جاء الموعـد المحـدد، حضـر أغلب أعضـاء هيئـة التـدريس، وكنـا متحمسـين جـدا لحضور هذه الجولة التي تعتبر الأولى من نوعها عندنا بالجامعة.

بدأت الجلسة التي ذكرت فيها الطالبـة أن المـدرس يبغض ديانتهـا، ولأجـل هـذا يهضـم حقوقها العلمية، وذكرت أمثلـة عديـدة لهـذا، وطلبت الاسـتماع لـرأي بعض الطلبـة الـذين يدرسون معها، وكان من بينهم من تعاطف معها وشهد لهـا، ولم يمنعهم اختلاف الديانـة أن

---

1) حتى الملائكة تسأل:234.

يدلوا بشهادة طيبة بحقها.

حاول الدكتور على إثر هذا أن يدافع عن نفسه، واستمر بالحديث، فخاض بسب دينها، فقامت تدافع عن الإسلام، وأدلت بمعلومات كثيرة عنه، وكان لحديثها قدرة على جذبنا، حتى أننا كنا نقاطعها، فنسألها عما يعترضنا من استفسارات، فتجيب، فلما رآنا الدكتور المعني مشغولين بالاستماع والنقاش خرج من القاعة، فقد تضايق من اهتمامنا وتفاعلنا.

فذهب هو ومن لا يرون أهمية للموضوع، وبقينا نحن مجموعة من المهتمين نتجاذب أطراف الحديث، وفي نهايته قامت الطالبة بتوزيع ورقتين علينا كتب فيها تحت عنوان (ماذا يعني لي الإسلام؟)، وفيها ذكرت الدوافع التي دعتها لاعتناق هذا الدين العظيم، ثم بينت ما للحجاب من أهميةوأثر، وشرحت مشاعرها الفياضة صوب هذا الجلباب وغطاء الرأس الذي ترتديه، والذي تسبب بكل هذه الزوبعة.

لقد كان موقفها عظيما.. ولأن الجلسة لم تنته بقرار لأي طرف، فقد قالت إنها تدافع عن حقها، وتناضل من أجله، ووعدت أنها إن لم تظفر بنتيجة لصالحها أن تبذل المزيد حتى لو اضطرت لمتابعة القضيةوتأخير الدراسة نوعا ما، لقد كان موقفا قويا، ولم نكن أعضاء هيئة التدريس نتوقع أن تكون الطالبة بهذا المستوى من الثبات، ومن أجل المحافظة على مبدئها.

وكم أذهلنا صمودها أمام هذا العدد من المدرسين والطلبة، وبقيت هذه القضية يدور حولها النقاش داخل أروقة الجامعة، أما أنا فقد بدأ الصراع يدور في نفسي من أحل تغيير الديانة، فما عرفته عن الإسلام حببني فيه كثيرا، ورغبني في اعتناقه، وبعد عدة أشهر أعلنت إسلامي، وتبعني دكتور ثانوثالث في نفس العام، كما أن هناك أربعة طلاب أسلموا.

وهكذا في غضون فترة بسيطة أصبحنا مجموعة لنا جهود دعوية في التعريف بالإسلام والدعوة إليه، وهناك الآن عدد من الأشخاص في طور التفكير الجاد، وعما قريب إن شاء الله ينشر خبر إسلامهم داخل أروقة الجامعة.والحمد لله وحده.

آلا أولينيكوفا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (آلا أولينيكوفا)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذه أستاذة بالجامعية الروسية، وقد درست الطب في ثلاث جامعات، قد أخبرتني عن قصة اعتناقها للإسلام، فقالت: أنا روسية، ولدت في مدينة (لينين غراد).. وهي مدينة تنتسب إلى لينين ذلك الشيوعي الذي قتل آلاف المسلمين في الجمهوريات المسلمة في الاتحاد السوفييتي السابق.

وقد تعلمت وواصلت الدراسة في أسرة فقيرة لم يكن لها من زاد سوى صيد الأسماك التي عمل بها والدي من قديم.

وقـد درسـت الطب في موسـكو وتخـرجت، ثم حصـلت على الماجسـتير فالـدكتوراه، ودرست بعدها في جامعات موسكو وكييف ولينين غراد.

حياتي في ظل الشيوعية كانت سيئة جدا، لا تتفق وفطـرة الإنسـان في العيش بحريـة وأمان ورفاه.

كنت في داخلي ثائرة على الوضع، لكنـني لم أكن أسـتطيع الكلام، مثـل سـائر النـاس، وإلا كان المصير هو القتل، أو النفي لسيبيريا، أو السجن أو التعذيب.

كانت حياتنا جحيما مستعرا، ظلما واستعبادا وقهرا، وإجبارا على حيـاة لا توافـق فطـرة البشر، ومنعا من العبادة، وإجبارا على الكفر والإلحاد.

نحن نعلم عن الإسلام أكثر مما يعرفه الغربيـون لأسـباب أهمهـا قربنـا من المجتمعـات المسلمة، ولأن الاتحاد السوفييتي كان يضم قرابة 60 مليون مسلم، وهـؤلاء يعملـون معنـا في مختلف مراكز الدولة.

عـرفت الإسـلام من بعض المسـلمين العـاملين معنـا، ولاحظتـه في تصـرفات الطلبـة الوافدين من الدول الإسلامية مثل: سورية والكويت وليبيا واليمن والعراق.

وتعرفت على الإسلام أكثر من خلال طالب سـوري من حمص كـان يـدرس الطب في جامعة كييف، إذ لم يكن يشرب الخمر، ولا يأكل لحم الخنزير، ولا يقيم علاقات مع النسـاء، وكانت أخلاقه عالية جدا، فقد كان أمينا وصادقا، وكان يسكن منزلا متواضعا يقول عنه: هذا منزلي ومسجدي.

شـدني هـذا الطـالب المسـلم بأخلاقـه، وتعاملـه المهـذب، ليؤكـد أن هـذه هي أخلاق الإسلام، ولقد أهداني كتبا عن الإسلام قرأتها جيدا فزادت معرفتي به.

وفي عـام 1992 م تـركت العمـل مؤقتـا، وسـافرت إلى سـورية حيث التحقت بكليـة الدعوة، ودرست الإسلام فيها، وتخرجت عام 1995 لأعلن إسلامي.

وقد ذكرت لي فضائل الإسلام ومزاياه.. وهي التي جعلته تقتنع به وتعتنقه، فقالت: الإسلام دين عظيم، وهو في بلادنا من قبل ألف عام، بينما لم تعش الشيوعية أكثر من سبعين عاما .. لاحظت الأخوة والمحبة بين المسلمين وتبادل النصح .. يزداد تجلي الإسلام في رمضان حيث النظام والصبر والمودة التي تفتقدها المجتمعات غير المسلمة على إطلاقها .. الإسلام يراعي الدنيا والآخرة، وهذا يلائم الطبيعة البشرية .. بعد ارتدائي الحجاب أحاول عدم الاختلاط بالرجال قدر المستطاع.

ولو عرف مجتمعنا الإسلام جيدا وطبقه لأنقذه من الجريمة والفساد والمافيا والمخدرات والدعارة والبطالة.. لأن الإسلام يحرم ويحارب كل ما يضر بالنفس وبالآخرين.

الإسلام هو الخلاص للبشرية، والشافي لها من أمراض العصر، وفيه الحل لمشكلات المجتمعات المختلفة.

لقد سقطت الشيوعية في مزبلة التاريخ على الرغم من كل ما أحاطوها به من دعايات.

بقي الإسلام الذي حاول الشيوعيون طمسه، بل تعاظم دوره واتسعت رقعته اليوم في روسيا وغير روسيا، وفي هذا درس وعبرة لمن أراد أن يعتبر.

وقد قالت لي في آخر حديثي معها: أنا الآن بصدد وضع كتاب عن الإسلام بالروسية، وسوف أحاول تعريف الجميع بهذا الدين العظيم، الذي رأيت من خلاله النور.

صوفي بوافير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (صوفي بوافير) [1]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذه عالمة كندية تحمل درجة الماجستير في تعليم الفرنسية والرياضيات، وقد حدثتني حديث إسلامها، فقالت: ولدت في مونتريال بكندا عام 1971 في عائلة كاثوليكية متدينة، فلذلك اعتدت الذهاب إلى الكنيسة، إلى أن بلغت الرابعة عشرة من عمري، حيث بدأت تراودني تساؤلات كثيرة حول الخالق وحول الأديان، وكانت هذه التساؤلات منطقية، ولكنها سهلة، ولكني تعجبت من صعوبتها على الذين كنت أسألهم.

ومن هذه الأسئلة: إذا كان الله هو الذي يضر وينفع، وهو الذي يعطي ويمنع، فلماذا لا

1) انظر:كتاب (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح)، د.عبد المعطي الدالاتي.

نسـأله مباشـرة !؟.. ولمـاذا يتحتم علينـا الـذهاب إلى الكـاهن كي يتوسـط بيننـا وبين من خلفنا !؟.. أليس القادر على كل شيء هو الأولى بالسؤال !؟

أسئلة كثـيرة كهـذه كـانت تُلحُّ علي، فلمّـا لم أتلـق الأجوبـة المقنعـة عنهـا تـوقفت عن الذهاب إلى الكنيسة، ولم أعد للاستماع لقصص الرهبان غير المقنعة، والتي لا طائل منها.

لقد كنت أؤمن بالله وبعظمته وبقدرتـه، لـذلك رحت أدرس أديانـاً أخـرى، دون أن أجـد فيها أجوبة تشفي تساؤلاتي في الحياة، وبقيت أعيش الحيرة الفكرية حتى بـدأت دراسـتي الجامعية، فتعرفت على شاب مسلم تعرفت من خلاله على الإسلام، فأدهشني مـا وجـدت فيه من أجوبة مقنعة عن تساؤلاتي الكبرى.

وبقيت سنة كاملة وأنا غارقة في دراسة هذا الدين الفذ، حتى استولى حبه على قلـبي، والمنظر الأجمل الذي جذبني إلى الإسـلام هـو منظـر خشـوع المسـلم بين يـدي اللـه في الصلاة، كانت تبهرني تلك الحركات المعبرة عن السكينة والأدب وكمال العبودية لله تعالى، فبدأت أرتاد المسجد، فوجدت بعض الأخوات الكنديات اللواتي سـبقنني إلى الإسـلام، وهـو ما شجعني على المضي في الطريـق إلى الإسـلام، فارتـديت الحجـاب أولاً لأختـبر إرادتي، وبقيت أسبوعين حتى كانت لحظة الانعطاف الكبـير في حيـاتي، حين شـهدت أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

إن الإسلام الذي جمعني مع هذا الصديق المسلم، هو نفسه الذي جمعنا من بعد لنكون زوجين مسلمين، لقد شـاء اللـه أن يكـون رفيقي في رحلـة الإيمـان هـو رفيقي في رحلـة الحياة.

اسبر ابراهيم شاهين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (اسبر إبـراهيم شـاهين) (1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هو الدكتور اسبر ابراهيم شاهين.. وهو اسـم معـروف في الولايات المتحدة الاميركية التي يحمل جنسيتها وتربطه علاقة صداقة حميمة مـع رؤسـائها، بل يعتبر أحد الشخصيات ذوي الانجازات في دول الغرب.

وقد عرف بمؤلفاته ومقالاته التي حققت رواجاً بين أوساط القراء، بـل إن بعضـها ادرج ضمن الكتب الاكثر رواجاً وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالتكنولوجيا.

وهو بالإضافة إلى هذا خطيب بارع، ومتحدث لبـق يجيـد فن الحـديث، وقـد نـال جـائزة

1) أجري معه الحوار في مجلة (الشرق الاوسط)، أجرى الحوار في الرياض: بدر الخريف.

قيمة في مجال تطوير المهارات المتخصصة، وهو مصنف ضمن رجال العلم الأميركان، وضمن أحد الشخصيات ذوي الإنجازات في دول الغرب. كما أنه مواطن فخري لمدينة تكساس، وأحد الأساتذة البارزين في أميركا. وقد نال جائزة رواد الخطابة العالمية للباقته في الحديث، كما حصل على شهادة تقدير وسجل أسمه في سجل الشرف التذكاري الرئاسي.

وقد التقيت به في أمريكا، وحدثني عن قصة إسلامه، فقال: ولدت في لبنان عام 1937، وأنا ـ في أصلي ـ مسيحي أرثوذكسي، درست في لبنان واكملت دراسة الثانوية فيها، ومن خلال حبي لروح المغامرة كشاب في مقتبل العمر وطموحي وتعطشي للمعرفة هاجرت الى الولايات المتحدة الاميركية عام 1957 طلباً للعمل والبحث عن فرص وظيفية، وكنت اعمل اثناء الدراسة لأنفق على نفسي، وقد درست بجامعة تكساس في أوستن لمدة سنتين، وحصلت على درجة البكالوريوس في العلوم من قسم الهندسة الكيميائية من جامعة ولاية اوكلاهوما ثم درست بعد ذلك بجامعة اريزونا في توسون، وحصلت على درجة الماجستير في العلوم، كما حصلت على شهادة الدكتوراة من جامعة تينيسي في نوكسفيل.

وأثناء دراستي هناك كنت ناشطاً في شرح القضايا العربية والدفاع عنها، ففي جامعة اوكلاهوما انتخبت رئيساً لمنظمة الطلبة العرب.

قلت: فكيف أقبلت على الإسلام، واقتنعت به، واعتنقته؟

قال: أصارحك القول.. أنا منذ صغري أشعر بميل شديد إلى الإسلام.. وفي مراحل التعليم المختلفة، ومن خلال ما اطلعت عليه في صغري عن الحضارة العربية والإسلامية والتاريخ العربي اتضح لي أن الإسلام دين عظيم، وقد انبعث من الجزيرة العربية لينتشر في جميع أنحاء المعمورة، ومن خلال صداقاتي مع كثير من المسلمين التي امتدت إلى عدة عقود لمست فيهم سلوكيات في غاية الكمال وممارسات تجبرك على احترامهم، فمثلاً أنا مسيحي لم أجد من أصدقائي المسلمين أي شيء يشعرني بالبعد عنهم، بل إن الاحترام هو ديدن هذه الصداقة.

إن المعاملة والوعي لب روح الإسلام تجبرك على احترام هذا الدين، كما أن صداقاتي للدكتور ناصر بن ابراهيم الرشيد التي امتدت لأكثر من 33 عاماً كان لها تأثير إيجابي على حياتي، فالإسلام دين واقعي ودين يدعو للعدالة والرحمة وتقدير الإنسان وتكريمه.

قلت: هذا السبب العام، فما السبب الخاص الذي أجبرك على إعلان إسلامك؟

قـال: لقـد قلت لنفسـي (العمـر يمشـي ونحن نمشـي، ولم يبـق من الـزمن مثـل مـا مضى).. وإضافة الى ما كانت ذاكرتي تختزنه من حب للاسلام، فقد مررت بظروف صـعبة جداً منذ سنتين ونصف حيث خضـعت لعمليـة استئصـال ورم سـرطاني حـول البنكريـاس، وذلك في احدى المستشفيات الاميركية، واتضح لي أن العملية ونتائجهـا خطـرة وأن نسـبة نجاحها تعد من النوادر.

وفي ليلة العملية تلقيت اتصالات من اصدقاء ومحبين كلهم يدعون لي بنجـاح العمليـة، بل إن البعض منهم أشار إلى أنهم دعـوا لي في الحـرم بخـروجي سـالماً معـافى من هـذا الظرف، ولأنني مولع بالقرآن الكريم بصوت المقرئ الراحل عبد الباسط عبد الصمد الـذي كنت أتلذذ بالاستماع اليه، وينتابني عند سماعه شعور غريب أشـعر بعـده بالطمأنينـة، فقـد استمعت ليلة إجراء العملية إلى آيات من القرآن الكريم، وبعـد العمليـة شـعرت بطمأنينـة عميقة وروح هادئة، وحينها قررت أن أعلن إسلامي، وبالفعل حصل ذلك بحمد الله.

كانت الظروف السياسية التي أعلن فيها إسلامه صعبة جدا، فقلت: ألا تـرى أن تـزامن إسلامك مع هذه الظروف الصعبة وأنت ضمن الشخصيات الأميركية البارزة وتربطك علاقة بصـناع القـرار السياسـي في أميركـا، إضـافة إلى أنـك استشـاري دولي ورئيس لمعهـد تكنولوجي دولي، هل ترى ان توقيت إسلامك فيه نوع من التحدي؟

قال: نعم، اعلان اسلامي في ظل هذه الظروف هو نوع من التحدي، ولكنني لا أخشـى أحداً، فقد اتخذت قرار الدخول في الدين الإسلامي عن قناعة تامة.

قلت: ألا تخاف أن توجه لك انتقادات بسبب إسلامك؟

قال: بالتأكيد سأواجه انتقادات.. ولكن كما قلت لا أعبأ بذلك.

قلت: فهل ستعرض الإسلام على أسرتك؟

قـال: نعم، ولكن بأسـلوب الإقنـاع، ودخـول أفـراد أسـرتي للإسـلام وخصوصـاً زوجـتي الاميركية يعتمد على القناعة، وأنا أرى أنني قدوة لأسرتي سابقاً، والآن سأكون أفضـل بعـد إسلامي.

قلت: أنت ترى ما يفعل قومي وقومك من التشهير بالإسـلام والمسـلمين والعـرب في الغرب؟

قال: ليس هناك ما يبرر مثل هذا الهجوم، وقد تابعت ذلك ووجدت أن ما طـرح لا يعـدو أن يكون حقداً وكراهية ولا يصور الواقع، واقـع الـدين الإسـلامي المشـهور بالعـدل والحـق

وواقع المسلمين والعرب، والغريب أن هذه الحملة تأتي من اشخاص في مراكز قوى تؤثر على الملايين من المواطنين.

والاعلام الاميركي وخصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر أصبح طوفانا من الدعاية السيئة، ومن المستحيل أن يقف أمامه من يسعون إلى إيضاح الحقيقة بسبب سيطرة الصهاينة عليه، وهذا يتطلب آلية من العرب والمسلمين لايضاح الصورة وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن دينهم وعن واقعهم.

قلت: من خلال دراستك للإسلام ومخالطتك للمسلمين، هل لمست أن صراعاً ظهر بين الإسلام والمسيحية؟

قال: المسيحية ـ في أصلها وحقيقتها ـ لا تعادي الإسلام، والعكس كذلك، لكن ظهرت مؤخراً أصوات من مبشرين تتناول إعلان الحرب على الإسلام مثل ما ذهب اليه فرانك جراهام ـ وهو نجل المبشر الكبير بل جراهام ــ حيث قال: يجب أن يعلن الحرب على الإسلام، فإله الإسلام ليس بإلهنا، والإسلام هو دين عنف وكراهية لأقصى درجات.

تصور، هل مثل هذا الكلام يطرح، وتتناقله بعض وسائل الاعلام، وهل مثل هذا الشخص يمكن أن يقال إنه يدين بالمسيحية، لا اعتقد ذلك، فالمسيحية تقول: (من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر).. إنه بذلك يحرض العالم على الحرب وهذا شيء مؤلم، فكيف تنتقد ديناً أو تبدي رأياً فيه دون أن تعرف حقيقته أو ان تقرأ عنه.

المشكلة أن البعض في الغرب يقارن الإسلام النبيل بالمتطرفين من المسلمين، ومن قبل متطرفين مسيحيين، رغم أن الإسلام والمسيحية براء من هذه النماذج.

قلت: ما هي الآلية التي تراها مناسبة لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام؟

قال: من خلال إيضاح حقيقة الإسلام، من خلال الحوار مع الآخر، من خلال المراكز الاعلامية بأساليب نبيلة ومحترمة توضح الحقيقه وتراعي شعور الآخرين.

موري ديفيد كيل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (موري ديفيد كيل)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا باحث كندي شاب، وقد التقيت به في بعض رحلاتي إلى كندا، وقد سألته أن يحدثني عن سر اختياره الإسلام دينا دون سائر الأديان، فقال: كنت أنتمي الي عائلة مسيحية، وأتردد علي الكنيسة حتي الثانية عشر من عمري، وكنت أغني

مزامير وتراتيل الكنيسة، ولكن ترددي علي الكنيسة بدأ يقل كثيرا أو شـعرت بـأن وجـودي هناك لا يعالج حالة الفراغ الروحي الـتي أشـعر بهـا، وكـانت مشـكلة الـدين تثـير إهتمـامي بشكل كبير في ذلك الوقت.

ورغم أني كنت أعرف شيئا قليلا عن الإسلام من خلال ما تذكره وسائل الإعلام، إلا أني لم أكن أعلم أن الإسلام دين توحيدي، بل لم أكن أعلم أن الإسلام تربطـه أي علاقـة بـدين ابراهيم أو غيره من الاديان.. لكـني بـدأت ألتفت إلى الإسـلام بقـوة عنـدما علمت أن أحـد علماء الإسلام في سويسرا وصف الإسلام بانه نقطه تلاقي بين الله كما هـو وبين الانسـان كما هو.

بعدها بدأت رحلة البحث والدراسـة والتفكـير، وبـدأ يتكشـف أمـامي الكثـير من تعـاليم الدين الإسلامي، وكـانت كـل مشـكلتي تتمثـل في عـدم وجـود من يشـجعني علي دخـول الإسلام، خاصة وأن المجتمع الغربي ككل يتخذ موقفاً معادياً للإسلام.

ولكني لم أتراجع عن الإسلام.. لقد وجدت في الإسلام التوازن الذي كنت أنشـده، وهـو الذي هداني إلى الغاية الحقيقية من الحياة، وقد وجدت فيه علاجاً وحلاً لمشكلة الــروح في هذا الزمان والتي بحثت كثيراً عنها في مختلف الأديان، لكني لم أجد ديناً يعالج هذه القضية بشكل شامل وواسع سوى الإسلام.

لقد أعلنت إسلامي رغم علمي بالصعوبات التي سوف تواجهني.. وسميت نفسـي عبـد الصمد.

قلت: ما هي الصعوبات التي واجهتك بعد إسلامك؟

قال: عندما أعلنت إسلامي لم ألق معارضـة من قبـل أصـدقائي، ولكن بمـرور الـوقت اكتشفت أنـني فقـدتهم جميعـاً، أمـا بالنسـبة لعـائلتي، فقـد أخفيت إسـلامي عنهم طـويلا،

وعندما اكتشفوا ذلك توترت علاقتي بهم، واصيبوا بحالة من خيبة الأمل والحزن، ولمدة عام كامل، وهم يتعاملون معي بحساسية شديدة.

ورغم أن موقفهم من إسلامي كان يعذبني إلا أنني اقتديت بالصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي فضل الإيمان علي أمه والتي كان باراً بها..

لكن بمرور الوقت تحسنت علاقتي بالأسرة، ولكنهم ما يزالوا حتي اليوم يحرصون علي إخفاء نبأ إسلامي، ويعتبرون ذلك فضيحة.

أحمد نسيم سوسه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (أحمد نسيم سوسه)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا باحث مهندس من العراق، وهو عضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، وقد توفي قبل سنوات تاركا الكثير من الدراسات في مختلف المجالات، وخاصة في تاريخ الريّ، وقد فنّد في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة(مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فحدثني عن رحلته إلى الإسلام، وعن إعجابه الشديد بالإسلام، وسأنقل لك من كلامه ما تستطيع أن تكتشف به سر انجذابه إلى الإسلام، فمن أقواله:

(يرجع ميلي إلى الإسلام.. حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعًا شديدًا.. وكنت أطرب لتلاوة آياته)(1)

(الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب وقد جاء ذلك تأييدًا علميًا للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنًا على لسان النبي العربي الكريم. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقًا الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيرًا ما يصوّبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام. والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو

1) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 51.

تحوير وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه دون أن يتغير فيه حرف واحد)(1)

(ورد في القرآن أنه جاء مهيمنًا على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك أن التعاليم الإلهية المقدسة الأصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها بما أوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الرائجة في زمان نزوله، وعليه فيكون بهذا البيان والإيضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ إياها من التلاعب)(2)

(الواقع أنه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية ولم يضطلع بآدابها أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي وسموه وما يتضمنه من المعجزات المبهرة، ولما كان القرآن الكريم قد تناول كل أنواع التفكير والتشريع فقد يكون من العسير على إنسان واحد أن يحكم في هذه المواضع كلها. وهل من مناص للمرء من الانجذاب إلى معجزة القرآن بعد تمعنه في أميّة نبي الإسلام ووقوفه على أسرار حياة الرسول.. فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمّيّة محمد برهانًا على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له)(3)

(إن معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزًا في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول)(4)

(يستحسن بأتباع موسى وعيسى عليهما السلام أن يراجعوا التاريخ الإسلامي ليقفوا على ما يأمر به الإسلام بشأن الرفق بالأطفال والنساء والشيوخ وغير المقاتلين بصورة عامة. ويثبت لنا التاريخ عدا ذلك أن المسلمين ساروا وفق شريعتهم القاضية بوجوب عدم مس الأطفال والنساء والشيوخ بكل أمانة وحرص حتى في الظروف التي كان فيها العدو المقابل يقتل الأطفال والنساء وغير المحاربين من المسلمين)(5)

(وجد اليهود تحت راية الإسلام أمنًا وعدلاً اتقوا به شر الاضطهاد والاعتداء، وقد مضت عليهم قرون عديدة وهم في خير وثراء)(6)

(كان محمد أنموذجًا للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة. بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة وإن تضحياته في سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على

1) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 86.

2) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 87.

3) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 182 – 183.

4) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 185.

5) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 94.

6) في طريقي إلى الإسلام: 1 / 130.

سموّ ذاته ونبل مقصده وعظمة شخصيته وقدسية نبوته)(7)

(إن التاريخ ينبئنا أن محمدًا ضحى بكل شيء من أجل رسالته إذ أتيحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين أولهما حياة راحة وهناء وغنى على أن ينبذ دعوته وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشر رسالته، وقد فضل الأمر الثاني لأن إيمانه برسالته كان قويًا وكان قد أوحي إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة على الإنسانية جمعاء فكان ما أراد الله له)(8)

(على المرء الذي وقف على حقيقة الإسلام أن يعترف بأن الإسلام هو في الحقيقة دين الحرية والفطرة بعيدًا عن قيود الكنيسة واستبدادها في المسيحية وغريبًا عن العصبية وتقاليدها الثقيلة في اليهودية)(9)

---

7) في طريقي إلى الإسلام:1 / 174 – 175.

8) في طريقي إلى الإسلام:2 / 130.

9) في طريقي إلى الإسلام:1 / 52.

سادسا ـ الأولياء

فتحت دفتر الغريب على فصله السادس، فوجدت عنوانه (الأوليـاء)، فقلت: من تقصـد بالأولياء؟

قال: أولئك الذين فتحت لهم أبـواب السـماء، وانكشـفت لهم الحجب، واتسـع لهم من الحقائق ما ضاق على غيرهم، ورأوا من ملكوت الله ما راحوا يبشرون به عباد الله.

قلت: فما علاقة هؤلاء بشمس محمد ﷺ ؟

قال: هؤلاء هم المستقبل الأعظم لأشعة شمس محمد ﷺ .. ولهذا فإنهم أقرب الخلــق إليه، وأعرف الخلق به، وأكثر الخلق أدبا معه.

قلت: بم استفادوا ذلك القرب، وذلك الأدب؟

قال: بالسير على قدمه.. فمن سار على قدم رسول اللـه ﷺ.. ومن وحـد وجهتـه إليـه ظفر بالأنوار التي لا ينعم بها إلا المخلصون المخلّصون من شوائب الأنا.

قلت: لا أرى أسماء في هذا الفصل.. بل أرى كلمات.

قال: الأولياء كلمات وليسوا أسماء.. وحقائق وليسوا حروفا.

قلت: لم أفهم..

قال: الولي الذي يعيش الحقائق تتبناه الحقائق، وتصبح هي المعبرة عنه، فالولي الحيي يعبر عنه الحيـاء.. والـولي المحب يعـبر عنـه الحب.. والـولي المتوكـل يعـبر عنـه التوكـل.. وهكذا.

قلت: أعلم بعض هذا.. فقد ذكروا لطريق الله معارج ومقامـات ومنـازل.. ولكـل حظـه منها.

قال: الأولياء هم الذين ظفـروا بكـل ذلـك.. ولهـذا كـانت الكلمـات هي المعـبر عنهم لا الأسماء.

قلت: أرى كلمات كثيرة.

قال: سأكتفي لك في هذا المقام بأربعة منها.. فـإني أرى الجـدل في عصـرنا شـديدا.. ولن أذكر لك إلا ما يطيقون.

المحبة:

قلت: فما الكلمة الأولى؟

قال: الكلمة التي توله القلوب، وتملؤها بالأشواق اللذيذة التي لا تعرف الحزن.

قلت: تقصد محبة الله والشوق إليه !؟

قال: وأقصد محبة رسوله والشوق إليه.. فيستحيل على من أحب الله أن لا يحب رسوله.

قلت: فكيف بدا لك أن تسجل هذه الكلمة؟

قال: لذلك قصة.. كنت في بلاد من بلاد الله.. وكنت مشتت الفؤاد ممتلئا بالأكدار إلى أن سمعت غناء عذبا من أحد البيوت يردد قول محمد إقبال:

قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضاوأرزهارا بغير شميم

والورد فى الأكمام مجهول الشذى ... لا يرتجى ورد بغير نسيم

بل كانت الأيامُ قبل وجودنا ... ليلا لظالمها وللمظلوم

لما أطل محمدٌ زكت الرُبا ... و اخضر في البستان كُلُ هشيم

و أذاعت الفردوس مكنون الشذى ... فإذا الورى في نضرة ونعيم

فاقتربت من الباب، فوجدته مفتوحا، فدخلت من غير استئذان، فلم أجد نفسي إلا في حلقة كهالة الشمس تمتلئ بالأنوار.. كانوا سبعة نفر، وكان كل فرد منهم شمسا لا تختلف عن الشمس.

لم يروني وأنا أدخل، ولم يسمعوني وأنا أسلم، بل ظلوا على حالهم غارقين في تأملاتهم، فجأة نطق أحدهم يقول:

عبد بنار الشوق فيك معذب ... لكنه أبدا له يستعذب

جودوا بوصل منكم وبعطفة ... تشفي سقاما لا أراه يذهب

لي فيكم عشق وفرط صبابة ... وفؤادي منكم فيه نار تلهب

يا سعد من خصصتموه بودكم ... وبمذهب لكم غدا يتمذهب

ولقد نأيت عن المنى بخطيئتي وحاشاكم أن تطردوا من يذنب

فتمام قصدي من ندائكم نفحة تجلوا الصدا عني كي لا أحجب

التفت إليه، وقلت: أي محبوب هذا الذي ملأ عليك كيانك، فـرحت تصـرح في الـوقت الذي يكتم المحبون فيه حبهم؟

لم يلتفت إلي، ولم يجبني، بل نطق ثانيهم، وقال:

من مثل أحمد في الكونين نهواه بدر جميع الورى في حسنه تاهوا

من مثله وإله العرش شرفه في الخلق والخلق إن الله أعطاه

الشمس تخجل من أنوار طلعته حارت عقول الورى في وصفه معناه

تبارك الله ما أحلى شمائله حاز الجمال فما أبهى محياه

يا ربع وادي النقا يا أهل كاظمة في حيكم قمر في القلب مأواه

صلى عليه إله العرش ما طلعت شمس وما حدا الحادي مطاياه

قلت: أنتم تتغنون بحب محمد إذن.. لا بحب ليلى ولبنى !؟

قال ثالثهم:

إذا مـدح الشـعراء أربـاب عصـرهم مـدحت الـذي من نـوره الكـون أبهج

وإذا ذكروا ليلى ولبنى فإنني بذكر الحبيب الطيّب الذكر ألهج

أما ومحل الهدي تدمي نحورها ومن ضمّه البيت العتيق المدجج

لقد شاقني زوّار قبر محمد فشوقي مع الزوّار يسري ويدلج

تظلّ الهوادي بالهوادج ترتمي وما لي في ركب المحبّين هودج

وتمسـي بـروق الأبـرقين ضـواحكا فتغـري غـرامي بالبكـا وتهيّج

وأرتاح من أرواح أطيب طيبة إذا المسك في أرجائها يتأرّج

بلاد بها جبريل يسحب ريشه وينزل من جوّ السماء ويعرج

نبي تغار الشمس من نور وجهه بهيّ نقيّ الثغر أحور أدعج

تزيد به الأيام حسنا ويزدهي به الدين والدنيا به تتبرّج

مكارم أخلاق وحسن شمائل وشيمة جود بحره متموّج

غياث لملهوف وغوث لرائد وليث إذا صال الكمي المدجج

قلت: بالله عليكم إلا حدثتموني كما يحدث الناس بعضهم، فإني غريب في هذا البلاد، ولا أفهم من الشعر ما أفهمه من النثر، فانثروا نثر الله عنكم الآلام والأحزان.

قال أحدهم: إن أردت أن ينثر الله عنك الهموم والأحزان، فتعلق بحبل النبي ﷺ.. فلا يحزن من حل بساحته، ولا يعطش من شرب من يده.

قلت: فبأي حبل أتعلق؟

قالوا جميعا: بحبل الحب.

قلت: وما حبل الحب؟

قال أحدهم: ليس هناك حبل في الدنيا غير حبل الحب.

قلت: أنا لم أسأل عن غير حبال الحب، ولكني سألت عن حقيقة هذا الحبل، وعن مدى جدواه.

قال أحدهم: حب محمد ﷺ هو الذي يربطك بمنبع النور والجمال.

قلت: وحب الله؟

قال: لا يكمل حب الله حتى تمتلئ النفس بحب المعرف بالله والدال عليه والهادي إليه والمعرف بمراضيه.

قلت: من هذا الذي اكتمل له هذا؟

قال: لم يكتمل هذا في أحد كما اكتمل في رسول الله ﷺ، فبه عرفنا الله، وبه عبـدناه، وبـه أشـرقت شـموس الحقـائق على هـذا الكـون، وبـه انبلجت أنـوار الحكم على العقـل البشري.

قال آخر: هو الخلاصة التي اجتمعت فيها جميع الخيرات، والشمس الـتي صـدرت منهـا جميع الأشعة، والبذرة التي أنبتت شجرة الجمال في الكون.

قـال آخـر: كمـا أن الحيـاة هي خلاصـة مترشـحة من هـذا الكـون، والشـعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصـتها، والعقـل مترشـح من الشـعور والحس، فهـو خلاصـة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحيـاة، فهي ذاتهـا الثابتـة المسـتقلة. كـذلك الحياة المحمدية - المادية والمعنوية - مترشحة من الحيـاة ومن روح الكـون، فهي خلاصـة خلاصـتها والرسـالة المحمديـة مترشـحة من حسّ الكـون وشـعورهِ وعقلِـه، فهي اصـفى خلاصته(1).

قال آخر: إن جمال الكائنات وحياتها ونورانيتها التي يعيش المـؤمن في أكنافهـا لم تكن لتتحقق لولا رسالة رسول الله ﷺ والمعاني الجميلة التي تحملها.

قال آخر: إن حياة محمد ﷺ - المادية والمعنوية - بشـهادة آثارهـا حيـاة لحيـاة الكـون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيويـة روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. فاذا ما فـارق نـور الرسـالة المحمديـة الكـون وغـادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، واذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكـرة الأرضية صوابها، وزلـزل عقلهـا، وظلت بلا شـعور، وأصـطدمت باحـدى سيارات الفــضاء، وقامت القيامة(2).

قال آخر: لنتصور الأرض والكون والبشر لولا التعـاليم الـتي جاءنـا بـه رسـول اللـه ﷺ، ولنتأمل قيمة الحياة لو خلت من الحياة التي بثها رسول الله ﷺ.

قال آخر: إن رسول الله ﷺ هو النافذة التي نتطلـع بهـا إلى الحقـائق، وهـو العين الـتي نبصر بها أسرار الكون والحياة، وقد قال بعض السلف: (رأيت الجنة والنـار حقيقـة)، فقيـل له: (وكيف رأيتهما وأنت في الدنيا؟)، فقال: (رآهما رسول الله ﷺ فرأيتهما بعينيه، ورؤيتي لهما بعيني رسول الله ﷺ آثر عندي من رؤيتهما بعيني، فإن بصري قد يزيغ عند رؤيتهمـا أو يطغى، أما بصر الرسول ﷺ فما زاغ وما طغى)

1) هذا القول لبديع الزمان النورسي في بيان حقيقة الجمال المحمدي.

2) هذا القول لبديع الزمان النورسي..

قلت: إنكم تذكرون أوصافا كثيرة يعتبرها بعض قومهم من المبالغات في حق نبيكم.

قال أحدهم: لو ظللنا طول دهرنا نصف أفضال نبينا علينا ما انتهينا.

قال آخر: كيف يقولون هذا.. ونحن لم نخرج عن قوله تعالى في وصفه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ (الأحزاب:45 ـ 46)، وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف:157)، وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لأعراف:158)

قال آخر: إن تعمقك في معاني هذه الكلمات يهديك إلى بحور من العلم بحقيقة محمـد ﷺ لا يطيقها الجامدون.

قلت: لم أفهم.

قـال: لقـد وصـف القـرآن محمـدا ﷺ بأنّـه بـالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمـة للعـالمين، واعتبره مبشرا ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنـه، ويتلـوا عليهم آياتـه ويـزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، فأي إحسان أجل قـدراً وأعظم خطـراً من إحسـانه

إلى جميع المؤمنين، وأي إفضال أعمّ منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين، إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربّهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمدي.

قال آخر: فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذّي بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب، وإذا كان يحب بالطبع ملكاً لحسن سيرته أو حاكماً

لما يؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته فمن جمـع هذه الخصال كلها على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل.

قلت: وعيت هـذا.. ولكن الحريصـين على صـفاء التوحيـد من قـومكم يخـافون على التوحيد في أقل من هذا.

قال أحدهم: فخاطبهم بقوله تعالى: قُلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ

وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ) (التوبة:24)

قلت: فما في هذه الآية؟

قال: هذه الآية الكريمة جمعت أصناف ما يحبه الناس ويؤثرونه وتتوجه به حيـاتهم على أساسه، ووضعته في كفة ووضعت حب الله ورسوله في كفة أخـرى، ثم أنـذرت من قـدم أهواءه ومحابه على الله، واعتبرته من الفاسقين.

قال آخر: أما من خالف ذلك وقدم الله ورسوله على من سواه، فقد أثنى الله عليه بقوله: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة:22)

ففي الآية الكريمة من أصناف الثواب والجزاء لمن ضحى بكل محبة وهوى أمام محبة الله ورسوله ما يقصر عنه الوصف.

قلت: هم يذكرون السنة أكثر من ذكرهم للكتاب.

قال: فاذكر لهم منها قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)(1)، فقد جمع ﷺ في هذا الحديث أصناف المحبة، وأمر بتقديم محبة رسول الله ﷺ عليها.

قال آخر: وأخبر ﷺ أن حلاوة الإيمان لا تتحقق إلا لمن قدم محبة الله ورسوله على من سواهما، قال ﷺ: (ثَلاثٌ مّنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهُما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبهُ إلا لله، وأن يَكرَهَ أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)(2)

قال آخر: هذا الحديث أصل من أصول الإسلام، وكله حديث عن الحب، وإخبار بأن الحب وما ينتج عنه من مشاعر هو أعمق أعماق الإسلام.

قلت: ابتعدوا عن النصوص.. وحدثوا عقلي ببراهين العقول (3).

قال أحدهم: فاسمع ما يقول ابن حجر..

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) حاول العلماء ـ كما فعلوا مع محبة الله ـ أن يبحثوا في الأسباب الدافعة لحب رسول الله ﷺ، وهي كما نرى لا يمكن حدها بأسباب معينة، فكل شخص دوافعه الخاصة، والتي تختلف باختلاف درجة حبه لرسول الله ﷺ ودرجة قربه منه ودرجة تعرفه عليه ودرجة ترقيه في مقامات الإيمان.

وأقل هذه الدرجات ما يبالغ فيه البعض من وصف الصورة الخلقية لرسول الله ﷺ في مدحه والثناء عليه بذلك والمبالغة فيه إلى درجة لا نرى أن رسول الله ﷺ يرضى عنها.

فرسول الله ﷺ مع ما أوتي من حسن الخلقة، والذي ذكره واصفوه، وأثنوا عليه به ليس هو الأصل الدافع للحب، فالحب المؤسس على الجسد قد يليق بالغواني ولا يليق برسول الله ﷺ.

فالترغيب الحقيقي في رسول الله ﷺ لا يكون بذكر صورته وشكله، وإنما بذكر خلقه وكمالاته، ومع ذلك لا نرى مانعا من ذكر صورته الخلقية لتكون مكملا لصورته الحقيقية لا أصلا لها.

وانطلاقا من هذا نرى بعض التشويه في شخص رسول الله ﷺ، والذي يمارسه البعض باسم إحياء السنة، فيتصور أن السنة هي طول اللحية وقصر القميص مع تجهم الوجه والتشدد في محله وغير محله.

وعلاج هذه الظاهرة بالوصف الشامل لرسول الله ﷺ، انطلاقا من قربه من ربه، وانتهاء بعلاقته التي شملت كل ما يمكن أن يؤسسه الإنسان من علاقات.

وهذا الوصف وحده ـ والذي يعتمد القرآن الكريم والسنة الصحيحة ـ كاف وحده لملأ القلوب بمحبة رسول الله ﷺ، والتفاني في حبه.

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال: (إن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيرها، أما نفسه فهـو أن يريـد دوام بقائها سالمة من الافات، وهذا هو حقيقة المطلوب وأما غيرها فإذا حقـق الأمـر فيـه فإنمـا هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفه حالا ومالا فإذا تأمل النفـع الحاصـل لـه من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه من ظلمات الكفـر إلى نـور الإيمـان إمـا بالمباشرة وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السـرمدي وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظـه من محبتـه اوفر من غيره لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ولكن الناس يتفـاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه)(1)

قلت: عرفت دلالة العقل على هذا الحب.. فما ثمراته؟

قال أحدهم: هذا الحب هو المحرك لكل خير، الداافع لكل كمال.

قال آخر: ولهذا كان الاتباع الحقيقي لسنة رسول الله ﷺ هو الاتباع الصادر عن المحبة.

وبمثل هذه المبالغة في وصف الهيئة الشكلية لرسول الله ﷺ نرى في المقابل بعض المبالغة في وصف مقاماتـه ﷺ الروحية وقربه من ربه وعلاقته بالخلق، حتى تحول رسول الله ﷺ بذلك إلى سر غامض، وتحولت رسـالته إلى مجموعـة ألغاز لا يفهمها إلا خاصة الخاصة، وكأن رسالة رسول اللـه ﷺ العامـة الشـاملة خاصـة بهـذه الثلـة القليلـة الـتي تفـردت بالتعمق في حقيقتها.

وإلى هذين المعنيين، وإلى هذين الفريقين أشار ﷺ بقوله:(لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم وقولـوا: عبدالله ورسوله)

وهذا نهي صريح منه ﷺ عن وصفه بما ليس في من الصفات التماسا لمدحه، كما وصفت النصارى عيسى عليه السلام بمـا لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا.

وبدخل فيه أيضا وصفه ببعض ما هو فيه مما ينتج خللا في التعرف عليه ﷺ، كمن يقتصر على وصف خلقته الجسـدية، أو مقاماته الروحية، أو حياته في بيته، أو حياته مع صحابته، أو غزواته.

ولهذا استغل المستشرقون ما ورد في غزواته ﷺ لتصويره بصورة المحارب الذي لا يهدأ، والـذي لا يكـون لـه الـوقت الكافي للتوجيه والتربية.

بل وقع في ذلك بعض المسلمين حين تصور الدين سيفا مرفوعا على كل هامة، وتصور الدعوة إلى الله وفتح القلـوب على دينه حروبا وغزوات لا تنتهي.

وقد غفل هؤلاء عن الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، أو التي تناقلها أهل الكتاب في كتبهم، وكلها ترجع إلى الرحمة واللطف وحسن المعاملة مع جميع الخلق.

فهذه هي أوصاف رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، قال الله ﷻ:﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة:128)

1) فتح الباري: 1/60.

قال آخر: ويدل على هذا قوله ﷺ لأنس بن مالك: (يا بنيَّ إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غِشٌ لأحدٍ فافعل)، ثم قال له: (يا بُنَيَّ وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة)، فقد أخبر ﷺ أن علامة حبه له ﷺ إحياء سنته.فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله.

قال آخر: ويدل على هذا كذلك كل الأحاديث التي تبين مواصفات القريب من رسول الله ﷺ، وهي في مجموعها تدل على الخصال الكبرى التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ من الأخلاق الفاضلة التي مدحه بها ربه، فقال تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4)

قال آخر: الخلق العظيم هو السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ، وهي التي أخبر بالأجر الجزيل لمن أحياها، ودليل ذلك الأحاديث التي تبين موصافات القريب منه ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث الصحيح الصريح: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون)

قال آخر: وفي أحاديث أخرى يجعل القريب منه هو القريب من المستضعفين من الناس، كقوله ﷺ ترغيبا في الاهتمام بتربية البنات: (من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه)، وقوله ﷺ في كفالة الأيتام: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى)

قال آخر: وفي حديث آخر يذكر فضل المرأة التي تحبس نفسها على أيتامها، قال ﷺ: (أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأومأ يزيد بالوسطى والسبابة امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا)

قلت: أرى قوما يقصرون المحبة على ما يتصورونه إحياء السنة.

قال أحدهم: علامة إحياء السنة الحقيقي هو أن يعيش حياة رسول الله ﷺ بقيمها ومبادئها وسموها، وهو يستحضر رسول الله ﷺ في كل حركة من حركاته، حتى كأنه يشاهده عيانا، وبذلك يكون رسول الله ﷺ هو دليله الأعظم على الله، وعلى الأدب مع الله.

قال آخر: وهذا ما كان يعيشه الربانيون ويستشعرونه، وهو المراد من إخبارهم عن اجتماعهم برسول الله ﷺ، يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني: (سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: لا يكمل عبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ

أي وقت شاء)

قال آخر: لقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي ذلك ثم قال: (رأيت النبي ﷺ واجتمعت به نيفا وسبعين مرة)

قال آخر: ويذكر عن الشيخ إبراهيم المتبولي أنه كان لا يحصى اجتماعه به ﷺ لأنه كان يراه في أحواله كلها ويقول: (ليس لي شيخ إلا رسول الله ﷺ)

قال آخر: ويذكر عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه كان يقول: (لو احتجب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسي من جملة المؤمنين)

قلت: كيف هذا؟

قال أحدهم: هذا الاجتماع ـ الذي لا ينكره إلا معاند ــ دليل على الحب المتغلغل في الصدر لرسول الله ﷺ لأن عين القلب والروح لا ترى إلا ما تحبه، وقد كان خيال ليلى يرتسم في عين قلب المجنون في كل محل.

لم أجد ما أقول، فراح أحدهم ينشد بصوت عذب قصيدة البرعي التي يقول فيها:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا	فليس لي معدِلٌ عنهم وإن عدلوا
هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا	والمالكون لقلبي كيفما فعلوا
فليعلموا أن ودي ما يغيرهم	تغير من سجاياهم ولا ملل
و كل شيء سواهم لي به بدلٌ	عنهم وما لي بهم من غيرهم بدلُ
إني وإن فتتوا في حبهم كبدي	باقٍ على وُدِّهم راضٍ بما فعلوا
شربت كأس الهوى العذري من ظمأٍ	و لذّ لي في الغرام العلُّ والنهلُ
فليت شعري والدنيا مفرقةُ	بين الرفاق وأيام الورى دُوَلُ
هل ترجع الدارُ بعد البعدِ آنسةً	و هل تعودُ لنا أيامُنا الأوَلُ
يا ظاعنين بقلبي أين ما ظعنوا	و نازلين بقلبي أين ما نزلوا
ترفّقوا بفؤادي في هَوَادِجِكم	راحت به يوم راحت بالهوى الإبلُ

فوالذي حَجّتِ الزوارُ كعبتَه و من ألمَّ بها يدعوويبتهلُ

لقد جرى حُبُّكم مجرى دمي فدمي بعد التفرقِ في أطلالكم طَلَلُ

لم أنس ليلة فارقت الفريق وقد عانوا الحبيب عن التوديع وأرتحلوا

لما تراءت لهم نار بذي سلم ساروا فمنقطعٌ عنها ومتصلُ

لا درَّ درُّ المطايا أينما ذهبت إن لم تُنخ حيث لا تثنى لها العُقلُ

في روضة من رياض الجنة ابتهجت حسنا وطاب بها للنازل النزل

حيث النبوة مضروبٌ سرادقها وطالع النور في الآفاق يشتمل

وحيث من شرّف اللهُ الوجودَ به فأستغرق الفضلَ فرداً ما له مثلُ

محمد سيد السادات من مضرٍ سرُّ السرارة شمسٌ ماله طَفَل

شوارد المجد في مغناه عاكفة وريف رأفته غصنُ الجَنَى الخضِلُ

تثني عليه المثاني كلما تليت كما أستنارت به الأقطار والسُّبلُ

بحرٌ طوارقه برٌّ ومكرمةُ بدرٌ على فَلَك العلياء مكتملُ

ما زال بالنور من صلب إلى رحمٍ من عهد آدم في الساداتِ ينتقلُ

حتى انتهى في الذُّرى من هاشمٍ وسَمَا فتىً وطفلاً، توفِّي وهو مكتهلُ

فكان في الكون لا شكلٌ يُقاسُ به ولا على مثله الأقطار تشتملُ

به الحنيفةُ مُرساةٌ قواعدُها فوق النجوم ونهج الحق معتدلُ

ومنه ظلُّ لواء الحمد يشملنا إذا العصاةُ عليهم من لظى ظُلَلُ

وإنه الحكم العدل الذي نُسِخت بدين مِلّتِه الأديان والمِللُ

يا خير من دفنت في الترب أعظمه فطاب من طيبهن السَّهلُ والجبلُ

نفسي الفداء لقبرٍ أنت ساكنه فيه الهدى والندى والعلم والعملُ

أنت الحبيب الذي نرجو عواطفه عند الصراط إذا ما ضاقت الحيلُ

نرجو شفاعتك العظمى لمُذنبِنا بِجَاهِ وَجْهِك عنا تغفَرُ الزّلَلُ

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي في كل حادثة مالي بها قِبَلُ

قالوا نزيلك لا يؤذي وها أنا ذا دمي وعرضي مباحٌ والحِمى هَمَلُ

وذا المسمى بك أشتد البلاء به فارحم مدامعه في الخدِّ تنهملُ

وحُلَّ عقدة هَمٍّ عنه ما برحت واشرح به صدر أمٍّ قلبُها وَجِلُ

وَصِلْ بمرحمةٍ عبدالرحيم وَمن يليه لا خاب فيهِ الظنُ والأملُ

صلى وسلم ربي دائماً أبدا عليك يا خير من يَحْفَى وينتعلُ

والآل والصحب ما غنَّت مطوقةٌ وما تعاقبت الأبكارُ والأُصُلُ

وأنشد آخر يقول:

لطيبة عرج إن بين قبابها حبيب لادواء القلوب طبيب

إذا لم تطب في طيبة عند طيب به طابت الدنيا فأين تطيب؟

تركتهم على تلك الحال، وانصرفت، لأسجل هذه الكلمة في هذا المحل.

قلت: ألا تعرف أسماءهم؟

قال: لو عرفتها لسجلتها، ولكني كلما قلبت هذا الدفتر على هذا المحل رأيتهم وسمعتهم كعهدي بهم أول مرة.

التعظيم:

قلت: حدثتني عن الكلمة الأولى، فحدثني عن الثانية.

قال: الكلمة الثانية هي التعظيم.. انظر في الدفتر إنها تلي كلمة الحب مباشرة.

قلت: لم كانت كذلك؟

قال: لأنه لا يعظم في عين الحبيب إلا محبوبه.

قلت: فهل تروي قصة عن هذه الكلمة؟

قال: أروي في ذلك قصصا، لكني سأقتصر لك على واحدة منها.

قلت: فحدثني عنها.

قال: في بلد من بلاد الله رأيت رجلا عليه سيما الوقار، وعلى جبينه نور يملأ النفس هيبة وجمالا، وكان في طريقة يسير كما يسير سائر الناس، ولكنه فجأة انحنى على ورقة مرمية على الأرض، فمسح عنها الأذى، ثم قبلها، ثم وضعها على جيبه، فحدثت نفسي بأن أتبعه لأرى سر تلك الورقة.

في طريقي خلفه رأيته يدخل حانوت عطار، ويشتري بعض المسك، ثم يخرج تلك الورقة، ويعطرها بذلك المسك، فلم أجد نفسي إلا بجانبه، ولم أجد لساني إلا وهو يقول له: ما شأن هذه الورقة التي لقيت منك كل هذا التعظيم.

لم يحتج إلى وقت يفكر فيه، بل أجاب مباشرة: هذه ورقة فيها اسم لحبيب غال، واسم الحبيب لا ينبغي أن يهان.. بل ينبغي أن يعظم ويقدس، ويعطر بكل مسك.

قلت: من حبيبك هذا الذي ملأته تعظيما ورفعة.

فأجابني على الفور: محمد..

قلت: تقصد نبي المسلمين؟

قال: أجل.. وهل هناك من حمدته السماء والأرض غيره، فصار محمود الكل.

قلت: لقد ذكرتني بقول الشاعر:

المصطفى ما زال يعلو قدرَهُ ... حتَّى غدا فى الكون مِسكاً عاطِراَ

ما قلت هذا حتى شعرت بجميع أعضائه ترتعد هيبة، ثم راح يقول بصوت امتزج فيه الحب بالتعظيم بالأشواق:

(المصطفى ما زال يعلو قدرَهُ) ... فسما الزمانَ اوائلا وأواخِرا

طهِّر فؤادك من شوائبـ غيِّه ... حتّى تقابلهُ فؤاداً طاهراً

يا سيدى ولقد غدوتٌ مناجياً ... عمرى وبتُّ مع الجلال مسامرا

كم من صغير جاء حيَّك تائبا		أضحى يسودُ من الرِّجال أكابرا
والله ما طرأَ العناءُ وسامنى		الا وأذكُرُهُ فأُصبِحُ ظافراَ
فاذا نهَلتُ نهَلتُ من نور الهدى		واذا سكِرتُ سكرتُ عِلماً ذاخراَ
واذا غفوتُ غفوتُ صباً مُغرماً		واذا افَقتُ رَأيتَهُ لىَ ناظِراَ
واذا خشيتُ من العدوِّ وكيده		كان النبىُّ هو الملاذَ الناصِراَ
عوَّدتنا منكَ الجميلَ فهب لنا		منك الوصولَ ولا تردَ الزائراَ
أَنا ان أكُن جِسما بعيداً انِّما		رُوحى من النجوى تفيضُ سرائِراَ
أَرسلتُها بِفَمِ النسيمِ شهِيدةً		وتَزِفُّ باِسمِكُمُ السَّلامَ العاطراَ
فلكم فقيرٍ عزَّ باَسمكَ جاهُهُ		أمسى يُساجِلُ فى الملوكِ القياصِراَ
ولَكَم ذليلً نَالَهُ من جاهِكُم		قَدرٌ فأصبحَ بالمذلَّةِ قاهِراَ
وَلَكم عَيِىٍّ قَد نظرتَ لِروُحِهِ		فَرَوَى المعارِفَ ناثِراً أو شاعِراَ
قَولِى هُو الحَقُّ الصرَّيحُ فَلَم أَكُن		أرجو بِمَدحِك أن أسُودَ مَظَاهِراَ
لم أَنسَ حُبَّكَ ما حَييتُ وان أَمُت		اَجِدُ الغرامَ علىَّ مُدَّ منابِراَ
ان كنتُ صبَّاً اكتُمُ الوُجدَان فى		قَلبِى يَظُنّوُنِى بِحٌبِكَ فاتِراَ
أنا هائمٌ ومِن المحبةِ هائجٌ		كالرِّيحِ قَد أزجى السَّحابَ الماطِراَ
فَأَصُبُّ فى الاحساس مِن مُهَجِ الوَرَى		حِكَمَاً تُقَلِّبُهَا القُلُوبُ مَزَاهِراَ
يا هَذِهِ ألايَّامَ انِّى ليس لِى		الا رسُولُ اللهِ سِرّاً ظَاهِرا
أنا كُلُّ شئٍ فى الحياةِ تركتُهُ		وَوَقَفتُ نَفسِى للنَّبِىِّ مُثابِراَ
والوقفُ لا يُشرَى وليسَ يُباعُ فى		حالٍ يدومُ الى القيامةِ حاضراَ
أَنا بِاسمِكُم والى اسمِكُم وَلِوَسمِكُم		فى رَسمِكُم قَلبِى عَلَى الشِّعرى سَرَى

لم أنسَ أيَّامَ الطُّفُولَةِ حَيثُما كُنتَ المُؤمَّلَ لِى كُنتُ الظافِرَا
مَا زالَ حُبُّكَ باقياً فى مُهجتى يُضفى علىَّ من اليقينِ سرائراَ
ولقد غسلتُ بواطِنى وظواهِرى فى حُبِهِ حتى نُسِبتُ الطَّاهِرا
نُورُ النَّبىِّ اذا تمكن من فتىً لم يُبقِ فِيهِ صغائراً وكبائراَ
نُورُ النَّبىِّ اذا تمكن من فتىً ألفيتَه بَينَ البريةِ ظاهِرا
فاذا رُزِقتُ محبةً فَبِفَضلِه واذا كَسَبتُ فُقَد كَسَبتُ جواهِرا
قُل لِى عليكَ صلاتُنا وسَلامُنا حتّى أعُود على المَحَبَةِ شاكرا
أرَضَيتَنى كَرَماً وَصَاحَبَنِى الرِّضا حتّى وصَلتُ فَلَستُ أسلُكُ حائراَ
ما زالَ فضلُكَ فى البريَّةِ سائراً يسمو وَيزكو بالنفوسِ ضمائرا
وَلَكم أراهُ فى العوالِمِ صاعِدا حتَّى غدا فى الكون مِسكاً عاطِراَ)

تعجبت من حضور بديهتيه، وانصياع الشعر له، فسألته: من أنت؟

قال: علي عقل.

قلت: ذلك القطب الربانى، صاحب الفيوضات الصمدانية، والعلوم اللدنيـة ذلـك الملهم الذي ينساب الشعر من فمه كما ينساب المال الزلال.

قال: هم يقولون هذا.

قلت: بأي بركة نلت هذا؟

قال: ببركة الحبيب..

قلت: وبأي بركات الحبيب نلت ذلك؟

قال: ببركة التعظيم..

قلت: لا يعظم إلا الله.. فكيف رحت تشرك بالله؟

قال: أرأيت لو أن فنانا مبدعا أراك لوحة من لوحاته في منتهى الجمال، فرحت تهينها وتحتقرها، فإذا سألك عن ذلك قلت له: أنا أهينها حتى لا يبقى عظيما في عيني غيرك.. أترى هذا عين العقل؟

قلت: بل أراه عين الحمق.. ولن أنال من هذا الفنان إلا الازدراء.

قال: لم؟

قلت: لأني احتقرت صنعته.. ولا يمكن أن أشعره بتعظيمي له إلا من خلال تعظيمي لصنعته.

قال: وهكذا الأمر مع محمد ﷺ.. فهو عصارة الجمال التي أمرنا الله بعبوديته من خلال التأمل فيها وتعظيمها وامتلاء قلوبنا بمحبتها.. فلو أهناها لأهنا الله.

قلت: ولكن الحريصين على صفاء التوحيد يخالفونك في هذا.. ويعتبرون كل هذا شركا.

قال: فاقرأ عليهم قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)﴾(الفتح)

قلت: فما في هذه الآيات؟

قال: في هذه الآيات يأمر الله الأمة بتعظيم محمد، ويربط الفلاح بذلك.

قلت: فما الفرق بين المسلمين والمسيحيين في هذا .. ما دام المسيحيون يعظمون المسيح، والمحمديون يعظمون محمدا.

قال: الفرق بينهما عظيم.. فالمحمديون يعظمون محمدا عبودية لله، وتحقيقا لأمر الله، وفيضا من فيوضات تعظيم الله.. بينما المسيحيون يعظمون المسيح لذات المسيح..

فيجعلون للمسيح شركة في الألوهية.

قلت: وتعظيم المسلمين؟

قال: أرأيت لو أنك أرسلت رسولا برسالة لقوم من الناس، فأهانوا رسولك، واحتقروه مع علمهم بأنه رسولك؟

قلت: هم يحتقرونني بذلك ويهينونني.

قال: فلذلك ربط الله تعالى طاعته بطاعة رسوله، وتعظيمه بتعظيم رسوله، ومحبته بمحبة رسوله.

لقد قال الله تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (النساء:80)

قلت: فرق عظيم بين الطاعة والتعظيم.

قال: فقد قال الله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) (النور)

قلت: فما في هذه الآية مما نحن فيه؟

قال: فيها كل ما نحن فيه.. فالله تعالى في هذه الآيات يأمر بتعظيم النبي ﷺ، وعدم التعامل معه كما يتعامل الناس بعضهم مع بعض.

لقد قال ابن عباس في تفسير الآيات: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل، عن ذلك، إعظامًا لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله.

وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يُبَجَّل وأن يعظَّم وأن يسود[1].

بل إن الله تعالى نهى المؤمنين عن كل سلوك لا ينسجم مع الأدب مع رسوله، فقال:

---

1) هذا هو المعنى الأول في تفسير قوله تعالى: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً (النور: من الآية63)، والمعنى الثاني: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العَوفي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ (البقرة: 104).. وقـال:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُـولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُـرَاتِ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ (4) وَلَـوْ أَنَّهُمْ صَـبَرُوا حَتَّى تَخْـرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَـانَ خَيْـرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (5)ـ ﴾ (الحجرات)

بل إن الله تعالى شرع لمناجاة النبي ﷺ من باب التعظيم له تقـديم صـدقة على ذلـك، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة:12)

الالتجاء:

قلت: فما الكلمة الثالثة؟

قال: الالتجاء.

قلت: ما تقصد بالالتجاء؟

قـال: المحب الشـغوف بحبيبـه لا يصـبر على فراقـه، ولهـذا تـراه يحن إليـه كـل حين، ويلتجئ إليه في كل مناسبة.

قلت: ذاك قد يصح مع حبيب حي.. ولكنه لن يصح أبدا مع حبيب ميت.

قال: إن المحبوب يموت عند جميع الناس إلا عند من يحب.. فإنه يظـل حيـا، ولـذلك لا حرج عليه أن يلتجئ إليه.

قلت: ولكن الناس يضحكون عليه حينذاك، وقد يرمونه بالجنون.

قال: المحب الصادق يستلذ جنونه في محبوبه.

قلت: عد بنا إلى هذه الكلمة وعلاقتها برسول الله ﷺ.. وعلاقتها بعد ذلك بالأولياء.

قال: لقد لاحظت من خلال معايشتي لبعض هؤلاء أولياء، أو كتابـاتهم، أنهم لا يتعـاملون

وهذا المعنى أيضا من التعظيم، وهو من أقوى الأدلة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بل استحبابه، باعتبار التوسـل نوعـا من طلب الدعاء من المتوسل إليه.

في علاقتهم برسول الله ﷺ إلا كما يتعامل الأحياء مع الأحياء.

قلت: ألا يعتقدون موته!؟.. فإن كان كذلك، فاقرأ عليهم قـول اللـه تعـالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر:30)

قال: قد قرأت عليهم قوله تعالى:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:169)

قلت: ما علاقة هذا بذاك؟

قال: ألم يخبر الله تعالى عن موت الشهداء؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى:﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِـرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَـةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(آل عمران:157)، وقال تعالى:﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَـرُونَ) (آل عمران:158)

قال: ألا ترى أن الله تعالى الذي أخبر بموتهم هو الذي أخبر بحياتهم؟

قلت: بلى..

قال: فكذلك الأمر مع رسول الله ﷺ..

التفت إلي، وقـال: ثم ألا تعجب أن نقـول بحيـاة الشـهداء، ثم لا نقـول بحيـاة سـيد الشهداء.

قلت: فنلفرض أني وعيت ما ذكرت، فما ينتج عنه؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾(النساء:64)!؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: سأقص عليك قصة تعلق بها أولياء الله، فراحوا يعيشونها.

قلت: حدثني عنها.

قال: ذكر الحافظ السمعاني عن علي قال: قَدِمَ علينا أعـرابي بعـدما دفنّـا الرسـول ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ، وحثا من ترابـه على رأسـه، وقـال: يـا رسـول الله، قُلتَ فسمعنا قولك، ووعيتَ عن الله ما وَعينا عنك، وكان فيما أنزلَ عليك:﴿ وَلَـوْ أَنَّهُمْ

إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (النساء:64)، وقد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر: أنه قد غُفر لك(1).

وفي رواية أخرى عن أبي شبل محمد بن النعمان بن شبل الباهلي قال: دخلتُ المدينة فانتهيتُ إلى قبر النبي ﷺ، فإذا أعرابي يُوضع على بعيره، فأناخه وعَقَله، ثم دخل إلى القبر الشريف، فسلَّم سلامًا حسنًا، ودعا دعاءً جميلاً ثم قال: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنّ الله خصّك بوحيه وأنزل عليك كتابًا جمع لك فيه علم الأولين والآخرين، وقال في كتابه وقوله الحق: وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (النساء:64)، وقد أتيتك مقرًا بالذنوب، مستشفعًا بك إلى ربك، فهو ما وعد.

ثم التفت إلى القبر، وقال:

يا خير من دفنت بالقاع أعظُمُه	فطاب من طيبهنّ القاعُ والأكمُ
أنت النبي الذي تُرجى شفاعته	عند الصّراط إذا ما زلّت القدمُ
نفسي الفداء لقبرٍ أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكَرَمُ

ثمّ ركب راحلته فما أشكُّ ـ إن شاء الله ـ إلا أنه راحَ بالمغفرة، ولم يُسمَع بأبلغ من هذا قط.

وذكر محمد بن عبد الله العُتبي هذا، وزاد في آخره: فغلبتني عيناي، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: (يا عُتبي، الحق الأعرابي وبشّره أنّ الله قد غفر له)(2)

قلت: أحسبني وعيت ما ذكرته من هذا.. فما لازمه؟

قال: لازمه كل ما سمعته من مخاطبات الأولياء لرسول الله ﷺ وشكواهم إليه، فهم لا يشكون لميت.

قلت: إن من قومي من يعتبر ذلك شركا، وقد قال بعضهم(3) عن قول البوصيري:

---

1) ورواها بنحو لفظها: الإمام البيهقي في شعب الإيمان 3/495، وانظر: سبل الهدى والرشاد 12/380، وفاء الوفا 4/ـ 1361، وأبو اليمن ابن عساكر في إتحاف الزائر ص 68/69، وابن النجار في الدرة الثمينة، ص224، وابن حجر الهيتمي في تحفة الزوار ص55.

2) رواها الإمام النووي في (الإيضاح) ص454، وابن بشكوال في (القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين ﷺ) الورقة (16/أ)

3) انظر: كتاب (معلومات مهمة من الدين) للشيخ محمد جميل زينو ص160 ـ 166.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

(هذا الشاعر يستغيث بالرسول ﷺ، ويقول له: لا أجد من ألتجئ إليه عند نزول الشدائد العامة إلا أنت، وهذا من الشرك الأكبر الذي يُخلد صاحبه في النار إن لم يتب منه، لقوله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (يونس:106)، أي المشركين، لأن الشرك ظلم عظيم، وقوله ﷺ: (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)(4)

ابتسم، وقال: ما أعجب هؤلاء.. وما أسرعهم في اتهام المؤمنين، بل الأولياء من المؤمنين بالكفر والشرك، ألم يسمعوا ما ورد في التحذير من ذلك.

قلت: بلى.. سمعوا.. ولكنهم يعتقدون أن ما يذكرونه هو الحق الذي لا حق غيره.

قال: أفتراهم إذا جثوا بين يدي الطبيب يشكون حالهم إليه مشركون بذلك؟

قلت: لم يقل بهذا أحد من الناس.

قال: فكيف يزعمون إذن بأن من شكى لحبيبه وطبيبه حاله، يكون مشركا.

سكت قليلا، ثم قال: الشرك معروف، وهو ما يعتقده قومي حين يعتبرون المسيح إلها أو أقنوما من إله.

قلت: ولكنهم يتصورون مخاطبة رسول الله ﷺ ودعائه شركا، لأنه لا يدعى إلا الله.

قال: ولم أر المسلمين يدعون غير الله عوامهم وخواصهم، فلا أحد منهم يعتقد إلها غير الله..

قلت: وهذا الخطاب الذي يتوجهون به لرسول الله ﷺ، وكأنهم يستغيثون به !؟

قال: هم يفعلون ذلك كما يفعل كل البشر مع الأطباء حين يستلقون أمامهم كما يستلقي الميت بين يدي الغسال ينتظرون منهم أن يكونوا واسطة للشفاء الذي ينزله الله، فالله هو الشافي، والطبيب واسطة.

ومثل ذلك محمد.. فالله هو الرحيم الرحمن.. وقد جعل من خلقه وسائط لرحمته.. ومنهم محمد.

قلت: هم يعتبرون ما تقوله شركا.

4) رواه البخاري.

قال: ألا يؤمن هؤلاء بالشفاعة العظمى؟

قلت: بلى.. هم يؤمنون.. بل إني أراهم يبدعون منكرها.

قال: فهي واسطة من الوسائط ووسيلة من الوسائل.

سكت، فقال: ألم يقرأوا حديث الأعمى؟

قلت: ابن أم مكتوم !؟

قال: لا.. الأعمى الذي حدث حديثه عثمان بن حنيف، حيث ذكر أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ، فقال: (ادع الله أن يعافني)، فقال: (إن شئت أخرت ذلك وهو خير، وإن شئت دعوت)، قال: (فادعه) قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن، ثم يصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء، فيقول: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه في وشفعني فيه)(1)

الألم:

قلت: فما الكلمة الرابعة؟

قال: الألم.

قلت: الألم !؟

قال: أجل..

قلت: عهدي بأولياء الله أسعد الخلق حياة، وأهنأهم نفسا، حتى وكأن الجنة عجلت لهم.

قال: لكن بعض الآلام تعتريهم.

قلت: القلب الذي يعرف الله لا يعرف الألم.

قال: هو ألم أشبه بألم يعقوب لفقد يوسف.. فمقام يعقوب العظيم عند الله، ومقام يعقوب العظيم في درجات السلوك إلى الله لم يمنعاه من ذلك الحزن الذي عبر عنه الله تعالى بقوله:﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف:84)

ومقام رسول الله ﷺ في سلم الولاية لم يمنعه من قوله عندما توفي ابنه إبراهيم: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم

1) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لمحزونون) (2)

قلت: فما الحزن الذي يعتري الأولياء.. فيشعرهم بالألم.

قال: فقد رسول الله ﷺ..

قلت: ألم تخبرني قبل حين أنهم يستشعرون حياته؟

قال: الحياة مراتب.. فقد يكون شخصا حيا، ولكنك تستشعر ألما لبعده عنك.

قلت: ولكن الأولياء كما ذكرت لي لا يغيبون عن رسول الله.. ولا يغيب رسول الله عنهم..

قال: ذلك لقاء الأرواح.. والأولياء يتلهفون إلى لقاء الأشباح..

التفت إلي، وقال: ألم تسمع حديث ثوبان وغيره من الصحابة وشكواهم لرسول الله ﷺ ألم الفراق؟

قلت: بلى..

قال: ولهذا كانت أعظم المصائب التي حلت بالمؤمنين فقدانهم لرسول الله ﷺ.. ولهذا كانت وفاة رسول الله ﷺ هي عزاء المؤمن عن كل مصيبة، كما قال رسول الله ﷺ: (إذا أصيب أحدكم بمصيبة، فليذكر مصيبته بي ليعزه ذلك عن مصيبته)(1)

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى شغف الأولياء بالقبر الشريف.. فهم يعتبرونه أشرف بقعة في الأرض.

قلت: بلى.. وقد أنكر عليهم البعض ذلك.

قال: لا ينبغي أن ينكر عليهم.. فأحب تراب الله لأهل الله التراب الذي ضم رسول الله.. إنه عطرهم الذي يستنشقون أريجه، ودواؤهم الذي يحميهم من العلل ويملؤهم بالصحة.

قلت: فهل لك قصة مع القبر الشريف؟

قال: أجل.. وهي قصة لن أنساها ما حييت.

---

2) رواه البخاري.

1) مصنف عبد الرزاق: 3/564، المعجم الأوسط:4/365.

قلت: كيف أذن لك في دخول الحرم، والحرم لا يدخله إلا مسلم؟

قال: أتحسبني زرتك قبل أن أزور حبيبي ﷺ.. لقد كان أول مـا فعلتـه بعـد إسـلامي أن زرت قبر رسول الله ﷺ.. وفي الطريق إليه رأيت وليا من أولياء الله يردد:

أتيتُك راجلاً وَوَدِدْتُ أني ... مَلَكْتُ سَوَاد عيني أَمْتَطيهِ

وما لي لا أسِيرُ على المآقي ... إلى قبرٍ رسولُ الله فيهِ

فأسرعت إليه، وقلت له: رويدك.. احذر أن يسمعك بعض المتشددين، فيرميك بالشرك.

قال: فليفعلوا بي ما يشاءون.. فأنا لم أخرج عن هدي السلف، ولا عن أدب الخلف.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد كان حسان بن ثابت من سلف الأمة، ومن صحابة رسول الله ﷺ، وقد قال مخاطبا قبره ﷺ:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد

تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوما رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد ؟

وقد روي عن ابن المنكدر أنه كان يجلس مع أصحابه فكان يصيبه صمات، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي ﷺ ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه يصيبني خطر، فإذا وجدت ذلك استعنت بقبر النبي ﷺ.

وكان يأتي موضعا من المسجد يتمرغ فيه، ويضطجع، فقيل له في ذلك فقال: إني

رأيت النبي ﷺ في هذا الموضع[1].

قلت: هذا السلف.. فما فعل الخلف؟

قال: لقد ورث السلف حسان وغيره أمة من الصالحين أنتجوا تراثا عريضا من معاني الحب ولدت أمام قبر رسول الله ﷺ، فهذا أحدهم يقول:

قف عند قبر التهامي والثم الجدثا ... وانشق عبير الهدى ممن به مكثا
واجثُ احتراماً بداع الوجد مذّكراً ... فجر النبوة وامدح خير من بُعثا
محمدٌ سيد الأكوان قاطبة ... إذ مجده كابراً عن كابر ورثا
ما أنجب الدهر ذا خلق وذا خلقٍ ... في الفضل يشبهه مذ جاءنا حدثا

1) ابن المنكدر ليس من الصحابة، ولهذا تحمل الرؤية على الرؤيـة المناميـة، أو على رؤى اليقظـة الـتي أجمـع عليهـا الأولياء.

سابعا ـ الأحبار

فتحت دفتر الغريب على فصله السابع، فوجدت عنوانه (الأحبار)، فقلت: أليس الأحبار هم رجال الدين؟

قال: أجل.. هم رجال الدين من اليهود والمسيحيين.. وقد يقصد به غيرهم.

قلت: من الصعب أن يسلم مثل هؤلاء الرجال لمحمد ﷺ.

قال: أجل.. فما هم فيه من السلطان والجاه والتعصب يقف حائلا بينهم وبين الإسلام.. ولكن مع ذلك هناك من هؤلاء من تغلب على هواه، وطلق جاهه، وجميع الدنيا العريضة التي أتيحت له، ليتمتع بجمال شمس محمد ﷺ.

قلت: لقد ذكر الله تعالى هؤلاء، وأثنى عليهم ثناء حسنا في القرآن الكريم، فقال تعالى:﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85)﴾ (المائدة)

وقال فيهم:﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران:199)

وقال فيهم:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص:52-55)

قال: ولهذا تراني اهتممت في هذا الدفتر بالبحث عن هؤلاء.. فهم ـ بالنسبة لنا معشر رجال الدين ـ من أعظم الشهود على صدق النبي ﷺ..

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة من غير عصرنا.. بل هي من عصر النبوة، فكيف التقيت بها؟

قال: لقد التقيت بها في أسانيد الثقاة.. فهذه الجموع الكثيرة التي امتلأت قلوبها

تعظيما لرسول الله ﷺ وحيا للإسلام يستحيل أن تجتمع على الكذب.

قلت: فهل ترى نبدأ بهؤلاء.. أم نعرج إلى المعاصرين؟

قال: ليس من الأدب أن نتخطى رقاب الصديقين.. فلنبدأ بهؤلاء.

سلمان الفارسي:

كان من أول الأسماء التي وصعت في هذا الفصل اسم (سلمان الفارسي)، فسألت الغريب عن سر اختياره لسلمان، فقال: سلمان ليس فردا.. بل هو معنى.. ومعنى عظيم يشير إلى الصادقين من رجال الدين.

قلت: ما تعني؟

قال: لقد أمضى سلمان شطرا من عمره ليس له من هم غير البحث عن الحقيقة.. فلذلك صار رمزا للباحث عن الحقيقة.

قلت: صدقت في هذا.. وقد ألف بعضهم رواية بهذا الاسم، وكان موضوعها سلمان.

قال: لقد كان أول سلمان أول من وضع رواية الباحث عن الحقيقة.. أو مذكرات الباحث عن الحقيقة.. فهلم نسمع له..

قلت: وكيف نسمع له، وقد رمم.

قال: آذان الروح يمكن أن تسمع كل شيء..

ثم التفت إلي، وقال: حاول أن تتخلص من جلباب جسدك.. ولترحل إلى ذلك الزمن الجميل الذي جلس فيه سلمان يحدث عن نفسه.

أصابني نوع من الغيبة اللذيذة، رحت خلالها أسمع الغريب، وهو يحدثني بلسان سلمان، وكأني كنت جالسا في تلك اللحظة مع سلمان نفسه.

قال سلمان: كنت رجلا من أهل فارس من أصبهان، من جي، ابن رجل من دهاقينها، وكان أبي دهقان أرضه، وكنت أحب الخلق إليه، فأجلسني في البيت كالجواري، فاجتهدت في المجوسية ـ فكنت في النار التي توقد فلا تخبو، وكان أبي صاحب ضيعة، وكان له بناء يعالجه في داره،، فقال لي يوما: يا بني، قد شغلني ما ترى فانطلق الى الضيعة، ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بك، فخرجت لذلك، فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون، فملت إليهم وأعجبني أمرهم، وقلت: هذا والله خير من ديننا، فأقمت عندهم حتى غابت الشمس، لا أنا أتيت الضيعة، ولا رجعت إليه، فاستبطأني وبعث رسلا في طلبي، وقد

قلت للنصارى حين أعجبني أمرهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت الى والدي، فقال: يا بني، قد بعثت اليك رسلا، فقلت: مررت بقوم يصلون في كنيسة، فأعجبني ما رأيت من أمرهم، وعلمت أن دينهم خير من ديننا.

فقال: يا بني، دينك ودين آبائك خير من دينهم، فقلت: كلا والله.

فخافني وقيدني.

فبعثت الى النصارى وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم، وسألتهم إعلامي من يريد الشام، ففعلوا فألقيت الحديد من رجلي، وخرجت معهم، حتى أتيت الشام، فسألتهم عن عالمهم، فقالوا: الأسقف، فأتيته، فأخبرته، وقلت، أكون معك أخدمك وأصلي معك؟قال: أقم.

فمكثت مع رجل سوء في دينه، كان يأمرهم بالصدقة، فإذا أعطوه شيئا أمسكه لنفسه، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، فتوفي، فأخبرتهم بخبره، فزبروني، فدللتهم على ماله فصلبوه، ولم يغيبوه ورجموه، وأحلوا مكانه رجلا فاضلا في دينه زهد ورغبة في الاخرة وصلاحا، فألقى الله حبه في قلبي، حتى حضرته الوفاة، فقلت: أوصى، فذكر رجلا بالموصل، وكنا على أمر واحد حتى هلك.

فأتيت الموصل، فلقيت الرجل، فأخبرته بخبري، وأن فلانا أمرني باتيانك، فقال: أقم، فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة، فقلت له: أوصي، قال: ما أعرف أحدا على ما نحن عليه الا رجلا بعمورية.

فأتيته بعمورية، فأخبرته بخبري، فأمرني بالمقام وثاب لي شيئا، واتخذت غنيمة وبقيرات، فحضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصي بي؟ فقال: لا أعلم أحدا اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، مهاجره بأرض ذات نخل، وبه آيات وعلامات لا تخفى، بين منكبيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت فتخلص إليه، فتوفي.

فمر بي ركب من العرب، من كلب، فقلت: أصحبكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه، وتحملوني الى بلادكم؟فحملوني الى وادي القري، فباعوني من رجل من اليهود، فرأيت النخل، فعلمت أنه البلد الذي وصف لي، فأقمت عند الذي اشتراني، وقدم عليه رجل من بني قريظة فاشتراني منه، وقدم بي المدينة، فعرفتها بصفتها، فأقمت معه أعمل في نخله، وبعث الله نبيه ﷺ، وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة، فنزل في بني عمرو بن عوف، فاني لفي رأس نخلة إذ أقبل ابن عمر لصاحبي، فقال: أي فلان، قاتل الله بني قيلة، مررت بهم آنفا وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة، يزعم أنه نبي،

فوالذي ما هو الا أن سمعتها، فأخذني القر ورجفت بي النخلة، حتى كدت أن أسقط، ونزلت سريعا، فقلت: ما هذا الخبر؟فلكمني صاحبي لكمة، وقال: وما أنت وذاك؟ أقبل على شأنك، فأقبلت على عملي حتى أمسيت، فجمعت شيئا فأتيته به، وهو بقباء عند أصحابه، فقلت: اجتمع عندي، أردت أن أتصدق به، فبلغني انك رجل صالح، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة، فرأيتكم أحق به، فوضعته بين يديه، فكف يديه، وقال لأصحابه: كلوا.

فأكلوا، فقلت: هذه واحدة، ورجعت.

وتحول الى المدينة، فجمعت شيئا فأتيته به، فقلت: أحببت كرامتك فأهديت لك هدية، وليست بصدقة، فمد يده فأكل، وأكل اصحابه، فقلت: هاتان اثنتان، ورجعت.

فأتيته، وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد، وحوله أصحابه، فسلمت، وتحولت أنظر الى الخاتم في ظهره، فعلم ما أردت، فألقى رداءه، فرأيت الخاتم، فقبلته، وبكيت، فأجلسني بين يديه، فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجبه ذلك، وأحب أن يسمعه أصحابه، ففاتني معه بدر وأحد بالرق، فقال لي: كاتب يا سلمان عن نفسك، فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته، على أن أغرس له ثلثمائة ودية وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقال النبي ﷺ: (أعينوا أخاكم بالنخل)، فأعانوني بالخمس والعشر، حتى اجتمع لي، فقال لي: (فقر لها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدي)، ففعلت، فأعانني أصحابي حتى فرغت، فأتيته، فكنت آتيه بالنخلة فيضعها، ويسوي عليها ترابا، فانصرف، والذي بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة، وبقي الذهب، فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من اصحابه بمثل البيضة، من ذهب أصابه من بعض المعادن، فقال: (ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب)، فقال: (أد هذه) فقلت: يا رسول الله، واين تقع هذه مما علي؟وروى أبو الطفيل، عن سلمان، قال: أعانني رسول الله ﷺ ببيضة من ذهب، فلو وزنت بأحد لكانت أثقل منه(1).

عبد الله بن سلام:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (عبد الله بن سلام)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا الرجل من كبار أحبار اليهود، وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام، وكان اسمه الحصين، فغيره النبي ﷺ، وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ دار أبي أيوب أول ما قدم(2).

وقد حدث عن نفسه بخبر إسلامه، فقال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته

---

1) رواه ابن إسحق وغيره.

2) كما في رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقي.

واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له(1)، فكنت مسرا بذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة.

فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: (لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت)، فقلت لها: (أي عمة وهو، الله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به)

ثم قالت: (يا ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟)، فقلت لها: (نعم)، قالت: (فذاك إذا)

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شئ سمعته يقول: (افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)(2)

وقد أخبر أنس عن السر الذي جعله يقبل على الإسلام، فقال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألك عن خلال لا يعملهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

فقال ﷺ: أخبرني بهن جبريل آنفا.

فقال عبد الله: جبريل ؟قال ﷺ: نعم، فقال عبد الله: عدو اليهود من الملائكة، ثم قرأ أنس: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:97)

قال ﷺ: أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق (تسوقهم) إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد.

فقال عبد الله: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم

1) توكف الخبر: إذا انتظر، انظر: النهاية: 5 / 221.

2) رواه البخاري.

عني بهتوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك.

فأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه، فقال: (يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا)

فقالوا: ما نعلمه.

فقال: أي رجل فيكم الحصين بن سلام؟قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

فقال: أرأيتم إن أسلم.

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فقال ﷺ: (يا ابن سلام اخرج إليهم)

فخرج عبد الله فقال: (أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقا، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه)

قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟

قال عبد الله: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها(1).

***

قلبت بعض الصفحات، بحثا عن أسماء لأحبار من عصرنا، أو قريبين من عصرنا.

القس إسحق هلال مسيحه:

وكان من الأسماء التي وجدتها (القس إسحق هلال مسيحه)(2)، فسألت الغريب عنه،

1) رواه البيهقي.

2) هو القس المصري السابق اسحق هلال مسيحه، رئيس لجان التنصير بأفريقيا، وهو راعي كنيسة المثال المسيحي، ورئيس فخري لجمعيات خلاص النفوس المصرية بإفريقيا وغرب آسيا.

فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به بعد ما سمعت بإسلامه في إطار الوظيفة التي أخبرتك عنها، وكان من تصريحاته لي قوله: بدأت علاقتي مع بعض المسلمين سراً، حيث بدأت أدرس وأقرأ عن الإسلام، وقد طُلب منّي إعداد رسالة الماجستير حول مقارنة الأديان، وأشرف على الرسالة أسقف البحث العلمي في مصر سنة 1975، واستغرقت في إعدادها أربع سنوات، وكان المشرف يعترض على ما جاء في الرسالة حول صدق نبوة الرسول محمد ﷺ وأميته وتبشير المسيح بمجيئه.

وأخيراً تمّت مناقشة الرّسالة في الكنيسة الإنكليكيّة بالقاهرة، واستغرقت المناقشة تسع ساعات وتركزت حول قضيّة النّبوّة والنّبي ﷺ علماً بأن الآيات صريحة في الإشارة إلى نبوّته وختم النّبوّة به.

قلت: فهل منحوك هذه الرسالة مع هذا؟

قال: نعم منحوني الرسالة بيد، وأخذوها مني باليد الأخرى.. لقد صدر القرار بسحب الرسالة منّي وعدم الاعتراف بها.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: أخذت أفكر في أمر الإسلام تفكيراً عميقاً حتّى تكون هدايتي عن يقين تام، ولكن لم أكن أستطيع الحصول على الكتب الإسلامية، فقد شدّد (.. !؟) الحراسة عليّ وعلى مكتبتي الخاصّة.

قلت: فكيف وصلت إلى أشعة محمد مع هذا التضييق؟

ابتسم، وقال: أصدقك القول.. إنهم كلما ضيقوا على الإسلام، كلما اتسع وازداد انتشاره..

في يوم من أيام عام 1978م كنت ذاهباً لإحياء مولد العذراء بالإسكندريّة، وأثناء ركوبي في الحافلة بملابسي الكهنوتية، وبصليب يزن ربع كيلو من الذهب الخالص وعصاي الكريز صعد صبيّ صغير يبيع كتيبات صغيرة، فوزعها على كلّ الركّاب ماعدا أنا.

عندما انتهى من التوزيع والجمع، فباع ما باع وجمع الباقي، قلت له: (يا بنيّ لماذا أعطيت الجميع بالحافلة إلا أنا)، فقال: (لا يا أبونا أنت قسيس)

وهنا شعرت، وكأنّني لست أهلاً لحمل هذه الكتيّبات مع صغر حجمها.. فألححت عليه ليبيعني منها، فقال: (لا هذه كتب إسلاميّة) ثم نزل.

وبنزول هذا الصّبي من الحافلة شعرت وكأنّني جوعان، وفي هذه الكتب شبعي، وكأنّني عطشان وفيها شربي.. نزلت خلفه، فجرى خائفاً منّي، فنسيت من أنا وجـريت وراءه حتّى حصلت على كتابين.

عندما وصلت إلى الكنيسة الكبرى بالعبّاسيّة (الكاتدرائيّة المرقسيّة) ودخلت إلى غرفـة النّوم المخصّصـة بالمـدعوّين رسـميّاً كنت مرهقـاً من السـفر، ولكن عنـدما أخـرجت أحـد الكتابين، وهو (جزء عم) وفتحته وقع بصري على سـورة الإخلاص، فـأيقظت عقلي وهـزت كياني..

لقد بدأت أرددها حتى حفظتهـا، وكنت أجـد في قراءتهـا راحـة نفسـية واطمئنانـاً قلبياً وسعادة روحيـة، وبينـا أنـا كـذلك إذ دخـل عليّ أحـد القساوسـة ونـاداني: (أبونـا إسـحاق)، فخرجت وأنا أصيح في وجهه: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ دون شعور منّي.

بعد ذلك ذهبت إلى الإسكندريّة لإحياء أسـبوع مولـد العـذراء يـوم الأحـد.. وأثنـاء صـلاة القـداس المعتـاد، وفي فـترة الراحـة ذهبت إلى كرسـي الاعـتراف لكي أسـمع اعترافـات الشعب الجاهل الذي يؤمن بأن القسيس بيده غفران الخطايا.

ومن ضمن من جاء امرأة تعض أصابع النـدم، وهي تقـول: (إني انحـرفت ثلاث مـرات، وأنا أمام قداستك الآن أعترف لك رجاء أن تغفر لي، وأعاهدك ألا أعـود لـذلك أبـداً).. ومن العادة المتبعة أن يقوم الكاهن برفع الصليب في وجه المعترف ويغفر له خطاياه.

وما كدت أرفع الصليب لأغفر لها حتى وقع ذهني على العبـارة القرآنيـة الجميلـة: ﴿ قُـلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فعجز لساني عن النطق، وبكيت بكاءً حارّاً، وقلت: (هذه جاءت لتنال غفران خطاياها منّي فمن يغفر لي خطاياي يوم الحساب والعقاب)

هنا أدركت أن هناك كبير أكبر من كل كبير، إله واحدٌ لا معبود سواه.

ذهبت على الفور للقاء الأسقف وقلت له: (أنا أغفر الخطايـا لعامـة النـاس، فمن يغفـر لي خطاياي)، فأجاب دون اكتراث: (البابا)، فسـألته: (ومن يغفـر للبابـا)، فـانتفض جسـمه ووقف صارخاً وقال: (أنت قسـيس مجنـون، والـذي أمـر بتنصـيبك مجنـون حتّى وإن كـان الغريب، لأنّنا قلنا له لا تنصّبه لئلاّ يفسد الشعب بإسلاميّاته وفكره المنحل) بعـد ذلـك صـدر القرار بحبسي في دير (ماري مينا) بوادي النطرون.

قلت: أحصل هذا !؟

قال: حصل ما هو فوق هذا.. لقد أخذوني معصوب العينين، وهنـاك اسـتقبلني الرهبـان

استقبالاً عجيباً كالوا لي فيه صنوف العذاب علماً بأنّني حتّى تلك اللحظة لم أسلم، كل منهم يحمل عصا يضربني بها وهو يقول: (هذا ما يصنع ببائع دينه وكنيسته)

استعملوا معي كل أساليب التعذيب الذي لا تزال آثاره موجودةً على جسدي، وهي خير شاهدٍ على صحّة كلامي حتّى أنّه وصلت بهم أخلاقهم اللاإنسانيّة أنهم كانوا يدخلون عصا المقشّة في دبري يوميّاً سبع مرّات في مواقيت صلاة الرهبان لمدّة سبعة وتسعين يوماً، وأمروني بأن أرعى الخنازير.

وبعد ثلاثة أشهر أخذوني إلى كبير الرهبان لتأديبي دينياً وتقديم النصيحة لي، فقال: (يا بنيّ.. إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، اصبر واحتسب. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)، قلت في نفسي ليس هذا الكلام من الكتاب المقدس ولا من أقوال القديسين.

وما زلت في ذهولي بسبب هذا الكلام حتى رأيته يزيدني ذهولاً على ذهول بقوله: (يا بنيّ نصيحتي لك السر والكتمان إلى أن يعلن الحق مهما طال الزمان)

لقد احترت في المعني الذي يشير إليه هذا الرجل، وهو كبير الرهبان، ولم يطل بي الوقت حتى فهمت تفسير هذا الكلام المحيّر.

لقد دخلت عليه ذات صباحٍ لأوقظه فتأخر في فتح الباب، فدفعته ودخلت، وكانت المفاجأة الكبرى التي كانت نوراً لهدايتي لهذا الدين الحق دين الوحدانيّة عندما شاهدت رجلاً كبيراً في السنّ ذا لحية بيضاء، وكان في عامة الخامس والستّين، وإذا به قائماً يصلي صلاة المسلمين (صلاة الفجر).

تسمرتُ في مكاني أمام هذا المشهد الذي أراه، ولكنّي انتبهت بسرعة عندما خشيت أن يراه أحد من الرهبان، فأغلقت الباب.

جاءني بعد ذلك وهو يقول: (يا بنيّ استر عليّ ربّنا يستر عليك)، ثم أضاف: (أنا منذ 23 سنة على هذا الحال.. غذائي القرآن.. وأنيس وحدتي توحيد الرحمن.. ومؤنس وحشتي عبادة الواحد القهّار.. الحقّ أحقّ أن يتّبع يا بنيّ)

بعد أيّام صدر الأمر برجوعي لكنيستي بعد نقلي من سوهاج إلى أسيوط، لكن الأشياء التي حدثت مع سورة الإخلاص وكرسي الاعتراف والراهب المتمسّك بإسلامه جعلت في نفسي أثراً كبيراً، لكني كنت محتارا ماذا أفعل، وأنا محاصر من الأهل والأقارب وممنوع من الخروج من الكنيسة بأمر (.. !؟)

بعد مرور عام، جاءني خطاب يأمرني بالذهاب كـرئيس للّجنـة المغـادرة إلى السـودان في رحلـة تنصـيريّة، فـذهبنا إلى السـودان في الأوّل من سـبتمبر 1979م وبقينـا بـه ثلاثـة شهور، وحسب التعليمات البابويّة بأن كلّ من تقوم اللجنـة بتنصـيره يسـلّم مبلـغ 35 ألـف جنيه مصريّ بخلاف المسـاعدات العينيّـة، فكـانت حصـيلة الـذين غـرّرت بهم اللجنـة تحت ضغط الحاجة والحرمان خمسة وثلاثين سودانيّاً من منطقة واو في جنوب السودان.

وبعد أن سلّمتُهم أموال المنحة البابويّـة اتّصـلت بالبابـا من مطرانيّـة أم درمـان فقـال: (خذوهم ليروا المقدسـات المسـيحيّة بمصـر (الأديـرة))، وتم خـروجهم من السـودان على أساس أنهم عمّال بعقود للعمـل بـالأديرة لـرعي الإبـل والغنم والخنـازير وتم عمـل عقـود صوريّة حتّى تتمكّن لجنة التنصير من إخراجهم إلى مصر.

بعد نهايـة الرحلـة، وأثنـاء رجوعنـا بالبـاخرة في النّيـل، قمت أتفقّـد المتنصـرين الجـدد وعندما فتحت بعض الأبواب على الباخرة، فوجئت بأن المتنصر الجديد الـذي أطلقنـا عليـه عبد المسيح (وكان اسمه محمّد آدم) يصلّي صلاة المسلمين.

تحدّثت إليه فوجدته متمسّكاً بعقيدته الإسلاميّة، فلم يغـره المـال، ولم يـؤثّر فيـه بريـق الدنيا الزائل.. ومما أذكره أني قلت له: (يا عبد المسيح لماذا تصـلّي صـلاة المسـلمين بعـد تنصّـرك ؟!)، فقـال: (بعت لكم جسـدي بـأموالكم، أمّـا قلـبي وروحي وعقلي فملـك اللـه الواحد القهّار لا أبيعهم بكنوز الدنيا وأنا أشهد أمامك بـأن لا إلـه إلا اللـه وأنّ محمّـد رسـول الله)

بعـد هـذه الأحـداث الـتي أنـارت لي طريـق الإيمـان، وهـدتني لأعتنـق الإسـلام وجـدت صعوبات كثيرة في إشهار إسلامي نظراً لأنّني قس كبير ورئيس لجنة التنصير في إفريقيـا، وقد حاولوا منع ذلك بكل الطرق لأنه بالنسبة لهم فضيحة كبيرة.

إبراهيم خليل فلوبوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (إبراهيم خليل فلوبوس) [1]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا أشهر من نـار على علم..كـان أسـتاذا بكليـة اللاهـوت الإنجيلية.. وقد نشأ في الكنيسة.. وترقى في مدارس اللاهوت.. وتبـوأ مكانـة مرموقـة في سلم التنصير..

1) إبراهيم خليل أحمد قس مبشر من مواليد الإسكندرية عـام 1919، يحمـل شـهادات عاليـة في علم اللاهـوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية. عمل أستاذًا بكلية اللاهوت بأسيوط. كما أرسـل عـام 1954 إلى أسوان سكرتيرًا عامًا للإرسالية الألمانية السويسرية. وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام. لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وأشهر إسلامه رسميًا عام 1959. كتب العديد من المؤلفات، أبرزهـا ولا ريب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي)، و(تاريخ بني إسرائيل)، و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسـلام في الكتب السـماوية) و(اعـرف عـدوك اسـرائيل) و(الاستشـراق والتبشـير وصـلتهما بالإمبريالية العالمية) و(الغفران بين المسيحية والإسلام)

قلت: فحدثني عن لقائك به، وحديثك معه.

قال: لقد تشرفت بالالتقاء به، والحديث معه عن سر إسلامه، وكان مما ذكره لي قوله: ولـدت في الإسـكندرية عـام 1919.. ونشـأت فيهـا نشـأة نصـرانية ملتزمـة وتهـذبت في مدارس الإرسالية الأمريكية، وتصادف وصولي مرحلة (الثقافة) المدرسية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتعرض مدينة الإسكندرية لأهوال قصف الطائرات.. فاضطررنا للهجرة إلى أسيوط حيث استأنفت في كليتها، وقد دفعتني أخبار الحرب والنكبات لأن أنظر إلى العـالم نظرة أعمق قادتني للاتجاه إلى دعوة السـلام وإلى الكنيسـة.. الـتي كـانت ترصـد رغبـاتي وتؤجج توجهاتي.. فالتحقت بكلية اللاهوت سنة 1945م وأمضيت فيها ثلاث سنين.

قلت: الأصل في مثل هذه الكلية أن تعمق فيك التوجه للمسيحية..

قـال: أجـل.. ذلـك صـحيح.. لقـد درسـنا مقـدمات العهـد القـديم والجديـد، والتفاسـير والشروحات وتاريخ الكنيسة.. ولكنا لم نكتف بـذلك، فنظـام الكليـة يـدرس تـاريخ الحركـة التنصيرية وعلاقتها بالمسلمين، ولهذا درسنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية ...

قلت: أكانت هذه الدراسة لمجرد الاطلاع العلمي؟

قال: لا.. لا يمكن أن تهدف كلية مثل تلك الكلية لهذا الهدف النبيل.. لقـد كـانوا يهيئوننـا للحوار المستقبلي مع المسـلمين، لنسـتخدم معرفتنـا لنحـارب القـرآن بـالقرآن، والإسـلام بالنقاط السوداء في تاريخ المسلمين.

لقد كنا نحاور الأزهريين وأبناء الإسـلام بـالقرآن لنفتنهم، فنسـتخدم الآيـات مبتـورة عن سياقها، لنخدم أهدافنا.. لقد كان لدينا في هذا كتب ننهل منها..

قلت: منها.. !؟

قال: هي كثيرة.. لعل أهمهـا كتـاب (الهدايـة) وهـو في 4 أجـزاء، و(مصـدر الإسـلام).. إضـافة إلى اسـتعانتنا واسـتفادنا من كتابـات عملاء الاستشـراق أمثـال طـه حسـين الـذي استفادت الكنيسة من كتابه (الشعر الجاهلي) مائة في المائة، وكـان طلاب كليـة اللاهـوت يعتبرونه من الكتب الأساسية لتدريس مادة الإسلام.

وعلى هـذا المنهج كـانت رسـالتي في الماجسـتير تحت عنـوان (كيـف نـدمر الإسـلام بالمسلمين) سنة 52 والتي أمضـيت 4 سـنوات في إعـدادها من خلال الممارسـة العمليـة للوعظ والتنصير بين المسلمين من بعد تخرجي عام 48.

قلت: أنا أعجب لك.. كيف يمكن لرجل يكتب مثل هـذه الرسـالة، ويتوجـه هـذا التوجـه ينقلب ذلك الانقلاب الذي انقلبته.

قال: لا تعجب.. فالهداية من الله وبالله.. لقد من اللـه علي، فتعرضـت لشـمس النبـوة التي نسخت تلك الأحقاد التي ملأتنا بها الكنيسة.

قلت: فحدثني كيف أشرقت عليك أنوار الهداية.

قـال: في مـؤتمر تبشـيري دعيت للكلام، فـأطلت الكلام في ترديـد كـل المطـاعن المحفوظة ضد الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثي بدأت أسأل نفسي: لماذا أقول هذا وأنا أعلم أنني كاذب ؟! واستأذنت قبل انتهاء المـؤتمر، خـرجت وحـدي متجهـاً إلى بيـتي، كنت مهزوزاً من أعماقي، متأزماً للغاية، وفي البيت قضيت الليل كلـه وحـدي في المكتبـة أقـرأ القرآن، ووقفت طويـلاً عنـد الآية الكريمة: لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُـرْآَنَ عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر:21)

في تلك الليلة اتخذت قرار حياتي فأسلمت، ثم انضم إلي جميع أولادي، وكـان أكـثرهم حماساً ابني الأكبر (أسامة) وهو دكتور في الفلسفة، ويعمل أستاذاً لعلم النفس في جامعة السوربون.. وبإسلامهم زادت بيوت الإسلام بيتاً.

قلت: تلك النهاية التي انتهيت إليها، وأنا أسألك عن البداية.

قال: في شهر يونيو تقريباً عام 1955م استمعت إلى قـول اللـه سـبحانه: قُـلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآَنًا عَجَبًا (1) يَهْـدِي إِلَى الرُّشْـدِ فَآَمَنَّا بِـهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) (سـورة الجن).. هـذه الآية الكريمـة من الغـريب أنهـا رسـخت في القلب، ولمـا رجعت إلى الـبيت سـارعت إلي المصحف وأمسكته وأنا في دهشة من هذه السورة..

قلت: لقد كنت تقرأ القرآن من قبـل، بـل تسـتخدمه لحـرب القـرآن والإسـلام، فكيـف أثرت فيك هذه الآيات خصوصا.

قال: لست أدري.. ربما كنت حينها في لحظة من لحظـات الصـدق.. أو ربمـا أشـرقت علي حينها شمس الهداية..

في ذلك الحين تحولت إلى إنسان آخر.. لقد عدت لأقـرأ القـرآن بغـير النيـة الـتي كنت أقرؤه بها.. فاستوقفني قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًـا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَـرِّمُ

عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ (الأعراف: 157).. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾(الصف:6)

هذه النصوص جعلتني أرجع للكتاب المقدس لأتأكد مما يذكره القرآن..

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد ظللت لعدة سنوات أدرس هذه التنبؤات إلى أن وجدتها حقيقة لم يمسها التبديل والتغيير، لأن بني إسرائيل ظنوا أن النبوة لن تخرج عن دائرتهم..

على سبيل المثال جاء في (سفر التثنية) وهو الكتاب الخامس من كتب التوراة (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)[1] توقفت أولاً عند كلمة (إخوتهم) وتساءلت: هل المقصود هنا من بني إسرائيل؟لو كان كذلك لقال (من أنفسهم) أما وقد قال (من وسط إخوتهم) فالمراد بها أبناء العمومة، ففي سفر التثنية (إصحاح 2 عدد 4) يقول الله لسيدنا موسى عليه السلام: (أنتم مارون بنجم إخوتكم بني عيسو ...) و(عيسو) هذا الذي نقول عنه في الإسلام (العيس) هو شقيق يعقوب عليه السلام، فأبناؤه أبناء عمومة لبني إسرائيل، ومع ذلك قال (إخوتكم) وكذلك أبناء (إسحق) وأبناء (إسماعيل) هم أبناء عمومة، لأن (إسحق) شقيق (إسماعيل) عليهما السلام ومن (إسحق) سلالة بني إسرائيل، ومن (إسماعيل) كان (قيدار) ومن سلالته كان سيدنا محمد ﷺ، وهذا الفرع الذي أراد بنو إسرائيل إسقاطه وهو الذي أكدته التوراة حين قالت (من وسط إخوتهم) أي من أبناء عمومتهم.

وتوقفت بعد ذلك عند لفظة (مثلك) ووضعت الأنبياء الثلاثة: موسى، وعيسى، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ للمقابلة فوجدت أن عيسى عليه السلام مختلف تمام الا ختلاف عن موسى وعن محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ــ وفقاً للعقيدة النصرانية ذاتها والتي نرفضها بالطبع، فهو الإله المتجسد، وهو ابن الله حقيقة، وهو الأقنوم الثاني في الثالوث، وهو الذي مات على الصليب.. أما موسى عليه السلام فكان عبدالله، وموسى كان رجلاً، وكان نبياً، ومات ميتة طبيعية ودفن في قبر كباقي الناس وكذلك سيدنا رسول الله محمد ﷺ، وإذاً فالتماثل إنما ينطبق على محمد ﷺ، بينما تتأكد المغايرة بين المسيح وموسى ـ عليهما السلام ـ ووفقاً للعقيدة النصرانية ذاتها!فإذا مضينا إلى بقية العبارة: (وأجعل كلامي

1) انظر تفاصيل الاستدلال بهذه النبوة في رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

في فمه..) ثم بحثنا في حياة محمد ﷺ فوجدناه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ثم لم يلبث أن نطق بالقرآن الكريم المعجزة فجأة يوم أن بلغ الأربعين.. وإذا عدنا إلى نبوءة أخرى في التوراة سفر أشعيا إصحاح 79 تقول: (أو يرفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ولا الكتابة ويقول له اقرأ، يقول ما أنا بقاريء..) لوجدنا تطابقاً كاملاً بين هاتين النبوءتين وبين حادثة نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء، ونزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ (العلق)

قلت: هذا عن التوراة، فماذا عن الإنجيل؟

قال: إذا استثنينا نبوءات برنابا الواضحة والصريحة ببعثة محمد ﷺ بالاسم، وذلك لعدم اعتراف الكنيسة بهذا الإنجيل أصلاً، فإن المسيح عليه السلام تنبأ في إنجيل يوحنا تسع نبوءات، و(البرقليط) الذي بشر به يوحنا مرات عديدة ... هذه الكلمة لها خمسة معاني: المعزّي، والشفيع، والمحامي، والمحمد، والمحمود، وكل هذه المعاني ينطبق على سيدنا رسول الله ﷺ تمام الانطباق فهو المعزّي المواسي للجماعة التي على الإيمان وعلى الحق من بعد الضياع والهبوط، وهو المحامي والمدافع عن عيسى ابن مريم عليه السلام وعن كل الأنبياء والرسل بعدما شوه اليهود والنصارى صورتهم وحرفوا ما أتوا به وهو الإسلام.. ولهذا جاء في إنجيل يوحنا [14 /16 و17] (أنا أصلي إلى الله ليعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق).. وقال في نبوءة أخرى (16 /13 ـ 14] (وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به. ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني)

لقد وجدت أن هذه النبوءة تنطبق تماما على قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف:110)

قلت: فقد كانت البشارات التي وردت في الكتاب المقدس هي دليلك إلى الإسلام.

قال: لقد كانت بعض أدلتي.. وإن شئت قل: لقد كانت هي منبهي الأول الذي جعلني أبحث عن الحقيقة.. فقد انطلقت منها إلى مقارنات جادة بين الإسلام والمسيحية.. وقد كات تلك المقارنات هي الأساس الذي بني عليه إسلامي.

قلت: فحدثني عن بعض مقارناتك.

استجمع ذهنه قليلا، ثم قال: لقد قرأت بتأمل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر:53)..ثم قارنت بينها وبين ما ورد في الإنجيل عن الغفران: (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) وبالقول: (هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية).

قارنت بين العقيدتين.. فعرفت أن المغفرة في عقيدتنا مقيدة بقيود: من جانب الله ببذل ابنه الحبيب، ومن جانب المرء بضرورة الإيمان بهذا الابن.

ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنيسية تعرف بسرّ الشكر، وفيها يؤمن المسيحي باستحالة الخبز إلى جسد المسيح واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة، وبتناولهما تصير فيه حياة أبدية، ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران.. إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهي الذي ندّد به زعماء الإصلاح في القرن الخامس عشر.. فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادي، بل بتوبة صادقة وعزم على الحياة الطاهرة[1].

قلت: هل هناك مقارنة غيرها جعلتك تؤثر الإسلام؟

قال: كثيرة هي مقارناتي.. منها أني قرأت قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13)، ثم قارنته بما جاء بالإنجيل: (إذن لسنا أولاد جارية، بل أولاد حرة)

لقد زال عني بتلك المقارنة العجب عن التفرقة العنصرية عند الأمريكيين في أيامنا هذه بين البيض والسود، وزاد إعجابي وإجلالي للمسلمين.. فسيد القوم عندهم يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، راكعين ساجدين، يخشون ربهم ويرجونه الرضا والعفو، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين في هذا التساند الجميل والتآخي الحبيب[2].

بالإضافة إلى هذا، فقد استوقفني كثيرًا نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام.. إن التوحيد يجعلني عبدًا لله وحده لست عبدًا لأي إنسان، التوحيد في الإسلام يجرّد الإنسان ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده.

بالإضافة إلى هذا، فإن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله

1) انظر: محمد في التوراة، ص 10 – 11، بتصرف.

2) محمد في التوراة، ص 11.

والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة.

قلت: ألا تزال تذكر اللحظة التي أعلنت فيها عن إسلامك؟

قال: لن أنسى ذلك ما حييت..

قلت: فحدثني عنها..

قال: بعد أن وصلت إلى اليقين وتلمست الحقائق بيدي كان عليّ أن أتحدث مع أقرب الناس إلي.. وكان أقربهم إلي زوجتي.. لكن الحديث تسرب عن طريقها إلى الإرسالية للأسف، وسرعان ما تلقفوني ونقلوني إلى المستشفى وتحت مراقبة صارمة مدعين أني مختل العقل.. ولأربعة شهور تلت عشت معاناة شديدة جداً، ففرقوا بيني وبين زوجتي وأولادي، وصادروا مكتبتي وكانت تضم أمهات الكتب والموسوعات … حتى اسمي كعضو في مجمع أسيوط، وفي مؤتمر (سنودس) شُطب، وضاع ملفي كحامل ماجستير من كلية اللاهوت … ومن المفارقات العجيبة أن الإنجليز في هذه الآونة كانوا قد خلعوا الملك طلال من عرش الأردن بتهمة الجنون … فخشيت أن يحدث معي الأمر ذاته.. لذلك التزمت الهدوء والمصابرة وصمدت حتى أطلق سراحي، فقدمت استقالتي من الخدمة الدينية، واتجهت للعمل في شركة أمريكية للأدوات المكتبية، لكن الرقابة هناك كانت عنيفة جداً، فالكنيسة لا تترك أحداً من أبنائها يخرج عليها ويسلم، إما أن يقتلوه أو يدسوا عليه الدسائس ليحطموا حياته.. وفي المقابل لم يكن المجتمع المسلم حينذاك يقدر على مساعدتي … ففي حقبة الخمسينات والستينات كان الانتماء للإسلام والدفاع عنه لا يعني إلا الضياع!

لذلك كان عليّ أن أكافح قدر استطاعتي، فبدأت العمل التجاري، وأنشأت مكتباً تجارياً هرعت بمجرد اكتماله للإبراق إلى (د. جون تومسون) رئيس الإرسالية الأمريكية حينذاك، وكان التاريخ هو الخامس والعشرين من ديسمبر 1959 والذي يوافق الكريسماس، وكان نص البرقية: (آمنت بالله الواحد الأحد، وبمحمد نبياً ورسولاً) لكن إشهار اعتناقي الرسمي للإسلام كان يفترض عليّ وفق الإجراءات القانونية أن ألتقي بلجنة من الجنسية التي أنا منها لمراجعتي ومناقشتي.

وفي الوقت الذي رفضت جميع الشركات الأوربية والأمريكية التعامل معي تشكلت اللجنة المعنية من سبعة قساوسة بدرجة الدكتوراه.. خاطبوني بالتهديد والوعيد أكثر من مناقشتي!وبالفعل تعرضت للطرد من شقتي لأنني تأخرت شهرين أو ثلاثة عن دفع الإيجار، واستمرت الكنيسة تدس علي الدسائس أينما اتجهت.. وانقطعت أسباب تجارتي.. لكني

مضيت على الحق الذي اعتنقته ... إلى أن قدر الله أن تبلغ أخباري وزير الأوقاف حينذاك عبدالله طعيمة، والذي استدعاني لمقابلته وطلب مني بحضور الأستاذ الغزالي المساهمة في العمل الإسلامي بوظيفة سكرتير لجنة الخبراء في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ولما بلغت الستين، بدأت عملي كداعية إسلامي متفرغ، وكان أول ما نصرني الله به أن ألتقيت مع الدكتور جميل غازي ــ رحمه الله ــ بـ 13 قسيساً بالسودان في مناظرة مفتوحة انتهت باعتناقهم الإسلام جميعاً، وهؤلاء كانوا سبب خير وهداية لغرب السودان حيث دخل الألوف من الوثنيين وغيرهم دين الله على أيديهم.

الدكتور وديع أحمد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (الدكتور وديع أحمد)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد كان شماسا، وقد التقيت به في مصر.. وقد حدثتني عن رحلته إلى الإسلام، وكيفية تخلصه من الشبهات الكثيرة التي وضعت في طريقه، فقال: لقد مررت برحلة طويلة قاربت 40 عاما الى أن هدانى الله للإسلام..

في البداية.. كنت من عائلة متدينة، وقد أصر أبي ـ وقد كان واعظا فى جمعية أصدقاء الكتاب المقدس، وكانت مهنته التبشير فى القرى المحيطة والمناطق الفقيرة لمحاولة جذب فقراء المسلمين الى المسيحية ـ أن أنضم الى الشمامسة منذ أن كان عمرى ست سنوات، وأن أنتظم فى دروس مدارس الأحد.

وفيها تلقيت أخطر الشبهات عن الإسلام والمسلمين، ومنها أن المسلمين اغتصبوا مصر من المسيحين وعذبوا المسيحين.. ومنها أن المسلمين يضطهدون النصارى لكى يتركوا مصر ويهاجروا.. ومنها أن المسلم أشد كفرا من البوذى وعابد البقر.. ومنها أن القرآن ليس كتاب الله ولكن محمد اخترعه.. وغير ذلك من الشبهات التى تزرع الحقد الأسود ضد المسلمين فى القلوب.

لكن الله شاء أن يقيض لنا في هذه الفترة من يقف في وجه هذه الشبهات.. وقد كان أبي هو ذلك النور المبدد لظلمات الشبهات.. لقد كان في هذه الفترة المحرجة يتكلم معنا سرا عن انحراف الكنائس عن المسيحية الحقيقية التى تحرم الصور والتماثيل والسجود للبطرك والاعتراف للقساوسة.

قلت: كيف يكون ذلك، وقد ذكرت لي أنه هو الذي أصر على أن تكون من الشمامسة؟

قال: لست أدري.. ولكني لا أزال محتارا في شأنه.. لقد كان يمارس في حياته أشياء كثيرة لا تدل إلا على أنه مسلم يكتم إسلامه.. وقد كان ذلك من أهم أسباب هدايتي.

فقد هجر الكنائس والوعظ والجمعيات التبشيرية تماما.. وكان يرفض تقبيل أيدي الكهنة (وهذا أمر عظيم عند النصاري).. وكان لايؤمن بالجسد والدم (الخبز والخمر) أي لا يؤمن بتجسيد الإله.. وبدلاً من نزوله صباح يوم الجمعة للصلاة أصبح ينام ثم يغتسل وينزل وقت الظهر.. وكان ينتحل الأعذار للنزول وقت العصر والعودة متأخرا وقت العشاء.

ومما قوى هذا الموقف عندي أنه صار ينطق بألفاظ جديدة لم يكن يقولها مثل (أعوذ بالله من الشيطان) (لا حول ولا قوة الا بالله)..

وقد وجدت بعد موته عام 1988 بالإنجيل الخاص به قصاصات ورق صغيرة يوضح فيها أخطاء موجودة بالأناجيل وتصحيحها.. بل عثرت علي إنجيل جدي (والد أبي) طبعة 1930 وفيها توضيح كامل عن التغيرات التي أحدثها النصاري فيه منها تحويل كلمة (يا معلم) و(يا سيد) إلى (يا رب) ليوهموا القارئ أن عبادة المسيح كانت منذ ولادته.

قلت: إن كل ما ذكرته أدلة قوية تشير إلى إسلامه.. ولكن لم كان يكتمه؟

قال: ألم تسمع بقول اللورد هدلي؟

قلت: تقصد قوله: (إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قال: أجل.. ولو أن هذه الحواجز النفسية رفعت لرأيت غير ما ترى، وسمعت غير ما تسمع.

قلت: فكيف أزلت أنت هذه الحواجز النفسية؟

قال: ذلك فضل الله.. وتلك هدايته التي ملأ بها قلبي، مع أني تعرضت لحواجز كثيرة اجتمعت على أن تحول بين قلبي وبين الإيمان.. لكن الله بفضله وكرمه رفعها عني.

لقد صرت أستاذاً في مدارس الأحد ومعلما للشمامسة، وكان عمري 18 سنة وكان علي أن أحضر دروس الوعظ بالكنيسة والزيارة الدورية للأديرة (خاصة في الصيف) حيث يتم استدعاء متخصصين في مهاجمة الإسلام والنقد اللاذع للقرآن ومحمد ﷺ.

لقد كانوا في تلك الاجتماعات يذكرون لنا أن القرآن مليء بالمتناقضات، ثم يذكروا نصف آية مثل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ﴾(النساء:43) ويقطعوها لنتوهم أن القرآن ينهى عن الصلاة.

بل كانوا ـ أكثر من ذلك ـ يذكرون أن القرآن مليء بالألفاظ الجنسية ويفسرون كلمة (نكاح) علي أنها الزنا أو اللواط.

وكانوا يذكرون لنا يقولون أن النبي محمد ﷺ قد أخذ تعاليم النصرانية من (بحيرا) الراهب، ثم حورها واخترع بها دين الإسلام، ثم قتل بحيرا حتى لا يفتضح أمره..

وقد كنت في تلك الفترة أسمع أسئلة محيرة من الشباب الحاضر كانت ـ هي الأخرى ـ من أهم أسباب هدايتي.

من ذلك أن شابا سأل أحد القساوسة قائلا: ما رأيك بمحمد؟

فقال القسيس: هو إنسان عبقري وذكي.

فقال الشاب: هناك الكثير من العباقرة مثل (أفلاطون، سقراط ، حامورابي....) ولكن لم نجد لهم أتباعاوودينا ينتشر بهذه السرعة الي يومنا هذا؟ لماذا؟

فيتهرب القسيس من الإجابة.. أو يغالطه بطريقة ذكية تصرفه عن سؤاله.

ومنها أن شابا سأل قسيسا: ما رأيك في القرآن؟

فأجاب القسيس: كتاب يحتوي علي قصص للأنبياء ويحض الناس علي الفضائل ولكنه مليء بالأخطاء.

فقال الشاب: لماذا تخافون أن نقرأه، وتكفرون من يلمسه أو يقرأه؟

فيصر القسيس أن من يقرأه كافر دون توضيح السبب.

ومنها أن آخر سأل: إذا كان محمد كاذباً فلماذا تركه الله ينشر دعوته 23 سنة؟ بل ومازال دينه ينتشر الي الآن مع انه مكتوب في كتاب موسي (كتاب ارميا) ان الله وعد بإهلاك كل إنسان يدعي النبوة هووأسرته في خلال عام؟

فيجيب القسيس: لعل الله يريد أن يختبر المسيحيين به.

بالإضافة إلى هذا.. فقد مررت في حياتي بمواقف كثيرة محيرة.. كلها كانت أشعة اهتديت بها إلى شمس محمد.

منها أن البطرك (.. !؟) أصدر في عام 1971 قرارا بحرمان الراهب (.. !؟) ــ وهو راهب بدير مينا ـ من الصلاة لأنه لم يذكر اسمه في الصلاة، وقد حاول إقناعه الراهب (.. !؟) بالصلاة فانه يصلي لله، وليس للبطرك ولكنه خاف من البطرك أن يحرمه من

الجنه أيضا.

وقد تسائل هذا الراهب: هل يجرؤ شيخ الأزهر أن يحرم مسلما من الصلاة؟

لقد كان أشد ما يحيرني هو معرفتي بتكفير كل طائفة مسيحية للأخـرى، فلهـذا سـألت القمص (.. !؟)، وهو أب اعترافي، فأكد هذا وأن هذا التكفير نافذ في الأرض والسماء.

فسألته متعجبا: هل معني هذا أننا كفار لتكفير بابا روما لنا؟

أجاب: للأسف.. نعم.

سألته: وباقي الطوائف كفار بسبب تكفير بطرك الإسكندرية لهم؟

أجاب: للأسف.. نعم.

سألته: وما موقفنا إذا يوم القيامة؟

أجاب: الله يرحمنا !!!

وفوق هذا كنت كلما دخلت الكنيسة، ووجدت صورة المسيح وتمثاله يعلو هيكلها سألت نفسي: كيف يكون هذا الضعيف المهان الذي استهزأ به اليهود وعذبوه رباًوإلهاً !؟

المفروض أن أعبد رب هذا الضعيف الهارب من بطش اليهود، وتعجبت حين علمت أن التوراة قد لعنت الصليب والمصلوب عليه وأنه نجس وينجس الأرض التي يصلب عليها، كما في (تثنية 21: 22 – 23)

وفوق هذا كله فقد كان لي جار مسلم وكنت كثير الجدل معه، وذات يـوم كلمـني عن العدل في الإسلام (في المـيراث، في الطلاق، القصـاص....) ثم سـألني هـل عنـدكم مثـل ذلك؟ فأجبت لا.. لايوجد..

وبدأت أسأل نفسي: كيف أتي رجل واحد بكل هذه التشريعات المحكمـة والكاملـة في العبادات والمعاملات بدون اختلافات؟.. وكيف عجزت مليارات اليهود والنصـاري عن إثبـات أنه مخترع؟

بالإضافة إلى هذا كله كنت أسمع أحاديث الدكتور محمـد الشـاطبي ــ وقـد كنت حينهـا طبيبا في مستشفي (صدر كوم الشقافة) ـ وقد كان دائم التحدث مع الـزملاء عن أحـاديث محمد ﷺ، وكنت في بداية الأمر أشعر بنار الغـيرة، ولكن بعـد مـرور الـوقت أحببت سـماع هذه الأحاديث التي كانت قليلة في ألفاظها كثـيرة في معانيهـا، جميلـة الألفـاظ والسـياق..

وقد شعرت وقتها أن محمدا نبي عظيم.

وكان بالقرب من عيادتى مسجد.. اقترب منه، وأخذت أنظر بداخله، فوجدته لا يشبه الكنيسة مطلقا (لا مقاعد – لا رسومات – لا ثريات ضخمة – لا سجاد فخم – لا أدوات موسيقى وايقاع – لا غناء لا تصفيق) ووجدت أن العبادة فى هذه المساجد هى الركوع والسجود لله فقط، لا فرق بين غنى وفقير يقفون جميعا فى صفوف منتظمة وقارنت بين ذلك وعكسه الذى يحدث فى الكنائس فكانت المقارنة دائما لصالح المساجد.

ثم حبب الله إلى القرآن.. فاشتريت مصحفا، وتذكرت أن صديقى أحمد الدمرداش ذكر أن القرآن: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (الواقعة:79)، فاغتسلت[1] ولم أجد غير ماء بارد وقتها، ثم قرأت القرآن، وكنت أخشى أن أجد فيه اختلافات (بعد ما ضاعت ثقتى فى التوراة والانجيل)، وقرأت القرآن فى يومين ولكنى لم أجد ما كانوا يعلموننا إياه فى الكنيسة عن القرآن.

بل رأيت أن من يكلم محمدا ﷺ يخبره أنه سوف يموت.. ولا يجرؤ أن يتكلم هكذا الا الله..

بعد كل هذا دعوت الله أن يهدين ويرشدني..

وذات يوم غلبني النوم، فوضعت المصحف بجوارى.. وقرب الفجر رأيت نورا فى جدار الحجرة، وظهر رجل وجهه مضىء اقترب منى، وأشار الى المصحف، فمددت يدى لأسلم عليه لكنه اختفى.. وقد وقع فى قلبى أن هذا الرجل هو النبى محمد ﷺ يشير الى أن القرآن هو طريق النور والهداية.

وقد كان ذلك من الأسباب الكبرى لإسلامي.

قلت: لم تكتف بما يفعل الكثير من التكتم على إسلامهم.

قال: أجل.. لقد سألت أحد المحامين عن كيفية دخول الإسلام، فدلني علي قسم الشئون الدينية لمديرية الأمن.. ولم أنم تلك الليلة التي امتلأت فيها بوساوس الشياطين.

لكني لم أهتم لها.. خرجت في السادسة صباحا ودخلت كنيسة (.. !؟) وكانت الصلاة قائمة، وكانت الصالة مليئة بالصور والتماثيل للمسيح ومريموالحواريين وآخرين إلي

---

1) ذكرنا في مناسبات كثيرة أن هذا ليس شرطا في قراءة القرآن، ومن اشترطه فقد بعد كثيرا عن الصواب، ذلك أن الاغتسال يتطلب نية بالصفة الشرعية، والنية المرادة هي التقرب إلى الله، وذلك لا يكون إلا بالإسلام.

وقد فصلنا المسألة بتفاصيلها في السلاسل الفقهية خاصة (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد)

البطرك السابق (.. !؟) فكلمتهم: (لو أنكم علي حق وتفعلون المعجزات كما كانوا يعلمونا فافعلوا أي شيء.. أي علامة أو إشارة لأعلم أنني أسير في الطريق الخطـأ).. وبـالطبع لم أجد أي إجابة.

لقد بكيت ـ حينها ـ كثيرا علي عمر طويل ضاع في عبادة هذه الصور والتماثيـل.. وبعـد البكاء شعرت أنني تطهرت من الوثنية، وأنني أسير في الطريق الصحيح طريق عبادة اللـه حقا.

أبو بكر موايبيو:

من الأسماء التي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (أبـو بكـر موايـبيو)، فسألت الغـريب عنـه، فقـال: هـذا مـارتن جـون موايبوبـو.. اسـمه الأصـلي (مـارتن جـون موايبوبو)، وقد أصبح بعد إعلانه الإسلام معروفاً باسم (الحاج أبو بكر جون موايبوبـو)، وهـو رئيس الأساقفة اللوثريِّ التنزانيِّ.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل..

قلت: كيف تم ذلك؟.. وماذا قال لك؟

قال: كنت في ذلك اليوم الذي أعلن فيه هذا الرجل إسلامه في تنزانيا.. لقد كـان ذلـك في الثالث والعشرين من شهر كانون الأوَّل لعام 1986.. أي قبل يومين من أعياد الميلاد..

لقد كنت في الكنيسة مع حشد من المصلين نستمع إليه، وهو يعـزف آلاتـه الموسـيقيَّة بطريقةٍ تثير مشاعر الجميع.. ولم نكن نعرف ذلك الحين ما يجول في خاطر الأسقف.

فجأة نهض، وأعلن إسلامه بقوة لا نظير لها، وكأنه يتحدانا، أو كأنـه يتحـدى نفسـه الـتي كانت تحول بينـه وبين ذلـك الإعلان.. أو كأنـه يتـذكر يـوم الزينـة الـذي فاجـأ فيـه السـحرة فرعون والناس جميعا بإعلان إسلامهم لله.

ما إن فعل ذلك حتى وقع حشـد المصـلِّين في حالـة شـللٍ تـامٍّ للصـدمة الَّتي أصـابتهم لسماع هذا الخبر، إلى درجة أنَّ مساعد الأُسقف قـام من مقعـده فـأغلق البـاب والنوافـذ، وصرَّح لأعضاء الكنيسة بأنَّ رئيس الأساقفة قد جُنّ.

وفورا اتَّصلوا بقوات الأمن لأخذ الرَّجل المجنون.. فجاءوا، وتحفَّظـوا عليـه في الزنزانـة حتَّى منتصف الليل، إلى أن جـاء الشَّـيخ أحمـد شـيخ ــ وهـو الرَّجـل الَّذي حثَّه على دخـول الإسلام ـ وكفله لإطلاق سراحه.

ولم يكن ذلك إلى بداية للآلام الكثيرة التي تعرض لها..

لقد تعرفت هناك على صحفي اسمه (سيمفيوي سيسانتي)، وهو صـحفيٌّ من صـحيفة القلم، وقد أخبرني بلقائه به، وقد ذكر لي أن هذا الأسقف لم يكن رجلا عاديا، ولا رجل دين بسيط..

فهو لم يحصل فقط على شـهادتي البكـالوريوس والماجسـتير في اللاهـوت، بـل لديـه شهادة الدكتوراه في اللاهوت والتي حصل عليها من الإدارة الكنسيَّة من إنجلترا، بالإضــافة إلى باقي الدَّرجات العلميَّة التي حصل عليها من برلين في ألمانيا.

ولهذا المستوى العلمي نصب أمينا عامـا لمجلس الكنـائس العـالميِّ لشـؤون إفريقيـا ـ والتي تشمل تنزانيا وكينيا وأوغندا وبوروندي وأجزاء من أثيوبيا والصُّـومال ــ وكـان منصـبه في مجلس الكنائس يفوق الرئيس الحـاليَّ للجنـة حقـوق الإنسـان الجنـوب إفريقيَّة بـارني بيتيانا، ورئيس لجنة المصالحة الوطنيَّة الأُسقف ديسموند توتو.

وذكر لي أن الرجلٍ وُلد قبل 61 عاماً في بوكابو، وهي منطقةٌ على الحـدود مـع أوغنـدا من عائلة اهتمت بتنشئته تنشئة دينية، فبعد سنتيْن من ولادته قامت عائلتـه بتعميـده؛ وبعـد خمس سنواتٍ كانت تراقبه بفخرٍ وهو يصبح خادم المذبح في القُدَّاس.

وقد أخبر أبو بكر عن رغبة والده في انضمامه للكنيسة، وقد حصـل هـذا في الخامسـة والعشرين من عمره، حيث استسلم لرغبة والده الـذي كـان يقـول لـه: (يـا بـنيّ، قبـل أن أغمض عيني (أموت)، سأكون مسروراً إنْ أصبحتَ راهباً)

وهذا القرار هـو الَّذي قـاده إلى إنجلـترا عـام 1964 للحصـول على الـدبلوم في إدارة الكنائس؛ وبعد ذلك بسنةٍ سار إلى ألمانيا للحصول على البكـالوريوس، وبعودتـه بعـد عـامٍ أصبح أُسقفاً عاملاً، وفيما بعد رجع ليحصل على الماجستير.

وقد كان إلى هذا الوقت مقلدا محضا، ولكنه في أثناء تحضير للـدكتوراه بـدأ يخـرج من ربقة التقليد، وقد ذكر لي أنه قال له: (بدأت أتساءل باندهاش، فهناك المسـيحيَّة والإسـلام واليهوديَّة والبوذيَّة، وكلُّ دينٍ منها يدَّعي أنَّه الحقّ؛ فما هي الحقيقة؟ كنت أريد الحقيقة)

وهكذا بدأ بحثه حتى اختزله إلى الأديـان الرئيسـيَّة الأربعـة.. ثم حصـل على نسـخةٍ من القرآن الكريم..

وقد ذكـر موايبوبـو ذلـك قـائلاً: (حين فتحت القـرآن الكـريم، كـانت الآيـات الأولى الَّتي أقرأها هي سورة الإخلاص: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4)

وقد كانت هذه الآيات هي البذور التي نبتت بها بعد ذلك شجرة إسلامه.. وفي ذلك الوقت اكتشف بأنَّ القرآن الكريم هو الكتاب المقدَّس الوحيد الَّذي لم يحصل له أي تشويه.

قال: (وهذا ما قُلْته كخاتمةٍ في رسالتي للدكتوراه. ولم يكن يهمُّني إنْ كانوا سيمنحوني الدكتوراه أم لا، لأنَّ هذه هي الحقيقة؛ وأنا كنت أبحث عن الحقيقة)

وفي حالته الذهنيَّة هذه، ذهب إلى أُستاذه المحبوب فان بيرغر، وقد أخبر عن نص الحوار الذي جرى بينهما، فقال: (أغلقت الباب، ثمَّ نظرت إليه في عينيه، وسألته: من كلِّ الأديان الَّتي في الدُّنيا، أيُّها هو الدِّين الحقّ؟ فأجابني: (الإسلام)، فسألته: (فلماذا أنت إذاً لست مسلماً؟) فقال لي: (أوَّلاً: أنا أكره العرب؛ وثانياً: هل أنت ترى كلَّ هذا الترف الَّذي أنعم فيه؟ فهل تعتقد بأنِّي سأتخلَّى عن كلِّ ذلك من أجل الإسلام؟) وعندما تفكَّرت بجوابه، بدأت أتفكَّر بحالتي الخاصَّة أيضاً)

فمنصب موايبوبو، وسياراته، كلُّ ذلك خطر على باله.. ولذلك لم يستطيع إعلان إسلامه.. وهكذا ظل لسنةٍ كاملةٍ ممتلئا بهذه المخاوف إلى أن استطاع أن يقف في وجهها في تلك اللحظة الحرجة.

وقد ذكر لهذا الصحفي عن فضل الله الذي تداركه برُؤى بدأت تلاحقه، وآياتٌ من القرآن الكريم دوامت على الظُّهور أمامه، وأُناسٌ موشحون بالبياض يأتون إليه، خاصَّةً في أيَّام الجُمَع، حتَّى لم يستطع أن يقاوم أكثر.

قلت للصحفي: ألم تكن تلك الرؤى.. ومخاوفه منها ترجع للطَّبيعة الخُرافيَّة للأفارقة؟

قال لي الصحفي: لقد سألت موايبوبو هذا السؤال، فأجابني: لا؛ لا أظنُّ بأنَّ كلَّ الرُؤى سيِّئة.. فإنَّ هناك تلك الرُؤى الَّتي تهديك للاتجاه الصَّحيح، وتلك الَّتي لا تفعل ذلك.. أمَّا هذه -على وجه الخصوص- فقد قادتني إلى الطَّريق الصَّحيح، إلى الإسلام)

بعد فترة سمعت بما حصل لهذا الأسقف نتيجة إشهار إسلامه، فقد علمت بأن الكنيسة قامت بتجريده من بيته وسياراته، ولم تستطع زوجه تحمُّل ذلك، فحزمت حقائبها وأخذت أولادها وتركته، وذلك على الرغم من تأكيد موايبوبو لها بأنَّها ليست مُلزمةً بدخول الإسلام. وعندما ذهب إلى والديه، الَّلذيْن كانا أيضاً قد سمعا بقصَّته، وقد طلب منه أبوه انتقاد الإسلام علانيةً، ومثل ذلك أمه، ولكنه ظل ثابتا على موقفه.

بعد أن أصبح وحيدا اضطر إلى الرحيل حيث تنتمي عائلته أصلاً على الحدود بين تنزانيا ومالاوي.. وخلال رحلته جَنَح إلى بروسيل حيث التقى بزوجته، وهي راهبةٌ كاثوليكيَّةٌ اسمها الأخت (جيرترود كيبويا)، وهي تُعرف الآن باسم الأخت زينت، ومعها سافر إلى كاييلا، حيث أخبره العجوز الَّذي منحه المأوى في الليلة السَّابقة بأنه هناك سيجد مسلمين آخرين، ولكن قبل ذلك، وفي صباح ذلك اليوم رفع الآذان للصَّلاة، وهو الشيء الَّذي جعل القرويِّين يخرجون من منازلهم سائلين المضيف كيف يؤوي رجلاً مجنوناً.

لكن الراهبة ـ التي تزوج بها بعد ذلك ـ هي التي صرفت عنهم هذه النظرة، وقد كانت هي الَّتي ساعدته فيما بعد على دفع النَّفقات العلاجيَّة لمشفى الإرساليَّة الأنجليكانيَّة حين كان مريضاً جدّاً.

وأخبرني أنه سألها: لماذا ترتدي الصَّليب في سلسلةٍ على صدرها، فكان أن أجابت بأنَّ ذلك لأنَّ المسيح قد صُلب عليه، وقد رد عليها بأنه (لنَقُل أن أحدهم قتل أباك ببندقيَّةٍ، فهل كنت ستتجوَّلين حاملةً البندقيَّة على صدرك؟)

لقد جعل ذلك الراهبة تفكِّر.. وحين عرض عليها الأُسقف الزواج لاحقاً، كان جوابها بالإيجاب، فتزوَّجا سرّاً، وبعد أربعة أسابيع كتبت إلى مسؤوليها تُعلِمهم بأنَّها تركت الرَّهبنة.

وقد سمع الشَّيخ الَّذي قدَّم لهما المأوى ـ وهو خال الرَّاهبة ـ بهذا الزواج؛ وفي لحظة وصولهما إلى بيته نُصحا بالهرب، لأنَّ الشَّيخ كان يُعبِّىء بندقيَّته، وكان والد الرَّاهبة غاضباً ومتوحِّشاً كالأسد.

انتقل موايبوبو من رفاهية منزل رئيس الأساقفة ليعيش في بيتٍ مبنيٍّ من الطِّين، وبدلاً من راتبه الكبير كعضوٍ في المجلس الكنسيِّ العالميِّ كأمينٍ عامٍّ لشرق إفريقيا، بدأ بكسب قوته كحطَّابٍ، وحرَّاثٍ لأراضي الآخرين.

وفي الأوقات الَّتي لم يكن يعمل فيها كان يدعو إلى الإسلام علانية، ممَّا قاده إلى سلسلةٍ من الأحكام القصيرة بالسِّجن لعدم احترام المسيحيَّة.

وحين كان يؤدِّي فريضة الحجِّ في عام 1988، حدث بلاء آخر، حيث فُجِّر بيته، وترتب على ذلك قتل أطفاله التوائم الثلاثة.

وقد ذكر أن من المتسببين في ذلك الأُسقف ـ الذي هو ابن خالته ـ ويذكر أنَّه بدلاً من أن يحبطه ذلك فقد فعل العكس، لأنَّ عدد الَّذين كانوا يعلنون إسلامهم كان يزداد، وهذا يشمل حماه أيضاً.

وفي عام 1992 اعتُقِل لمدَّة عشرة أشهرٍ مع سبعين من أتباعه، اتَّهموا بالخيانة، وكـان ذلك بعد تفجير بعض محلات بيـع لحم الخـنزير الَّتي كـان قـد تحـدَّث ضـدَّها(1)، وبعـد ذلـك مباشرةً هاجر إلى زامبيا منفيّاً؛ وذلك بعد أن نُصِحَ بأنَّ هناك مؤامرة لقتله.

وذكر بأنَّه في كلِّ يومٍ كان يُطلق فيه سراحه، كانت الشرطة تأتي لتعتقله مُجدَّداً، يقول موايبوبو: (لقد قالت النِّساء بأنَّهن لن يسمحن بـذلك! وبـأنَّهم سـيقاومن اعتقـالي من قبـل قوات الأمن بأجسادهن، وكانت النِّساء أيضاً هنَّ اللواتي ساعدنني على الهرب عبر الحــدود مُتخفياً؛ فقد ألبسنني ملابس النِّساء!)

وهذا هو أحـد الأسـباب الـتي جعلتـه يُقـدِّر دور النِّسـاء: (يجب أن تُعطى النِّسـاء مكانـةً رفيعـةً، وأن يُمنحن تعليمـاً إسـلاميّاً جيِّداً، وإلا فكيـف يمكن للمـرأة أن تتفهَّم لمـاذا يـتزوَّج الرَّجل أكثر من امرأةٍ واحدة.. لقد كانت زوجي زينب هي من اقـترحت عليَّ بـأنِّي يجب أن أتزوَّج بزوجي الثَّانية ـ صديقتها شيلا ـ حين كان يتوجَّب عليهـا السَّـفر إلى الخـارج من أجـل الدِّراسات الإسلاميَّة)

وقد صادف أن لقيته مرة بعد هذا، وهو يخطب في جمع من المسلمين، وهو يقول لهم ناصحا: (إنَّ هناك حربـاً على الإسـلام.. وقـد أغرقـوا العـالم بالمطبوعـات.. والآن بالتحديـد يعملـون على جعـل المسـلمين يشـعرون بالعـار بوصـفهم لهم بالأُصـوليِّين، فيجب على المسلمين ألا يقفوا عند طموحـاتهم الشَّخصـيَّة، ويجب عليهم أن يتَّحـدوا، فعليـك أن تـدافع عن جارك إن كنت تريد أن تكون أنت في أمان)

سمعته يقول ذلك، وهو يحضُّ المسلمين على أن يكونـوا شـجعاناً، مُستشـهداً بـالمركز الإسلاميِّ العالميِّ للدَّعوة وبدور الشَّيخ أحمد ديـدات الـذي كـان شـديد الإعجـاب بـه، وقـد سمعته يقول عنه يخاطب المسلمين: (ذلك الرَّجـل ليس مُتعلِّمـاً، لكن انظـر إلى الطَّريقـة الَّتي ينشر بها الإسلام)

الراهب ماركو كوربس:

من الأسـماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (الـراهب مـاركو كوربس)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجـل من الفلـبين، وقـد صـادفته في رحلـة من رحلاتي، فرأيته شديد الحماس للإسلام، متألما لما مضى من عمره بعيدا عنه، وقد لاحظت في حديثه نفحة الصدق التي حدثني عنها معلم السلام، فرحت أسأله عنه، وعن سـر ذلـك

---

1) لا نرى من النصح للإسلام أن يتحدث المسلم في الأرض التي فيها غير مسـلمين عن مثـل هـذه المواضيع، فـذلك يشوه صورة الإسلام من جهة، ويعرض المسلمين الذين قد يشكلون أقلية للأذى من جهة أخرى.

وقد نصح ﷺ معاذا عن مواضيع الدعوة وتدرجها.. وذلـك هـو الأسـلوب النبـوي الأمثـل، انظـر في هـذا رسـالة (النـبي الهادي) من هذه السلسلة.

الجرص على الدعوة للإسلام، فقال:

كنت من طائفة وثنية.. وكان جدي وعمتي مُعالِجَيْن روحانيَّيْن يعبـدان الأصـنام والأرواح، وقد شهدت الكثير من المرضى الَّذين جاءوا إليهمـا من أجـل العلاج، وكيـف كـانوا يـبرأون، ولذلك فقد تسبَّبا في اتباعي ما يؤمنان به.

وعندما وصلت السابعة عشرة من عمري، لاحظت بأنَّ هناك الكثـير من الأديـان، والَّتي تحوي أنواعاً مختلفةً من التعاليم، وكلٌّ منها يدَّعي بأنَّه الدِّين الحقّ.

عندها تسـاءلت: (هـل يتـوجَّب عليَّ أن أبقى على دين عـائلتي، أم أنِّي يجب أن أُجـرِّب الاستماع إلى الأديان الأخرى؟)

وفي أحد الأيام دعاني ابن عمي لحضور عيـد الخميس في الكنيسـة، وكـان دافعي هـو مشاهدة مـا يفعلونـه داخـل الكنيسـة، فشـاهدتهم يغنُّون، ويصـفِّقون، ويرقصـون، ويبكـون رافعين أيديهم في دعائهم ليسوع.. ثم قـام الـراهب بالوعـظ بخصـوص الإنجيـل.. ثم ذكـر الفقرات الأكثر شيوعاً، والَّتي يقتبسها كلُّ المبشِّرين، وهي تلك الَّتي تتعلَّق بأُلوهيَّة المسـيح مثل ما في (يوحنا 1:12، ويوحنا 3:16، ويوحنا 8:31-32)، وفي ذلـك الـوقت، ولـدت من جديد كمسيحيّ، وقَبِلْتُ يسوع المسيح إلها ومُخلِّصا.

كـان أصـدقائي يـزورونني كـلَّ يـومٍ للـذهاب إلى الكنيسـة، وبعـد شـهرين تمَّ تعميـدي، فأصبحت عضواً منتظماً في صلاتهم، وبعد مرور خمسة أعوام، أقنعـني راهبنـا بالعمـل في الكهنوت كعاملٍ متطوِّع، ثم أصبحت المنشد الرئيسي، ثم القائد في الصَّـلاة، ثم معلِّمـاً في مدرسة الأحد، ثم أصبحت أخيراً راهباً رسميّاً في الكنيسة.

وكان عملي خاضعاً لبعثة التبشير الإنجيليَّة القرويَّة الحرَّة (.. !؟) وهي بعثةٌ تبشيريَّة مثل بعثة (يسوع هو الله)، و(الناصري)، و(خبز الحياة).. وغيرها من الجمعيات.

بدأت تعليم الناس الإنجيل وتعاليمه، وأجبرت نفسي على حفظ أجـزاءٍ وآيـاتٍ منـه عن ظهر قلبٍ من أجل الدِّفاع عن الدِّين الَّذي كنت أُومن به.

وقد أصبحت فخوراً بنفسي لهـذا المنصـب الَّذي حظيت بـه، وكنت غالبـاً مـا أرى أنِّي لا أحتاج إلى أيِّ تعاليم أو نصوص أخرى عدا الإنجيل، ولكن مع ذلك، كـان هنـاك فـراغٌ روحيٌّ في داخلي.

صلَّيت، وصُمْت، واجتهدت لإرضاء مشيئة الإله الَّذي كنت أعبده، ولم أكن أجد السـعادة إلَّا عندما كنت أتواجد في الكنيسـة.. لكن هـذا الشـعور بالسـعادة لم يكن مسـتمرّاً، وحـتى

عندما كنت أتواجد مع عائلتي.

ومما زاد في آلامي هذه أنَّ بعض أصدقائي من الرُّهبان ماديُّون، فهم يغمسون أنفسهم في الشهوة الجسديَّة والفساد، والتعطُّش للشهرة.

وعلى الرغم من كلِّ ذلك فقد واصلت مقلدا اعتناقي الدِّين بقوَّة، وذلك لأنني كنت أعرف ـ حسب ما تقوله التعاليم ـ بـ (أنَّ الكثيرين يُدْعَوْن، ولكنَّ القليل منهم يُخْتارون)

كنت دوماً أُصلِّي ليسوع المسيح ليغفر لي ذنوبي، وكذلك ذنوبهم، فقد كنت أظنُّ بأنَّه هو الحلُّ لكلِّ مشكلاتي، ولذلك فإنَّه يستطيع الاستجابة لكلِّ دعائي.

مع ذلك ـ وبالنظر إلى حياة زملائي من الرُّهبان ـ لا تستطيع أن تجد بينهم أمثلةً جيّدةً مُقارنةً بالرعيَّة الَّتي يعظونها، وهكذا بدأ إيماني يخفت، وناضلت بصعوبة بالغة على العمل في خدمة الصَّلاة الجماعيَّة.

في أحد الأيام، فكرت في السفر إلى الخارج، وليس ذلك من أجل العمل فقط، بل ـ وأهم من ذلك ـ من أجل نشر اسم يسوع كإله ـ بناء على قناعتي في ذلك الوقت ـ وكان في خطتي الذهاب إمَّا إلى تايوان أو كوريا، إلَّا أنَّ مشيئة الله تعالى كانت في حصولي على تأشيرة عملٍ في بلد مسلم، ووقَّعت في الحال عقداً لمدَّة ثلاثة أعوام للعمل فيه.

بعد أسبوع من وصولي لاحظت أُسلوب الحياة المختلف، كاللغة، والعادات والتقاليد، حتى الطعام الَّذي يأكلونه، فقد كنت جاهلاً تماماً بثقافات الآخرين.

والحمد لله، فقد حدث أن كان لديَّ زميلٌ فلبينيٌّ في المصنع، وهو مسلمٌ يتكلَّم العربيَّة، لذلك -ومع أنِّي كنت متوتِّراً، إلَّا أنِّي حاولت سؤاله عن المسلمين، وعن دينهم ومعتقداتهم. فقد كنت أعتقد بأنَّ المسلمين من عُتاةِ القَتَلة، وأنَّهم يعبدون الشيطان والفراعنة ومحمَّداً كآلهةٍ لهم ـ وحدَّثته عن إيماني بالمسيح، وكردٍّ فعلٍ على ذلك أخبرني أنَّ دينه يختلف تماماً عن ديني، واقتبس لي آيتيْن من القرآن الكريم كانهتا المفتاح الأول لإسلامي:

أما الأولى، فمن سورة المائدة، وهي الآية الَّتي جاء فيها: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ (المائدة:3)

وأما الثانية، فمن سورة يوسف: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:40)

لقد أصابتني هاتان الآيتان بصدمةٍ قويَّة.. كانت هي البداية لإسلامي.

بعد ذلك بدأت بملاحظة حياة صاحبي المسلم.. وكلّ يومٍ كنَّا نتحـدث.. كـلّ منـا يتحـدث عن دينه، حتى أصبحنا في النِّهاية صديقيْن حميميْن.

وفي إحدى المناسبات ذهبنا إلى البلد لإرسـال بعض الرسـائل. وهنـاك حـدث أن رأيت جمهرةً من أُناسٍ كثيرين يشاهدون فيلماً لمناظرةٍ لأحد أفضل المبشِّرين لديّ.

وقد أخبرني صديقي المسلم بأنَّ هذا الَّذي أدعوه بأفضل مبشِّرٍ لديّ كان الشـيخ أحمـد ديدات، وهو داعيةٌ إسلاميٌّ مشهور، فأخبرته بأنَّ رهباننا في الوطن جعلونا نعتقد بأنَّه مبشِّـرٌ عظيمٌ فقط؛ وأخفـوا عنَّا شخصـيَّته الحقيقيَّة بأنَّه داعيـةٌ مسـلم، ومهمـا كـانت نيَّتهم، فإنَّهـا بالتأكيد كانت لإبعادنا عن معرفة الحقيقة.

على الرغم ممَّا عرفته، فقـد اشـتريت أشـرطة الفيـديو، وبعض الكتب أيضـاً لأقـرأ عن الإسلام.

وفي مكـان إقامتنـا، حـدَّثني صـديقي عن قصـص الأنبيـاء، وكنت حقيقـةً مُقتنعـاً، لكنَّ كبريائي أبقاني بعيداً عن الإسلام.

وبعد مُضيِّ سبعة أشـهر، حضـر إليَّ في غرفـتي صـديقٌ آخـر، وهـو مسـلمٌ من الهنـد، وأعطاني نسخةً من ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزيَّة. وفيما بعد قادني إلى البلد، ثم اصطحبني إلى المركز الإسلاميّ.

هناك قابلت أحد الإخوة الفلبينيِّين؛ ودار بيننا نقـاشٌ حـولٍ بعض المسـائل الدينيَّة، وقـام بربط ذلك بمقارنةٍ لحياته قبـل الإسـلام ــ حين كـان مسـيحيّاً ــ وبعـده؛ ثم شـرح لي بعض تعاليم الإسلام.

وفي تلك الليلة المباركة، دخلت الإسلام، وأعلنت دخولي الإسلام بترديد الشهادتين)

سـرد لي قصـته، ثم قـال: كنت سـابقاً أتَّبـع دينـاً أعمى، أمَّا الآن فـإنِّي أرى الحقيقـة المطلقة، وهي أنَّ الإسلام هو الطريقة الأفضل والكاملة للحياة المصمَّمة لكلِّ البشريَّة.

الدكتور جاري ميلر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (الدكتور جاري ميلر) [1]،

1) هو الدكتور جاري ميلر (عبد الأحد عمر) عالمٌ في الرياضيات واللاهوت المسيحيِّ ومُبشِّرٌ سابق، وقد كان الـدكتور ميلر في إحدى فترات حياته نشطاً في التبشير المسيحيّ، ولكنَّه بدأ مبكِّراً باكتشاف تناقضاتٍ كثيرةٍ في الإنجيل.

وفي سنة 1978، حصـل أن قـرأ القـرآن الكـريم مُتوقِّعـاً بأنَّه أيضـاً سـيحوي خليطـاً من الحقيقـة والزَّيْـف. لكنَّه ذهـل باكتشافه أنَّ رسالة القرآن الكـريم كـانت مُطابقـةً لنفس جـوهر الحقيقـة الَّتي استخلصـها من الإنجيـل. فـدخل الإسـلام، ومنذئذ أصبح نشـطاً بتقديمـه للنـاس، بمـا في ذلـك اسـتخدام المـذياع والـبرامج التلفازيَّة. وهـو أيضـاً مؤلِّفٌ للعديـد من المقالات والنشرات الإسلاميَّة، نذكر منها:(ردٌّ موجَزٌ على المسيحيَّة – وجهة نظر المسلم"،و"القـرآن العظيم"،و"خـواطر

فسألت الغريب عنه، فقال: قال: هذا (جاري ميلر).. أو كما يحب أن يسمى (عبد الأحد عمر).. وهو كندي الأصل.. وقد كان قسيساً نشيطا يدعو للمسيحية، بالإضافة إلى اهتمامه بالرياضيات.. بل كونه عالما فيها.

وقد كان أول لقاء لي معه أني كنت في ساحة (.. !؟) أستمع إليه، وهو يتوجه بخشوع للملتفين حوله يقول لهم: أيها المسلمون، لو أدركتم فضل ما عندكم علي ما عند غيركم لحمدتم الله أن أنبتكم من أصلاب مسلمة ورباكم في محاضن المسلمين وأنشأكم علي هذا الدين العظيم.

ثم أضاف: إن معني النبوة، ومعني الألوهية، ومعني الوحي، ومعنى الرسالة، ومعنى البعث، ومعنى الحساب.. كل تلك المعاني ليست إلا عندكم.. والفرق بين ما عندكم فيها، وما عند غيركم، كالفرق مابين السماء والأرض.

بعدما انتهى من خطابه الذي يفيض من قلب ممتلئ بالخشوع الصادق اقتربت منه لأتنسم سر رائحة الصدق التي نبعت من كلامه.

قال لي: لقد جذبني لهذا الدين وضوح العقيدة، ذلك الوضوح الذي لا أجده في عقيدة سواها.

قلت: هذه الجملة.. فما التفاصيل؟

قال: لقد كنت أحب الرياضيات حبا شديدا.. وقد كان سر حبي لها هو حب المنطق أو التسلسل المنطقي للأمور..

قلت: فهل قادتك الرياضيات للإسلام؟

قال: تستطيع أن تقول ذلك.. في يوم من الأيام أردت أن أطبق المنهج المنطقي مع القرآن.. لقد قرأته بحثا عن بعض الأخطاء التي تعزز موقفي عند دعوتي للمسلمين للمسيحية... وكنت أتوقع أن أجد القرآن كأي كتاب بشري تلوح عليه آثار المؤلف، وآثار البيئة التي أبدع فيها.

قلت: فما وجدت؟

قال: وجدت ما بهرني.. لقد وجدت أن القرآن ذلك الكتاب القديم الذي كتب منذ 14 قرنا لا يتكلم عن الصحراء ولا عن البيئة العربية.. بل ولا عن محمد وحياة محمد كشأن

حول (براهين) أُلوهيَّة المسيح"،و"أُسُسُ عقيدة المسلم"،و"الفرق بين الإنجيل والقرآن"،و"المسيحيَّة التبشيريَّة – تحليلٌ لمسلم".

الكتاب المقدس عندنا.. بل هو كتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم.

كنت أتوقع أن أجد بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة أو وفاة بناته وأولاده.. لكني لم أجد شيئا من ذلك.

بل وجدت فوق ذلك.. وهو ما أوقعني في حيرة عظيمة.. أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم، وفيها تشريف لمريم ـ عليها السلام ـ ولا يوجد مثيل لها في كتب المسيحيين ولا في أناجيلهم.. وفي نفس الوقت لم أجد سورة باسم عائشة أو فاطمة.

ومثل ذلك وجدت أن عيسى عليه السلام ذكر بالاسم 25 مرة في القرآن في حين أن النبي محمد ﷺ لم يذكر إلا 4 مرات فقط.

ثم أخذت أقرأ القرآن بتمعن أكثر لعلي أجد مأخذا عليه.. لكني لم أجد إلا ما يبهرني:

لقد قرأت مرة قوله تعالى: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (النساء:82)، فملأتني بالحيرة.. فمن المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها Falsification test.. والعجيب أن القرآن الكريم يدعوا المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا.

ومع كثرة بحوثي ومطالعاتي لم أجد مؤلفا في العالم يمتلك الجرأة، ليؤلف كتابا، ثم يقول عنه (هذا الكتاب خالي من الأخطاء).. ولكن القرآن على العكس تماما لا يقول لك (لا يوجد أخطاء) فقط، بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء، ولن تجد.

ومن الآيات التي استوقفتني، وبهرتني: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (الانبياء:30)

لقد وجدت أن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام 1973، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب.. فالرتق هو الشي المتماسك في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك [1] ..

ومن الآيات التي استوقفتني قوله تعالى:وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي

1) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية في (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(211)﴾ (الشعراء)، وقوله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل:98)

التفت إلي، وقال: أرأيت.. هل هذه طريقة الشيطان في كتابة أي كتاب.. يؤلف كتابا، ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب يجب عليك أن تتعوذ مني.

إن هذه الآيات من الأمور الإعجازية في هذا الكتاب المعجز.. وفيها رد منطقي لكل من قال بهذه الشبهة.

ومن السور التي استوقفتني سورة المسد:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)﴾ (المسد)

لقد علمت أن هذا الرجل أبا لهب كان يكره الإسلام كرها شديدا، لدرجة أنه كان يتبع محمدا ﷺ أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله الرسول ﷺ.. فإذا رأى الرسول ﷺ يتكلم إلى أناس غرباء، فإنه ينتظر حتى ينتهي الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟.. لو قال لكم أبيض، فهو أسود، ولو قال لكم ليل فهو نهار.

وقبل 10 سنوات من وفاة أبي لهب نزلت هذه السورة، وهي تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار ، أي بمعنى آخر أنه لن يدخل الإسلام.

وخلال عشر سنوات كاملة كل ما كان على أبي لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول: (محمد يقول أني لن أسلموسوف أدخل النار، ولكني أعلن الآن أني أريد أن أدخل في الإسلام وأصبح مسلما.. الآن مارأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟هل الوحي الذي يأتيه وحي إلهي؟)

لكن أبا لهب لم يفعل ذلك، مع أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول ﷺ لكنه لم يخالفه في هذا الأمر.

لقد كانت لدية عشر سنوات ليهدم الإسلام بدقيقة واحدة، ولكن لأن هذا الكلام ليس كلام محمد ﷺ ولكنه وحي ممن يعلم الغيب ويعلم أن أبا لهب لن يسلم فإن أبا لهب لم يسلم.

كيف لمحمد ﷺ أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما في السورة إن لم يكن هذا وحيا من الله؟.. بل كيف يكون واثقا خلال عشر سنوات كاملة أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحيا من الله؟

لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا معنى واحد هذا وحي من الله[1].

وقد ذكر لي هذا الدكتور الفاضل أن من المعجـزات الغيبيـة الـتي اسـتوقفته، وجعلتـه يراجع نفسه التحدي القرآني للمستقبل بأشـياء لايمكن أن يتنبـأ بهـا الإنسـان وهي خاضـعة لنفس الاختبار السابق ألا وهو Falsification tests أو مبدأ إيجاد الأخطـاء حـتى تتـبين صـحة الشيء المراد اختباره.

فالقرآن ـ مثلا ـ يذكر أن اليهود هم أشد النـاس عـداوة للمسـلمين، وهـذا مسـتمر الى وقتنا الحاضر، فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود.

وهذا يعتبر تحديا عظيما، ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيط ألا وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين، ويقولون عندها: (ها نحن نعـاملكم معاملـة طيبة، والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم ، إذن القرآن خطـأ!، ولكن هـذا لم يحـدث خلال 1400 سـنة !! ولن يحـدث، لأن هـذا الكلام نـزل من الـذي يعلم الغيب وليس كلام إنسان)

التفت إلي، وقال: هـل رأيت أن الآيـة الـتي تتكلم عن عـداوة اليهـود للمسـلمين تعتـبر تحديا للعقول، فاللـه تعـالى يقـول: ﴿ لَتَجِـدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَـوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّا نَصَـارَى ذَلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة:82)

ومن الآيات التي ذكر لي هذا الدكتور الفاضل أنها استوقفته تلك الآيات الـتي تنـبئ عن وحي الله لرسول الله ﷺ بما في القرآن من الغيوب.. فالله تعـالى يقـول: ﴿ ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُـونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُـلُ مَـرْيَمَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران:44)، ويقول: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَـا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود:49)، ويقول: ﴿ ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (يوسف:102)

لقد قال لي الدكتور ميلر بعـد أن قـرأ علي هـذه الآيـات: (لا يوجـد كتـاب ممـا يسـمى بالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كـل الكتب الأخـرى عبـارة عن مجموعـة من المعلومات التي تخبرك من أين أتت هذه المعلومات ، على سبيل المثال الكتاب المقـدس عندما يناقش قصص القدماء فهو يقول لك الملـك فلان عـاش هنـا وهـذا القائـد قاتـل هنـا معركة معينة وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء وأسماءهم فلان وفلان..

1) انظر المزيد من النبوءات الغيبية وتفاصيلها في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

والكتاب المقدس دائما يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أوالكتاب الفلاني لأن هذه المعلومات أتت منه.

وهذا كله بعكس القرآن الذي يمد القارىء بالمعلومة، ثم يقول: لك هذه معلومة جديدة.. بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت مترددا في صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقل بشر.. والمذهل في الأمر هو أهل مكة في ذلك الوقت ـ أي وقت نزول هذه الآيات ـ ومرة بعد مرة كانوا يسمعونها ويسمعون التحدي بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها محمد ﷺ ولا قومه ،، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديدا بل نحن نعرفه ، أبدا لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا: نحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات ، أيضا لم يحدث مثل هذا ، ولكن الذي حدث أن أحدا لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليه لأنها فعلا معلومات جديدة كليا، وليست من عقل بشر، ولكنها من الله الذي يعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل)

قلت: أرى أن النبوءات التي ملأتك بالانبهار في القرآن؟

قال: ليست وحدها.. بل كل القرآن بهرني.. كل آية من آياته، بل كل كلمة من كلماته..

أذكر أنه قبل بضع سنوات، وصلتنا قصَّةٌ إلى تورونتو بكندا عن رجلٍ كان بحَّاراً في الأسطول التجاريّ، ويكسب رزقه من عمله في البحر، وقد أعطاه أحد المسلمين ترجمةً لمعاني القرآن الكريم ليقرأها، ولم يكن هذا البحَّار يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام، لكنَّه كان مهتمّاً بقراءة القرآن الكريم. وعندما أنهى قراءته، حمله وعاد به الى المسلم الَّذي أعطاه إياه، وسأله: (مُحمَّدٌ هذا.. أكان بحَّاراً؟)، فقد كان الرجل مندهشاً من تلك الدِّقَّة الَّتي يصف بها القرآن العاصفة على سطح البحر. وعندما جاءه الردُّ: (لا، في الحقيقة لم يكن. فمحمَّدٌ عاش في الصَّحراء)

لقد كان هذا كافياً له ليُعلن إسلامه على الفور، لقد كان مُتأثِّراً جدّاً بالوصف القرآنيِّ للعاصفة البحريَّة، لأنَّه بنفسه كان مرَّةً في خِضَمِّها، وكان لذلك يعلم أنَّه أيّاً من كان الَّذي كتب هذا الوصف، فإنَّه لا بُدَّ وقد عاش هذه العاصفة بنفسه، فالوصف الَّذي جاء في القرآن عن العاصفة لم يكن شيئاً يستطيع أن يكتبه أيُّ كاتبٍ من محض خياله، والموج الَّذي من فوقه موجٌ من فوقه سحاب لم يكن شيئاً يمكن لأحدهم تخيُّله والكتابة عنه، بل إنَّه وصفٌ كتبه من يعرف حقّاً كيف تبدو العاصفة البحريَّة.

التفت إلي، وقال: هذا مثلٌ واحدٌ على أنَّ القرآن ليس مرتبطاً بزمان أو مكان، ومن المؤكد أنَّ الإشارات العلميَّة الَّتي يُعبِّر عنها لا يمكن أن يكون أصلها من الصَّحراء قبل أربعة عشر قرناً مضت.

لقرونٍ عدَّةٍ قبل ظهور رسالة محمَّدٍ ﷺ، كانت هناك نظريَّةٌ معروفـةٌ عن الـذرَّة وضـعها الفيلسوف اليونـاني ديموقريتـوس، فهـذا الفيلسـوف والَّذين جـاءوا من بعـده افترضـوا أنَّ المادَّة تتكوَّن من دقـائق صـغيرةٍ غـير مرئيَّةٍ وغـير قابلـةٍ للانقسـام تسـمى الـذرَّات. وكـان العرب أيضاً قد أَلِفُوا هذا المفهوم، فكانت في الواقـع كلمـة (ذرَّة) في العربيَّة تعـني أصـغر جزءٍ كان معروفاً للإنسان.

أمَّا الآن فإنَّ العلم الحديث قد اكتشف بأنَّ هذه الوحدة الأصغر للمادَّة ـ وهي الذرَّة الَّتي تحمل نفس خصائص المادة الَّتي تنتمي إليها ـ يمكن تقسيمها إلى مُكوِّناتها.

وهذه حقيقةٌ جديدةٌ تُعدُّ نتاجاً للتطوُّر في القرن الماضي، فمن المثـير جـدّاً للاهتمـام أنَّ هذه المعلومة كانت قد وُثِّقت فعلاً في القرآن الكريم قبل ذلـك بأربعـة عشـر قرنـاً، والَّذي يقول الله تعالى فيه: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّـمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس:61)

فبلا أدنى شك أنَّ مثل هذا التصريح لم يكن شيئاً مألوفاً حتَّى للعربيِّ في ذلـك الـوقت، فبالنسبة له كانت الذرَّة هي أصغر شيءٍ موجود، وهذا دليلٌ على أنَّ القرآن لم يعـف عليـه الزَّمن.

قلت: أرى لك اهتمامـا آخـر بالإعجـاز العلمي الـذي يـذكر المسـلمون بأنـه موجـود في القرآن؟

قـال: أجـل.. إنَّ فهم القـرآن الكـريم بطريقـةٍ علميَّةٍ حقيقيَّةٍ ممكنٌ للغايـة، وذلـك لأنَّ القرآن الكريم يقدِّم شيئاً لا تقدِّمه الكتب السماويَّة الأخرى خاصَّة أو الأديـان الأخـرى عامَّة. إنَّ في القـرآن مـا يطلبـه العلمـاء. هنـاك الكثـير في هـذه الأيَّام ممَّن لـديهم نظريَّاتٍ عن طريقة عمل الكون، إنَّهم في كلِّ مكان من حولنـا، لكنَّ مجتمـع أهـل العلم لا يكلِّف نفسـه حتَّى بالاسـتماع إليهم. وذلـك لأنَّ المجتمـع العلميَّ -وخلال القـرن الماضـي- وضـع شـرطاً لقبول مناقشة النظريَّات الجديدة، وهو ما يُسمَّى (اختبار الزَّيـف) فهم يقولـون: (إن كـانت لديك نظريَّة، فلا تزعجنا بها حتى تحضر لنا مع هـذه النظريَّة طريقـةً مـا تُثبت إن كنت على صوابٍ أم على خطأ)

مثل هذا الاختبار كان بالتأكيد هو السَّـبب الَّذي جعـل العلمـاء يسـتمعون لإينشـتاين في مطلع هذا القرن. لقد جاء بنظريَّةٍ جديدةٍ، وقال: (أنا أعتقد بأنَّ الكون يعمل بهذه الطَّريقـة، وها هي ثلاث طُرُقٍ لتُثبت إنْ كنت مخطئاً!) بعدئذٍ وضع العلماء نظريَّته تحت الاختبـار لمـدَّة ستِّ سنوات، فنَجَحَتْ في اجتياز الاختبارات، وبالطُّرق الثَّلاث كلِّها.

طبعاً، هذا لم يثبت أنَّه كان عظيماً، بل أثبت فقط أنَّه يستحقُّ أنْ يُستمع له، لأنَّه قال: (هذه هي نظريَّتي، وإنْ أردتم إثبات أنِّي مخطئٌ فافعلوا هذا أو جرِّبوا ذاك)

وهذا هو بالضَّبط ما يقدِّمه القرآن الكريم.. بعض هذه الاختبارات أصبحت مفروغاً منها حيث إنَّها أثبتت صحَّتها، والبعض الآخر ما زال قائماً إلى يومنا هذا. إنَّ القرآن يشير أساساً إلى أنَّه إذا لم يكن هذا الكتاب هو ما يدَّعيه، فما عليكم إلَّا أن تفعلوا هذا أو ذاك لتثبتوا أنَّه مُزيَّف، وخلال ألفٍ وأربعمائة سنة مرَّت لم يستطع أحد بالطبع أن يفعل هذا أو ذاك فيثبت ذلك، لذلك ما زال يعتبر صحيحاً وأصيلاً.

ولهذا أنا أقترح على من يريد أن يدخل في مناظرةٍ حول الإسلام مع أحد من غير المسلمين ـ الَّذين يدَّعون أنَّ لديهم الحقيقة وأنَّ المسلمين على الباطل ـ أن يضع بدايةً كلَّ الحُجَجِ الأخرى جانباً وأن يسأله ما يلي: (هل يوجد أيُّ اختبارٍ للزَّيف في دينك؟ هل يوجد في دينك ما يمكن أن يُبيِّن أنَّكم على خطأ إن استطعت أنا أن أُثبت ذلك؛ هل يوجد أيُّ شيء؟!

التفت إلي، وقال: أستطيع أن أعدك منذ الآن أنَّه لن يكون لدى أيٍّ منهم أيُّ اختبار أو إثبات؛ لا شيء!وذلك لأنَّهم ليس لديهم أدنى فكرةٍ أنَّه يتوجَّب عليهم حين عرضهم ما يؤمنون به على النَّاس أن يقدِّموا لهم الفرصة لإثبات أنهَّم مخطئون إن استطاعوا.

ومع هذا، فإنَّ الإسلام يقدِّم لهم ذلك. ومثالٌ رائعٌ على كيفيَّة تزويد القرآن الكريم الإنسان بفرصةٍ ليتثبَّت من أصالته، وأن (يثبت زيفه) جاء في السُّورة الرابعة. وأقول بصدق أنِّي كنت مندهشاً حين اكتشفت هذا التحدِّي لأوَّل مرَّة: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء 82)

فهذا يمثِّل تحدِّياً واضحاً لغير المسلمين، لأنَّه (وبطريقةٍ غيرِ مباشرة) يدعوهم لإيجاد أيِّ خطأ. وحقَّاً -إن وضعنا الجديَّة أو الصُّعوبة في هذا التحدِّي جانباً- فإنَّ تقديم مثل هذا التحدِّي -في المقام الأوَّل- ليس حتَّى من طبيعة البشر، فهو يتعارض مع تكوين الشخصيَّة البشريَّة. فالإنسان لا يتقدَّم لاختبارٍ في المدرسة، ثمَّ بعد إنهاء الاختبار يكتب ملحوظةً للمُصَحِّحِ يقول فيها: (هذه الإجابات مثاليَّة، ولا يوجد فيها أيُّ خطأ. فجد خطأً واحداً إن استطعت!) فالإنسان ببساطةٍ لا يفعل ذلك. فذاك المعلِّم ما كان ليذوق طعم النَّوم حتى يجد خطأً ما! ومع ذلك فإنَّ هذه هي الطَّريقة الَّتي يصل بها القرآن إلى النَّاس.

سكت قليلا، ثم قال: موقفٌ آخرٌ مثيرٌ للدَّهشة يتكرَّر في القرآن كثيراً، ويتعامل مع نُصح القارئ، فالقرآن يُعْلِمُ القارئ عن حقائق مختلفةٍ ثمَّ يُعطيه النَّصيحة بأنَّه إن كان يريد أن يعرف أكثر عن هذا أو ذاك، أو إن كان يشكُّ فيما قيل، فما عليه عندئذٍ إلَّا أن يسأل

أولئك الَّذين يملكون العلم والمعرفة. وهذا موقفٌ مدهش، فمن غير المعتاد أن يُؤلَّف كتابٌ من قِبَلِ إنسانٍ لا يملك أيَّ خلفيَّةٍ جغرافيَّة، أو نباتيَّة، أو أحيائيَّة، ويبحث فيه مثل هذه الموضوعات، وبعدئذٍ ينصح القارئ بأن يسأل أهل العلم إن كان في رَيْبٍ من شيء. يقول الله تعالى في القرآن العظيم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء 7)

في كلِّ عصرٍ من العصور السابقة ـ وحتَّى الآن ـ كان هناك علماء مسلمون يتتبَّعون إرشادات القرآن، وقد توصَّلوا إلى اكتشافاتٍ مذهلة، فإذا نظر أحدنا إلى أعمال العلماء المسلمين لعصورٍ عديدةٍ مضت، فسيجد أنَّهم كانوا ممتلئين بالاستشهادات القرآنيَّة، فأعمالهم تُبيِّن أنَّهم قاموا بالبحث في مكانٍ ما عن شيءٍ ما، وقد أكَّدوا أنَّ سبب بحثهم في مثل هذا المكان أو ذاك بالذَّات لأنَّ القرآن أرشدهم في ذلك الاتجاه.

فمثلاً يشير القرآن إلى خلق الإنسان، ثمَّ يحثُّ القارئ على البحث في ذلك، فهو يعطي القارئ لمحةً أين يبحث، ويخبره بأنَّه سيجد معلوماتٍ أكثر عن ذلك، وهذه هي نوعيَّة الأشياء الَّتي يبدو أنَّ المسلمين اليوم يبحثونها بتوسُّع.

سأضرب لك مثلا على ذلك.. قبل عدَّة سنوات، قام بعض المسلمين بجمع كلِّ الآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن علم الأَجِنَّة، وهو العلم الَّذي يدرس مراحل نموِّ الجنين في الرَّحم؛ ثمَّ قالوا: (هذا ما يقوله القرآن الكريم. فهل هو حقّ؟)

في الحقيقة، لقد أخذوا في هذا بنصيحة القرآن الكريم: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(النحل:43).. وحصل أن اختاروا أستاذاً جامعيّاً في علم الأجنَّة من جامعة تورونتو في كندا، ولم يكن مسلماً. هذا الأستاذ يُدعى (كيث موور)، وهو مؤلِّفٌ للعديد من الكتب في علم الأجنَّة، ويُعدُّ من الخبراء العالميِّين المُبرِّزين في هذا المجال، وجَّهوا له الدَّعوة، ثمَّ قالوا له: (هذا ما يقوله القرآن الكريم فيما يخصُّ تخصُّصَكم. فهل هو صحيح؟.. ماذا تستطيع أن تخبرنا عن ذلك؟).. وأثناء إقامته في بلاد المسلمين، قدَّموا له كلَّ المساعدة الَّتي احتاجها في الترجمة وكلَّ العون الَّذي كان يطلبه.

لقد كان مذهولاً جدّاً بما وجد بحيث أنَّه غيَّر بعض النُّصوص في كتبه، فقد قام في الطبعة الثانية من (تاريخ علم الأجنَّة) بإضافة بعض المواد الَّتي لم تكن موجودة في الطبعة الأولى، وذلك لما وجده في القرآن الكريم، وحقّاً فإنَّ هذا يُصوِّر بوضوحٍ أن القرآن الكريم سابقٌ لزمانه، وأنَّ أولئك الَّذين يؤمنون به يعرفون ما لا يعرفه الآخرون[1].

ابتسم، ثم قال: لقد كان من دواعي سروري أنِّي أجريت لقاءً تلفازيّاً مع الدكتور كيث

1) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذا، وبأقوال هذا الدكتور في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

موور، وتحدَّثنا مُطوَّلاً حول هذا الموضوع، وكان ذلك بالاستعانة بالصور التوضيحيَّة وغيرها، وقد ذكر بأنَّ بعض الأشياء الَّتي ذكرها القرآن الكريم عن نموِّ الإنسان لم تكن معروفةً إلى ما قبل ثلاثين عاماً، لقد ذكر في الواقع موضوعاً مُعيَّناً بشكل خاص، وهو وصف القرآن الكريم للإنسان بالعلقة في إحدى مراحل نموِّه، وأنَّ هذا الوصف كان جديداً بالنسبة إليه، ولكنَّه عندما تفحَّص الأمر وجده حقيقة، وهكذا أضافه إلى كتابه. لقد قال: (لم يخطر ببالي ذلك أبداً من قبل)، ولهذا فقد ذهب إلى قسم علم الحيوان وطلب صورةً للعلقة، وعندما وجد أنَّها تشبه الجنين تماماً في هذه المرحلة من النموّ، قرَّر أن يضع الصورتين في أحد كتبه (صورة الجنين وصورة العلقة).

بعد ذلك قام الدكتور موور أيضاً بتأليف كتابٍ عن علم الأجنَّة السريريِّ، وعندما نشر هذه المعلومات في تورونتو سبَّبت ضجَّةً كبيرةً في كلِّ أنحاء كندا.

لقد كانت في بعض الصُّحف على الصَّفحات الأولى وفي جميع أنحاء كندا، وبعض العناوين الرئيسيَّة كانت شديدة الطَّرافة. فمثلاً، كان أحد العناوين الرئيسيَّة يقول: (شيءٌ مدهشٌ وُجِدَ في كتابٍ قديم!)

ويبدو واضحاً من هذا المثل أنَّ النَّاس لم يفهموا بوضوحٍ حول ماذا كانت كلُّ تلك الضجَّة، وأحد الأمور الَّتي حدثت حقّاً أنَّ أحد الصحفيين سأل الدكتور موور: (ألا تعتقد أنَّ العرب ربَّما كانوا يعرفون هذه المعلومات عن هذه الأشياء، أي عن وصف الجنين، وعن شكله وكيف يتغيَّر وينمو؟ فربَّما لم يكن هناك علماء، ولكنَّهم ربَّما قاموا بشيءٍ من التشريح الوحشيِّ على طريقتهم – أي قاموا بتقطيع النَّاس وتفحُّص هذه الأشياء)

فأشار له الدكتور على الفور بأنَّه نسي شيئاً في غاية الأهميَّة، وهو أنَّ كلَّ صور الجنين الَّتي عُرضت في الفيلم قد جاءت من صورٍ أُخِذت عن طريق المجهر؛ وأضاف قائلاً: (ليست المسألة هي إنْ كان أحد النَّاس قد حاول اكتشاف علم الأجنَّة قبل أربعة عشر قرناً مضت، ولكنَّها في أنَّه لو حاول ذلك فإنَّه لم يكن باستطاعته رؤية شيءٍ على الإطلاق!)

فكلُّ ما يصفه القرآن الكريم عن شكل الجنين هو عندما يكون صغيراً جدّاً ولا يُرى بالعين المجرَّدة، لذا فالمرء بحاجةٍ إلى مجهرٍ ليرى ذلك، إلَّا أنَّ مثل هذه الآلة لم تُكتشف إلَّا قبل أكثر من مائتي عامٍ بقليل.

وأضاف الدكتور موور ساخراً: (ربَّما كان لدى أحدهم ـ قبل أربعة عشر قرناً مضت ـ مجهراً سرِّيّاً، فقام بعمل هذه الأبحاث، ولم يرتكب أثناء ذلك أيَّ خطأٍ يُذكر، ثمَّ علَّم محمَّداً ذلك بطريقةٍ ما، وأقنعه بأن يضع هذه المعلومات في كتابه؛ وبعدئذٍ حطَّم مجهره، واحتفظ بسرِّه للأبد.. فهل أنت تصدِّق ذلك؟! يجب عليك حقّاً ألَّا تفعل، حتَّى تحضر دليلاً للإثبات، لأنَّ

مثل هذه النظريَّة ما هي إلّا سخافة!)

وعندما سُئِل الدكتور موور: (كيف تفسِّر إذاً وجود مثل هـذه المعلومـات في القـرآن؟) كان ردُّه: (لم يكن هذا ممكناً إلَّا بوحيٍ من الله)

ومع أنَّ هذا المثل عن بحث الإنسان عن معلوماتٍ مُحتواةٍ في القرآن الكـريم قـام بـه عالمٌ غير مسلم، إلَّا أنَّه يعتبر صحيحاً، وذلك لأنَّ هذا الرَّجـل واحـدٌ من أهـل الـذِّكر في هـذا المجال، فلو ادَّعى شخصٌ عاديٌّ بأنَّ مـا يقولـه القـرآن حـول علم الأجنَّة صـحيح، لمـا كـان لزاماً علينا قبول كلامه.

على أيَّة حال فإنَّ المركز المرموق والاحترام والتقدير الَّذي يكنُّه المـرء للعلمـاء تجعـل الإنسان يفترض تلقائيّاً صحَّة النتائج الَّتي يتوصَّلون اليها نتيجة البحث في موضوعٍ ما.

وهذا ما دفع أحد زملاء الدكتور موور ـ يُدْعى مارشال جونسـون، ويعمـل بشـكلٍ مُكثَّفٍ في مجال علم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) في جامعة تورونتو ـ لكي يصبح مُهتمّاً جـدّاً بـالقرآن الكـريم، لأنَّ الحقـائق الَّتي ذكرهـا عن علم الأجنَّة كـانت دقيقـة، ولـذلك سـأل المسلمين أن يجمعوا له كلَّ شيءٍ في القرآن الكريم ممَّا له علاقة بتخصُّصه، ومرَّةً أخــرى كان النَّاس مندهشين جدّاً من النتائج.

التفت إلي، وقـال: إنَّ عـدداً كبـيراً من الموضـوعات مـذكورٌ في القـرآن الكـريم، ممَّا يتطلَّب بالتأكيد وقتاً طويلاً لتفصيل كلِّ موضوعٍ على حدة، فيكفي من أجل الهدف من هــذا النِّقاش أن أقول بـأنَّ القـرآن الكـريم يضـع تصـريحاتٍ واضـحةٍ ودقيقـةٍ حـول موضـوعاتٍ متنوِّعةٍ، وأثناء ذلك ينصح القارئ بالتثبُّت من صحَّتها بالبحث عند العلماء، وكلُّ مـا صُـوِّر في القرآن أثبت صحَّته بوضوح.

سكت قليلا، ثم قال: هناك أمرٌ في القرآن الكريم لا نجده في أيِّ كتابٍ آخر!

قلت: ما هو؟

قال: من المثير للاهتمام أنَّ القرآن الكريم حين يزوِّد القارئ بالمعلومات، فإنَّه كثيراً مـا يخبره بأنَّه لم يكن يعلم ذلك من قبل.

اسمع قوله تعالى: وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ وَرَحْمَتُـهُ لَهَمَّتْ طَائِفَـةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِـلُّوكَ وَمَـا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَـكَ مَـا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) (النساء:113).. واسمع قوله تعـالى: كَمَـا أَرْسَـلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَـا لَمْ تَكُونُـوا

تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:151)

وطبعاً لا يوجد أيُّ كتابٍ مقدَّسٍ يقوم بتقديم مثل هذا الزَّعم، فكلُّ الكتب المقدَّسة والمخطوطات القديمة الَّتي يملكها النَّاس تحوي بالفعل معلوماتٍ كثيرة، ولكنَّها تذكر دوماً من أين جاءت تلك المعلومات.

فمثلاً، عندما يناقش الإنجيل التاريخ القديم، فإنَّه يذكر بأنَّ هذا الملك عاش في المنطقة الفلانيَّة، وأنَّ ذاك خاض المعركة الفلانيَّة، وأنَّ الآخر كان له أبناء كثيرون.

وهو دائماً ينصُّ على أنَّك إنْ أردت الحصول على المزيد من المعلومات، فما عليك إلَّا أن تقرأ الكتاب الفلاني أو العلَّاني، لأنَّه من هناك جاءت المعلومات. وباختلافٍ كبيرٍ عن هذا الأسلوب، فإنَّ القرآن الكريم يزوِّد القارئ بالمعلومات، ثمَّ يقول له إنَّ هذه المعلومات شيءٌ جديدٌ لم يكن يعرفه أحدٌ حين نزوله.

وطبعاً كان هناك دائماً دعوةٌ للبحث في هذه المعلومات، للتأكُّد من صحَّتها وأصالتها (إنَّها وحيٌ من الله تعالى).

ومن المثير للدَّهشة أنَّ مثل هذا الطَّرْح لم يستطع أبداً أنْ يتحدَّاه أحدٌ من غير المسلمين قبل أربعة عشر قرناً مضت، فالواقع أنَّ أهل مكَّة الَّذين كانوا يكرهون المسلمين كرهاً شديداً، وكانوا يستمعون لهذا الوحي المرَّة تلو المرَّة وهو يدَّعي بأنَّ ما يسمعونه شيءٌ جديدٌ لم يعرفوه من قبل، لم يستطع أحدٌ منهم أن يرفع صوته قائلاً: (لا، ليس هذا بجديد. فنحن نعلم من أين جاء محمَّدٌ بهذه المعلومات، فقد تعلَّمناها في المدرسة)

إنَّهم لم يستطيعوا أبداً تحدِّي أصالة القرآن الكريم، لأنَّه فِعْلاً كان شيئاً جديداً.

سكت قليلا، وكأنه يسترجع ذكرياته، ثم قال: في إحدى المرَّات جاءني رجلٌ بعد أن أنهيت محاضرةً ألقيتها في جنوب إفريقيا، لقد كان غاضباً جدّاً لما قلتهُ، ولذلك ادَّعى قائلاً: (سأذهب إلى بيتي الليلة ولا بُدَّ أن أجد خطأً ما في القرآن)، فأجبته طبعاً: (أُهنِّئك. فهذا هو الشيء الأكثر ذكاءً فيما قلته)

بالتأكيد، هذا هو الموقف الَّذي يجب أن يتَّخذه المسلمون مع أولئك الَّذين يشكُّون في أصالة القرآن الكريم، لأنَّ القرآن الكريم نفسه يُقدِّم هذا التحدِّي، فحتماً بعد القبول بهذا التحدِّي، والاكتشاف بأنَّ القرآن حقّ، فإنَّهم سيؤمنون به لأنَّهم لم يستطيعوا أن يجرِّدوه من صحَّته؛ بل سيكتسب احترامهم لأنَّهم تأكَّدوا من أصالته بأنفسهم.

والحقيقة الأساسيَّة الّتي يجب أن تُكرَّر كثيراً بخصوص التثبّت من أصالة القرآن الكريم، هي أنَّ عـدم قـدرة أحـدهم على توضـيح أيِّ ظـاهرةٍ بنفسـه لا يلزمـه بقبـول وجـود هـذه الظاهرة، أو قبول تفسير شخصٍ آخر لها.

وهذا يعني أنَّ عدم قدرة الإنسان على تفسير شيءٍ ما لا يعـني أنَّه يجب بالضـرورة أن يقبل بتفسير الآخرين. ومع ذلك فـإنَّ رفض الإنسـان لتفسـير الآخـرين يعـود بـالعبء عليـه نفسه ليجد جواباً مُقْنِعاً. هذه النظريَّة العامَّة تنطبـق على العديـد من المفـاهيم في الحيـاة، ولكنَّها تتناسب بشكلٍ كبيرٍ مع التحدِّي القرآني، لأنَّها تشكِّل صعوبةً كبيرةً لمن يقول: (أنـا لا أومن بالقرآن)، ففي اللحظة الَّتي يرفضه فيها، يجد الإنسان نفسه ملزماً بأن يجد التفسـير لذلك بنفسه، لأنَّه يشعر بأنَّ تفسيرات الآخرين ليست صحيحة.

في الحقيقة، وخاصَّةً في إحدى الآيات القرآنيَّة الَّتي اعتدت أن أرى أنَّهـا تُـرجمت خطـأً إلى الإنجليزيَّة، يذكر الله تعالى رجلاً كان يسمع آيات الله تتلى عليه، إلاَّ أنَّه كـان يغـادر دون أن يتفحص حقيقة ما سمع، أي أنَّ الإنسان ـ بطريقةٍ أو بأخرى ـ مذنبٌ إذا سـمع شـيئاً ولم يبحثه أو يتفحَّصه ليرى إن كان صحيحاً.

وهذا جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَـأَنْ لَمْ يَسْـمَعْهَا كَـأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان:7)

فالإنسان يُفترض منه أن يُعْمِل عقله بكلِّ المعلومات الَّتي ترده، وأن يقرِّر ما هو الهـراء منها ليُلْقِيه بعيداً، وما هو المفيد ليحتفظ به ويستفيد منه فيمـا بعـد. فلا يسـتطيع المـرء أن يترك الأمور على اختلاف أنواعها تزدحم في ذهنه هكذا فقط. بل يجب أن توضع الأمور في فئاتها المناسبة وأن تُفهم حسب ذلك.

فمثلاً، إذا كانت المعلومات ما تزال في حاجةٍ إلى تأمُّلٍ، فعندئذٍ يجب أن يُميِّز المـرء إن كـانت أقـرب إلى الصـواب، أم هي إلى الخطـأ أقـرب. ولكن إذا كـانت كـلُّ الحقـائق قـد عُرِضَت، فإنَّه عندئذٍ يجب عليـه أن يُقـرِّر تمامـاً بين هـذين الأمـرين. وحتَّى عنـدما لا يكـون المرء إيجابياًّ بخصوص أصالة المعلومة، إلاَّ أنَّه ما زال مطلوباً منـه أن يُعْمِـل عقلـه في كـلِّ المعلومات ليعترف بأنَّه فقط لا يعرف ذلك على وجه الدقَّة.

ومع أنَّ هذه النقطة الأخيرة تبدو وكأنَّها غير ذات قيمـةٍ واقعيـاًّ، إلاَّ أنَّهـا مفيـدةٌ للوصـول إلى نتيجةٍ إيجابيَّةٍ فيما بعد، وذلك لأنَّهـا تُـرغم المـرء على الأقـلِّ بـأن يتعـرَّف ويبحث ويعيـد النظر في الحقائق. وهذا التآلف مع المعلومات سيزوِّد الإنسـان بالحـد الفاصـل عنـدما تتمُّ الاكتشافات المستقبليَّة وتُعرض معلوماتٌ إضافيَّة، فالشيء المهمُّ هو أن يتعامل المـرء مـع الحقائق، لا أن ينبذها ـ هكذا وببساطة ـ وراء ظهره بدافع العاطفة أو اللامبالاة.

سكت قليلا، ثم قال: اليقين الحقيقيُّ بخصوص صحَّة القرآن الكريم واضحٌ من خلال الثِّقة الَّتي تُهَيْمِنُ خلال آياته، وهي الثِّقة الَّتي تأتي بطريقةٍ مختلفة، ألا وهي (استنزاف البدائل)، فالقرآن الكريم أساساً يؤكِّد أنَّه وحيٌ يوحى، فإن كان هناك من لا يصدِّق ذلك، فليثبت له مصدراً آخر! وهذا هو التحدِّي.

لدينا هنا كتابٌ مصنوعٌ من الورق والحبر، فمن أين أتى؟ وهو يقول أنَّه وحيٌ إلهي؛ فإن لم يكن كذلك، فما هو مصدره؟ والحقيقة المثيرة هي أنَّه لا يوجد أحدٌ على الإطلاق لديه تفسيرٌ يصلح ليناقض ما جاء في القرآن الكريم.

في الواقع، لقد تمَّ استنزاف كلِّ البدائل، وحيث أنَّ هذا الفكر قد أُسِّس من قِبَلِ غير المسلمين فقد اختزلت هذه البدائل لتصبح مقصورةً على مدرستين فكريَّتيْن تبادليّاً، مُصرِّين في ذلك على إحداهما أو على الأخرى. فمن ناحيةٍ توجد مجموعةٌ كبيرةٌ من الَّذين بحثوا في القرآن الكريم لمئات السنين والَّذين يدَّعون قائلين: (نحن متأكِّدون من شيءٍ واحد، وهو أن ذلك الرَّجل محمَّداً كان يتوهَّم أنَّه نبي.. فقد كان مجنوناً)، فهم مقتنعون بأنَّ محمَّداً ﷺ كان مخدوعاً بطريقةٍ ما.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ هناك مجموعة أخرى تدَّعي: (بوجود هذا الدَّليل (الجنون)، فإنَّنا يقيناً نعرف شيئاً واحداً، وهو أنَّ ذلك الرَّجل محمَّداً كان كاذباً)

وما هو مدعاةٌ للسخرية أنَّ هاتين المجموعتين لا يبدو أبداً أنَّهما تجتمعان دون تناقض، وفي الواقع، فإنَّ العديد من المراجع الَّتي كُتبت عن الإسلام عادةً تدَّعي النظريَّتين معاً. فهم يبدأون بالقول بأنَّ محمَّداً ﷺ كان مجنوناً، وينتهون بأنَّه كان كاذباً.

ويبدو أنَّهم لا يدركون أبداً بأنَّه ﷺ لم يكن بالإمكان أن يكون الاثنين معاً! لكنَّ الكثير من المراجع في العادة تذكر هذيْن الأمريْن معاً.

فمثلاً، إذا جُنَّ أحد النَّاس وظنَّ حقاًّ أنَّه نبيّ، فإنَّه لن يقضي الليل بطوله مُخطِّطاً: (كيف سأخدع النَّاس غداً ليظنُّوا أنِّي نبيّ؟)، فلأنَّه يؤمن فعلاً بأنَّه نبيّ، هو واثقٌ بأنَّ الإجابة على أيِّ تساؤلٍ ستأتيه عن طريق الوحي.

وفي واقع الأمر، فإنَّ جزءاً كبيراً من القرآن الكريم نزل على شكل ردود على تساؤلات، فكان أحدهم يسأل رسول الله محمَّداً ﷺ سؤالاً، فينزل الوحي بالإجابة. ومؤكَّدٌ أنَّ أحد النَّاس إن كان مجنوناً ويعتقد بأنَّ ملاكاً سوف يلقي الإجابة في أُذُنه، فإنَّه عندئذ حين يسأله أحد النَّاس سؤالاً سيظنُّ بأنَّ ملاكاً سيأتيه بالإجابة. فلأنَّه مجنون، هو حقّاً سيظنُّ ذلك. ولن يطلب من السائل الانتظار بُرهةً، ثم يذهب إلى أصحابه ليسألهم: (هل يعرف أيٌّ

منكم الإجابة؟) فهذا النَّوع من السُّلوك هو ميزةٌ لغير المؤمن بأنَّه نبي.

ما يرفض قبوله غير المسلمين هو أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يكون الاثنين معاً، فهــو إمَّا أن يكون متوهِّماً وإمَّا كاذبــاً. وبطريقــةٍ أخــرى، فهــو إمَّا أن يكــون واحــداً منهمــا أو لا يكــون كلاهما؛ وقطعــاً لا يمكنــه أن يكــون الاثـنين معــاً! ويجب التأكيــد هنــا على حقيقــة أنَّ هــاتين الصفتين ـ بــديهيّاً ــ همــا ســمتان شخصــيّتان تبادليَّتــان.. أي حيث توجــد إحــداهما فلا وجــود للأخرى.

التفت إلي، وقال: سأذكر لك حوارا يمثــل هــذه الحلقــة المفرغــة الَّتي يــدور فيهــا غــير المسلمين بشكلٍ دائم. فإذا سألت أحدهم: (ما هو مصدر القرآن الكــريم؟)، فإنَّه ســيجيبك بأنَّ مصدره هو عقل رجلٍ كان مصاباً بــالجنون، وعندئــذ تســأله: (إن كــان قــد جــاء بــه من رأسه، فمن أين حصل على المعلومات المحتواة فيه؟ فمن المؤكَّد أنَّ القرآن الكريم يذكر أشياء كثيرة لم يكن العرب يعرفونها)، ولكي يســتطيع أن يفســر الحقيقــة الَّتي قــدَّمتها لــه فإنَّه سيغيِّر موقفه ويقول: (حسناً، ربَّما لم يكن مجنوناً، بل ربَّما كان بعض الأعاجم يعطونــه تلك المعلومات، وهكذا كذب على النَّاس وأخبرهم بأنَّه كان نبيّاً)

وعند هذه النقطــة يجب أن تســأله: (إذا كــان محمــدٌ كاذبــاً، فمن أين حصــل على ثقتــه بنفسه؟ ولماذا كان يتصرَّف وكأنَّه كان نبيّاً فِعلاً؟)

وفي النِّهاية ـ وعندما يكون قد حُشر في الزاوية ـ فإنَّه كالقطَّة سيندفع فجــأةً وبســرعةٍ بأوَّل ردٍّ يخطر على باله ـ ومتناسياً أنَّه قبل ذلك اســتثنى ذاك الاحتمــال ــ ليــدَّعي: (حســناً، ربَّما لم يكن كاذباً. ربَّما كان مجنوناً وحقّاً كان يعتقد أنَّه نبيّ)، وهكذا يبدأ دورانه في الحلقــة المفرغة من جديد.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا، واعتبره من أساليب الكفار في جحد الحقائق، فالله تعــالى يقول: أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13)ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُــونٌ(14) (الدخان)

ســكت قليلا، وكأنــه يســترجع ذكرياتــه مــع أمثــال هــؤلاء الجاحــدين الــذين ملأوا الــدنيا بالشبهات الجوفاء، ثم قال: قبل سبع ســنواتٍ تقريبــاً، زارني أحــد الرُّهبــان في بيــتي، وفي تلك الحجرة الَّتي كنَّا نجلس فيها كان هناك قــرآنٌ على الطاولــة ووجهــه إلى الأســفل، فلم يعرف الرَّاهب أيّ كتابٍ هو.

وفي منتصف نقاشنا، أشرت إلى الكتاب قائلاً: (أنــا لــديَّ الثِّقــة بهــذا الكتــاب)، فأجــاب ناظراً إلى القرآن الكريم من غير أن يعرف ما هو: (حسناً، وأنا أقول لك بأنَّه إن كــان ذلــك

الكتاب ليس الإنجيل، فقد أَلَف من قِبَلِ الإنسان)، فكان ردِّي عليه: (دعني أحدِّثك شيئاً عمَّا جاء في هذا الكتاب)، وخلال ثلاثٍ أو أربع دقـائق فقـط ذكـرت لـه مـا يتعلَّق ببعض الأمـور الموجودة في القرآن الكريم.

وبعد تلك الثَّلاث أو الأربع دقائق فقط غيَّر موقفه تماماً وقال: (أنت على حقّ، فالإنسان لم يؤلِّف هذا الكتاب، بل الشيطان هو الَّذي أَلَّفه!)

طبعاً، اتِّخاذ مثل هذا الموقف هو غايةٌ في سـوء الطَّالع، وذلـك لأسـبابٍ عـدَّة، منهـا أنَّه عُذْرٌ مُتسرِّعٌ ورخيصٌ كمَخْرَجٍ فوريٍّ من ذلك الوضع المزعج.

وفيما يتعلَّق بهذا الأمر، هناك قصَّةٌ مشهورةٌ في الإنجيل تذكر كيف أنَّ بعض اليهـود في أحد الأيَّام كانوا شهوداً حين أقام يسوع رجلاً من الموت، كان ذلك الرَّجـل ميتـاً لأربعـة أيَّام، وعندما وصل يسوع، قال ببساطة: (انهض)، فقـام الرَّجـل ومشـى في طريقـه. وحين رأوا هذا المشهد، قال بعض الشُّهود من اليهود مُنْكِرِيْن: (هذا هو الشيطان. الشـيطان هـو الَّذي ساعده)

وهذه القصَّـة تُكـرَّر الآن كثـيراً في الكنـائس في جميـع أنحـاء العـالم، والنَّاس يـذرفون دموعاً غزيرةً لسماعها قائلين: (آه، لو كنت هناك، فما كنت لأكون غبيّـاً مثـل اليهـود!)، ويـا للسخرية، فمع هذا فإنَّ هؤلاء النَّاس يفعلون ما فعله اليهود تماماً حين تعـرض عليهم ــ في ثلاثٍ أو أربع دقائق ـ جزءًا صغيراً فقط من القرآن الكريم؛ وكـلُّ مـا يسـتطيعون قولـه هو: (آه، الشيطان فعـل ذلـك.. الشـيطان هـو الَّذي أَلَّف هـذا الكتـاب!) لأنَّهم حقّـاً يكونـون قـد حُشِروا في الزَّاوية؛ وحين لا يملكون أيَّ إجابةٍ مقبولة، فـإنَّهم يلتجئـون إلى أسـرع وأرخص حُجَّةٍ مُتاحةٍ لهم.

ومثلٌ آخرٌ على استخدام النَّاس لهذا الموقـف الضَّـعيف يمكن إيجـاده في تفسـير كفَّار مكَّة لمصدر رسالة محمَّدٍ ﷺ فقد اعتادوا القول بأنَّ الشيطان هو الَّذي يُملي عليه القـرآن! لكنَّ القرآن ـ كعادته مع أيِّ حُجَّةٍ لهم ـ يقدِّم الإجابة على ذلك: فيقول الله تعالى: وَمَا هُـوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(25)فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(26)إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(27) (التكوير)

وهكـذا فـإنَّ القـرآن يعطي ردّاً جليّـاً على هـذا الادِّعـاء، في الواقـع، هنـاك العديـد من البراهين في القرآن الكـريم جـاءت كـردٍّ على الادِّعـاء بـأنَّ الشـيطان هـو الَّذي أملى على محمَّدٍ ﷺ رسالته، فمثلاً في سورة الشعراء: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(210)وَمَـا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(211)إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) (الشعراء)

وفي مكانٍ آخرٍ في القرآن الكريم يعلِّمنا الله تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(98) (النحل)

فهل بهذه الطريقة يكتب الشيطان كتاباً؟.. وهل يقول للإنسان: (قبـل أن تقـرأ كتـابي، اسأل الله أن يحفظك منِّي؟) فما هذا إلاَّ افتراءٌ كبير، كبيرٌ جدّاً.

سكت قليلا، ثم واصل حديثـه عن الأسـاليب الـتي يمارسـها أعـداء الإسـلام في عـرض شبهاتهم، فقال: بالإضـافة إلى الحجج الَّتي يقـدِّمها غـير المسـلمين في محـاولاتهم التافهـة لتبرير وجود الآيات الَّتي لا يفهمونها في القرآن الكريم، فإنَّ هناك هجوماً آخر غالباً ما يظهر كمزيجٍ من النظريَّتين معاً، وهو أنَّ محمَّداً ﷺ كان مجنونـاً وكاذبـاً، فأولئـك النَّاس يقـترحون أساساً بأنَّه ﷺ كان مخبولاً، وكنتيجةٍ لتوهُّمه فقد كذب وضلَّل النَّاس.

ولهذا اسمٌ في علم النّفس، وهو الميثومانيـا Mythomania أو المسُّ الأسـاطيريّ، وهـو نزوعٌ مفرطٌ أو غير سويٍّ إلى الكذب والمبالغة، وهو يعني ببسـاطة أنَّ الإنسـان يكـذب، ثمَّ يصدِّق ما كذب.

وهذا هو ما يدَّعيه غير المسلمين عمَّا كان يعاني منـه محمَّدٌ ﷺ إلاَّ أن المشـكل الوحيـد الَّذي يواجهونه بخصوص هـذه الحُجَّة هـو أنَّ الإنسـان الَّذي يعـاني من الميثومانيـا لا يمكنـه التعامل مع الحقائق مطلقاً، مع أنَّ القرآن الكريم كلّه قـائمٌ تمامـاً على الحقـائق، فكـلُّ مـا فيـه يمكن بحثـه والتثبُّت من صـحَّته، في حين أنَّ الحقـائق تعتـبر مشـكلاً كبـيراً للمصـاب بالميثومانيا.

فعندما يحاول الطبيب النفسيُّ علاج أحد الَّذين يعانون من هذا المـرض، فإنَّه باسـتمرار يواجهه بالحقائق، فمثلاً، إذا كان أحدهم مريضاً نفسيّاً ويدَّعي قائلاً: (أنا ملك إنجلـترا)، فـإنَّ الطبيب النفسيَّ لا يقول له: (لا، أنت لسـت كـذلك، بـل أنت مجنـون!) فـالطبيب لا يفعـل ذلك، بل بدلاً من ذلك يواجهه ببعض الحقائق قائلاً: (حسناً، أنت تقول بأنَّك ملك إنجلترا، لذا قل لي أين هي الملكة اليوم؟ وأين رئيس وزرائك؟ وأين هم حرَّاسك؟)

وعندما يكون لدى هذا المريض مشكلٌ في محاولته التعامل مع هذه الأسئلة، سـيحاول إيجاد الأعذار: (آه...الملكة...ذهبت إلى بيت أُمِّها.. آه...رئيس الوزراء....حسناً، لقد مات)

وفي النِّهاية سيشفى من مرضه تماماً لأنَّه لم يستطع التعامل مع الحقائق، فإذا اسـتمرَّ الطبيب النفسيُّ بمواجهته بحقائق كافيـة، فإنَّه بالنِّهايـة سـيواجه الواقـع قـائلاً: (أظنُّ بـأنِّي لست ملك إنجلترا)

والقرآن يصل إلى كلِّ إنسانٍ يقـرأه بنفس الطريقـة الَّتي يعـالج بهـا الطـبيب النفسـيُّ مريضه بالميثومانيا. يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا

فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:57)

للوهلة الأولى قد يبدو هذا التصريح غامضاً، ولكنَّ المعنى لهذه الآية يتَّضح عنـدما يُنْظـر إليها على ضوء المثل السابق، فالإنسان يُشفى أساساً من أوهامه بقراءة القـرآن الكـريم. فهو في جوهره علاجٌ يشفي الضَّالِّين تماماً وذلك بمواجهتهم بالحقائق.

سكت قليلا، ثم قال: في الواقع، يوجد مرجعٌ مثيرٌ للاهتمام بخصوص هذا الموضـوع في الموسوعة الكاثوليكيَّة الجديدة. ففي فقرةٍ بخصوص موضوع القرآن الكريم تُصرِّح الكنيسة الكاثوليكيَّة: (عبر القرون الماضية قُدِّمت نظرياتٌ كثيرةٌ عن أصل القرآن.. واليـوم لا يوجـد إنسانٌ عاقل يقبل بأيٍّ منها)

فها هي الكنيسـة الكاثوليكيَّة المٌعمِّرَةِ، والماثلـة هنـا وهنـاك لقـرونٍ عديـدة، تنكـر تلـك المواقف التافهة لدحض أصل القرآن الكريم.

القرآن الكريم بالطبع يمثِّل مشكلاً للكنيسة الكاثوليكيَّة، فهـو يصـرِّح بأنَّه وحيٌ من اللـه تعالى، ولـذلك هم يدرسـونه، ومن المؤكَّد أنَّهم يـودُّون إيجـاد برهـانٍ على أنَّه ليس كـذلك، ولكنَّهم لا يستطيعون، فهم لا يستطيعون إيجاد تفسيرٍ مقبول، لكنَّهم على الأقلِّ شرفاء في بحثهم، ولا يقبلون بأوَّل تفسيرٍ غير مدعومٍ بدليلٍ يأتي إليهم.

فالكنيسة تصرِّح بأنَّه ـ وخلال أربعة عشر قرناً ـ لم يُقدَّم بعد تفسيرٌ معقول. فهي بـذلك على الأقلِّ تعترف بأنَّ القرآن الكريم ليس موضوعاً سهل الإنكار.

لكن هناك بالتأكيد آخرون ممَّن هم أقـلُّ شـرفاً حين يقولـون على عَجَل: (آه، لقـد جـاء القرآن من هنا، أو من هناك)

وهم حتَّى لا يتفحَّصون مصداقية ما يصرِّحون به في معظم الأحيـان. وطبعـاً، فـإنَّ مثـل هذا التصريح من الكنيسة الكاثوليكيَّة يسبِّب للمسيحيِّ العاديِّ شيئاً من الصُّعوبة، وذلـك لأنَّه ربَّما يكون لديه أفكـاره الخاصَّـة عن أصـل القـرآن، ولكنَّه كعضـوٍ في الكنيسـة لا يسـتطيع التصرُّف حقّاً حسب نظريَّتـه. فمثـل هـذا التصـرُّف قـد يكـون مناقضـاً للخضـوع والإخلاص والولاء الَّذي تطلبه الكنيسة. فبموجب عضويَّته في الكنيسة، يتـوَّجب عليـه قبـول مـا تعلنـه الكنيسة الكاثوليكيَّة دون سؤال، وأن يجعل تعاليمها كجزءٍ من روتينه اليوميّ. لذا، فجوهريـاً إذا كانت الكنيسة الكاثوليكيَّة في عمومها تقـول: (لا تسـتمعوا لتلـك التقـارير غـير المؤكَّدة حول القـرآن)، فمـا يمكن أن يقـال حـول وجهـة النَّظـر الإسـلاميَّة؟ فحتَّى غـير المسـلمين يعترفون بأنَّ هناك شيئاً في القرآن ـ شيئاً كان يجب أن يكون معترفاً به ـ إذاً فلمـاذا يكـون النَّاس عنيدين، وهجوميِّين، وعـدائيِّين، حين يقـدِّم المسـلمون نفس النظريَّة؟ هـذا بالتأكيـد

شيءٌ لأولي الألباب ليتأمَّلوا فيه.. شيءٌ للتأمُّل لأولئك الَّذين يعقلون!

قام حديثاً واحدٌ من المفكِّرين القياديِّين في الكنيسة الكاثوليكيَّة ـ يدعى هانز ـ بدراسة القرآن الكريم، وأدلى برأيه فيما قرأ. هذا الرَّجل أثبت حضوره القوي على الساحة ولـزمنٍ طويل، وهو ذو منزلةٍ رفيعةٍ في الكنيسة الكاثوليكيَّة، وبعد تفحُّص دقيقٍ نشر ما وجده مستنتجاً: (إنَّ الله قد كلَّم الإنسان من خلال الإنسان، محمَّدٍ)

ومرَّةً أخرى يأتي هذا الاستنتاج من مصدرٍ غير مسلمٍ ـ وهو مفكِّرٌ قياديٌّ كبيرٌ في الكنيسة الكاثوليكيَّة نفسها! أنا لا أظنُّ بأنَّ البابا يتَّفق معه، ولكن على الرغم من ذلك فإنَّ رأي مثل هذه الشخصيَّة العامَّة ذائعة الصِّيْت وذات السُّمعة الحسنة يجب أن يكون له وزنه في الدِّفاع عن الموقف الإسلاميّ. ويتوَّجب التَّصفيق له لمواجهته الواقع بأنَّ القرآن الكريم ليس شيئاً يمكن أن يلقى بعيداً بسهولة، وبأنَّ الله تعالى حقّاً هو مصدر كلماته.

التفت إلي، وقال: يتَّضح من كلِّ ما تقدَّم سابقاً بأنَّ كلَّ البدائل قد استنزفت، ولذا فالفرصة لإيجاد إمكانيَّةٍ أخرى لإنكار القرآن الكريم لا وجود لها، لأنَّ هذا الكتاب إن لم يكن وحياً، فإنَّه عندئذٍ خداع؛ وإن كان خداعاً، فإنَّ على الإنسان أن يتساءل: (فما هو مصدره؟ وفي أيِّ جزءٍ منه يقوم بخداعنا؟)

وطبعاً فإنَّ الإجابات الصحيحة على هذه التساؤلات تُلقي الضَّوء على أصالة القرآن الكريم، وتُسكت ادعاءات الكفَّار اللاذعة وغير القائمة على دليل.

ومن المؤكَّد أنَّه إذا استمرَّ أولئك النَّاس بالإصرار على أنَّ القرآن الكريم ما هو إلاَّ خداع، فإنَّه يتوَّجب عليهم تقديم البرهان الَّذي يدعم ادعاءهم. فعبء إيجاد البرهان يقع على عاتقهم، وليس على عاتقنا! فلا يُفترض من أحدهم أبداً أن يقدِّم نظريَّةً بدون حقائق كافية تعزِّزها؛ لذا فأنا أقول لهم: (أروني خداعاً واحداً! أروني أين يخدعني القرآن الكريم! أروني ذلك، وإن لم تفعلوا، فلا تقولوا لي بأنَّه خداع!)

فوزي صبحي سمعان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (فوزي صبحي سمعان) [1]، فسألت الغريب عنه، فقال: التقيت به في مصر، وقد ذكر لي أن سبب إسلامه هو تلك الألغاز الكثيرة التي تمتلئ بها الكنيسة، ولا يطيق العقل أن يجد لها أي تفسير.

لقد ذكر لي أن هذه الخواطر المملوءة بالشبهات بدأته منذ صغره.. حيث كان يخدم كاتدرائية كنيسة (ماري جرجس) في مدينة الزقازيق المصرية.

---

1) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر 1992.

فخلف أسوار تلك الكاتدرائية كان يجلس فوزي الشاب ــ وهو يحلم بأن يحصل على رتبة (القس) ـ يستمع إلى القس الأكبر.

ولكنه لم يكن منفعلا لما يسمع.. بل كان شارداً تتنازعه أفكار ثقيلة كلما انتبه لصوت قسيس الكنيسة مناجياً المسيح: (يا ابن الله يا مخلصنا وإلهنا)

وقد ذكر لي أنه كان ينتفض طارداً الفكرة، لكنها تلح عليه مرة أخرى.

لقد كان يقول لنفسه، أو كانت نفسه تقول له: (لقد قالوا لنا إن المسيح صلب وعذب ولم يكن قادراً على تخليص نفسه من الصلب والتعذيب المبرح.. فكيف يتأتى له أن يخلصنا ؟!)

ولم تتوقف مثل هذه الخواطر عند ذلك العمر وعند ذلك الحد..

لقد امتدت خواطره أو وساوسه إلى الأسرار السبعة متعجبا منها:

السر الأول، وهو (التعميد) ببئر داخل الكنيسة.. صلى عليها فحل بها الروح القدس.. الطفل يغمس فيها فيصبح مسيحيا بكل بساطة..

السر الثاني: وهو (الاعتراف) إذ يجلس النصراني المذنب أمام نصراني أكبر منه رتبة (قس - مطران – بطريك – بابا) ليعترف أمامه بكل شيء ويضع الأخير عصاه على رأسه ويتمتم ببعض الكلمات مانحاً إياه صك الغفران..

وقد أخبرني عن حوار دار بين بعض القسس، وبين طبيب نصراني، يقول الطبيب: القس يغفر لي، فمن يغفر للقس؟.. قال: الغريب... قال: ومن يغفر للبابا؟ قال: الله.. قال: فلماذا لا نعترف لله مباشرة ليغفر لنا؟!.. لماذا نفضح أنفسنا أمام الناس وقد سترنا الله؟!

السر الثالث: هو الشرب من دم المسيح هكذا.. حيث يأتي النصراني بالنبيذ ليصلي عليه القس فيتحول إلى دم مبارك هو دم المسيح ليشربه النصراني بِوَلَهٍ وخشوع.

ويتساءل صاحبنا: إذا كان المسيح مخلصنا، فلماذا نشرب من دمه؟

السر الرابع: هو أكل لحم المسيح، قرابين تصنع من الدقيق ليرتل عليها القس فتتحول إلى جزء من جسد المسيح يأكلونه، وتساءلت النفس المتمردة.. لماذا نأكل لحم المسيح وهو إلهنا وأبونا؟!

والأسرار الثلاثة الأخيرة هي الأب والابن والروح القـدس.. ويقولـون تثليث في توحيـد.. وكل ذلك لا يمكن أن يقبله عقل.

وأخبرني أن نفسه كانت تتألم، وهو يسمع صوت القس ومعه جموع المخدوعين بقانون الإيمان.. وهم يقولون (بالحقيقة نؤمن).. بـ (إله واحد).. الأب.. ضابط الكل.. خالق السـماء والأرض.. ما يرى وما لا يرى.. نؤمن برب واحد يسوع المسيح.. ابن اللـه الوحيـد.. المولـود من الأب قبل كل الدهور.. نور من نور.. إله حق.. إله حق.. مولـود غـير مخلـوق.. تسـاوى الأب في الجوهر.. هذا الذي كان به كل شيء.. هـذا الـذي كـان من أجلنـا – نحن البشـر – نزل من السماء فتجسد من الروح القدس ومن مريم العـذراء.. وصـلب وقـبر عنـا.. وقـام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتاب.. و.. و..

لقد كان يتعجب من ذلك التناقض، فهم يقولون: إله واحد، ثم يقولون المسيح ابن اللــه الوحيد؟!.. كيف وكل مولود مخلوق!!

ويقولون: صلب وقبر من أجلنا.. فكيف يليق بالرب خالق الكون أن يصلبه ويعذبـه أحـد خلقه؟!

وأخبرني عن كيفية دخوله الإسلام، فذكر أنه مضـى إلى الهيكـل مباشـرة حيث لا يـرى من بداخله.. وسجد مثلما يسجد المسـلم.. وبكى بحرقـة، وابتهـل إلى رب الخلـق أجمعين الواحد الأحد، وقال: ربي.. أنت تعلم أنني في حيرة شديدة، فإن كانت النصرانية هي الحـق فاجعل روح القدس تحل عليّ الآن.. وإن كان الإسلام هو الحق فأدخله في قلبي.

وقد أخبرني أنه ما إن قال حتى انشرح صدره للإسلام.

وقبل أن يخرج من الكنيسة عـرج على القس وألقى عليـه بعض التسـاؤلات.. لم يجبـه ولكن سأل: هل تقرأ القرآن؟ فقال: نعم.. اكفهر وجه القس وصرخ: نحن فقط الذين نقرأ القرآن أما أنت والعامة فلا.. وخرج ولم يعد للكنيسة.

وأخبرني بالبلاء الذي تعرض له بعد إسلامه، وبأنواع الفضـل الـتي وهبهـا اللـه لـه هديـة لإسلامه.

رحمة بورنومو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (رحمـة بورنومـو)[1]، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد كان قبل إسلامه قسا وورئيساً للتبشـير في كنيسـة (بيتـل

1) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر 1992.

إنجيل سبينوا)(2).. وهو من عائلة دينية، فقد كان جده قسيساً ينتمي إلى مذهب البروتستانت، وكان أبوه قسيساً على مذهب بانتي كوستا، وكانت والدته معلمة الإنجيل للنساء.

وقد كان حديثه ـ في بحثه عن الحق ـ يشبه حديث سلمان الفارسي، وسأورده عليك كما ذكره لي:

لقد ذكر لي أنه في البدء أنه كان قد امتلأ بما يمتلئ به الكثير من رواد الكنيسة والقائمين عليها من حقد على الإسلام.. قال: لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين، إذ أنني منذ نعومة أظفاري تلقيت التعليم من والدي الذي كان يقول لي دائماً: (إن محمداً رجل بدوي صحراوي ليس له علم ولا دراية، ولا يقرأ وأنه أمي)، هكذا علمني أبي، بل أكثر من ذلك فقد قرأت للبروفسور الدكتور ريكولدي النصراني الفرنسي قوله في كتاب له بأن محمداً رجل دجال يسكن في الدرك التاسع من النار، وهكذا كانت تساق المفتريات الكثيرة لتشويه شخصية الرسول ﷺ، ومنذ ذلك الحين تكونت لدي فكرة مغلوطة راسخة تدفعني إلى رفض الإسلام، وعدم اتخاذه ديناً.

وقد كانت هذه الشبهات هي السبب في تأخر إسلامه.. فهو لم يكتشف الإسلام إلا بعد أن مر على مذاهب مختلفة، وديانات مختلفة.

قلت: ما الذي جعله يفكر في تغيير دينه؟

قال: لقد ذكر لي قصة ذلك، فقال: (في يوم من الأيام أرسلتني قيادة الكنيسة للقيام بأعمال تبشيرية لمدة ثلاثة أيام ولياليها في منطقة (دايري) التي تبعد عن عاصمة (ميدان) الواقعة في شمال جزيرة (سومطرة) بضع مئات من الكيلومترات، ولما انتهيت من أعمال التبشير والدعوة أويت إلى دار مسئول الكنيسة في تلك المنطقة، وكنت في انتظار وصول سيارة تقلني إلى موقع عملي، وإذا برجل يطلع علينا فجأة، لقد كان معلماً للقرآن، وهو ما يسمى في إندونيسيا مطوع في الكُتَّاب، وهو المدرسة البسيطة التي تعلم القرآن، لقد كان الرجل ملفتاً للأنظار، كان نحيف الجسم، دقيق العود يرتدي كوفية بيضاء بالية خلقة، ولباساً قد تبدل لونه من كثرة الاستعمال، حتى أن نعله كان مربوطاً بأسلاك لشدة قدمه، اقترب الرجل مني، وبعد أن بادلني التحية بادرني بالسؤال التالي، وكان سؤالاً غريباً من نوعه، قال: (لقد ذكرت في حديثك أن عيسى المسيح إله، فأين دليلك على ألوهيته؟)، فقلت له: (سواء أكان هناك دليل أم لا فالأمر لا يهمك: إن شئت فلتؤمن، وإن شئت فلتكفر) وهنا أدار الرجل ظهره لي، وانصرف، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد

2) انظر: كتاب (علو الهمة) للشيخ محمد بن إسماعيل ص (239-254) بتصرف.

أخذت أفكر في قرارة نفسي، وأقول: هيهات هيهات أن يدخل هذا الرجل الجنة، لأنها مخصصة فقط لمن يؤمن بألوهية المسيح فحسب، هكذا كنت أعتقد جازماً آنذاك.

ولكن عندما عدت إلى بيتي وجدت أن صوت الرجل يجلجل في روعي، ويدق بقوة في أسماعي، مما دفعني إلى الرجوع إلى كتب الإنجيل بحثاً عن الجواب الصحيح على سؤاله)

ثم ذكر لي أنه أخذ يدرس الأناجيل الأربعة ليبحث فيها عن الدليل.. قال: (فماذا وجدت؟ هذا إنجيل متَّى ماذا يقول عن المسيح عيسى عليه السلام؟ إننا نقرأ فيه ما يلي: (إن عيسى المسيح ينتسب إلى إبراهيم وإلى داود.. إلخ) (1-1) إذن من هو عيسى؟ أليس من بني البشر؟ نعم إذن فهو إنسان، وهذا إنجيل لوقا يقول: (ويملك علي بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية) (1-33)، وهذا إنجيل مرقس يقول: (هذه سلسلة من نسب عيسى المسيح ابن الله) (1:) وأخيراً ماذا يقول إنجيل يوحنا عن عيسى المسيح عليه السلام؟ إنه يقول: (في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله) (1:1)، ومعنى هذا النص هو في البدء كان المسيح، والمسيح عند الله، والمسيح هو الله.

قلت لنفسي: إذن هناك خلافا بارزا بين هذه الكتب الأربعة حول ذات المسيح عيسى عليه السلام أهو إنسان أم ابن الله أم ملك أم هو الله؟ لقد أشكل عليَّ ذلك، ولم أعثر على جواب.

ثم واصلت البحث، فوجدت في إنجيل يوحنا نصوصاً تشير إلى دعاء المسيح عليه السلام وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى. فقلت في نفسي: لو كان عيسى هو الله القادر على كل شيء فهل يحتاج إلى هذا التضرع والدعاء الذي ورد في إنجيل يوحنا، هذا هو نص الدعاء: (هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته) (17-3-4) وهو دعاء طويل يقول في نهايته: (أيها الرب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به) (17-25-26).

هذا الدعاء يمثل اعترافاً من عيسى عليه السلام بأن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، فأي قوم هم هؤلاء يا ترى؟ نقرأ جواب ذلك في إنجيل متَّى (15-24) حيث يقول: (لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)، إذن لو ضممنا هذه الاعترافات إلى بعضها لأمكننا أن نقول: (إن الله الواحد الأحد، وإن عيسى عليه السلام هو رسول الله إلى بني إسرائيل).

ثم واصلت البحث، فتذكرت أنني حين أكون في صلاتي أقرأ دائماً العبارات التالية: (الله

الأب، الله الابن، الله الروح القدس، ثلاثة في أقنوم واحد)، قلت لنفسي: أمر غـريب حقـاً، فلو سألنا طالباً في الصف الأول الابتـدائي (1+1+1=3؟)، لقـال: (نعم)، ثم إذا قلنـا لـه: (ولكن أيضاً 3=1)، لما وافق على ذلك، إذ إن هناك تناقضاً صريحاً فيما نقول، لأن عيسـى عليه السلام يقول في الإنجيل كما رأينا بأن الله واحد، لا شريك له.

لقد حدث تناقض صريح بين العقيدة التي كانت راسـخة في نفسـي منـذ أن كنت طفلاً صغيراً، وهي: ثلاثة في واحد، وبين ما يعترف بـه المسـيح عيسـى نفسـه في كتب الإنجيـل الموجودة الآن بين أيدينا وهي أن الله واحد أحد لا شريك له، فأيهما هو أحق؟

لم يكن بوسعي أن أقرر آنذاك، والحق يقـال، بـأن اللـه واحـد أحـد، فأخـذت أبحث في الإنجيل من جديد لعلي أقع على ما أريد، لقد وجدت في سفر أشعياء النص التالي: (اذكروا الأوليات منذ القديم، لأني أنا الله وليس آخـر الإلـه، وليس مثلي) (46:9) ولشـد مـا كـانت دهشـتي عظيمـة حين اعتنقت الإسـلام فوجـدت نفس هـذا المعـنى مطروقـا في سـورة الإخلاص.. نعم، مادام الكلام كلام الله فهو لا يختلـف حيثمـا وجـد، هـذا هـو التعليم الأول أو البديهية الأولى في ديانة المسيحية السـابقة، إذن (ثلاثـة في واحـد) لم يعـد لهـا وجـود في نفسي)

هذا هو السبب الأول الذي جعله يعيد نظره في ديانته..

أما السبب الثاني، فهـو البديهيـة الثانيـة في المسـيحية، والـتي تنص على أن هنـاك مـا يسمى بالذنب الوراثي أو الخطيئـة الأولى، ويُقصـد بهـا أن الـذنب الـذي اقترفـه آدم عليـه السلام عندما أكل الثمرة المحرمة عليه من الشجرة في الجنـة، هـذا الـذنب سـوف يرثـه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه يتحمل هذا الإثم يولد آثماً.

قال: (لقد أخذت أبحث عن حقيقة ذلك، فلجـأت إلى العهـد القـديم فوجـدت في سـفر حزقيال ما يلي: (الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمـل من إثم الابن، بـر البـار عليـه يكون، وشر الشرير عليه يكون، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كـل معاصـيه الـتي فعلهـا لا تـذكر عليـه) (حزقيال 18:20-21).

وهذا المعنى يتفق تماما مع ما ورد في القرآن الكـريم الـذي ينص على هـذا في قولـه تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْـهُ شَـيْءٌ وَلَـوْ كَـانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَمَنْ تَـزَكَّى فَإِنَّمَـا يَتَـزَكَّى لِنَفْسِـهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (فاطر:18)، وقوله ﷺ: (يُولـد ابن آدم على الفطـرة، وأبـواه يهودانـه أو ينصرانه أو يمجسانه)

هذه هي القاعدة في الإسلام، ويوافقها ما جاء في الإنجيل، فكيف يقال: (إن خطيئة آدم تنتقل من جيل إلى جيل، وأن الإنسان يولد آثماً؟)

أما السبب الثالث الذي دعاه إلى مراجعة معتقداته فهي البديهية الثالثة في التعاليم المسيحية، والتي تقول: إن ذنوب بني البشر لا تغفر حتى يصلب عيسى عليه السلام، يقول: (لقد أخذت أفكر في هذه البديهية، وأتساءل: (هل هذا صحيح؟) وكان الجواب الذي لا مفر منه: بالطبع لا، لأن النص الآنف الذكر من العهد القديم ينفي مثل هذا الاعتقاد بقوله: (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه)، أي أن الله يغفر ذنوبه دون حاجة إلى أية وساطة من أحد.

بالإضافة إلى هذا، فقد راوده ـ بناء على هذا ـ شك عيظم في المعنى الذي يفهمه المسيحيون من الخلاص المسيحي، قال: (من التعاليم البديهية في الديانة المسيحية أن عيسى عليه السلام هو المنقذ المخلِّص للعالم، أي أنك إذا آمنت بألوهية عيسى فسوف تنجو، وهذا يعني أنك يمكنك أن تفعل ما تشاء غيرَ آبهٍ بالذنوب والمعاصي ما دمت تؤمن بعيسى كمنقذ لك، شريطة أن تكون علي يقين بأنك من التابعين، قلت لنفسي: لا بد أن أبحث في الإنجيل وأعرف الحق من الباطل في ذلك، في سفر أعمال الرسل رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس يقول: الله قد أقام الرب وسيُقيمنا نحن أيضاً بقوته (6:14)، والقصة كما وردت في التعاليم المسيحية فيه كالآتي: أنه لما قبضوا على السيد المسيح عرضوه أمام العدالة فحكم عليه بالصلب، ثم دُفن فهنا تأتي الآية مناسبة لتلك القصة.

لقد علق (رحمة بورنومو) على هذا بقوله: (لقد تأملت هذه الآية طويلاً ثم قلت: إذا لم يتدخل الله في إقامة المسيح من القبر لبقي مدفوناً تحت التراب إلى يوم القيامة، إذن ما دام المسيح لم يستطع إنقاذ نفسه فكيف يكون بوسعه إنقاذ الآخرين؟ هل يليق بإله ـ كما يزعمون ـ أن يكون عاجزاً عن ذلك؟)

قلت: كل ما ذكرته أسباب قوية يمكنها أن تزحزح أي مسيحي عن دينه.. فهل انتقل نتيجة لهذا إلا الإسلام؟

قال: لقد ذكرت لك ما امتلأ به الرجل من الشبهات.. ولهذا جعل الإسلام آخر تطوافه الباحث عن الحق.

لقد قال لي: (عند ذلك عزمت على الخروج من الكنيسة وعدم الذهاب إليها، كان ذلك في عام 1969 حيث خرجت فعلاً ولم أعد أتردد على الكنيسة، وليس معنى ذلك أنني

خرجت ذلك الحين من الديانة النصرانية نفسها، لأنه كما هو معلوم هناك كنـائس ومـذاهب شـتى في الديانـة النصـرانية، فهنـاك الكاثوليـك، والبروتسـتانت، والميثوديسـت، والبلاي كسلامتن، واليونيتاريان، وغيرها كثير، حتى أنني أستطيع أن أقول بأن هنـاك أكـثر من 360 مذهباً في الديانة النصرانية.

وذات يوم لقيت صديقاً لي فدعاني إلى الكاثوليكية، وأخذ يعدد ممـيزات لهـذا المـذهب لم أجـد مثلهـا في مـذهبي البروتسـتانتي، قـال صـديقي: (في هـذا المـذهب توجـد حجـرة الغفران، وهي عبارة عن غرفة في الكنيسة يجلس فيها قس ذو لحية كثيفـة يرتـدي لباسـاً أسود، ويقعد على كرسي عال، ومن طلب العفو والغفران ذهب إليـه، ورددَ بعض الألفـاظ الغير المفهومة، وما أن يكاد يفرغُ من قراءتها حتى يقـال لـه بأنـه بـرئ من ذنوبـه، ويرجـع كيوم ولدته أمه، وهكذا قال لي صديقي، وأضاف قـائلاً: كـل مـا تقـترف يـداك من الـذنوب خلال أيام الأسبوع كفيل بأن يُغفر لك عند ذهابك إلى الكنيسـة يـوم الأحـد، وحصـولك على الغفران. فأنت لا تحتاج إلى الصلاة، ولا إلى العبادة، ولكن إذا تـركت ذلـك كلـه وذهبت إلى القس، واعترفت أمامه، غُفرت ذنوبك)

قال رحمة بورنومو: (لقد تذكرت ما يقرره الإسلام في ذلك، وهو أن البشر مهمـا علت رتبة أحدهم لا يمكن أن يُوكَلَ إليه غفران ذنوب العباد، كمـا أن التوبـة والمغفـرة لا تُسـقط التكاليف والفرائض، بل لا بد للتـائب من أن يـؤدي الصـلوات الخمس اليوميـة في أوقاتهـا، فإذا تركها فلا قيمة لتوبته وعليه إثم كبير لا يمكن أن يتحمله عنه غيره من الناس.

ثم يقول: لقد رأيت الداخلين إلى حجـرة الغفـران في الكنيسـة عليهم أمـارات الحـزن والكآبة لثقل الذنوب، بينما رأيت من يخرج منها وقد علت وجهـه ابتسـامة الفـرح لاعتقـاده بأن ذنوبه قد غفرت له، أما أنا فحين جربت تلك الغرفة دخلتها حزيناً وخـرجت منهـا حزينـاً، لأنني كنت أفكر وأتسائل: (هذه ذنوبنا يتحملها القس، ولكن من يتحمل ذنوبه هـو؟) وهكـذا لم أقتنع بالكاثوليكية فتركتها، وبحثت عن دين آخر.

بعد ذلك تعرفت على طائفة مسيحية أخرى تسمى (شهود يهوه) وهي مذهب آخـر من مذاهب المسيحية، لقيت رئيسهم، وسـألته عن تعـاليم مذهبـه، وقلت لـه: (من تعبـدون؟)، قال: (الله)، قلت: (ومن هو المسـيح؟) فقـال: (عيسـى هـو رسـول اللـه)، فصـادف ذلـك موافقة لما كنت أومن به، وأميل إليه، ودخلت كنيستهم فلم أجد فيها صليباً واحداً، فسـألته عن سر ذلك، فقال: (الصليب علامة الكفر، لذلك لا نعلقه في كنائسنا)

لقد وصف هذه الفترة من حياته، فقال: لقـد أمضـيت ثلاثـة أشـهر كاملـة أتلقى تعـاليم ذلك المذهب، وفي نهايتها كان لي الحوار التالي مع رئيس الكنيسة، وكان هولنديا، قلت له:

(يا سيدي، إذا توفيت على هذا المذهب، فإلى أين مصيري؟) قال: (كالدخان الذي يزول في الهواء)، فقلت متعجباً: (ولكني لست سيجارة، بل أنا إنسان ذو عقل وضمير)، ثم سألته: (وأين أتجه بعد الممات؟)، فقال: (تُوضع في ميدان واسع)، قلت له: (وأين ذلك الميدان؟) قال: (لا أعلم)، قلت: (سيدي إذا كنت عبداً مطيعاً ملتزماً بهذا المذهب، فهل أدخل الجنة؟) قال: (لا)، قلت: (فإلى أين إذن؟) قال: (الذين يدخلون الجنة عددهم 144 ألف شخص فقط، أما أنت فسوف تسكن الأرض مرة أخرى)، وهنا قاطعته قائلاً: (ولكن يا سيدي قد وقعت الواقعة، فالدنيا خربت)، قال: (أنت لا تفهم حقيقة القيامة، لو كان لديك كرسي وفوقه حشرات مؤذية، هل تحرق الكرسي لتتخلص من الحشرات؟) قلت: (لا)، قال: (بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسي سليماً، وهكذا تبقى الأرض سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الناس من ذلك الميدان، فليس هناك ما يسمى بالنار).

وهنا أعملت فكري جيداً، ودرست الأمر وقلبته، حتى اتخذت القرار الأخير بترك المسيحية بجميع مذاهبها رسمياً، كان ذلك في عام 1970، وفي أحد الأيام بينما كنت أسير في طريقي بحثاً عن الحق، رأيت معبداً بوذياً جميلاً ضخماً فاقتربت منه فوجدت فيه عدة تماثيل وصور وفي السقف تمثال لتنين، وعلى الجدران مثل ذلك، كما شاهدت أمام البوابة تمثالين على شكل أسد صامت، وما أن دخلت من البوابة حتى جاءني رجل فأوقفني، وسأل: (إلى أين؟) قلت: (أريد أن أدخل)، قال: (اخلع نعليك قبل أن تدخل، هذا معبد لنا فاحترم مكان عبادتنا)

ثم يقول: (لقد جربت الديانة البوذية فترة من الزمن، ولكن سرعان ما تركتها لإحساسي بأنني لم أجد الحق الذي أنشده، ثم اتصلت بالديانة الهندوسية التي بدأت ونشأت في الهند، والتي انتشرت تعاليمها حتى وصلت إلى بعض الجزر الإندونيسية، فأخذت أتنقل بين تلك الجزر التي يوجد فيها نشاط لأتباع هذا الدين، ومكثت معهم فترة من الزمن تعلمت فيها الكثير، وقد نجحت في المرحلة الأولى إلى درجة أنني أخذت أجرى الخوارق كالعبور في النار، والمشي على المسامير الحادة، وإدخال المسامير في أعضاء الجسم إلى غير ذلك، ولكن أيضاً ليس هذا هو ما كنت أبحث عنه)

ثم يضيف: وذات يوم سألت رئيس المعبد الهندوسي: (ماذا تعبدون؟)، قال: نعبد (برهما، ويشنو، وشيوا)، برهما: إله الخلق، ويشنو: إله الخير، وشيوا: إله الشر، ثلاثة آلهة تجلت في جسد إنسان واحد اسمه كريشنا الذي يعتبر المنقذ للعالم عند الهندوس، قلت لنفسي: (إذن فلا فرق في أمر الألوهية بين الهندوسية والنصرانية، ولو اختلفت الأسماء فهما يناديان ثلاثة في واحد).

قلت للكاهن الهندوسي: (اشرح لي نشأة كريشنا)، فقال: كان في الهند سنة ألفين قبل الميلاد ملك جبار ظالم لا يرحم حتى أبناءه، فيقتل مولده الذكر خوفاً من أن يحتل عرشه غصباً، وفي إحدى الليالي الظلماء كان الملك جالساً أمام قصره، وإذا بكوكب مضئ يطلع في السماء فوق رأسه، وكان يسير بسرعة مذهلة، ثم توقف في الفضاء وأرسل نوره الباهر على حظيرة الأبقار، فلما سأل الملك رجال العلم والدين، راجعوا كتبهم المقدسة، فقالوا: إن ذلك دليل على تجلي الآلهة في جسم إنسان اسمه سري كريشنا، فقلت في نفسي: هذه القصة بحذافيرها مع تغيير الأشخاص موجودة في الديانة المسيحية، وكنت أحدث بها الناس وأنا قس، والفرق أن القرية المشار إليها هي بيت لحم، والإنسان عندنا هو المسيح، فلا فرق إذن بين القصتين ولا بين العقيدتين في قضية أساسية هي قضية الألوهية، وقضية هوية المنقذ للعالم.

لقد واصلت حواري مع الكاهن الهندوسي فقلت له: (يا سيدي إذا توفيت وأنا على دينكم، فإلى أين مصيري؟) قال: (لا أعلم، ولكن عليك أن تمتنع عن قتل الحشرات من أمثال النمل والبعوض وغيرها)، وقال: (قد تكون هذه الحشرات آباءك وأجدادك الموتى)

ثم يقول: (وفي النهاية قررت أن أترك كل تلك الديانات، ولم يكن أمامي إلا الإسلام الذي لم أكن أريد اعتناقه لما غُرس في نفسي منذ طفولتي من نفور وكراهية لهذا الدين الذي لم أكن أعرف عنه إلا الشبهات، كنت أريد البحث عن الحق المجهول وهذا البحث يلزم الجهد والصبر، وذات يوم قلت لزوجتي: اعتباراً من هذه الليلة لا أريد أن يزعجني أحد، أريد أن أصلي وأتضرع إلى الله، وهكذا أقفلت باب حجرتي ورفعت يدي إلى الله خاشعاً متضرعاً قائلاً: (يا رب.. إذا كنت موجوداً حقاً فخذ بناصيتي إلى الهدى والنور، واهدني إلى دينك الحق الذي ارتضيته للناس)

لقد ذكر لي أنه استمر على ذلك زمناً طويلاً، حوالي ثمانية أشهر، قال: وفي ليلة الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر عام 1971م الموافقة للعاشر من رمضان من نفس العام، وبعد أن فرغت من دعائي المعتاد رحت في نوم عميق، وعندها جاءني نور الهدى من الله عز وجل، إذ رأيت العالم حولي في ظلام دامس، ولم يكن بوسعي أن أرى شيئاً، وإذا بجسم شخص يظهر أمامي، فأمنعت النظر فيه، فإذا بنور حبيب يشع منه يبدد الظلمة من حولي، لقد تقدم الرجل المبارك نحوي، فرأيته يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء، له لحية جعدة الشعر، ووجه باسم لم أر قط مثله من قبل جمالاً وإشراقاً، لقد خاطبني الرجل بصوت حبيب قائلاً: (ردد الشهادتين)، وما كنت حينئذٍ أعلم شيئاً اسمه الشهادتين، فقلت مستفسراً: (وما الشهادتان؟) فقال: (قل: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) فكررتهما وراءه ثلاث مرات، ثم ذهب الرجل عني.

ولما استيقظت من نومي وجدت جسمي مبللاً بالعرق، وسألت أول مسلم قابلتـه: (مـا هي الشـهادتين، ومـا قيمتهمـا في الإسـلام؟)، فقـال: (الشـهادتان همـا الـركن الأول في الإسلام، ما أن ينطقهما الرجل حتى يصبح مسلماً)، فاستفسرت منـه عن معناهمـا فشـرح لي المعنى.

وبعد عشرين يوماً من ذلك الحادث وكانت ليلـة عيـد الفطـر سـمعت صـيحات التكبـير يرددها المسلمون من المسـاجد القريبـة من دارنـا، فاقشـعر بـدني واهـتز قلـبي، ودمعت عيناي لا حزناً على شيء، بل شكراً لله على هذه النعمة، فالحمـد للـه الـذي هـداني أخـيراً إلى ما كنت أبحث عنه منذ سنين، لقـد تم ذلـك في عـام 1971م وقـد خَيَّرتُ زوجـتي بين الإسلام والمسيحية، فاختارت الإسلام، والجدير بالذكر أنها كانت في طفولتها مسـلمة ومن عائلة مسلمة تنصرت بسبب إغراءات المبشرين، وتبعـاً لجهلهـا بـأمور دينهـا الحـنيف، كمـا تبعنا أبناؤنا فاعتنقوا الإسلام، ومنذ الثـاني من شـهر فـبراير عـام 1972م ونحن مسـلمون والحمد لله.

عزت اسحاق معوض:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (عزت اسـحاق معـوض)[1]، فسألت الغريب عنه، فقال: وقد التقيت به في مصر.. وقد لاحظت في كلامـه نفحـات الصـدق الـتي أخـبرني عنهـا معلم السـلام، فسـألته عنـه، فقـال لي: كنت عـزت اسـحاق معوض.. وأنا الآن محمد أحمد الرفاعي.. وكنت قُمُّصاً مسيحيا لا أهدأولا أسكن عن الدعوة إلى المسيحية.. وأنا الآن بحمد الله مسلم لا أمارس إلا حرفة واحدة هي الدعوة إلى اللــه، وإلى الإسلام العظيم الذي شرفني الله به.

قلت: فما قصة إسلامك؟

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قـال: نشـأت في أسـرة مسـيحية مترابطـة والتحقت بقداس الأحد وقد كان عمري حينها أربع سـنوات.. وفي سـن الثامنـة كنت أحـد شمامسـة الكنيسة، وتميزت عن أقراني بإلمامي بالقبطية وقدرتي على القراءة من الكتاب المقدس على الجماهير.

ثم تمت إجراءات إعدادي للالتحاق بالكلية الأكليريكيـة، لأصـبح بعـدها كاهنـاً، ثم قُمُّصـاً، ولكنني عندما بلغت سن الشباب بدأت أرى ما يحـدث من مهـازل بين الشـباب والشـابات داخـل الكنيسـة وبعلم القساوسة[2]، وبـدأت أشـعر بسـخط داخلي على الكنيسـة، وتلفت

1) انظر: صحيفة (المسلمون) ـ الصادرة في 4 / 10 / 1991 (بتصرف)

2) انظر بعض الشهادات المرتبطة بهذا في الرسالة السابقة.

حولي، فوجدت النساء يـدخلن الكنيسـة متبرجـات ويجـاورن الرجـال، والجميـع يصـلي بلا طهارة وهم يرددون ما يقوله القس بدون أن يفهموا شـيئاً على الإطلاق، وإنمـا هـو مجـرد تعود على سماع ذلك الكلام.

وعندما بدأت أقرأ أكثر عن المسيحية وجدت أن مـا يسـمى (القـداس الإلهي) ــ الـذي يتردد في الصلوات ـ ليس له دليل من الكتاب المقدس.

بالإضافة إلى هذا الخلافات الكثيرة بين الطوائف المختلفة، بل وداخل كـل طائفـة على حدة،وذلك حول تفسير (الثالوث) وغيره..وكنت أشعر بنفور شديد من مسألة تنـاول النبيـذ وقطعة القربان من يد القسيس والتي ترمز إلى دم المسيحوجسده.

قلت: فكيف انجذبت إلى الإسلام؟

قال: بينما كان الشك يراودني في المسيحية بسبب طقوسها وعقائدها وانحرافاتها كان يجذبني شكل المسلمين في الصلاة والخشوع والسكينة الـتي تحيـط بالمكـان بـرغم أنـني كنت لا أفهم ما يرددون.. وكنت عندما يُقـرأ القـرآن يلفت انتبـاهي لسـماعه وأحس بشـئ غريب داخلي برغم أنني نشأت على كراهية المسلمين.. وكنت معجباً بصيام شهر رمضـان وأجده أفضل من صيام الزيت الذي لم يـرد ذكـره في الكتـاب المقـدس، وبالفعـل صـمت أياماً من شهر رمضان قبل إسلامي.

ثم بعد ذلك.. بدأت الشعور بأن المسيحية دين غير كاملومشـوه يشـتد علي، غـير أنـني ظللت متأرجحاً بين المسيحية والإسلام ثلاث سـنوات انقطعت خلالهـا عن الكنيسـة تمامـاً، وبدأت أقرأ كثيراً وأقارن بين الأديان، وكانت لي حوارات مع إخوة مسلمين كان لهـا الـدور الكبير في إحداث حركة فكرية لديّ.. وكنت أرى أن المسلم غـير المتبحـر في دينـه يحمـل من العلم والثقـة بصـدق دينـه مـا يفـوق مـا لـدى أي مسـيحي، حيث إن زاد الإسـلام من القرآنوالسـنة النبويـة في متنـاول الجميـع رجـالاً ونسـاءً وأطفـالاً، في حين أن هنـاك بعض الأسفار بالكتاب المقدس ممنوع أن يقرأها المسـيحي قبـل بلـوغ سـن الخامسـةوالثلاثين، ويفضل أن يكون متزوجاً حين قراءتها(1).

قلت: فكيف بدأت نقطة التحول في حياتك؟.. أو كيف استطعت أن تقهر تلـك السـدود والحجب التي كانت تحول بينك وبين الإسلام؟

قال: كانت نقطة التحول في حياتي في أول شهر سبتمبر عـام 1988 عنـدما جلسـت إلى شيخيوأستاذي (رفاعي سرور) لأول مرة وناقشني وحاورني لأكـثر من سـاعة،وطلبت

---

1) انظر فصل (الأدب) من رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

منه في آخر الجلسة أن يقرئني الشهادتين ويعلمني الصلاة، فطلب مني الاغتسال، فاغتسلت ونطقت بالشهادتين وأشهرت إسلامي وتسميت باسم (محمد أحمد الرفاعي) بعد أن تبرأت من اسمي القديم (عزت إسحاق معوض)(1)وألغيته من جميع الوثائق الرسمية.. كما أزلت الصليب المرسوم على يدي بعملية جراحية(2)..

قلت: فهل ابتليت في دينك كما ابتلي الكثير ممن أعلنوا إسلامهم؟

قال: لقد كان أول بلاء لي في الإسلام هو مقاطعة أهلي لي.. ورفض أبي أن أحصل على حقوقي المادية وعن نصيبي في شركة كانت بيننا، ولكنني لم أكترث، ودخلت الإسلام صفر اليدين، ولكن الله عوضني عن ذلك بأخوة الإسلام، وبعمل يدر عليّ دخلاً طيباً.

قلت: فما الذي ترجو؟

قال: كل ما آمله من حياتي ألا أكون مسلماً إسلاماً يعود بالنفع عليّ وحدي فقط، ولكن أن أكون نافعاً لغيري وأساهم بما لديّ من علم بالمسيحية والإسلام في الدعوة لدين الله تعالى.

قال ذلك بروحانية أحسست تأثيرها في قلبي.. ثم انصرف بعد أن منحني أشعة جديدة من شمس محمد ﷺ.

القس عيسي بياجو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (القس عيسي بياجو)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به في رحلة لي إلى الفلبين في مهمة تبشرية، وقد تعجبت من كثرة من يدخل الإسلام من الفلبينيين، وقد جرى لي معه هذا الحديث:

قلت: لقد سمعت أنك كنت قساً كاثوليكياً.

قال: أجل.. أنا كريسانتو بياجو.. هذا هو اسمي الأصلي.. وقد درست في المعهد اللاهوتي، وحصلت على درجة الليسانس في اللاهوت، وعملت كقس كاثوليكي.

قلت: إن الإسلام يتعرض في هذه البلاد لتشويهات كثيرة، فما الذي جعلك تنصرف عن تلك الشبهات؟.. أو ما الذي جعل الشبهات يضعف تأثيرها فيك؟

---

1) لقد ذكرنا أنه ليس ضروريا تغيير المنتمي للإسلام اسمه، فالنبي ﷺ لم يغير أسماء الكثير من الصحابة، والذين غير أسماءهم لم يغيرها إلا بإذنهم، بل هناك من الصحابة من لم يرض بتغيير اسمه.. فلا ينبغي على المسلمين التشدد في هذا، لأنه قد يكون حجابا من الحجب عن الإسلام.

2) وهذا أيضا ليس شرطا.. بل إنه يحرم إذا أدى ذلك إلى ضرر في بدنه.

قال: صدقت.. وقد أثرت في تلك الشبهات تأثيرا كبيرا جعلت إسلامي يتأخر كثيرا.. لقد كنت أسمع عن المسلمين كمجموعة من الناس، ولم تكن عنـدي فكـرة عمـا يـدينون بـه.. وفي ذلك الحين كنت لا أطيق حتى مجرد سماع اسمهم نظراً للدعاية العالمية الـتي توجـه ضـدهم.. وحـتى المسـلمون المنتمـون إلى (.. !؟) في الفلـبين كـان يُعطى الإيحـاء بـأنهم قراصنة وهمجيون، يسهل عليهم العدوان وسفك الدماء.

ولم يكن هذا الشعور خاصا بي.. بل كان يشاركني فيه معظم مسـيحيي الفلـبين الـذين يمثلون 90% من السكان.

وذات يوم حضرت محاضرة ألقاهـا منصّـر أمـريكي اسـمه (بيـتر جـوينج) عن الإسـلام، فأخذتني الرغبة في التعـرف على هـذا الـدين، وانطلقت لأقـرأ بعض الرسـائل عن أركـان الإيمان، وأركان الإسلام، وعن قصص الأنبياء، فدهشت من أن الإسلام يؤمن بالإنبياء الـذين من أهمهم المسيح عليه السلام.. وقد كانت تلك المحاضرة هي بداية الشوق الـذي وضـعه الله في قلبي للبحث عن الإسلام.

وقد كانت مشكلتي نقص الكتب التي تتكلم عن الإسلام وعن القرآن ولكني لم أيـأس، لأنني كنت أستحضر من كلام المبشر الأمريكي قوله (إن التوراة فيها أخطـاء)، ممـا أدخـل الشك في نفسي، فبدأت أكوّن فكرتي عن الدين الحق الذي أومن به.

ولم أجد الإجابات عن الأسئلة التي جالت آنئذٍ في صـدري حـول الإنجيـل، وكلمـا حللت مشكلة أو أجبت عن سؤال، ظهرت مشاكل كثيرة وأسئلة أكثر.. فلجأت إلى تفريـغ ذهـني من كل فكرة مسبقة، ودعوت الله أن يهديني إلى الحق.

وكان من المفارقات العجيبة أنـني كقسـيس كنت أعلّم النـاس مـا لا أعتقـده، فمثلاً لم أكن على الإطلاق مقتنعاً بفكرة الخطيئة الأصلية، والصّلب، إذ كيف يحمّل الله إنساناً ذنوب الآخرين؟هذا ظلم، ولماذا لا يغفرها الله ابتداءً؟وكيف يفعل الأب هذا بابنه؟ أليس هذا إيـذاءً للأبناء بغير حق؟ وما الفرق بين هذا وبين ما يفعله الناس من إساءة معاملة الأطفال؟

بدأت أبحث عن الوحي الحقيقي، فتأملت نص التوراة فلم أجد إلا كلاماً مليئـاً بالأخطـاء والتناقضات لا ندري من كتبه ولا من جمعه، فأصل التوراة مفقود، وهناك أكثر من توراة.

اهـتزت عقيـدتي تمامـاً، ولكـني كنت أمـارس عملي، لئلا أفقـد مصـدر دخلي وكـل امتيـازاتي.. ومـرت سـنتان وأنـا على هـذا الحـال حـتى جـاء يـوم لقيت فيـه جماعـة من المسلمين يوزعون كتيبات عن الإسلام، فأخذت منهم واحداً قرأته بشـغف، ثم سـعيت إلى مناقشة تلك الجماعة التي كانت توزع تلك الكتيبـات، فقـد كنت أحب الجـدال والمنـاظرة،

وهذا ليس غريباً، ففي الفلبين جماعات مسيحية متصارعة يقارب عـددها 20 ألـف جماعـة وكثيراً ما كنت أمارس الجدال والمناظرة مع بعض تلك الجماعات.

فلما جلست مع ذلك الفريق المسلم في إحدى الحدائق فـوجئت بـأن الـذي يحـاورني كان قسيساً كبيراً دخل الإسلام، فأخذت أنصت لكلامه عن النظام السياسـي في الإسـلام، فأعجبني لأنني كنت أحب المساواة التي لم أجدها في النظم البشرية، ولكني حينئذٍ وجدتها في دين مبني على كلام الله ووحيه إلى خلقه.

سـألت المتحـدث عن سـبب اعتناقـه للإسـلام، ثم عن الفـرق بين القـرآن والإنجيـل فأعطاني كتاباً لرجل اسـمه أحمـد ديـدات.. قـرأت الكتـاب فوجـدت فيـه الإجابـة عن كـل تساؤلاتي حول الإنجيل واقتنعت تماماً، ثم أخذت أقابـل ذلـك الرجـل كـل يـوم جمعـة بعـد الظهر لأسأله عن كل شيء، وكان من فضولي أن سألته عن محمد ﷺ، وهل هو من نسل إسماعيل؟ فذكر لي أن في التوراة الموجودة حالياً ذكر محمد ﷺ، وأعطاني مقاطع كثـيرة من التوراة في هذا الصدد.

أخذت أبحث لأقتنع، وكان من دواعي اطمئناني أن إيماني بعيسى عليه السلام يجعلـني أقبل الإيمان بمحمد ﷺ، واستمر بحثي شهرين، شعرت بعدهما ببعض التردد، لخـوفي على مستقبلي لأنني أعلم يقيناً أنني لو أسلمت فسأخسر كل شـيء: المـال، ودرجـتي العلميـة، والكنيسة، وسأخسر والديّ وإخـوتي، وكـان الشـيء الـذي هـزني هـو عجـزي عن تـدريس الناس العقيدة المسيحية إذ أصبحت بارداً جداً وغير مقتنع بما أقول.

تركت قراءة التوراة حتى لاحظ والداي ذلـك، ثم لقيت صـديقي المسـلم، وسـألته عن الصلاة، فقال لي: الشهادة أولاً، فرفعت أصـبعي بتلقائيـة وقلت خلفـه: أشـهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولم أكن أعرف معنى هـذا القـول حـتى شـرحه هـو لي بعـد ذلك، وقلت: وأشهد أن عيسى رسول الله.

كـان في المجلس مسـلمون كثـيرون من جنسـيات مختلفـة فقـام الجميـع وعـانقوني وهنأوني، فقلت في نفسـي: كـل هـؤلاء مسـلمون رغم اختلاف جنسـياتهم وألـوانهم، لقـد جمعهم الإسلام بلا تمييز، فلماذا التمييز في المسيحية حتى تجد جماعـات مسـيحية للـبيض وجماعات مسيحية للسود؟

فـرجعت إلى بيـتي ونطقت بالشـهادة باللغـة الانجليزيـة بيـني وبين اللـه تعـالى فليس يهمني الناس، بقيت على إسلامي من غير أن يعلم أحد من معارفي، وكنت أدخل الكنيسـة لمدة ستة أسابيع، لأنزع بعد ذلك فتيل القنبلة وأعلن إسلامي، فغضب والداي أشد الغضب.

وجاء الكاهن الأكبر إلى المنزل ليناقشني، فعرضت عليه ما عندي من تناقضات الإنجيل، فكلمني عن بعض الشبهات التي تثار حول الإسلام فقلت له: أقنعني أولاً أن محمداً ليس رسولاً من عند الله، فوعدني ولكن لم يرجع، وسمعت بعد ذلك أن الكنيسة كلها تصلي من أجلي لأرجع إلى عقلي، وكأنني صرت مجنوناً.

بدأت بعد ذلك أثبّت قدمي في الإسلام ـ دراسة وتعلماً ــ وكنت ألقي بعد ذلك برامج إسلامية في التلفزيون والإذاعة المحلية التي تمولها الجهات الإسلامية.

واعتنق الإسلام بعد ذلك أبي وأمي وأختي وزوجها وابن أخي وبنت أختي .. وأحمد الله على أن كنت سبب هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

سألته عن المدى الذي ينتشر فيه الإسلام في الفلبين، فقال لي: يدخل في الإسلام كل شهر أكثر من أربعمائة من مسيحيي الفلبين حسب السجلات الرسمية، أما العدد الحقيقي فالمرجح أنه أكثر من ذلك.. ومعظم أهل الفلبين مسيحيون بالاسم فقط ولايجدون من يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم من يقتنع بالإسلام، ولكن يعوقه عن اعتناقه عامل الخوف من المستقبل لأنه سيفقد الأسرة وسيفقد العمل، فالناس هناك لا تقبل توظيف من ترك المسيحية.

سألته عن السر في هذا الإقبال الشديد على الإسلام في هذه البلاد، فقال: إنها المعاملة الطيبة.. إنها أخلاق الإسلام.. فكثير ممن أسلموا كان دافعهم إلى الاقتراب من عقيدة التوحيد معاملة المسلمين الحسنة لهم، كأن يكون صاحب العمل مسلماً حسن المعاملة، أو زميلاً لمسلم حسن الصحبة ودمث الأخلاق.. وكثير ممن أسلموا في الفلبين لم يسلموا إلا بعد أن عادوا إلى بلادهم بعد العمل في بلد إسلامي، إذ أحسوا بالفرق عندما فقدوا المناخ الإسلامي، فتبخرت كل أوهامهم وشكوكهم حول الإسلام، فأعلنوا إسلامهم بعيداً عن كل ضغط أو تأثير.

وقد ذكر لي أن من أسباب ذلك الإقبال الشديد على الإسلام هو تأثر الناس برؤية منظر المسلمين وهم يصلّون.

وقد سألته عن سر انتشار الإسلام بين المثقفين ثقافة دينية، فقال: من السهل دعوة هؤلاء.. فيكفي مثل هذا أن نأخذ بيده، وندعوه إلى مقارنة أسفار الكتاب المقدس، ودراسة مقارنة الأديان، فتلك أفضل الوسائل لإقناعه.

وقد سألته عن العقبات التي تحول دون دخول الناس في الإسلام، فقال: أول ما يصد الناس هو الفكرة الخاطئة التي تعشش في أذهانهم عن الإسلام.. بالإضافة إلى سلوكيات

كثير من المسلمين، الذين يعطون صورة سيئة عن الإسلام، ثم الفتاوى الجاهلة التي تصدر من بعض المسلمين من غير علم.. وأخيرا الشبهات التي تثار حول الإسلام من كونه يـدعو إلى الإرهاب، ويسيء معاملة المرأة، فيدعو الرجل إلى طلاقها، وإلى الـزواج بغيرهـا، وأنـه يحرمها من حقوقها ويقهرها ولا يعطيها حريتها.

كرست راجا:

من الأسماء التي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (كرسـت راجـا) [1]، فسألت الغريب عنه، فقال: هو رجل قرأ القـرآن ليجعلـه وسـيلة لبث الشـبه عن الإسـلام، ولكن الله هداه بتلك القراءة، فتحول إلى الإسلام.

وقد التقيت به في ولاية (تملنادو) بأقصى جنوب الهند ـ وذلك في فترة تواجدي بالهنـد، والتي حكيت لك بعض أخبارها ـ وقد وجدته عميق المعرفة بالكتاب المقـدس، وممـا ذكـره لي من قصة إسلامه قوله: كنت في ولادتي الأولى أحمل اسم (كرست راجا).. وقد ولدت فى عائلة مسيحية فى قرية من ولاية تلمنادور، ولغتى التاميلية وأعـرف عـدداً من اللغـات، منذ صغر سنى كنت أحب المسيحية.. وأمثلها أحب المسـيح حبـاً شـديداً.. وقـد كنت أدعـو الله دائما أن يحول المسلمين جميعا إلى المسيحية.

وفى أحد الأيام التقيت بعالم مسلم، فاعتبرتها فرصـة عظيمـة، لكى أناقشـه في بعض الأمور المتعلقة بالإسـلام والمسـيحية، لكنـه سـرعان مـا تحـدانى قـائلا: لن تجـد شـيئاً فى القرآن يخالف العقل، أو يخالف الفطرة.

لقد كان هذا التحـدى سـبباً لأقـرأ القـرآن الكـريم، فقـرأت ترجمـة المعـانى فى اللغـة التاميلية مرتين، فعـرفت أن الإسـلام هـو الـدين الصـحيح، وأن المسـيحية محرفـة، فقبلت الإسلام ديناً.

قلت: بهذه السهولة !؟

قال: أجل.. القرآن الكريم هو كتاب الـدعوة الأكـبر.. لقـد قـال تعـالى فيـه: ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (الفرقان:52)

قلت: فهل تعرضت للبلاء كما تعرض الكثير من إخوانك ممن أسلموا؟

قال: البلاء سنة الله لتمحيص الصادقين.. وقـد تعرضـت بفضـل اللـه لبعض البلاء الـذي تجاوزته بحول الله وقوته.. فالناس كانوا ينظرون إلى نظرة السخرية، وكـانوا يقولـون لي:

---

1) انظر: المجلة الخيرية، العدد: 74، محرم 1417 هـ.

إنـك صـرت مجنونـا، وقـد ضـحكوا على لأنـنى أطلقت اللحيـة بعـد أن كنت متعـودا على حلقها(2)، وتحملت جميع هـذه المشـاكل من قـومى، وصـبرت عليهـا لأنـنى كنت أقـرأ فى القرآن قصص الدعاة والمصلحين من الآنبياء والرسل وتحملهم الأذى والمصائب فى سبيل التبليغ الدعوة إلى الله.

قلت: وأهلك.. أقرب الناس إليك !؟

قال: لقد من الله عليهم، فأسلموا.. لقد أسلمت زوجتى، وثلاثة من أولادى، وقـد أسـلم على يدى بالإضافة إليهم بعض الأخوة الآخرين.

قلت: فما الحرفة التي اتخذتها بعد إسلامك؟

قال: أنت تعلم جيدا أن أحبار النصارى وعلماءهم ودعاتهم يتمتعون بكل نعيم فى الدنيا، ويعيشون عيشة رضية بما يحصلون عليه من المعونات الهائلة من الدول المسيحية.

وقد تركت كل ذلك طمعا بما أعد الله لى فى الآخرة من نعيم فى الجنة، والآن أتجـول فى القرى والمدن ماشيا، وألتقى بالناس أفراداً وجماعـات أوجـه الـدعوة إليهم، وأدعـوهم إلى الإسلام، وأبين لهم أباطيل دينهم، وأبذل جهدى لإيصال ترجمـة معـانى القـرآن الكـريم إلى كل شخص من غير المسلمين، لأننى على يقين أنهم إذا قرأوا القرآن مرة واحـدة من أوله إلى آخره فسيدخلون فى دين الله.

قلت: فأنت تابع لبعض المراكز الإسلامية إذن؟

قال: أجل.. فأنا أشتغل ـ بحمد الله ـ كداعية فى مركز الدعوة للمسلمين الجـدد التـابع لجمعية أهل القرآن والحديث فى ولاية تملنادوا جنوب الهند، والتى تبـذل جهـدها فى نشـر الدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم.

قلت: هل ترضيك جهود المسلمين الدعوية؟

نظر إلي بحزن، ثم قال: إن آلاف القلوب فى هذه المنطقة تنتظر الفرصة للدخول فى الإسلام، وعلى المسلمين مسئولية كبرى، يجب عليهم أن يتمثلوا صورة الإسلام الصـحيحة أولا، ثم يقوموا بالدعوة المستمرة، ويبذلوا جهدهم فى تعريف الإسلام لغير المسـلمين من النصـارى والهنـدوس وغـيرهم، وعلى المؤسسـات والهيئـات الإسـلامية فى داخـل البلاد وخارجها التى تهتم بالشئون الدينية أن تقوم بتوزيع ترجمة معانى القرآن بكية كبيرة.

وأعتقد أن المسلمين هم المسئولون أمام اللـه لتـأخر دخـولى فى الإسـلام، فقـد كنت

2) لقد ذكرنا أنه لا ينبغي التشدد مع من أسلم في هذه الأمور، حتى لا تكون سببا في حجاب الناس عن الإسلام.

جاهلا به أكثر من ثلاثين سنة، وذلك بسـبب تقصـير المسـلمين فى دعـوتى للإسـلام وبيـان معانيه، وإننى أخشى أن يقول الناس جميعاً يوم القيامة أمام الله تعالى مثل قولى هذا.

آرثر ميلاستنوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسـم (آرثـر ميلاسـتنوس) (1)، فسألت الغريب عنه، فقال: وهو دكتور في اللاهوت، وكان الرجل الثالث في مجمع كنائس قارة آسيا، وقد التقيت به في بعض رحلاتي، فلاحظت في كلامه نفحـات الصـدق، فسـألته عن سرها، فقال: في أثناء عملي بالتنصير عام 1983 خطر على بالي خاطر يقول لي: أي ضير في قراءة القرآن من أجل الرد على المسلمين؟

وتلبية لهذا الخاطر توجهت إلى أحد المسلمين سائلاً إياه أن يعـيرني كتـابهم المقـدس، فوافق المسلم مشترطاً علي أن أتوضأ قبل كل قراءة(2).

وعندما قرأت القرآن أول مرة، شعرت بصراع عنيف في أعماقي، فثمة صوت ينـاديني ويحثني على اعتناق هذا الدين، الذي يجعل علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة، لا تحتاج إلى وساطات القسس، ولا تباع فيها صكوك الغفران.

وفي يوم توضأت، ثم أمسـكت بـالقرآن فقـرأت: ﴿ أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُـوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:24)، فأحسستُ بقشعريرة، ثم قرأت:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينـاً ﴾(المائـدة:3)، فحلّت السـكينة في روحي الحـيرى، وشعرت أني قد خُلقت من جديد.

في تلك الليلة لم أصبر حتى تطلع الشمس، بل اتجهت حالاً إلى منزل صديقي المسلم لأسأله عن كيفية الدخول في الإسلام، وبين حيرة الصديق ودهشته نطقت بالشهادتين.

عبدالأحد داود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (عبدالأحد داود)، فسألت الغريب عنه، فقال: لم ألتق به، ولكـني التقيت بعض أحفـاده، وقـد حـدثني عنـه، فـذكر أن اسمه قبل إسلامه كان (دافيد بنجامين الكلداني)(3) .. وكان أستاذا في علم اللاهوت، وكان قسيس الروم الكاثوليك لطائفة الكلدانيين الموحدة، وكان يتكلم عدة لغات.

---

1) انظر: ربحت محمداً ولم أخسر المسيح، د.عبدالمعطي الدالاتي.

2) ذكرنا في المباحث الفقهية المرتبطة بهذا أنه لا ينبغي التشدد مع غير المسلمين في مثل هذا إلا إذا رأينا ذلـك في مصلحة الدعوة الإسلامية كتعريفهم بحرص الإسلام على الطهارة.

3) انظر: (محمد في الكتـاب المقـدس) عبـد الأحـد داود ص (162) - (عظمـاء ومفكـرون يعتنقـون الإسـلام) محمـد طماشي.

وقد ولد عام 1868م، في أروميا من بلاد فارس، وتلقى تعليمه الابتدائي في تلك المدينة، وبين عامي 1886 – 1889م كان أحد موظفي التعليم في إرسالية أساقفة (كانتر بوري) المبعوثة إلى النصارى النسطوريين في بلدته.. وفي عام 1892م أرسل إلى روما حيث تلقى تدريبا منتظما في الدراسات الفلسفية واللاهوتية في كلية (بروبوغاندافيد).. وفي عام 1895م تم ترسيمه كاهنا، وفي هذه الفترة شارك في كتابة سلسلة من المقالات التي تم نشرها في بعض الصحف المتخصصة، وبعد عودته من روما توقف في إستانبول عام 1895م، وأسهم في كتابة ونشر بعض المقالات عن الكنائس الشرقية في الصحف اليومية الإنجليزية والفرنسية.

لم يمكث طويلا في إستانبول، بل عاد في نفس العام إلى بلدته، وانضم إلى إرسالية (لازارست) الفرنسية، ونشر لأول مرة في تأريخ الإرسالية منشورات فصلية دورية باللغة السريانية.

وبعد ذلك بعامين انتدب من قبل اثنين من رؤساء أساقفة الطائفة الكلدانية في بلده لتمثيل الكاثوليك الشرقيين في مؤتمر (القربان المقدس) الذي عقد في مدينة (باري لو مونيال) في فرنسا، وفي عام 1898م عاد إلى قريته ديجالا وافتتح مدرسة بالمجان.

وفي عام 1899م أرسلته السلطات الكنسية إلى سالماس، لتحمل المسئولية، حيث يوجد نزاعات بين بعض القياديين النصارى هناك، وفي عام 1900م ألقى موعظة بليغة شهيرة، حضرها جمع غفير من طائفته وغيرها، وكان موضوعها (عصر جديد ورجال جدد) انتقد فيها تواني بني قومه عن واجبهم الدعوي.

وقد أخبرني حفيده هذا، بأنه كتب رسالة يجيب فيها من سأله عن دوافع إسلامه، وقد رأيت تلك الرسالة، ومما ورد فيها قوله: إن اهتدائي للإسلام لا يمكن أن يعزى لأي سبب سوى عناية الله عز وجل بي، وبدون هداية الله فإن كل القراءات والأبحاث، ومختلف الجهود التي تبذل للوصول إلى الحقيقة لن تكون مجدية، واللحظة التي آمنت بها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، أصبحت نقطة تحولي نحو السلوك النموذجي المؤمن.

ومن الأسباب التي ذكرها في تلك الرسالة، والتي جعلته يعلن عصيانه على الكنيسة، ما تطلبه ممن يؤمن بها من الشفاعة بين الله وبين خلقه في عدد من الأمور، كالشفاعة للخلاص من الجحيم، وكافتقار البشر إلى الشفيع المطلق بصورة مطلقة، وأن هذا الشفيع إله تام وإنسان تام، وأن رهبان الكنيسة أيضا شفعاء مطلقون، كما تأمره الكنيسة بالتوسل إلى شفعاء لا يمكن حصرهم.

وقد ذكر فيها أنه من واقع دراسته لعقيدة الصلب وجد أن القرآن ينكرها والإنجيل المتداول يثبتها، وكلاهما في الأصل من مصدر واحد، فمن الطبيعي ألا يكون بينهما اختلاف، ولكن وقع بينهماالاختلاف والتضاد، فلا بد من الحكم على أحدهما بالتحريف، فاستمر في بحثه وتحقيقه لهذه المسألة حتى توصل إلى الحقيقة، حيث يقول: (ولقد كانت نتيجة تتبعاتي وتحقيقي أن اقتنعت وأيقنت أن قصة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ثم قيامه من بين الأموات قصة خرافية)

ومن الأسباب التي ذكرها اعتقاد النصارى بالتثليث، وادعاؤهم أن الصفة تسبق الموصوف..

بالإضافة إلى هذا كله فقد ذكر أنه التقى بعدد من العلماء المسلمين، وبعد مواجهات عديدة معهم اقتنع بالإسلام واعتنقه.

وقد ذكر أنه نتيجة لذلك اعتزل الدنيا في منزله شهراً كاملاً، يعيد قراءة الكتب المقدسة بلغاتها القديمة وبنصوصها الأصلية مرة بعد مرة، ويدرسها دراسة متعمقة مقارنة ضمّن بعضها في كتابه الفذ (محمد في الكتاب المقدس)

وقد أدته تلك العزلة الباحثة إلى اعتناق الإسلام في مدينة استانبول.. وقد ذكر في ختام رسالته قوله (في اللحظة التي آمنت فيها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، بدأت نقطة تحولي نحو السلوك النموذجي المؤمن.. فـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هذه العقيدة سوف تظل عقيدة كل مؤمن حقيقي بالله حتى يوم الدين ... وأنا مقتنع بأن السبيل الوحيد لفهم معنى الكتاب المقدس وروحه، هو دراسته من وجهة النظر الإسلامية)

محمد فؤاد الهاشمي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (محمد فؤاد الهاشمي)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: وهو صاحب كتاب (الأديان في كفة الميزان).. وقد ذكر لي سبب إسلامه، فقال: (لقد كان قصدي من البحث في الإسلام استخراج العيوب التي أوحى إلي بها أساتذتي، لكن وجدت أن ما زعموه في الإسلام عيوباً هو في الحقيقة مزايا، فأخذ الإسلام بلبي، فانقدت إليه، وآمنت به عن تفكّر ودراسة وتمحيص، وبها كلها رجحت كفة الإسلام، وشالت كفة سواه)

فردريك دولامارك:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (فردريك دولامارك)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد كان هذا الرجل كبير أساقفة جوهانسبرج، وقد اهتزت

1) عن (الإسلام) الدكتور أحمد شلبي ص (288)

دوائر التبشير العالمية بعد إسلامه، فقد أعلن في صحن المركز الإسلامي الكبير بجنيف عن إسلامه، مؤكداً إستعداده للبدء فوراً في قيامه بالتعريف بحقيقة الإسلام، والعمل على نشر تعاليمه في أنحاء القارة الإفريقية.

وسادت الدهشة والذهول أركان الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن أعلن أنه عندما درس الإسلام وجد صورة أخرى مختلفة للمسيح عليه السلام مما أحدث في نفسه أعمق الأثر..

وقد خشيت الكنيسة من تأثر عدد كبير من قادة العمل التبشيري بتلك المفاجأة، حيث اشتهر (فردريك) برجاحة عقله وإنصافه للحقيقة.

والمثير للانتباه أن (فردريك) قد وصلت غيرته على الإسلام إلى حد التأكيد على ضرورة تطوير أساليب الدعوة والاهتمام بدعمها، حيث أن هناك قصوراً في هذا الصدد ينبغي معالجته.. وقد صرح بهذا المعنى في قوله: (من المؤسف حقاً أن الجهود التنصيرية لا تشكو من أي نقص تنظيمي أو حركي أو مالي أو معنوي، وهذا ما نفتقده عند دعاة الإسلام، فضلاً عن المصاعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية)

أشوك كولن يانج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (أشوك كولن يانج) (1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا هو الكاردينال أشوك كولن يانج.. وقد كان أمين عام مجلس الكنائس العالمي لوسط وشرق إفريقيا، وقد احتفظ باسمه، وذكر لي أن سبب ذلك يعود إلى ما ذكره الفقهاء من أنه لا حرج في احتفاظ المسلم باسمه القديم ما لم يحو على دلائل الكفر.. والثاني، هو تحقيق أهداف دعوية، تجعل المسيحيين يثقون فيه، ويقبلون قوله.

وقد التقيت به بعد اعتناقه الإسلام، وسألته عن رحلته للإسلام، فقلت: تغيير الإنسان عقيدته ليس أمراً سهلاً، خاصة إذا كان هذا الإنسان يحتل قمة الهرم الذي يدعو إلى هذه العقيدة.. فما الذي قادك إلى التغيير، ومن ثم اعتناق الإسلام؟

تأمل قليلا فيما ذكرته له، ثم قال: الإنسان ـ مهما علا شأنه ـ إذا كان صادقاً وجاداً في البحث عن الحقيقة، فإنه حتماً سيصل إليها يوماً ما، وهذه الحقيقة التي سيصل إليها إما أنها تعزز ما يؤمن به، أو تهديه إلى سبيل آخر..

قلت: أعلم تأثير الصدق ودوره الخطير في الوصول إلى النتائج العظيمة.. وقد قال الصالحون (من صدق وجد).. ولكني أسألك عن طريق ذلك الصدق.

---

1) انظر: مجلة المجتمع العدد 1644.

قال: تلك قصة طويلة..

قلت: من أين تبدأ؟

قال: من الأناجيل.. فمن صدق في قراءة الإنجيل.. فستهديه لا محالة إلى القرآن.

قلت: هذه الأناجيل التي بين أيدينا !؟

قال: أجل.. هذه الأناجيل التي بين أيدينا.. فقد كانت هي النور الأول الذي وصلت به إلى شمس محمد.

قلت: كيف تم ذلك؟

قال: من خلال أقوال المسيح التي وردت في الأناجيل، فقد جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الثامن فقرة 40 عندما همَّ اليهود بقتله: (ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله).. لقد لاحظت أن المسيح في هذا النص يخبر أنه إنسان اختاره الله وحمّله رسالة وجعله نبياً، ولذلك يقول ـ كما جاء في الإصحاح الثامن فقرة 42 ـ: (لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي بل ذلك أرسلني، لماذا لا تفهمون كلامي؟)

بل صرحت بعض الأناجيل بنبوة عيسى كما جاء في لوقا ـ الإصحاح السابع فقرة 16 ـ: (فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم)، وجاء في متى ـ الإصحاح الحادي والعشرين فقرة (9،ـ 10،ـ 11) ـ: (ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا النبي الذي من ناصرة الجليل)

وهذه النصوص تتفق مع قوله تعالى في القرآن الكريم: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (المائدة:75)

قلت: فأنت ترى أن هذه النصوص التي وردت في الأناجيل كفيلة بتغيير عقيدة المسيحيين من المسيحية إلى الإسلام؟

قال: ذلك صحيح لمن صدق في البحث.. ولم يتوقف عند هذا..

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: الإيمان برسالة سيدنا عيسى عليه السلام يكون بتصديقه فيما أخبر، فلا نرد خبره ولا نكذب قوله ولا نخالفه.

قلت: كل المسيحيين يزعمون أنهم يعتقدون هذا.

قـال: لقـد جـاء المسـيح عليـه السـلام لأمـرين مهمين.. كلاهمـا غفـل عنـه إخواننـا المسيحيون.

قلت: ما هما؟

قال: أما أولهما، فهو تعلم الأمة التي بعث إليها كيف تتقرب إلى الله وتعبده، أما معرفة الله فيذكر المسيح عليه السلام أن الله واحد لا شريك له ولا نظير له ولا شبيه له، فقد جاء في إنجيل (مرقص:12/30) لما سأله الكتبة: أي وصية هي أول الكل؟ فأجابـه يسـوع: (إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل.. الرب إلهنا رب واحد، وتحب الـرب إلهـك من كـل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين فقال له الكاتب: صحيح يا معلم حسب الحق تكلمت فإن الله واحد لا آخر سواه)، وتتأكد هذه الحقيقـة عن ذات اللـه بما جاء في إنجيل (متى: 23 /8) حيث يقول المسيح عليـه السـلام: (وأمـا أنتم فلا تـدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماء).. وجاء في يوحنا في (20 /18) قال المسـيح: (إني أصـعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم)، وكلمـة الأب (أبي وأبيكم) تعـني في لغة الإنجيل الرب أي ربي وربكم.

التفت إلي، وقال: ولهذا تجدني أخـاطب دائمـا محـبي المسـيح قـائلا لهم: ألم تتضـمن وصايا المسيح عليه السلام تعريفاً واضحاً لذات الله العلي الكبير المتفرد، وهو يوافق تماما ما جاء في القرآن، فالله تعالى يقول: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)(الإخلاص)، كما جاء في القرآن الكريم أيضـاً: وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الانبياء:25)

قلت: علمت المهمة الأولى.. فما المهمة الثانية؟

قال: المهمة الثانية للمسيح عيسى عليه السلام هي أن يهدي الأمة التي بعث إليهـا إلى عبادة الله، وهي أمة بني إسرائيل، أما غيرهم من الأمم فلا تعنيهم شريعة عيسى، وهذا مـا تقرره الأناجيل المسيحية، فقد جاء في إنجيل مـتى (15 /5) قـول يسـوع: (لم أُرسـل إلا لخراف بني إسرائيل الضالة)، وجاء في متى (10 /5): (هؤلاء الاثنا عشر أرسـلهم يسـوع وأوصاهم قائلاً: (إلى طـرق أمم لا تمضـوا، وإلى مدينـة السـامريين لا تـدخلوا، بـل اذهبـوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة)

قلت: فما تفيد هذه المعرفة؟

قال: هذه المعرفة تجعل كل مسيحي يبحث عن الرسول الخاتم الذي أرسل للبشر جميعا.. وكل من بحث عن هذا الرسول.. فلن يجد غير محمد، فهو الوحيد الذي جاء في كتابه المقدس: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:28)، وجاء فيه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الانبياء:107)

قلت: حدثني عن تلك اللحظة الخطيرة التي اتخذت فيها أخطر قرار يمكن أن يتخذه إنسان.

سكت قليلا يسترجع ذكرياته، ثم قال: حينما قررت اعتناق الإسلام، ذهبت إلى الكنيسة وتقدمت بطلب إجازة لكي أقضيها مع أسرتي، فطلب مني أن أنتظر حتى تعتمد لي الكنيسة من 50 إلى 100 ألف دولار، لكي أنفقها على أولادي، فقلت لهم أنا لا أريد مالكم، وكانت عندي للكنيسة عمارتان وأموال تبلغ مليونين و400 ألف دولار أمريكي، و 320 مليون جنيه سوداني، فقمت بتسليمها إلى راعي ميزانية التنصير، فكانت مفاجأة كبيرة للكنيسة.

وبعد ذلك قضيت يومين مع أسرتي نفكر في هذا الأمر ونناقشه، وقد كانت أسرتي المكونة من زوجتي وأربعة أبناء تدرك أنني أفكر في اعتناق الإسلام، وحينما أبلغتهم أن الوقت قد حان، كان ردهم أنت أعلم منا ونحن نثق بك وقرارك قرارنا، وبالفعل ذهبنا إلى أحد المساجد المجاورة.. وهو مسجد النور.. وأشهرنا الإسلام.

قلت: فهل خسرت جميع تلك الثروة؟

قال: صحيح أنني خسرت أموالاً كثيرة غير أنني كسبت الإيمان والراحة النفسية بعد 40 سنة قضيتها في الباطل.

قلت: فما فعلت الكنيسة بعد علمها بإسلامك؟

قال: لقد فعلت ما تعودت أن تفعله مع أمثالي.

قلت: ألم تكتف بما أخذته منك من مال؟

قال: لقد رمتني بالجنون.. وهذه سنة قديمة أخبر القرآن أنها ديدن جميع الغافلين.

قلت: أنت إلى الآن لم تحدثني عن الطريق الذي سلكته للتعرف على الإسلام.. أم أنك تتهرب من ذكر ذلك.

ابتسم، وقال: أنا لا أتهرب.. ولكن تلك الذكريات المريرة التي كنت فيها بعيدا عن

الإسلام من الصعب اجترارها.

قلت: فحدثني عنها.

قال: لقد شاء الله أن أدرس مقارنة الأديان، وكان الهدف منها أن أتعرف على الأديان السماوية وغير السماوية من أجل ممارسة التنصير بعلم وخبرة ومنهجية، لكن الله أراد شيئاً آخر، فقد درست الأديان السماوية وهي معروفة، كما درست غير السماوية وهي البوذية والهندوسية وعبادة النار والشمس والشيطان والأصنام.

وخلال مرحلة الدراسة كانت تتكشف أمامي الحقائق عن الإسلام أولاً بأول، وبدأ تكويني الديني يتشكل وأفكاري تتغير وتتداخل.

وفي إحدى مراحل الدراسة أيقنت أن الإسلام هو الدين الصحيح، فكنت حينما أسمع الأذان أتوقف عن إلقاء المحاضرة احتراماً للنداء الإلهي، وحينئذ أصبحت شخصاً بوجهين، وجه يرى أن الإسلام الدين الحق، وأن الله واحد لا شريك له، ووجه يغالط نفسه ويواصل انخراطه في الأعمال الكنسية والتمتع بأموالها الطائلة.

ولما بدا تعاطفي مع الإسلام اجتمع مجالس القساوسة والرهبان والكاردينالات، واجتمع رأيهم على أنني أميل للإسلام.. وهنا مارس مجلس الكنائس ضغوطاً كثيرة عليَّ، ولما فشل قرر إيقافي عن العمل بالكنيسة، وصدر قرار من الكنائس بأن الجنون قد أصابني، قلت لهم: إنني لست مجنوناً، فأنا أخاف الله الواحد ربي وربكم ورب محمد وعيسى، إنني أخاف من عذاب الله، إنني أخاف من الله، وعلمت بعد ذلك أن تقرير الأطباء أثبت أنني لست مجنوناً، ولكنني أتطلع إلى اعتناق الإسلام.

قلت: لقد وصلت في الكنيسة إلى درجة كاردينال، كما احتل والدكم هذا المنصب.. فماذا يعني هذا المنصب.. وما وظيفته في الكنيسة؟

قال: لقد تقلدت مناصب كبيرة في الكنيسة، ومن بين ذلك أني كنت كاردينالاً كما كان والدي كذلك، وهذا المنصب في الكنيسة الكاثوليكية يوازي وظيفة المفتي في الإسلام.

قلت: هذا منصب رفيع..

قال: ولهذا.. فأنا أتحدى أياً كان من كبار القساوسة الشرقيين أو الغربيين أن يحاجني، بل أنا على استعداد لمناظرة صاحب أي درجة عالية في الكنيسة لإثبات صحة الإسلام وأحقيته بالاتباع، فأنا لم أسلم عاطفياً أو عبثاً، وإنما أسلمت بعد دراسة معمقة للأديان، وصلت في نهاية الدراسة إلى أن الإسلام هو الدين السماوي الذي ختم الله به

الرسالات السماوية، وأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن عيسى عليه السلام إنسان من البشر وهو نبي ورسول وليس أكثر من ذلك، قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة:75)

وأنا لست أول من يسلم من القساوسة، فقد سبقني إلى الإسلام عدد كبير من القساوسة والمبشرين، وعلى رأسهم الأمين العام لمجلس مؤتمر المطارنة في الكنيسة الكاثوليكية، ورئيس القساوسة في الولاية الشرقية.

قلت: ما الفرق بين وظيفتك الجديدة كداعية للإسلام.. وبين وظيفتك السابقة كداعية للمسيحية؟

قال: في السابق كان كل همي تنصير المسلمين أو إبعادهم عن دينهم حتى لو فسدوا وارتكبوا كل الموبقات، فلم يكن مهماً أن يكون المسلم إنساناً صالحاً أو سوياً في المجتمع حتى بعد تحوله عن الإسلام، والكنيسة لا تهتم بدعوة النصارى إلى الالتزام، فجل اهتمامها أن يحمل الإنسان كلمة مسيحي، وليس شرطاً أن يكون متديناً أو ملتزماً، أما الآن فالمرء في الإسلام محاسب على كل صغيرة وكبيرة، وكل من يعتنق الإسلام عليه أن يكون صاحب عقيدة سليمة وعبادة صحيحة.

ثاني أكبر قسيس في غانا:

شد انتباهي في هذا الفصل عنوان يحمل اسم (ثاني أكبر قسيس في غانا)، فسألت الغريب عنه، فقال: لا أذكر اسم هذا الرجل، ولكني أذكر جيدا الوظيفة الخطيرة التي كان يتولاها.. وقد التقيت به في غانا، ولم أعلم منه، أو من الجمع الذين كانوا يتحدثون عنه إلا أنه كان ثاني أكبر قسيس في غانا كلها، وقد حدثني عن قصته مع الكنيسة والإسلام، فقال: في صغري كنت طفلا فقيرا معدما ألبس الرث من الثياب، وبالكاد أجد لقمة يومي، وقد أخذني بعض المبشرين، وربوني في ملاجئهم، ودرسوني في مدارسهم، وما إن لحظوا مني نباهة حتى جعلوني من أولويات اهتماماتهم.

تعلمت في مدارسهم حتى نلت أكبر الشهادات.. وكان ذلك مقابل ديني الذي أعرف انتمائي له، لكني تلفت يمنة ً ويسرة ً في وقت العوز والحاجة، فما وجدت أحدا إلا المبشرين..

بعد مدة أصبحت قسيسا لامعا في بلدي، لي ـ كما يقولون ـ لسان ساحر وأسلوب جذاب ومظهر لامع، وبريق عيني يقود من رآني لا محالة إلى المسيحية.

وفي ذلك اليوم الذي أراد الله فيه هدايتي أخذت أتساءل بيني وبين نفسي، وأقول: أنا لم أترك ديني لقناعة في الديانة المسيحية، وإنما الجوع هو الذي قادني، والحاجة هي التي دفعتني، والعوز هو الذي ساقني، وعلى الرغم من رغد العيش الذي أنا فيه، والرفاهية التي أتمتع بها إلا أنني لم أجد الانشراح ولم أشعر وأنعم بالراحة والسعادة والطمأنينة إذ ما فتئت أقلق من المصير بعد الموت، ولم أرس على بر أمان أو قاعدة صلبة تريح الضمير حول ما في الآخرة من مصير.

لماذا لا أتعرف على الإسلام أكثر؟.. لماذا لا أقرأ القرآن مباشرة، بدلا من الاكتفاء بمعلوماتي عن الإسلام من المصادر المسيحية التي ربما لم تعرض الإسلام بصورته الحقيقة.

وهنا شرعت أقرأ القرآن، وأتأمل وأقارن، فوجدت فيه الإنشراح والإطمئنان، وانفرجت أساريري وعرفت طريق الحق وسبيل النور: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)﴾ (المائدة)

وهنا اتخذت قراري الحاسم، وعزمت على التصدي لكل عقبة تحول دون إسلامي.. لقد ذهبت إلى الكنيسة، وقابلت الرجل الأول فيها القسيس الأوروبي الكبير، وأخبرته بقراري، فظن أنني أمزح.. لكني عندما أكّدت له أني جاد في رغبتي هذه، جن جنونه وأخذ يزبد ويرعد ويهدد.. ثم لما هدأ، أخذ يذكرني بما كنت عليه، وما صرت إليه، وما فيه أنا الآن من نعمة ويسر، وحاول إغرائي بالمال، وأنه سيزيد راتبي، ويعطيني منحة حالا، ويزيد من المنحة السنوية، ويزيد من صلاحياتي، وغيرها كثير.

ولكن دون جدوى.. فجذوة الإيمان قد تغلغلت في شغاف القلب، واستقرت في سويداء الضمير، وكذلك بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب استقرت.

لم يجد كبير القسس إلا أن قال لي: إذن تُرجع لنا كل ما أعطيناك وتتجرد من كل ما تملك.

فقلت: أما ما فات فليس لي سبيل إرجاعه، وأما ما لدي الآن فخذوه كله، وكان تحت يدي أربع سيارات لخدمتي، وفيلا كبيرة وغيرها، فوقعت تنازلا عن كل ما أملك، لقد كنت أنفذ في هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: 111

)

اغتاظ القسيس الكبير وجردني حتى من ملابسي، وطردني من الكنيسـة شـر طـردة، وظن أنهي سأكابد الفقر يومين، ثم أعود مستسمحا، كيف لا يظن ذلك وهم المادّيّون حتى الثمالة.

لكني خرجت من الكنيسة، وأنا لا ألبس سوى مـا يسـتر عـورتي، ولا أملـك سـوى هـذا الدين العظيم الإسلام، وشعرت حينئذٍ أنني أسعد مخلوق على هذه البسيطة.

سرت ماشيا باتجاه المسـجد الكبـير وسـط البلـد، وفي الطريـق أخـذ النـاس يمشـون بجانبي مستغربين، ويقول بعضهم: لقد جن القسـيس، وأنـا لا يـرد على أحـد حـتى وصـلت المسجد، فلما هممت بالدخول حاولوا منعي متسـائلين: إلى أين؟ وإذا بـالجواب الصـاعقة: جئت أُعلن إسلامي.

فتعجب الجميع قائلين (القسيس الأشهر في البلاد الذي تنصر على يديه المئـات، الـذي يظهر في شاشة التلفاز مرتين أسبوعيا، الذي يمثل المسيحية في البلد، يـأتي اليـوم ليُعلن إسلامه.. إنها سعادةٌ لا توصف، وفرحة لا تعبر عنها الكلمات، ولا تقدر على تصويرها الجمل والعبارات، إنه أنسٌ غامر، وإشراقة منيرة)

لقد فـرح المسـلمون فرحـا شـديدا بإسـلامي، ثم أعطـوني من الألبسـة مـا دخلت بـه المسجد، وألقيت بالمسلمين المتواجـدين خطبـة أعلنت فيهـا إسـلامي، وقـد انطلقت على إثرها صيحات التكبير، وارتفعت خلالها أصوات التهليل والتسبيح، استبشـارا وفرحـا بإسـلام مَن طالما دعاهم إلى الضلال، إذا به اليوم يدعوهم إلى الهداية والإسلام.

وخلال يومين رجع الكثير الكثير ممن تنصروا إلى واحـة دينهم الإسـلام الوارفـة الظلال، حيث ينعمون في ظله وكنفه بآثار الهدايـة وطمأنينـة سـلوك السـبيل القـويم وراحـة البـال والضمير والخير العميم: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُـوبُ ﴾ (الرعد:28)

بعد يـومين من إعلان إسـلامي بـدأ الحاقـدون من المسـيحيين يبحثـون عـني ليقتلـوني وتهددوا وتوعّدوا، فقام المسلمون بتهريـبي إلى سـيراليون سـرا، حيث أُعلِن عـبر الإذاعـة التي تملكها لجنة مسلمي أفريقيا الكويتية أني سأُلقي خطابا للأمة بمناسبة إسلامي، وأخـذ الجميـع يـترقّب هـذا الخطـاب والكنيسـة كـانت ضـمن المترقـبين، وقـد تـوقعت أن أقـوم بمهاجمتها أشد المهاجمة وإخراج كثير من أسرارها أمام الملأ والتجني عليها، هذا مـا كـانت تتوقعه، وقد أعدّت قبل خطابي مسودة لبيان سوف تنشره، وكان يرتكز على أنها وجـدتني

معدما فقيرا، وقامت بمساعدتي وتربيـتي، وتكفلت بتعليمي حـتى بلغت أعلى المسـتويات العلمية، ثم ها أنا أقوم بنكران الجميل وخيانة الأمانة ورد المعروف بالإساءة.

لكن الله خيّب فألهم وأغلق عليهم الطرق، حيث قمت بإلقاء خطاب خلاف توقعهم بـدأ فيه بشكرهم على كل ما قدّموا له، وذكرت ما قدّموا لي من رعاية ومـأوى وتعليم وغيرهـا بالتفصيل، ودنت لهم بعد الله بالفضل، إلا أني أشرت بطريقة لبقة إلى أن العقيـدة وحريـة الدين لا تسير وفق العواطف وفضل الله تعالى فوق كل فضل، ونعمة الله تعالى فوق كـل نعمة، وذلك بصياغة تجعل كل مَن خَدَمَتهُ الكنيسة يُعِيـدُ النظـرَ في هـذه الخدمـة والرعايـة وأنها ليست مقياسا لصحة العقيدة، وليست العامل المرجّح لاختيار الدين.

بعد الخطاب بيومين كان هناك حفل افتتاح مسجد الجامعة، حيث حضر هذا الحفـل في باحة الجامعة رئيس جمهورية سيراليون وجمع من المسئولين وبعض رجال الكنيسة الـذين دعتهم الجامعة لتكريس التسامح الديني ولتلطيـف الجـو بعـد الخطـاب الـذي ألقـاه القس الذي أسلم.

وفي الحفل بعد تلاوة القرآن الكريم قام الشيخ طايس الجميلي ممثـل لجنـة مسـلمي إفريقيا التي تكفلت ببناء المسجد بألقاء كلمة أشار فيها إلى إسلامي وضمنها قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانـاً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة:82)

وعندما شرع في شرح هذه الآية ووصل بشرحه عند الآية ترى أعينهم تفيض من الدمع والمترجم يترجم على الفور، رأيت القساوسة الـذين حضـروا أخرجـوا منـاديلهم يمسـحون دموعهم.

وقد قال أحد القساوسة لزميله الذي بجانبه: أقسم أن هذا هو من أرشد ذلك القسيس ليجعل خطابه بالصورة التي ظهر عليها وأحرجنا.

ثامنا ـ المفكرون

فتحت دفتر الغـريب على فصـله الثـامن، فوجـدت عنوانـه (المفكـرون)، فقلت: أليس المفكرون هم العلماء؟

قال: لا يكون العالم عالما حتى يكون مفكرا.

قلت: فقد تحدثنا عن العلماء.

قال: أولئك هم الذين انصرف تفكيرهم إلى العمران.

قلت: والمفكرون؟

قال: من انصرف تفكيرهم إلى الإنسان.

قلت: تقصد العلماء بالعلوم الإنسانية.

قالت: يمكنك أن تقول ذلك، ويمكن أن يمزج هؤلاء بين علوم العمران وعلوم الإنسان.

قلت: فكيف يهتدي هؤلاء إلى الإسلام؟

قال: يهديهم الله بواسطة عقولهم التي لم يضيعوها.

قلت: أعلم أن الفكر يحتل في الإسلام منزلة رفيعة، فلا يعبد الله بأفضل من الفكر، بل إن الله تعالى حث العقول على استعمال الفكر للتعرف على حقيقة ما جاء به رسول اللـه ﷺ، فقال تعالى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُـولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَـكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (الأنعـام:50)، وقـال تعـالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَـا بِصَـاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُـوَ إِلَّا نَـذِيرٌ مُبِينٌ) (لأعـراف:184)، وقـال تعـالى: بِالْبَيِّنَـاتِ وَالزُّبُـرِ وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَـا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل:44)، وقال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُـرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (سـبأ:46)، وقال تعالى: لَـوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:21)

قال: العبرة بالفكر الصادق.. لا بأي فكر.

قلت: ماذا تعني؟

قال: هناك من يفكر كما يفكر الشياطين.

قلت: تقصد أنه يستعمل عقله في الغواية والإضلال؟

قال: ويستعمله في الخداع والتمويه وتزييف الحقائق.

قلت: وهل يمكن للعقل أن يؤدي هذا الدور الرذيل؟

قال: العقل آلة مطيعة لصاحبها.. وهي تتحرك بتحركه، وتسكن بسكونه.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى إخبارا عن هذا النوع من المفكــرين: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَـهُ مَـالًا مَمْـدُودًا (12) وَبَنِينَ شُـهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَـهُ تَمْهِيـدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآَيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَـعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَـدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَـرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَـرَ (22) ثُمَّ أَدْبَـرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)﴾(المدثر)

قال: هذه الآيات نزلت في ماركس وفرويد ودوركايم..

قاطعته قائلا: بل نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال: لم يكن الوليد إلا وليدا مع هؤلاء.. أما هؤلاء، فهم الـذين فكـروا ودبـروا، ثم راحـوا يتلاعبون بإنسانية ويحولونها إلى أسفل سافلين.

قلت: عرفت خبر هؤلاء مع ضيوف آخرين.. فحدثني أنت عن خبر الذين قال فيهم اللــه تعـالى: ﴿ الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:191)

عبدالكريم جرمانيوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (عبدالكريم جرمـانيوس) [1]، فسألت الغريب عنه، فقـال: هـذا عـالم من علمـاء المجـر الكبـار، وصـفه العقـاد بأنـه (عشرة علماء في واحد)

وقد وُلد في بودابست، وتعلّم اللّغات الغربيّة: اليونانيّة، واللّاتينيّة، الإنجليزيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، والمجريّة، ومن اللّغات الشـرقيّة: الفارسـيّة والأورديّـة، وأتقن العربيّـة والتركيّـة على أستاذيه: فامبيري، وغولد زيهر اللّذين ورث عنهما ولَعهما بالشـرق الإسـلاميّ، ثمّ تـابع دراستهما بعد عام 1905م في جامعتي استانبول وفينّا. وصـنّف كتابـاً بالألمانيّـة عن الأدب

1) انظر: مقالة عنه من كتاب الإسلام والغرب، الوجه الآخر – حسن السعيد.

العثمانيّ (1906)، وآخر عن تاريخ أصناف الأتراك في القرن السابع عشر، فنال عليه جائزة مكّنته من قضاء فترة مديدة في لندن، حيث استكمل دراسته في المتحف البريطانيّ.

وفي عام 1912م عاد إلى بودابست، فعُيِّن أستاذاً للّغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة، وتاريخ الإسلام وثقافته في المدرسة العليا الشرقيّة. ثمّ في القسم الشرقيّ من الجامعة الاقتصاديّة، ثمّ أستاذاً ورئيساً للقسم العربيّ في جامعة بودابست (1948)، وظلّ يقوم فيه بتدريس اللّغة العربيّة، وتاريخ الحضارة الإسلاميّة، والأدب العربي قديمه وحديثه، محاولاً إيجاد حلقات اتصال بين نهضات الأُمم الإسلاميّة الاجتماعيّة والسيكولوجيّة، حتّى أُحيل على التقاعد (1965).

وقد دعاه طاغور إلى الهند أستاذاً للتاريخ الإسلاميّ، فعلمه في جامعات دلهي، ولاهور، وحيدر آباد (1929ـ1932)، وهناك أشهر إسلامه في مسجد دلهي الأكبر، وألقى خطبة الجمعة، وتسمّى بـ (عبد الكريم)، وقدم القاهرة وتعمّق في دراسة الإسلام على شيوخ الأزهر، ثمّ قصد مكّة حاجّاً وزار قبر الرسول ﷺ، وصنّف في حجّته كتابه: الله أكبر، وقد نُشر في عدّة لغات (1940)، وقام بتحرِّيات علميّة (1939ــ1941) في القاهرة والسعوديّة نشر نتائجها في مجلّدين: شوامخ الأدب العربي (1952)، ودراسات في التركيبات اللّغوية العربيّة (1954)

وربيع عام 1955 عاد ليقضي بضعة أشهر في القاهرة والإسكندريّة ودمشق بدعوة من الحكومة ليحاضر بالعربيّة عن الفكر العربيّ المعاصر، وعن صور من الأدب المجريّ، ثمّ رجع إلى الشرق العربيّ في شتاء 1958، لاستكمال مصادر كتابه الجديد عن أدبائه المعاصرين. والذي صدرت بعض فصوله، وفيها قصص الكتّاب المعاصرين. وقد انتخب عضواً في المجمع الإيطالي(1952)، ومراسلاً للمجمع اللّغويّ بالقاهرة (1956)، وفي المجمع العلميّ العراقي (1962)

وقد ترك تراثاً علميّاً زاخراً بالعمق والتنوّع، منه: قواعد اللّغة التركيّة (1925)، والثورة التركيّة، والقوميّة العربيّة (1928)، والأدب التركيّ الحديث (1931)، والتيّارات الحديثة في الإسلام (1932)، واكتشاف الجزيرة العربيّة وسوريا والعراق وغزوها (1940)، ونهضة الثقافة العربيّة (1944)، ودراسات في التركيبات اللّغويّة العربيّة (1954)، وابن الروميّ (1956)، وبين المفكِّرين (1958)، ونحو أنوار الشرق، ومنتخب الشعراء العرب (1961)، وفي الثقافة الإسلامية، وأدب المغرب (1964)، وكان يعدّ ثلاثة كتب عن: أدب الهجرة، والرحّالة العرب وابن بطّوطة، وتاريخ الأدب العربيّ.

وقد شرفني الله بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ومما ذكره لي قوله: (كـان ذلك في عصر يوم مطـير، وكنتُ مـا أزال في سـنّ المراهقـة، عنـدما كنتُ أقلِّب صـحائف مجلّة مصوّرة قديمة، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية؛ بقيت بعض الوقت أقلِّب الصحائف في غير اكتراث إلى أن وقعت عيني فجـأة على صورة لوحة خشبيّة محفورة استرعت انتباهي، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مسـتوية تتخلّلها هنا وهنـاك قبـاب مسـتديرة ترتفـع برفـق إلى السـماء المظلمـة الـتي شـقّ الهلال ظلمتها..

ملكت الصورة عليَّ خيالي.. وأحسستُ بشـوق غلاّب لا يقـاوم إلى معرفـة ذلـك النـور الذي كان يُغالب الظّلام في اللّوحة.. بدأتُ أدرس اللّغة التركيّة، ومن ثمّ الفارسيّة فالعربيّة، وحاولتُ أن أتمكّن من هذه اللّغات الثلاث حتّى أستطيع خـوض هـذا العـالم الـروحيّ الـذي نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشريّة.

وفي إجازة صيف قدر الله أن أُسافر إلى البوسـنة وهي أقـرب بلـد شـرقيّ إلى بلادي. وما كدت أنـزل أحـد الفنـادق حتّى سـارعت إلى الخـروج لمشـاهدة المسـلمين في واقـع حياتهم.. وقد خرجت بانطباع مُخالف لما يُقال حول المسلمين.. وكان هذا هو أوّل لقـاء لي مع المسلمين. ثمّ مرّت سنوات وسنوات في حياة حافلة بالأسفار والدراسـات، وكـان مـع مرور الزّمن تتفتّح عيوني على آفاق عجيبة وجديدة.

ورغم تطـوافي الواسـع في دنيـا اللـه، واسـتمتاعي بمشـاهدة روائـع الآثـار في آسـيا الصغرى وسوريا، وتعلّمي اللّغات العديدة وقراءاتي لآلاف الصفحات من كتب العلماء، رغم كلّ ذلك فقد ظلّت روحي ظمأى.

سكت قليلا يسترجع ذكرياته، ثم قـال: أثنـاء وجـودي في الهنـد، وفي ذات ليلـة رأيت ـ فيما يرى النائم ـ كأنّ محمّداً رسول الله ﷺ يخاطبني بصـوت عطـوف: لمـاذا الحـيرة؟ إنّ الطريق المستقيم أمامك مأمون ممهّد مثل سطح الأرض، سرْ بخطى ثابتة وبقوّة الإيمان.. وفي يوم الجمعة التالية، وقع الحدث العظيم في مسجد الجمعة في دلهيّ.. حينما أشـهرت إسلامي على رؤوس الأشهاد..

ابتسم، وقال: كان التأثّر والحماس يعمّان المكان، ولا أستطيع أن أتـذكّر مـاذا كـان في ذلك الحين.. وقف الناس أمامي يتلقّفونني بالأحضان، كم من مسكين مجهـد نظـر إليَّ في ضراعة، يسألني الدعوات، ويريد تقبيل رأسي، فابتهلتُ إلى اللـه أن لا يـدع هـذه النفـوس البريئة تنظر إليِّ وكأنِّي أرفع منها قدراً، فما أنا إلاّ حشرة من بين حشـرات الأرض، أو تائـه جادّ في البحث عن النور، لا حول لي ولا قوة، مثـل غـيري من المخلوقـات التعيسـة.. لقـد

خجلتُ أمام أنّات وآمال هـؤلاء النـاس الطيِّبين.. وفي اليـوم التـالي ومـا يليـه كـان النـاس يفدون عليَّ في جماعـات لتهنئـتي، ونـالني من محبّتهم وعـواطفهم مـا يكفيـني زاداً مـدى حياتي.

ومن أقواله التي قد تدلك على سر اعتناقه للإسـلام قولـه: (حَبّب لي الإسـلام أنـه دين الطهـر والنظافـة: نظافـة الجسـم والسـلوك الاجتمـاعي والشـعور الإنسـاني، ولا تسـتهن بالنظافة الجسمية فهي رمز ولها دلالتها)(1)

ومنها: (كم أَلفيت في قلوب المسلمين كنوزاً تفوق في قيمتهـا الـذهب، فقـد منحـوني إحساس الحب والتآخي، ولقّنوني عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر.. وعلى المسـلمين أن يعضّـوا بالنواجـذ على القيم الخلقيـة الـتي يمتـازون بهـا، ولا ينبهـروا بـبريق الغرب، لأنه ليس أكثر من بريقٍ خاوٍ زائف)(2)

ومنها: (لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة تعوق تقدم المسلم، أو تمنع زيادة حظه من الثروة أو القوة أو المعرفة.. وليس في تعاليم الإسلام ما لا يمكن تحقيقـه عمليـا، وهي معجزة عظيمة يتميز بها عن سواه، فالإسلام دين الذهن المستنير، وسيكون الإسلام معتقد الأحرار)

ومنها: (لقد تمنيت أن أعيش مائة عام، لأحقق كل ما أرجوه لخدمة لغة القرآن الكريم، فدراسة لغة الضاد تحتاج إلى قرن كامل من الترحال في دروب جمالها وثقافتها)(3)

مارتن لنجز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (مـارتن لنجـز)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لمفكر إنجليزي أشهر إسـلامه على يـد شـيخ جزائـري اسـمه الشيخ أحمد العلوي، التقى به في سويسرا التي كان يعمل بها مدرسـاً، بعـدها قـام بتغيـير اسمه من (مارتن لنجز) الى اسم (أبي بكر سراج الدين)

وقد التقيت به في رحلة لي إلى سويسرا، وقد كان أول سؤال سألته: كيف رحلت من (مارتن لنجز) الى (أبي بكر سراج الدين)؟

نظر إلي متعجبا من هذا السؤال، ثم قال: كنت أدين بالمسيحية، كما تدين بهـا أسـرتي التي لا تعرف عن الدين شيئاً إلا أنها مسيحية بالوراثة.. وهكذا نشـأت خـالي النفس من أي

---

1) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي: 2 / 421.

2) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص 35.

3) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص 36.

عقيدة يؤمن بها حق الإيمان..

لكن.. وبعد حصولي على شهادة الـ (A-B) في الآداب الإنجليزية حيث كنت أدرس الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد إنجلترا.. أخذت أنقب في كتب التراث عن الديانات المنتشرة في العالم لأقرأ عنها جميعاً.

وكان من أهم ما استوقفني دين الإسلام كشريعة لها منهاج يتفق مع المنطق والعقل، وآداب تستسيغها النفس والوجدان.

سكت قليلا، ثم قال: (لقد وجَدتُ في الإسلام ذاتي التي افتقدتها طوال حياتي، وأحسست وقتها أني إنسان لأول مرة، فهو دين يرجع بالإنسان إلى طبيعته حيث يتفق مع فطرة الإنسان)

ثم أردف قائلاً وقد امتلأت أساريره بابتسامة عذبة: (شاء الله لي أن أكون مسلماً، وعندما يشاء الله فلا رَادَّ لقضائه.. وهذا هو سبب إسلامي أولاً وقبل كل شيء)

قلت: هل هناك من العقول من ملأ عقلك بالفكر الذي هداك إلى الإسلام؟

قال: لابد من ذلك..

قلت: من هو؟

قال: إن ما أثر عليَّ، وجعلني أهتم بالإسلام هو كتب مؤلف كبير كان مثلي اعتنق الإسلام وأصبح من قمم المتصوفة، إنه الشيخ عبد الواحد يحيى.. لقد تأثرت بكتبه التي صنفها عن الإسلام، حتى أنني لم أقرأ كتباً من قبل في مثل عظمة كُتُبِه، مما دفعني لأن أسعى لمقابلة مَن كان سبباً في إسلامي، فجئت إلى مصر حيث كان يعيش فيها وقتئذ.

لقد استفدت منه كثيراً.. فقد كان بحق عالماً عاملاً بعلمه.. وأكثر ما تعلمته منه الزهد في الدنيا، وهو ما تسمونه أنتم (التصوف)

قلت: هل أنت متصوف؟

قال: نعم.. ولكن مفهومي للتصوف أنه ليس انعزالاً عن الدنيا، ولكنه أخذٌ بأسباب الحياة في الظاهر، والإعراض عنها بالقلب.

إن الرسول محمد ﷺ لخص معنى التصوف كله في حديثه الشريف: (كُن في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ أو كعابر سبيل).. أو ما قاله في حديث شريف آخر: (إنَّما أنا والدنيا كَراكب استظل تحت شجرة ثمَّ راح وتركها).. هذا هو مفهوم التصوف الذي تعلمته من الشيخ عبد

الواحد يحيى.

قلت: إلى أي شيء قَادَك التصوف؟

نظر إلى الأفق البعيد بعمق، ثم قال بكل هدوء: إلى العبودية الخالصة لله.

الدكتورحامد ماركوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (الدكتورحامد ماركوس)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لعالم وصحفي ومؤلف ألماني.. وقد التقيت به في بلدي ألمانيا، وكان من حديثه لي عن سر إسلامه قوله: منذ طفولتي، وأنا أشعر بدافع في داخل نفسي لدراسة الإسلام ما وجدت الى ذلك سبيلا، وعنيت بقراءة نسخة مترجمة للقرآن في مكتبة المدينة التي نشأت فيها، وكانت هي الطبعة التي حصل منها جوته على معلوماته عن الإسلام.

أخذ مني الاعجاب كل مأخذ لما رأيته في هذا القرآن من أسلوب عقلي رائع، في نفس الوقت الذي يفرض فيه التعاليم الإسلامية، كما أدهشني تلك الروح الثابرة الوثابة العظيمة التي أثارتها وأذكتها هذه التعاليم في قلوب المسلمين الأوائل.

ثم أتيحت لي في برلين فرصة العمل مع المسلمين والاستمتاع الى الأحاديث الحماسية المثيرة التي كان يقدمها مؤسس أول جمعية اسلامية في برلين ومنشئ مسجد برلين، عن القرآن الكريم، وبعد سنوات من التعاون العملي مع هذه الشخصية الفذة لمست فيها ما يبذله من ذات نفسه وروحه، آمنت بالإسلام، اذ رأيت في مبادئه السامية والتي تعتبر القمة في تاريخ الفكر البشري، ما يكمل آرائي شخصيا.

قلت: ما المبادئ التي أثارت اهتمامك، أو رأيت أنها تتوافق مع طريقة تفكيرك؟

قال: أولها الايمان بالله.. فهو عقيدة أصيلة في الإسلام، ولكن الإسلام في سبيل تقريرها لا يدعوا الى مبادئ أو عقائد تتنافى مع العلم الحديث، وعلى هذا فليس ثمت تناقض ما بين العقيدة من جانب وبين العلم من الجانب الآخر، وهذه ولا شك ميزة عظيمة فريدة في نظر رجل أسهم بكل طاقته في البحث العلمي.

وميزة أخرى يمتاز بها الإسلام، تلك أنه ليس مجرد تعاليم نظرية صماء تسير على غير بصيرة وعلى هامش الحياة، انما هو يدعو الى نظام تطبيقي يصبغ حياة البشر، وقوانين الإسلام ليست بالتعاليم الجبرية التي تحتجز الحريات الشخصية، ولكنها توجيهات وارشادات تؤدي الى حرية فردية منظمة.

ومع توالي السنين كنت أزداد اقتناعا بما يتبين لي من الأدلة على أن الإسلام يسلك أقوم سبيل في الملائمة بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة، ويربط بينهما برباط قوي متين.

إنه دين الاستقامة والتسامح، إنه دائم الدعوة الى الخير، يحض عليه ويرفع من شأنه في جميع الأحوال والمناسبات.

روجيه دوباكييه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (روجيه دوباكييه)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لمفكر سويسري اعتنق الإسلام، التقيت به في سويسرا، وقد سألته عن رحلته إلى الإسلام، فقال: نشأت في بيئة مسيحية بروتستانتية، غير أني لم أكن مهتما بها.. بل كنت متأثرا بالفلسفة الحديثة، ولا سيما الفلسفة الوجودية، ولهذا فقد كنت أعتقد أن الأديان مجرد معتقدات خرافية.

وعندما اشتغلت بالصحافة بدأت أسافر إلى أكثر من بلد.. فسافرت إلى السويد، وعملت بها مراسلاً صحفيّاً في نهاية الحرب العالمية الثانية لأكثر من خمس سنوات، لكني اكتشفت أن الناس تعساء، برغم التقدم والرخاء الذي يعيشون فيه، على حين اكتشفت عكس ذلك عندما سافرت إلى بعض الدول الإسلامية في الشرق، فقد وجدت المسلمين ـ رغم فقرهم الشديد ـ يشعرون بسعادة أكثر، وأن حياتهم لها معنى.. وهذه الملاحظة جعلتني أفكر مليّاً في معنى الحياة، وأتأملها من خلال هذين النموذجين.

لقد كنت أسأل نفسي: لماذا يشعر المسلمون بسعادة تغمر حياتهم برغم فقرهم وتخلفهم؟!.. ولماذا يشعر السويديون بالتعاسة والضيق برغم سعة العيش والرفاهية والتقدم الذي يعيشون فيه؟! حتى بلدي (سويسرا) كنت أشعر فيه بنفس ما شعرت به في السويد، برغم أنه بلد ذو رخاء، ومستوى المعيشة فيه مرتفع!

وأمام هذا كله وجدت نفسي في حاجة لأن أدرس ديانات الشرق.. وبدأت بدراسة الديانة الهندوكية فلم أقتنع كثيراً بها، حتى بدأت أدرس الدين الإسلامي فشدني إليه أنه لا يتعارض مع الديانات الأخرى، بل إنه يتسع لها جميعاً.. فهو خاتم الأديان..

وهذه حقيقة كانت تزداد يقيناً عندي باتساع قراءاتي، حتى رسخت في ذهني تماماً بعد ما اطلعت على مؤلفات الفيلسوف الفرنسي المعاصر رينيه جينو الذي اعتنق الإسلام.

لقد اكتشفت كما اكتشف الكثيرون ممن تأثروا بكتابات الفيلسوف الفرنسي الذي

---

1) انظر: اللواء الإسلامي: من حديث أجراه محمد صبره ورضا عكاشه في إحدى أعدادها الأسبوعية.

أسـلم وتحولـوا إلى الإسـلام.. اكتشـفت أن الإسـلام يعطي معـنى للحيـاة، على عكس الحضارة الغربية التي تسيطر عليها المادية، ولا تؤمن بالآخرة، وإنما تؤمن بهذه الدنيا فقط.

قلت: لقـد كـان فكـر الفيلسـوف الفرنسـي رينيـه جينـو الـذي أسـلم، هـو حاديـك إلى الإسلام.

قال: يمكنك أن تقول ذلك.. بالإضافة إلى أني ـ كما ذكرت لك ـ تأثرت بزياراتي للــدول الإسلامية، فبرغم الظروف المادية السيئة في تلك الدول فإن أهلها يتمتعون بقدر كبـير من الإيمان الراسخ في نفوسهم، ولا توجد عندهم أزمات أخلاقية كالتي توجد بــالغرب، وجعلت كثيراً من الشباب ينتحر أو يهرب من الحياة بتعاطي المخدرات، مما يعـني في نظـرهم أن الحياة ليس لها معنى أو قيمة.

قلت: فهل رأيت أن الإسلام هو الذي يقف خلف تلـك السـكينة النفسـية الـتي يعيشـها المسلمون؟

قال: أجل.. لقد تبينت أن الإسـلام بمبادئـه يَبسُـط السـكينة في النفس.. أمـا الحضـارة المادية فتقود أصحابها إلى اليأس، لأنهم لا يؤمنون بأي شيء.. كمـا تـبينت أن الأوربـيين لم يدركوا حقيقة الإسلام، لأنهم يحكمون عليه بمقاييسهم المادية.

قلت: أهذا ما جذبك إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبني إلى الإسلام هو شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمـداً رسـول اللـه.. فقد اكتشفت أن الإسـلام دين متكامـل، وكـل شـيء فيـه مرتبـط بـالقرآن والسـنة.. وفي اعتقادي أن الإنسان يمكن أن يتأمل في هذه الشهادة طيلة الحياة.

الشهادة تقول لا إله إلا الله.. وهذا يعني أنه ليس هناك حقيقة نهائية ودائمة سوى الله.. أما الفلسفة الحديثة فتقول إنه ليس هناك حقيقة سوى هذه الدنيا، ذلك ما تقوله الفلســفة الوجودية وغيرها..

وقد دهشت لأن الإسلام يعبر عن الحقيقة التي تناساها العلم والفلسفة الحديثة.

سكت قليلا، ثم قال: لقد تـأثرتُ بـالقرآن الكـريم كثـيراً عنـدما بـدأت أدرسـه، وتعلمتُ وحفظتُ بعض آياته.. والحمد لله فأنا أستطيع أن أقرأ فيه، وتستوقفني كثيراً الآية الكريمــة التي يقول فيها الله تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِينـاً فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِـرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران:85)، وقوله تعـالى:لا إِكْـرَاهَ فِي الـدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة:256)

سكت قليلا، ثم قال: والسنة النبوية الشريفة قرأتها أيضاً، وتأثرت بما فيها من حِكَم وبيان دقيق.

قلت: فكيف واجهت قومك وتحديت أعرافك ورحت تعلن إسلامك؟

قال: لمّا عُدتُ إلى سويسرا لم يكن هناك مبرر لأن أخفي إسلامي، لذلك فقد نشرتُ مقالات كثيرة عن الإسلام في (جورنال دى جنيف)، وصحيفة (جازيت دي لوزان)، وهي صحف غير إسلامية.. كما ترجمت بعض الكتب التي تتناول موضوعات إسلامية.. ودافعتُ في كتاباتي كلها عن قضايا الإسلام كمسلم وَجَدَ طريقه في دين الإسلام.

وأنا أحاول ـ الآن ـ أن أكثف كتاباتي عن الإسلام، وأشرح للقراء الغربيين ما يدور في العالم الإسلامي.. وأنا أركز على مسألة أن الإسلام يُقدم حُلولاً لمشاكل كثيرة وصلوا معها إلى طريق مسدود، في حين فتح الإسلام لها أبواباً كثيرة.

قلت: إن الكثير من قومنا يعتبرون الإسلام قومية لا أيديولوجية.. ويحكمون عليه على أساس ذلك.. و

قاطعني قائلا: أنا أختلف مع بعض الأشخاص الذين ينظرون إلى الإسلام باعتباره قومية ـ وهذا اعتقاد خاطىء لدى كثير من المسلمين.. إنهم يعتبرون الإسلام أيديولوجية وهو خطأ.. إنّما الإسلام طريق إلى الله، وأفضل طريقة للوصول إلى معرفة الله والتصالح والوئام بين الخالق والخلق.

قلت: إن البعض يذكر أن الإسلام دين تخلّف لا يقود إلى التقدم.

ابتسم، وقال: الحمد لله.. إن الإسلام ليس متقدماً بمعنى التقدم الذي يعيشون فيه ويقودهم إلى الهاوية.. والحمد لله.. إن الإسلام لم يتجه إلى هذا التقدم المادي الذي يقصدونه.. ولو كان كذلك لما أثار انتباهي ولا انتباه هؤلاء المفكرين الذين وجدوا فيه الخير والسعادة للبشرية، أمثال (رجاء غارودى) وغيره.

إن الإسلام يعبر عن شيء خالد، ومن السخف أن نقول إنه متخلف، ولذلك يجب تغييره أو استبداله.. إن التقدم الذي ينادون به قادهم إلى اليأس والضياع.. الحضارة والمدنية الحديثة تعبر عن صراع الإنسان مع المادة والحياة.. في حين يعبر الإسلام عن الحقيقة، ولذلك فلا داعي لأن يتجه الإسلام نحو التقدم بالمعنى الذي يريدونه، وهو الفوضى والدمار واليأس.

قلت: هناك من يفرق بين الإسلام كدين، والمسلمين كأشخاص.. فهل ذلك صحيح..

أم..

قاطعني قائلا، والابتسامة تملأه فمه: هناك قصة فيها رد على ذلك.. فأنا أعرف صــديقاً منذ فترة اعتنق الإسـلام في السادسـة والعشـرين من عمـره اسـمه محمـد أسد[1]، كـان يهوديّاً واعتنق الإسـلام عـام 1926، وألـف كتابـاً بعنـوان (الطريـق إلى مكـة)، وأصـبح من علماء الإسلام، وله مؤلفات أخرى كثيرة.. قابلته منذ فترة في باكستان حيث يعيش هناك.. وسألته نفس هذا السؤال: هل هناك فرق بين الإسلام كدين والمسلمين كأشخاص؟

فقال لي: إذا كنا قد اعتنقنا الإسـلام فليس هـذا بسـبب المسـلمين.. ولكن السـبب أن الإسلام حقيقة لا ينكرها أحد.

ثم نظر إلي، وقـال: صـحيح أن هنـاك تـدهورا في حـال المسـلمين.. ولكـني أصـارحك القول بأن التـدهور في حـال أصـحاب الأديـان الأخـرى أكـثر ممـا هـو في المسـلمين.. إن الإسلام آخر تعبير عن الرحمة الإلهية.. وما زال قـادراً على العطـاء.. عطـاء كـل مـا يُخَلّص الإنسان من شقاء الحياة وآلامها ومتاعبها.. إن الإسلام يجـدد الصـلة بين المـرء وربـه الـتي قطعها إنسان اليوم.

حتى إذا كان المسلمون في حالة تدهور أو انهيار، فـإن دينهم قـادر على منحهم الحيـاة السـعيدة المطمئنـة الـتي تعينهم على التغلب على تلـك الأزمـات الأخلاقيـة الـتي يعيشـها الغرب.

قلت: كيف تفسر ظاهرة الإقبال على اعتناق الإسلام من جانب الأوربيين؟

قال: السبب ـ كما قلت ـ الأزمة الـتي قـادتهم إليهـا الحضـارة والمدنيـة الحديثـة.. لقـد أصبح الأوربيون يعيشون في حالة يـأس لأنهم لا يؤمنـون بشـيء، ولـذلك فهم يبحثـون عن معنى لحياتهم، وقد وجدوا هذا المعنى في الإسلام فأقبلوا عليه.

الكولونيل دونالدس روكويل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هـذا الفصـل اسـم (الكولونيـل دونالـدس روكويل)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لكاتب أمريكي اعتنق الإسلام، وقـد التقيت به في بعض المؤتمرات، وقد بادرني بالحديث عن الدوافع التي جعلته يختار الإسلام، فقـال يعددها: ثمانية أمور في الإسلام دفعتني إليه دفعا لم أتمكن من التفلت منه.

قلت: فما أولها؟

1) سنتحدث عنه في هذا الفصل.

قال: البساطة.. إن بساطة الإسلام، ومساجد المسلمين بجاذبيتها، وبما في أجوائها من روعة وجلال ووقار، وما يتميز به المسلمون المؤمنون من ثقة باعثة على اليقين تجعلهم يستجيبون لنداء الصلاة خمس مرات في اليوم، كل هذه الأمور ملكت عليَّ مشاعري منذ البداية...

قلت: فما الثاني؟

قال: ذلك الإدراك الناضج للحياة، والذي هو من ثمار السنة المحمدية التي تجمع بين الرأي السديد، والقدوة العملية، في أسلوب من التوجيه الحكيم في أمور كثيرة تدلل على واقعية هذا الدين، وحكمة أخَّاذة سديدة في أقوال محمد ﷺ.. خُذْ مثلاً قوله ﷺ: (إعقلها وتوكل).. لقد قرر في هاتين الكلمتين نظاماً دينيّاً في أعمالنا المعتادة، فلم يطلب إلينا التصديق الأعمى بوجود قوى غيبية تحفظنا برغم تقصيرنا وإهمالنا، بل يدعونا إلى الثقة في الله، والرضا بإرادته في عاقبة أمرنا، إذا نحن طرقنا الأمور من أبوابها الصحيحة، وبذلنا في ذلك قصارى جهدنا.

قلت: فما الثالث؟

قال: سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى ـ والذي هو نابع من اتساع الأفق الفكري ـ تجعله قريباً إلى قلوب أولئك الذين يتعشقون الحرية، فقد دعا محمد ﷺ أتباعه إلى أن يحسنوا معاملة المؤمنين بالتوراة والإنجيل، وإلى الإيمان بأن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم رُسُلٌ من عند الله الواحد الأحد.. هذه سماحة يمتاز بها الإسلام عن الأديان الأخرى.

قلت: فما الرابع؟

قال: التحرر الكامل من عبادة الأوثان، وهو دليل على سلامة دعائم العقيدة الإسلامية، وعلى نقائها، فالتعاليم الأصلية التي جاء بها محمد ﷺ لم يغيرها المشرعون بتعديلات أو إضافات، فها هو ذا القرآن الكريم على الحالة التي أنزل بها على محمد ﷺ لهداية المشركين والكفار في بداية دعوته ظل ثابتاً راسخاً حتى الآن.

قلت: فما الخامس؟

قال: الاعتدال والتوسط في كل شئ.. فهما دعامتان أساسيتان في الإسلام، قد استحوذتا على كل إعجابي وتقديري.

لقد آمنت أن الرسول محمد ﷺ كان حريصاً على صحة قومه، فأمرهم بالتزام النظافة إلى أبعد الحدود، كما أمرهم بالصوم والسيطرة على الشهوات الجنسية.. وأذكر أنني كنت

ـ عندما أقف في مساجد أسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة وغيرها من المدن ـ أحس شعوراً عميقاً بقدرة الإسلام في بساطته، على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا، بدون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقى، أو طقوس رسمية.. فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى، في ذكر الله الأحد:

قلت: فما السادس؟

قال: ديمقراطية الإسلام.. فقد أثار إعجابي تساوي الحقوق بين الملك صاحب السلطان، وبين الفقير المتسول داخل جدران المسجد، فهم يسجدون جميعاً لله، ليست هناك مقاعد تستأجر، ولا أماكن تحجز لفئة دون أخرى.

قلت: فما السابع؟

قال: لا يؤمن المسلم بوسيط بينه وبين ربه، بل يتجه رأساً إلى الله، خالق الخلق، وواهب الحياة، وهو لا يراه دون التجاء إلى صكوك غفران، أو إلى أحد لمنحه منحة الخلاص.

قلت: فما الثامن؟

قال: الأخوة العالمية الشاملة في الإسلام، بغض النظر عن اختلاف العنصر أو المذهب السياسي أو اللون أو الإقليم فقد ثبت ذلك عندي بكل يقين واقتناع مرات ومرات..

رينيه جينو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (رينيه جينو)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا الاسم الأصلي للعالم والفيلسوف والحكيم عبدالواحد يحيي، الذي درس الأديان عامة، ثم اعتنق الإسلام، فأحدث إسلامه ضجة كبرى في أوربة وأمريكا، وكان سبباً في دخول الكثيرين إلى الإسلام.

وقد ألف الكثير من الكتب التي ساهمت مساهمة كبيرة في نشر الإسلام، منها (أزمة العالم الحديث) و(الشرق والغرب) و(الثقافة الإسلامية وأثرها في الغرب)، كما أصدر مجلة سماها (المعرفة)، وقد ترجمت كتبه إلى كثير من اللغات الحية.

وبسبب قدرة أفكاره على الاكتساح فقد حرَّمت الكنيسة قراءة كتبه.. ولكن ذلك لم يمنع من انتشار كتبه في جميع أرجاء العالم.

وممن تأثر بكتاباته الكاتب الفرنسي المشهور أندريه جيد الذي كتب يقول: (لقد

علمتني كتب جينو الكثير، وإن آراءه لا تُنقَض)

قلت: أعرفه جيدا.. وأعرف احترام شيخ الأزهر عبد الحليم محمود له، فهل التقيت به؟

قال: أجل.. ولكن على عجل.. فلم يكن له من الوقت ما يحادثني فيه.

قلت: فما قال لك؟

قال: لقد أجابني عن سؤالي عن سبب إسلامه: (أردت أن أعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم أجد بعد دراسة عميقة، سوى القرآن).. وقال لي: (لقد ابتعدت أوربة عن طريق الله فغرقت في الانحلال والدمار الخلقي والإلحاد، ولولا علماء الإسلام لظل الغربيون يتخبطون في دياجير الجهل والظلام)

جان مونرو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (جان مونرو)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم أستاذ الأدب الإنجليزي في الجامعة الامريكية ببيروت، والذي درس في جامعات (نورث كارولينا) و(لندن) و(تورنتو)، ووضع خمسة عشر كتاباً معظمها يدور حول المواضع التي يدرسها، فضلاً عن أنه كتب حول موضوعات متنوعة تتعلق بالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وآخر كتبه هو (التجارة والإسلام في منطقة الشرق الأوسط)

وقد عاش بين المسلمين في لبنان عشرين عاماً بحكم عمله رئيساً لقسم الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية في بيروت.. عرف في أثنائها طبيعة وسلوك المسلمين، وتبين له خطأ التصوّر الذي كان يحمله معه عند ذهابه إلى لبنان، فقد كان يسيطر على مخيلته بعض الأضاليل والافتراءات على الإسلام والمسلمين، والتي كانت منتشرة بصورة كبيرة في الغرب، مثال ذلك أن الحرب المقدسة عند المسلمين هي العدوان على كل من لا يؤمن بعقيدتهم الإسلامية(1).

لكنه بعد أن قرأ بإمعان التاريخ الإسلامي، اتضح له بجلاء أن الإسلام عقيدة متسامحة، ودين لا يُفرض على الآخرين بالإكراه.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في بيروت، وكان من جوابه لي عن سر اعتناقه للإسلام قوله: أريد القول: إن حظّي كان كبيراً، لأن الفرصة قد أتاحت لي الدراسة، ولكن ليس

1) انظر تفاصيل الرد على الشبهات المرتبطة بهذا في رسالة (سلام للعالمين)، ورسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

بطريقة أكاديمية، وإنما عن طريق اتصالات الصداقة مع مجموعة من الناس الذين كانت مهمتهم تنوير الناطقين بالإنجليزية بحقيقة طبيعة العقيدة الإسلامية، فضلاً عن ذلك أنني قرأت كل ما وصلت إليه يداي، كما أنني ناقشتُ مع الذين أعمل معهم بعض القضايا التي يُثار الجدل حولها.. وبهذه الطريقة توصلت إلى طبيعة وحقيقة الإسلام، ليس على أنه نظام يجب دراسته ــ وهي الطريقة التي يتبعها معظم الغربيين في معرفة الإسلام ــ ولكن كعقيدة فعالة، ومنهج وطريق للحياة، وكنت في بداية الأمر مهتماً بهذه الأمور.. أمّا الآن فإنني أُكنُّ كل احترام وتقدير للإسلام وأتعاطف معه.

قلت: فما أثر الإسلام في حياتك؟

قال: إنني أعتقد أن تجربتي المشتركة مع المسلمين قد جعلتني أكثر تسامحاً من قبل.. كما أن تلك التجربة قد جعلتني مدركاً لبعض الأمور التي تحيط بي أكثر من الماضي.

بالإضافة إلى هذا، أصبحتُ متفهماً لوضع المرأة في الإسلام، على عكس ما يعتقد الغربيون ـ بصورة خاطئة ـ من أن المسلمين يعتبرون النساء كائنات دنيا ووضيعة، في حين أن الحقيقة أن النساء في ظل الإسلام يتمتعن بتلك الحقوق والامتيازات التي يجب أن يتمتعن بها، يكفي أن هناك سُوَراً عديدة في القرآن الكريم تثبت وجهة نظري هذه.

قلت: فما أهم الدروس التي تعلمتها من الإسلام؟

قال: كثيرة جدا.. لا يمكنني إحصاؤها..

ثم تأمل قليلا، وقال: لعل أهم درس تعلمته من الإسلام هو عدم الجدوى من التذمر من أمور هي فوق طاقتنا لتغييرها أو تبديلها، فالإنسان ليس قادراً على كل شيء، مع أنه يتمتع بصفات خارقة تميزه عن بقية المخلوقات، ولكن عليه إدراك ضرورة الإذعان إلى قوة خارج طاقته، وأن التذمر من ذلك يؤدي إلى الفشل والإخفاق والحزن، في حين أن الإنسان الذي يدرك مكانه الحقيقي في هذا الكون يكون هادئاً مطمئناً يشعر بالراحة مع نفسه وعالمه المحيط به.

سكت قليلا، ثو قال: إنَّ فَهمَ الإسلام لا يكون إلا بمعايشته، وما يؤخذ على الأوربيين هو أنهم لا يُعايشونه، لذلك فإنهم عندما يصلون إلى مرحلة التقييم الفكري للإسلام فإنهم يصلون إلى ذلك بواسطة طريقة أكاديمية، ولذلك فإن العديد من علماء الغرب الذين يعتنقون الإسلام يعتبرهم زملاؤهم شواذاً، لأن الأوربي العادي يعتبر الإسلام ديناً دخيلاً وغريباً أكثر من اعتباره عقيدة حيوية.

ميجيل بيرو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (ميجيل بيرو)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم أستاذ جامعي إسباني كره الحرية المنفلتة في أوربا، والانحلال، وعدم الترابط الأسري، وكثرة الجرائم والانحرافات التي سادت المجتمعات الغربية، وأتيح له أن يقرأ عن وضع الإسلام لضوابط السلوك وللمعايير الأخلاقية في المعاملات.

وأتيح له بعد ذلك أن يلتقي بمجموعة من الإسبانيين المسلمين، وعن طريقهم أتيح له إمكانية قراءة ترجمة معاني القرآن بالأسبانية، فاستشعر بميل قوي تجاه الإسلام، فواصل قراءاته المكثفة عنه حتى اقتنع تماماً بتعاليمه ومنهاجه، بعدها قرر أن يشهر إسلامه، ويختار لنفسه اسم (نصر الدين)

قلت: فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في القاهرة التي كان يعمل أستاذا بجامعتها، وقد سألته عن سر إسلامه، فقال: لقد التقيت بمجموعة من الإسبانيين المسلمين، وعن طريقهم أُتيحت لي إمكانية قراءة ترجمة معاني القرآن، كما قرأت عن التراث العربي القديم فأُعجبت به، بعدها قررت أن يكون الإسلام ديني.

وقد قام أحد أصدقائي بترجمة كتاب (المحظورات) للشيخ (ياسين رشدي) واستفدت منه كثيراً، وسمعت صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في قراءة القرآن وأحببته كثيراً.

وبالرغم من القليل الذي عرفته عن الإسلام فإنني أتمنى من كل قلبي أن يهتدي إليه الناسُ أجمعون، وسأعمل على الدعوة إلى الإسلام، وسوف ابتدىء بعائلتي والمقربين إليَّ إن شاء الله.

سكت قليلا، ثم قال: إنني أحافظ على أداء الفروض في مواقيتها، وعلى صلاة الجمعة التي أشعر براحة نفسية كبيرة عند أدائها.. وإنني أعرف أهمية خطيب المسجد، والدور الكبير الذي يقوم به تجاه المسلمين، مثل مساعدتهم على فهم القرآن الكريم، وشرح الأحاديث النبوية، بجانب إرشادهم وتجميعهم على طريق الخير والصلاح.

وعند سؤالي له عن أحلامه المستقبلية قال: إنني حريص على تعلم اللغة العربية وإتقانها حتى يتسنى لي قراءة القرآن بلغته الأصلية، وبالتالي محاولة فهم معانيه، لأن ترجمته إلى اللغات المختلفة تؤدي إلى تضارب المعنى وعدم الوضوح.

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن الكتب التي تُرجمت إلى الأسبانية عن الإسلام ليست دقيقة في مضمونها، خصوصاً بعد ما ترجم أحد الأسبان ــ وهو مسيحي يدعى (جان فونت) ــ

معاني القرآن إلى الأسبانية بطريقة بعيدة كل البعد عن النص القرآني أو معناه، مما جعل الذين اطلعوا على هذه الترجمة من الأسبان يقولون: إن الإسلام دين غريب، ومما يدعو للأسف والأسى ما جاء في تلك الترجمة الأسبانية على يد ذلك المترجم، وعلى الأخص (سورة الناس) التي ترجمها إلى (سورة الرجال) وأخلَّ بمعناها وبمضمونها(1).

وعن سؤال حول المسلمين في إسبانيا أجابني بقوله: بالرغم من أن المسيحية هي الديانة المنتشرة في إسبانيا، فإن حرية الأديان متاحة للجميع، ولكن الإسلام ـ كما في كثير من الدول الأوربية ـ يظل محدود الانتشار، ممّا يتطلب تنشيط حركة الدعوة الإسلامية ودعم أنشطتها ووضع كافة الإمكانيات في سبيلها.

فيلي بوتولو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (فيلي بوتولو)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لعالم نفس ألماني، وهو أستاذ علم النفس بجامعة (ميونيخ) بألمانيا الغربية، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه باسم **(**أبي الحسن) لحبه لأبي الحسن الشاذلي.

وقد درس القرآن الكريم، وتعمق في دراسة التصوف الإسلامي بحكم تخصصه كباحث في الظواهر المختلفة في الأديان، وقد التقيت به وسألته عن سر إسلامه، وكان من جوابه لي قوله: إنني وجدتُ في الإسلام راحة نفسية، لم تفتقدها ألمانيا الغربية فحسب، وإنما تفتقدها أوربا كلها.

ثم قال لي: إن شعوري بانجذاب للإسلام كان منذ فترة طويلة، ولكن أراد الله تعالى أن يكون عملي كأستاذ لعلم النفس بجامعة (ميونيخ) مدخلاً لاعتناقي دين الإسلام.. فمن خلال عملي بدأت مرحلة البحث والدراسة حول الأديان كافة لمختلف دول العالم، والظواهر الغربية في كل الأديان.

وعند دراسة الإسلام شد انتباهي ما وجدته في القرآن أولاً، وفي كتب التصوف ثانياً، من شرح لأصول العقيدة ومناهج الإسلام، فعكفت على دراسة التصوف فترة غير قصيرة، حتى انتهيت إلى حقيقة مهمة وهي أن الإسلام يهتم بعلاج الإنسان ظاهراً وباطناً، فهو دين يدعو إلى نظافة الظاهر وطهارة الباطن، ويربي في الإنسان حب الأخوة والترابط والتآلف، بعكس ما نجده في المجتمعات الغربية، حيث يعيش كل إنسان في عالمه الخاص، لا تربطه بالمجتمع روابط روحية أو علاقات دينية، كما يحدث عند المسلمين.

---

1) نتعجب من هيئات الرقابة على المصاحف في الدول الإسلامية من اهتمامها الشديد بالنسخ العربية مع الإهمال الشديد للترجمات المختلفة، وكأنها لا تمت بصلة للقرآن.

وعرفت من خلال دراستي للتصوف أن المتصوفة يجتمعون لذكر الله، ويلتقون على حُبّه، ويسيرون في طريق النقاء الروحي والوجداني، ويتلون أوراداً معينة بعد كل صلاة، مما يجعلهم مشدودين دائماً إلى تعاليم السماء.

قلت: ألم تجد في مجتمع الكنيسة مثل هذا المجتمع؟

قال: من الصعب أن تجد في أوربا مجتمعاً يتسم بهذه الصفات، ولهذا وجدتُ نفسي مدفوعاً الى اعتناق الإسلام.. ولكنني رأيت من الضروري والضروري جداً ـ أن أظل مسلماً في السر لمدة عام كامل، لأنك إن أردت أن تدخل الإسلام في بلد كل وسائل الإعلام فيه موجهة ضد هذا الدين الحنيف، لكان ذلك صعباً جداً، ولكن بعد أن رسخت العقيدة في نفسي أعلنت إسلامي بصراحة، ولم أخش الذين يُحاربون الإسلام.

ثم اختتم قوله بحماس ـ وهو يشير بأصبعه إلى بعيد ـ: إنني أؤكد أنه بدون القرآن، وبدون التصوف الذي يُعَدُّ فرعاً من علم النفس الذي أدرسه في الجامعة لم يكن بمستطاعي أن أُغيرَ ديني ولذا فلقد غيرت ديني عن ثقة واقتناع تام.

قلت: فما أثر الإسلام فيك؟

قال: لقد تغيرت حياتي اليومية بعد الإسلام تماماً، وانتظمت انتظاماً عجيباً، فقد كانت في الماضي بلا هدف، أما الآن فقد أصبح لها معنى، ولها هدف ولها حلاوة.. لقد أصبحتُ أخاف الله في كل تصرفاتي، وأعرف أن لي ربّاً سوف يحاسبني فيما أفعله في أي وقت.

عبد الله كويليام:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (عبد الله كويليام)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم مفكر إنكليزي، ولد سنة 1856، وأسلم سنة 1887، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية)، و(أحسن الأجوبة)

قلت: لا شك أنك لم تلتق به.

قال: لا شك في ذلك.. ولكني من خلال كتبه استطعت أن أتعرف على سر إسلامه، فمن مقولاته في كتبه: (من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحى به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. وهو حافل بالمنجزات السامية مليء بالاستعارات الباهرة)(1)

ومنها قوله: (أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية

1) العقيدة الإسلامية، ص 119 – 120.

والجنائية والجزائية. ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة.. وعلى ذلك فالقرآن يختلف ماديًا عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية.. وهي غير معقولة وعديمة التأثير)(1)

ومنها قوله: (لقد عثرت في دائرة المعارف العامة على نبذة نصها كما يأتي (أن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقيًا بلا تقليد ودون مثيل. أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية)(2)

ومنها قوله: (هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة فمن أجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجازه مفيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يرى مطابقًا للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوبًا كذلك يرى موافقًا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقّت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه. وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين، وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعًا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.. وكذا نراه ناهيًا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضًا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول)(3)

ومنها قوله: (إن من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جدًا أحدهما علامة الخشوع والوقار التي تشاهد دائمًا على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون إليه.. والثاني خلوّه من القصص والخرافات وذكر العيوب والسيئات وإلى آخره، الأمر الذي

---

1) العقيدة الإسلامية، ص 122 – 123.

2) العقيدة الإسلامية، ص 138.

3) العقيدة الإسلامية، ص 139 – 140.

يؤسف عليه كثيرًا لوقوعه بكثرة فيما يسميه المسيحيون (العهد القديم)(1)

ومنها قوله: (كان محمد على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحساس.. وكان حائزًا لقوة إدراك عجيبة وذكاء مفرط وعواطف رقيقة شريفة. وكان على خلق عظيم وشيم مرضية مطبوعًا على الإحساس)(2) ومنها قوله: (إن بعض كتاب هذا العصر الحاضر كادوا أن يعرفوا بأن الطعن والقدح والشتم والسب ليس بالحجة ولا البرهان فسلموا بذكر كثير من صفات النبي السامية وجليل أعماله الفاخرة)(3)

ومنها قوله: (ما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد الذي علمهم الركوع والسجود لله وأبقى لهم دستورًا لن يضلوا بعده أبدًا وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أخراهم)(4)

ومنها قوله: (لما شرف محمد ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى اعتلاء النوع الإنساني وترقيه في درجات المدنية أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة. ومن نظر بعين البصيرة في حال الأنام قبله عليه الصلاة والسلام وما كانوا عليه من الضلالة.. ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقّي العظيم رأى بين الحالين فرقًا عظيمًا كما بين الثريا والثرى)(5)

ومنها قوله: (امتدت أنوار المدنية بعد محمد في قليل من الزمان ساطعة في أقطار الأرض من المشرق إلى المغرب حتى إن وصول أتباعه في ذلك الزمن اليسير إلى تلك المرتبة العلية من المدنية قد حيّر عقول أولي الألباب. وما السبب في ذلك إلا كون أوامره ونواهيه موافقة لموجب العقل ومطابقة لمقتضى الحكمة)(6)

ومنها قوله: (ليس بين الأديان أقرب للفهم من الدين الإسلامي للذين يفقهونه، كما أنه ليس بينها أثبت ولا أرفق منه. فهو بقاعدتيه: وحدانية الله والجزاء الآجل، يمنح القلوب حقوقها من السكينة والارتياح ويذهب بالإرادة المذهب الذي يلائمها وتحتاج إليه بدون أن

---

1) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبة، ص 23 – 26.

2) العقيدة الإسلامية، ص 96 – 97.

3) العقيدة الإسلامية، ص 113 – 114.

4) العقيدة الإسلامية، ص 38 (عن لوزون في خطبته المذكورة).

5) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص 21 – 22.

6) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص 22- 23.

تسـوم العقـل قيـود هـو بـالطبع يأباهـا. وليس في الاكتشـافات العلميـة الحديثـة، ولا في المسائل التي انتهى حلها والتي تحت الحلّ ما يغاير مثل هذه الحقـائق الإسـلامية الوضـاءة والسهلة المأخذ. ولهذا فإن التوفيق الذي نبذل كل جهـدنا معاشـر المسـيحيين لإيجـاده بين العقل والاعتقاد في ديننا المسيحي هو سابق موجود في الديانـة الإسـلامية. وإنـني بكلامي هذا عن الدين المسيحي إنما أشير إلى تلك الزيادات الموافقة وغير الموافقة الـتي أدخلت على نصرانية الإنجيل التي هي في الحقيقة كإسلام القرآن)

ومنها قوله: (إن الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعًا في أحكامهـا، من أعظم ملـك إلى أقلّ صعلوك فهي شريعة حيكت بأحكم وأعلم منـوال شـرعي لا يوجـد مثلـه قـط في العالم)(1)

ومنها قوله: (إن الأساس المهم والمبدأ العظيم في الإسلام هو الاعتقـاد بإلـه واحـد في وحدانيته ونبذ الخرافات بأي وجه كانت)(2)

ومنها قوله: (مهما ارتقى العقل في درجات الكمال فليرتقِ فإنه لا يخـرج عن حـدّ تلـك الأحكام الجليلة، أعني الأحكام الـتي انطـوت عليهـا الشـريعة الإسـلامية، فاتباعهـا في كـل زمان ضروري لا محيص للعقل عنه)(3)

مارك شليفر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (مارك شليفر)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هذا اسـم أسـتاذ لعلم الصـحافة بجامعـة (نيويـورك)، وقـد عمـل فـترة بـالمغرب مراسـلاً للإذاعـة الأمريكيـة، ولعـدد من المجلات في (نيويـورك).. وقـد اعتنـق الإسلام، وقد سألته ـ في لقائي به عن سر اعتناقه للإسلام، فكان من جوابـه لي قولـه: لم أكن ملتزماً بدين معين، مع أنني أنتمي إلى أسرة مسيحية كاثوليكية.. وكانت فترة إقـامتي بالمغرب مفتاح السعادة لي ولأسرتي، فقد رأيتُ عالماً جديداً يختلف كليةً عن العالم الـذي تركتـه خلفي في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ومـا لمسـته عن كثب من جمـال وروعـة السلوك الإسلامي شدني إلى شريعة الحق.

لقد تعثرت قدمي في حفرة ذات يوم حينما خرجت لأول مرة إلى سُوق شعبي بمدينـة الرباط، وعلى الفور وجدتُ عـدداً من المغاربـة يسـارعون إليَّ لمسـاعدتي على النهـوض، ويسألونني في لهفة عمّا إذا كنت قد أُصبت بسوء.

---

1) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص 62، (عن لوازون في خطبته المذكورة)

2) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص 123، (عن كتاب شكوى وارن هاسنتج، لادماند بورك)

3) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص 129 - 30.

ومرضتُ ذات مرة، فوجدت عشرات من جيراني ومعارفي يأتون لزيارتي، ويحاول كل منهم أن يصنع لي شيئاً، فدهشت لهذا السلوك الإنساني الذي لم أجد لـه نظـيراً في بلـدي أمريكا، حيث الكل لا يهتم إلا بنفسه، وطـابع الحيـاة الماديـة البحتـة هنـاك يصـبغهم جميعـاً بالأنانية، ولهذا لايكترثون بما يصب الآخرين، فالمرء عندنا يكون محظوظاً إذا ساعده أحدٌ أو زاره أهله في أثناء مرضه، أو حتى سألوا عنه.

ولذا فإنني حين سألتهم عن الدافع الـذي يحملهم على صـنع كـل هـذا من أجلي بـدون مقابل أجابوا جميعاً: إن هذا هو مـا يفرضـه عليهم دينهم الإسـلامي، ويـأمرهم بـه رسـولهم العظيم محمد ﷺ.

قلت: لقد كان سلوك المسلمين الطيب هو الذي جذبك إلى الإسلام إذن؟

قال: لقد كان ذلك دافعا.. ولم أكتف به.. بـل رحت أبحث عن الحقيقـة من مصـادرها.. وبعد مناقشات طويلة واسعة مع عشرات من علماء الإسلام تعلمت خلالها الكثير من أمور الإسلام، ازداد إعجابي به أكثر، ومع مرور الوقت وجدت عقيدة التوحيد تملأ عقلي وقلـبي.. ومن ثم انكببت أدرس ترجمة لمعاني القرآن الكريم، وأستوعب ما بها حتى وجدت نفسـي تتوجه إلى الله أن يهديني إلى الطريق المستقيم.

وبينما أنا أقلب صفحات القرآن الكريم ذات يوم إذا بي أطالع تفسير الآيتين الكريمتين: ﴿ لا تُدركُهُ الأبصارُ وهُوَ يُدرِكُ الأبصارَ وهوَ اللَّطيفُ الخبـيرُ قـد جـاءَكُم بصـائر من ربّكُم فَمَن أبصرَ فلِنفسهِ ومن عَمىَ فعليها وما أنا عليكُم بحفيظٍ ﴾ (الأنعام: 103ـ104)

عندئـذ لم أتمالـك نفسـي، ووجـدت الـدموع تنهمـر من عيـني، ومن ثم أيقنت أن هـذه إشارة صريحة من الله عز وجل ترشدني إلى الإسراع في اعتناق الدين الإسلامي الحنيف، واللحاق بركب الموحدين، وعلى الفور حزمت حقائبي، وسافرت إلى أمريكا حيث أشهرتُ إسلامي أنا وزوجتي وولدي بالمسجد الكبير في نيويورك.

ليوبولد فايس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (ليوبولد فايس)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا هو الاسم الذي ولد به محمد أسد.

قلت: أعرفه.. لقـد ولـد سـنة 1900، وتـوفي سـنة 1992م.. وهـو صـحفى نمسـاوى يهودى وُلِد بإقليم من أقاليم بولندا كان تابعا آنذاك للإمبراطورية النمسـاوية، وكـان يسـمى ليوبولد فايس، ثم دخل فى الإسلام سنة 1926م بعد أن رحـل إلى الجزيـرة العربيـة أيـام الملك عبد العزيز آل سعود، ثم انتقل بعد ذلك إلى شـبه القـارة الهندية حيث تـوثقت بينـه

وبين العلامة إقبال عُرَى الصداقة، وظل يساعد فى إذكاء نهضة الإسلام فى تلـك البلاد إلى أن انفصلت الباكستان عنهـا فانتقـل إلى الإقامـة فى الدولـة المسـلمة الجديـدة واكتسـب جنسيتها وأصبح مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة حتى عام 1953م.

وقد ترك عدة كتب تُرْجِم بعضها إلى العربية، منها (الطريـق إلى مكـة)، و(الإسـلام فى مفترق الطرق)، و(منهاج الحكم فى الإسلام)، وله ترجمة إنجليزية للفرآن الكريم.

قال: فلا تحتاج إلى أن نتحدث عنه إذن؟

قلت: لا.. بل أحتاج إلى ذلك.. فليس الخبر كالعيان.. فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في باكستان، وقد سألته عن طريقه للإسلام، فسرد لي أكثر ما ذكره في كتابه (الطريق إلي مكة)(1)

لقـد بـدأ بأفغانسـتان شـتاء 1926.. قـال: كنت فى طـريقى راكبـا من هـرات لكـابول بصحبة إبراهيم، ودليل أفغانى الجنسية، نسير خلال جبال مدفونة مغطـاة بالجليـد، ووديـان وطرق فى (هندو- كش) فى وسط أفغانستان، كـان الطقس بـاردا والجليـد يتـألق، وتقـف على كل الجوانب جبال بيضاء، وأخرى سوداء.

كنت حزينا، وفى نفس الوقت بشكل غريب كنت سعيدا هذا اليوم!أما حزنى، فقد كـان لأن من كنت أعيش معهم فى الشهور السابقة، كـانوا محجـوبين ببلادة، عن حقيقـة النـور، والقوة، والتقدم، الذى يعطيـه لهم إيمـانهم، وفى نفس الـوقت كـانت سـعادتى، بـأن هـذه الحقيقة والنور، والقوة والتقدم، فى متناول يـدى تقريبـا الآن، وأمـام عيـنى، كهـذه الجبـال الشامخة البضاء والسوداء التى أمامى.

بدأ حصانى يعرج وكأن شيئا فى حافره، ووجدت أن الحـدوة الحديديـة أصـبحت معلقـة فقط بمسمارين.

سألت رفيقنا الأفغانى، هل هناك قرية قريبة نجد فيها حدادا؟

فقال: نعم، قرية (ديهزانجى) التي تقع على بعد أقـل من ثلاثـة أميـال، يوجـد بهـا حـداد هناك، وبها قصر حاكم (هزرجات)

وهكذا اتجهنا إلى هذه القرية، وتمهلنا فى المسـير حـتى لا نرهـق الحصـان.. لقـد كـان حاكم المنطقة قصير القامة، وكان مرح الطلعة، ودودا، وكـان سـعيدا أن يستضـيف أجنبيـا عنده فى قصره البعيد عن العمران، والمتواضع. وقد كان هذا الحـاكم قريبـا للملـك (أمـان

1) ما نذكره هنا منقول من كتابه (الطريق إلى مكة) من صفحة 295 إلى 311 بتصرف يقتضيه المقام.

الله)، ومن المقربين له.. وقد كان من أكثر من قـابلت تواضـعا فى أفغانسـتان، وقـد أصـر على بقائى فى ضيافته ليومين.

وفى مساء اليوم الثانى، جلسنا كالعـادة لعشـاء دسـم، وبعـد العشـاء حضـر رجـل من القرية ليطربنا بأغان شعبية، مصطحبا قيثارة بثلاث أوتار، وكان يغنى بلغة الباشـتو الـتى لم أفهمها، ولكن بعض الكلمات الفارسية كانت تخللها بوضـوح، فى الغرفـة الدافئـة المغطـاة بالسـجاجيد، بينمـا وميض الثلج البـارد يظهـر من خلال النوافـذ. أتـذكر أنـه كـان يغـنى عن المعركة بين داوود وجالوت، وبدأها بنغمة متواضـعة، ثم تـدرجت إلى بعض العنـف، وانتهت بروح الإنتصار.

وبعد أن انتهت، قال الحاكم: إن داوود كان شابا، ولكن إيمانه كان قويا...

ولم أتمالك من التعليق، فقلت: كذلك أنتم.. كثيرون، ولكن إيمانكم ضعيف.

نظر إلى المضيف بدهشة، وارتباك لما تطوعت وذكرته، فأسرعت لأوضح قولى، وأخـذ توضيحى شكل سيل من الأسئلة.. لقد قلت: لماذا فقدتم أنتم المسلمون ثقتكم بأنفسـكم، التى فى القديم ساعدت على نشر الإيمان بالإسلام فى أقـل من مائـة عـام، من الجزيـرة العربية غربـا إلى المحيـط الأطلسـى، وشـرقا فى العمـق إلى الصـين، والآن تستسـلمون بضعف إلى الأفكار والعادات الغربية؟.. لماذا لا تستطيعون أنتم يا من كـان أبـاؤكم الأوائـل أناروا العالم بعلمهم وفنهم، بينما كانت أوروبا تغض فى بربرية وجهـل مـدقع، فلتعملـوا من الآن على أن تعودوا لإيمانكم الخلاق؟.. كيف أن هذا الأتاتورك التافـه، الـذى ينكـر كـل قيم الإسلام قد أصبح عندكم رمزا لإحياء الإسلام؟

استمر مضيفى فى صمته، وبدأ الجليد ينهمر فى الخارج، ومرة ثانيـة غمـرنى الشـعور المزدوج بالحزن والسعادة، الذى انتـابنى حينمـا اقـتربت من (ديهـزانجى).. لقـد أحسسـت بالفخار لما قد كان، وبالخجل لما عليه أبناء حضارة عظيمة.

قلت لمضيفي: هل لك أن تدلنى كيـف أن الإيمـان الـذى دلكم عليـه نـبيكم، وكـل هـذا الوضوح والبساطة، قد دفنت تحت أنقـاض الـثرثرة المتحزلقـة، والشـجار بين علمـائكم؟.. كيف أن أمراءكم والإقطاعيين يعيشون فى رفاهية، بينما إخوانهم من المسـلمين، يـذوقون الفاقـة والفقـر المـدقع، فى حين أن نـبيكم يقـول أنـه (لا يـؤمن من بـات شـبعان وجـاره جائع)؟.. هل لك أن تشرح لى كيف نبذتم النساء خلفكم، بينما نساء الرسـول ﷺ وصـحابته كن يشـاركن الرجـال فى أمـورهم الهامـة؟.. كيـف وصـل الحـال بكم أنتم المسـلمين إلى الجهل والأمية، فى حين يقـول نـبيكم أن (طلب العلم فريضـة على كـل مسـلم)، و(فضـل العالم على العابد كفضل البدر على سائر النجوم)؟

ظل مضيفى يحملق فى دون كلام، وابتدأت أشعر أن ملحوظاتى قد أحبطته، أما الرجل ذو القيثارة الذي كان لا يعرف الفارسية بدرجة تجعله يتتبع كلامى، فقد أخذ يتعجب من هذا الغريب الذى يتكلم بهذه النغمة مع الحاكم.

وفى النهاية، أخذ الحاكم رداءه المصنوع من جلد الغنم وتدثر به، كما يكون قد أحس بالبرد!وهمس لى: (لكنك أنت مسلم)

أخذنى الضحك، وأجبت: لا، أنا لست مسلما، ولكنى ألممت ببعض القيم فى الإسلام التى تجعلنى أغضب فى بعض الأحيان، كيف أنكم أنتم أيها المسلمون تضيعونها، اعذرنى إذا كنت قد أسأت فى الكلام، أنا لا أتكلم معك كعدو.

لكن مضيفى هز رأسه قائلا: (لا.. فكما قلت لك، أنت مسلم، ولكنك لا تعرف نفسك.. لماذا لا تنطق الآن، وهنا بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وتصبح مسلما فى حقيقة الأمر، فإنك مسلم قلبيا.. قلها يا أخى، قلها الآن، وسأصطحبك غدا لكابول لملاقاة الأمير، الذى سيستقبلك بذراعين مفتوحتين كشخص مثلنا، سيمنحك منازل وحدائق وأغنام، وسيحبك، قلها يا أخى..)

قلت: إذا قلت ذلك، سيكون نتيجة لأن عقلى قد استراح، وليس نتيجة لأن الأمير منحنى المنازل والحدائق.

لكن مضيفى أصر قائلا: أنت تعرف كثيرا عن الإسلام ز ربما أكثر من بعض المسلمين، ما هو الذى ما زلت تريد أن تعرفه؟

قلت: المسألة ليست مسألة فهم، إنها مسألة إقتناع، الإقتناع بأن القرآن الكريم هو فعلا كلمة الله، وليس مجرد كلمات من شخص نابه ذكى ذو عقلية متفوقة.

لكن كلمات صديقى الأفغانى أخذت تراودنى ولم تتركنى لشهور عدة.

أكملت رحلتى عبر أفغانستان عائدا مرة ثانية إلى هرات التى كنت قد ابتدأت منها، وكنا نقترب من الشتاء عام 1926، وهكذا تركت هرات فى المرحلة الأولى لطريق العودة للوطن، مستقلا القطار من الحدود الأفغانية إلى (ماف) فى التركستان الروسية، ثم إلى سمرقند، ثم إلى بخارى ثم إلى طشقند.. ومن ثم مارا بسهول التركمان إلى جبال الأورال، ثم موسكو.

وهالنى الدعاية والمعلقات التى تهاجم الدين والألوهية أينما أحل أو أرتحل[1]،

---

1) كتب ذلك في عهود الشيوعية.

وسأتوقف عن ذكرها لأنها مقززة.

وبشعور بالراحة، عبرت الحدود البولندية بعد أسابيع أمضيتها فى آسيا، وروسيا الأوروبية، واتجهت مباشرة لفرانكوفرت حيث الجريدة التى أعمل بها حيث استلمت عملى.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه أثناء غيابى، أصبح اسمى مشهورا، وأنى الآن أعتبر من المراسلين المرموقين فى وسط أوروبا، فبعض مقالاتى ــ خصوصا تلك التى تناولت النفسية الدينية المعقدة للإيرانيين ــ والتى قد جاءت نتيجة لملاحظات علماء شرقيين بارزين، واستقبلت أكثر من أنها معارف عابرة.

ونتيجة لأهمية هذا الإنجاز، فقد دعيت لإلقاء مجموعة من المحاضرات فى أكاديمية الجغرافيا السياسية ببرلين - حيث قيل لى أنه لم يسبق أن حدث من قبل أن شخصا فى حداثة السن مثلى ـ حيث كنت حينئذ فى السادسة والعشرين ـ قد منح هذا الإمتياز، كما قمت بتدبيج مقالات أخرى عامة بتصريح من مجلة (فرانكفورت زيتنج)، فى صحف أخرى ؛ وقد أعيد طبع إحدى المقالات كما أعلم ثلاثون مرة تقريبا، وبمعنى آخر، فإن رحلاتى الإيرانية قد أثمرت.

وفى هذا الوقت تزوجت (إلسا).. فالسنتان اللتان أمضيتهما فى الخارج، لم يضعفا من حبنا البعض، بل زادته قوة، وبسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل، استقبلت تعليقاتها على الفرق الكبير فى السن بيننا.

قالت: ولكن كيف تتزوجنى؟، بدأت فى النقاش معى، قالت: أنت لم تصل بعد للست والعشرين عاما، وأنا فوق الأربعين، ألا تفكر فى ذلك، حينما تصل للثلاثين، سأكون أنا فى الخامسة والأربعون، وحينما تصل أنت للأربعين، سأكون امرأة عجوزا.

أخذت فى الضحك، وقلت: وما فى ذلك؟، إننى لا أرى مستقبلا بدونك.

وأخيرا سلمت للأمر.

لم أبالغ حينما قلت لها: إننى لا أرى مستقبلا بدونك.. جمالها.. ورقتها الفطرية، جذبتنى إليها بحيث لا أرى أى امرأة أخرى ؛ وحساسيتها فى فهم ماذا أريد من الحياة أضاء أمالى، ورغباتى، وأصبحت من الصلابة بمكان وأكثر إدراكا، وطغت على تفكيرى فى ماذا أعمل ؟

فى أحد المناسبات - بعد حوالى أسبوع من زواجنا، أبدت لى هذه الملاحظة، لقد قالت لي: كم أنت غريب الأطوار عن كل الناس؟ يجب عليك أن تخفض من الروحانيات فى

الدين.. أنت صوفى النزعة.. حساس فى صوفيتك.. تشير بأصابعك إلى ما حولك فى الحياة، ولك رؤية متعمقة روحانية فيما يدور حولك يوميا من أشياء، بينما تمر مثل هذه الأشياء على الآخرين بلا اكتراث.. ولكنك حينما تتجه إلى الدين، فكلك تركيز.. مع الناس الآخرين فالوضع بالعكس تماما..

لكن إلسا لم تكن فى حيرة، فهى تعلم عما أبحث حينما أتكلم معها عن الإسلام ؛ وبالرغم من أنها لم تكن فى نفس درجتى من الإضطراب، إلا أن حبها لى جعلها تشاركنى تساؤلاتى.

كثيرا ما كنا نقرأ القرآن سويا، ونتناقش أفكاره ؛ وكانت إلسا كما كنت أنا، معجبين بالتماسك الداخلى بين تعاليمه الأخلاقية، وإرشاداته العملية. فاستنادا إلى القرآن الكريم، فالله لم يدع الإنسان إلى أن يتضرع إليه معصوب العينين، بل لابد له أن يعمل عقله ؛ لم يتنح الله بعيدا عن الإنسان، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد ؛ لم يخط الله خطا فاصلا بين الإيمان والسلوك الإجتماعى.

والشئ الذى يعتبر فى غاية الأهمية، أن الإسلام لم يبدأ من بديهية أن الحياة محملة بالصراع بين الروح والجسد، وأن النجاة هى فى تحرير الإنسان من قيود الجسد.. كل مظهر من مظاهر أنكار الحياة، وتحقير الإنسان لنفسه، أدانها الإسلام فى أحاديث لرسول الله ﷺ.. مثل ما ورد في حديث الثلاثة الذين قال لهم رسول الله ﷺ: (من رغب عن سنتى فليس منى)

فالإنسان مطالب بأن يعيش حياته كاملة وبشكل إيجابى، فما منحت غرائزه إلا لتؤدى ثمرتها، ولكن ليستخدمها بطهر وأخلاق وفى محلها الصحيح. ومن التعاليم للإنسان: أنه ليس لك فقط أن تعيش حياتك، بل المفروض عليك أن تعيشها بكل أبعادها.

صورة متكاملة للإسلام تنبثق فى ذهنى وبشكلها النهائى وبتحديد، مما أدهشنى، أحيانا كانت تتشكل فى عملية من الممكن أن أسميها تفاعلات ذهنية، وبدون وعى منى، فقد بدأت تتجمع من أجزاء متفرقة ومنتظمة، فإذا وضعت هذه المتناثرات بعضها إلى بعض، رأيت نظاما هندسيا دقيقا، أخذ ذهنى يجمعه فى السنوات الأربع الماضية، لأرى بناء كل عناصره متناسقة منسجمة، تتجمع لتتمم وتعاضد بعضها البعض، لا شئ فيه ينقصه، ولا شئ يزيد عن متطلباته متزن وهادئ، يعطى الإنطباع بأن مسلمات الإسلام كلها فى وضعها الصحيح.

منذ ثلاثة عشر قرنا مضت[1]، وقف رجل يقول : (ما أنا إلا رجل هالك، ولكن الذى

1) بناء على الوقت الذي يؤرخ له المؤلف.

خلق الكون أوحى إلى أن أحمل رسالته لكم، حتى تعيشوا منسجمين مع كل خلقه، وقد أمرنى بأن أذكركم بوجوده إلها له كل القدرة وكل العلم، وقد وضع لكم منهاجا للسلوك الصحيح، إذا قبلتموه فلتتبعونى.. هذا كان هو الرسول محمد ﷺ، وهذه كانت رسالته.

النظام الإجتماعى الذى أعلنه، كان من البساطة التى تربط مفرداته بالعظمة الحقيقية، بدأ بالتسليم بأن الإنسان كائن حى له متطلبات حيوية، وهذه المتطلبات تخضع للحل والحرمة اللذان يقرهما الله سبحانه وتعالى، وأن الإنسان اجتماعى بطبعه يحتاج إلى مجتمع يحيط به، ولكى يحقق إحتياجاته الثقافية والأخلاقية والطبيعية، فلابد أن يعتمد كل على الآخر.

إن ازدهار القوام الروحى للإنسان ـ وهو هدف كل الأديان ــ يعتمد عما إذا كان يتلقى دعما وتشجيعا وحماية له ممن حوله.

هذا التكافل الإجتماعى يظهر سبب اهتمام الإسلام بالنواحى العامة الإقتصادية والسياسية، ولا ينفصل عنها، ولتنظيم علاقات إنسانية بطريقة عملية بحيث لو قابل أى فرد بعض العقبات، يجد التشجيع اللازم لتنمية شخصيته: هذا، ولا شئ آخر، يبدو أنه هو مفهوم الإسلام للوظيفة الحقيقة للمجتمع.

وهكذا كان من الطبيعى أن التشريع الذى أتى به سيدنا محمد ﷺ خلال ثلاثة وعشرون عاما من مبعثه لا يرتبط فقط بالنواحى الروحية، بل يمتد ليشمل الإطار لكل الأفراد وللمجتمع أيضا. يشمل ليس فقط مفهوم النقاء الفردى، ولكن يتضمن المجتمع العادل الذى يؤدى هذا النقاء إليه، كذلك يتضمن الخطوط العريضة للمجتمع السياسى، أما التفاصيل فمتروكة للتطورات التى تحدث مع الزمن المتغير، كما يحدد حقوق الأفراد وواجباتهم نحو المجتمع اذى يعيشون فيه آخذا بعين الإعتبار حقيقة ما يجد من أمور.

الشريعة الإسلامية تتضمن كل مناحى الحياة، أخلاقية، طبيعية، فردية، اجتماعية، العلاقة بين الجسد والروح والعقل، الجنس، الإقتصاد، كل ذلك جنبا إلى جنب، مع اللاهوت والعبادة، كل أمر من الأمور له وضعه فى تعليمات النبى ﷺ، ولا شئ يخص الحياة ينظر إليه على أنه تافه ليخرج من دائرة التصور الدينى.. ليس حتى مثل هذه القضايا الدنيوية، كالتجارة، والميراث، وحق الملكية، وامتلاك الأراضى.

كل مفردات الشريعة وضعت للانتفاع المتساوى بين أفراد المجتمع، بدون تمييز بين مكان المولد والأعراق والجنس أو ولاء اجتماعى سابق.. لا منافع خاصة حجزت لمؤسس المجتمع أو أحفاده.. لا توجد طبقات عليا وطبقات دنيا فى المفهوم الإجتماعى، ليست من مفردات القاموس الإسلامى ؛ ولا أثر لها فى الشريعة الغراء.. كل الحقوق والواجبات

والفرص، موزعة بين أفراد المجتمع المؤمن بالتساوى.

لا يوجد كهنة بين الله والإنسان، لأن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، لا ولاء إلا لله ورسوله، وبأمر من الله للوالدين، وللمجتمع المسلم المنوط بتحقيق مملكة الله على الأرض ؛ وبذلك فلا يجوز الذى يعلى كلمة (بلادى أو أمتى)، ولتوضيح هذا المفهوم، فإن رسول الله ﷺ فى أكثر من مناسبة، قال بوضوح : (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)

كل المنظمات قبل الإسلام.. حتى الدينية أو شبه الدينية.. كانت تنهج المفهوم الضيق للعصبية القبلية والعشائرية، فمثلا الملوك المتألهين، الفراعنة فى مصر، لا يفكرون إلا فى أضيق الحدود التى يعيش فيها المصريون ؛ وحتى إله بنى إسرائيل فهو إله فقط للشعب المختار، بالعكس فالمفاهيم المستقاة من القرآن الكريم ترفض رفضا باتا التمسك بالعشيرة أو القبيلة.

الإسلام افترض مجتمعا سياسيا بعيدا عن الإنقسامات العرقية والقبلية، وفى هذا المجال فإن الإسلام والنصرانية يتفقان فى الدعوة العالمية بعيدا عن القبلية، وفى حين أن النصرانية قد حددت نفسها فى مفهوم (اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، إلا أن مفهوم الإسلام أوسع من ذلك، فقد دعا كل الأمم أن يكون الولاء لله فقط.

وبذلك.. لتحقيق ما لم تحققه النصرانية.. فقد أضاف الإسلام منظورا آخر فى تطوير الإنسان.. لقد دعا إلى مجتمع مفتوح عقائديا، بالمقارنة مع المجتمعات المغلقة التى نشأت فى الماضى عرقيا وجغرافيا.

لقد أعطت رسالة الإسلام تصورا ومنحت البشرية حضارة لا مكان فيها للقومية، لا مصالح شخصية، لا طبقية، لا كنيسة، لا كهنة، لا طبقة نبلاء متوارثة، فى الحقيقة، لا شئ متوارث على الإطلاق [1].

روجيه جارودي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (روجيه جارودي)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم المفكر الفرنسي المعروف، وأحد كبار زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي، سابقًا، وهو رجل تتميز ثقافته بالعمق والشمولية، والرغبة الجادة في البحث عن الحق مهما كان الثمن الذي يكلفه.

وقد أتيح له منذ مطلع الأربعينات أن يحتك بالفكر الإسلامي والحياة الإسلامية، وقد

1) انظر: الإسلام والغرب، الوجه الآخر، حسن السعيد.

ازداد هذا الاحتكاك بمرور الوقت، وتمخض عن اهتزاز قناعاته المادية وتحوله بالتدريج إلى خط الإيمان، الأمر الذي انتهى به إلى فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي، كما قاده في نهاية الأمر (أواخر السبعينات) إلى اعتناق الإسلام، حيث تسمى بـ(رجاء جارودي).

وقد كتب العديد من المؤلفات منها: (حوار الحضارات)، (منعطف الاشتراكية الكبير)، (البديل)، (واقعية بلا ضفاف)، وبعد إسلامه أنجز سيرة ذاتية خصبة وعددًا من المؤلفات، أبرزها: (وعود الإسلام)، فضلاً عن العديد من المحاضرات التي ألقاها في أكثر من بلد.

قلت: لا شك أنك التقيت به، فقد كان له ـ مثلك ـ رحلات كثيرة، وهو يحضر المؤتمرات والندوات، ولا يقصر في ذلك.

قال: أجل.. لقد التقيت به مرات عديدة.. وفي كل مرة كنت أسمع شيئا جديدا، ولم أكن السائل بل كنت المستمع المتنصت.

في أحد تلك المؤتمرات سأله بعضهم قائلا: نسمع كلاما كثيرا عن الإسلام.. فما هو الإسلام؟

التفت روجيه إلى السائل، وقال: (إن الإسلام لم يعد ذلك (الكافر) في زمن الصليبيين أو الـ (إرهابي) في حرب التحرير الجزائرية، ولم يعد ذلك الأثر في المتحف الذي يتفحصه المستشرق بعين العالم الاختصاصي بعاديات الحضارات، انطلاقًا من الحكم السبقي بامتيازية الغرب.. بل لم يعد أكثر من هذا، ذلك الانفجار العلمي المذهل الذي كان، عند الخروج من العصور الوسطى قد فتح الطريق ببساطة لعلومنا (الحديثة).. إنما الإسلام هو تلك الرؤية لله وللعالم وللإنسان، التي تنيط بالعلوم وبالفنون وبكل إنسان وبكل مجتمع مشروع بناء عالم إلهي وإنساني لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الأعظمين، المفارقة والجماعة، التسامي والأمة)(1)

ثم استغرق في خشوع عظيم، وقال: (إن الله أكبر من أعظم الملوك، وإليه وحده يدان بالإجلال المطلق، فها هنا المبدأ بحق لا يجوز التصرف فيه، بالصمود في وجه كل طغيان وبمعارضة كل سلطة، الأساس الإلهي للمساواة بين جميع الناس من وراء أي تسلسل في المراتب الاجتماعية)(2)

ثم قال: (بفضل مبدأي الإسلام الأساسيين: مبدأ السلطة لله وحده وهو الذي يجعل كل سيادة اجتماعية نسبية، ومبدأ الشورى الذي يستبعد أية وساطة بين الله والشعب، يزال،

1) دعوة الإسلام، ص 22.

2) دعوة الإسلام، ص 31.

في آن واحد، أي استبداد مطلق يضفي القداسة على السلطة، ويصبو إلى أن يجعل من القائد إلهًا على الأرض)(1)

في مؤتمر آخر سأله بعضهم عن موقفه من الجهاد في الإسلام، فقال: (إن الجهاد الأكبر في الإسلام هو كفاح ضد الذات، ضد الميول التي تجذب الإنسان بعيدًا عن مركزه. وهو ما يقوده، باجتذابه نحو رغبات جزئية، إلى أن يصطنع لنفسه (أوثانًا) وبالنتيجة يمنع عن الاعتراف بوحدانية الله. والانتصار على هذه (الوثنية) الداخلية أصعب كثيرًا أيضًا من الانتصار على المشركين في الخارج. ومازلنا نجد اليوم في هذا درسًا عظيمًا لكثير من (الثوريين) الذين يطمعون بتغيير كل شيء إلا أنفسهم. كما كان، فيما مضى، شأن الكثير من (الصليبيين)، الذين كانوا في القدس وفي أسبانيا (المراد استردادها)، أو ضد هنود أمريكا، يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزؤون منها بكل عمل من أعمالهم)(2)

وعندما سئل عن سر انتشار الإسلام بقوة تفوق انتشار المسيحية، قال: (حدثني مبشر في كميرون وهو يائس فقال: (إن بعثاتنا تقدم المسيحية على نحو كما لو أن الله لم يظهر في صورة إنسان وإنما ظهر في صورة غربي). فكيف ندهش أمام تقدم الإسلام المذهل في أفريقية السوداء في عصر الاستقلال إعرابًا عن رفض المستعمر؟)(3)

وفي أحد المؤتمرات النسوية سألته بعض النساء عن موقف الإسلام من المرأة، فقال: (إن القرآن، من وجهة نظر اللاهوتية، لا يحدّد بين الرجل والمرأة علاقة من التبعية الميتافيزيقية: فالمرأة في القرآن توأم وشريكة للرجل لأن الله خلق البشر ككل شي: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الذريات:49) والقرآن لا يحمّل المرأة المسؤولية الأولى للخطيئة)(4)

(إذا نحن قارنّا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فإنها تسجل تقدّمًا لا مراء فيه ولا سيما بالنسبة لأثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة)(5)

(في القرآن تستطيع المرأة التصرف بما تملك وهو حق لم يعترف لها به في معظم التشريعات الغربية ولا سيما في فرنسا إلا في القرن التاسع عشر والعشرون. أما في الإرث فصحيح أن للأنثى نصف ما لذكر، إلا أنه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة أعباء

---

1) دعوة الإسلام، ص 36.

2) دعوة الإسلام، ص 45.

3) حوار الحضارات، ص 267.

4) وعود الإسلام، ص 78.

5) وعود الإسلام، ص 78.

مساعدة أعضاء الأسرة الآخرين على عاتق الذكر. المرأة معفاة من كل ذلك. والقرآن يعطي المرأة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المرأة في الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرنا)(1)

(في القرآن إقرار بتعدّد الزوجات. إلا أن هذا التعدد لم يؤسسه هو، كان موجودًا من قبل (وهو موجود كذلك في التوراة وفي الأناجيل)، وقد فرض عليه، على العكس، حدودًا مثل العدل التام بين مختلف الزوجات في الإنفاق والمحبة والمعاشرة الجنسية، وهي قواعد إذا ما جرى تطبيقها بحرفيّتها تجعل تعدد الزوجات مستحيلاً)(2)

(يحسن ألا ننسى بأن جميع ألوان الرّقّة في الحب والشفافية فيه.. على نحو ما ظهر في الغرب لدى شعراء التروبادور.. وفي قصائد دانتي.. من أصول عربية إسلامية)(3)

روبرت بيرجوزيف:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (روبرت بيرجوزيف)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم لأستاذ سابق للفلسفة بالجامعات الفرنسية، وله العديد من الكتب في مجال الفلسفة والتوحيد، وقد اعتنق الإسلام بعد دراسة جادة مضنية أوصلته إلى اقتناع كامل به كدين قائم على التوحيد.

قلت: هل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد من الله علي بذلك، وكان من جوابه لي عن سر إسلامه قوله: بلا شك أن الإسلام ـ وهو دين العلم والمعرفة ـ يدعو معتنقيه إلى التزود بالعلم به، ولا غَروَ في ذلك، فإن أول آية من القرآن الكريم هي قوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق:1)، والنبي الكريم يقول: (اطلبوا العِلمَ ولو كان في الصين)

قلت: فما علاقة هذا بإسلامك؟

قال: من تجاربي الشخصية وصلت إلى إيمان لا يتزعزع بأن الفرد الذي يخلص في أبحاثه للحصول على العلم في أي فرع من فروعه لخدمة المجتمع، ولخير البشرية جمعاء، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه خير الجزاء على كل ما يقدمه من خير لمجتمعه، فالله يقول في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة:7)، وبالنسبة لي فإنني لم أكتف بدراستي الخاصة في الفلسفة، بل إنني حاولت في شتى فروع المعرفة،

---

1) وعود الإسلام، ص 78-79.

2) وعود الإسلام، ص 80.

3) وعود الإسلام، ص 79.

وخاصة في إثبات وحدانية الله خالق كل شيء، ومدبر كل شيء في هذا الكون، الذي تهدده الحضارة المادية الإلحادية التي تكاد تقضي على كل ما توارثته الأجيال الماضية والحاضرة من تقدم وازدهار. فسلاح العلم وحده لا يُستخدم إلا في الخير والبناء، لا في الدمار والخراب، وذلك هو الأمل لأبناء البشرية جمعاء للوصول إلى الحقيقة الكبرى، وإلى خلاص العالم من مشاكله.

فالعلم والبحث كانا سبباً في انبثاق إشراقة الأمل ونور الحق، وإنارة الطريق أمامي.. ليهديني ربي إلى الصراط المستقيم، ويرشدني إلى بر الامان، وينقذني من العذاب الشديد الذي كنت أعانيه نتيجة الصراع العنيف الذي كان يدور في نفسي، ولا ريب في هذا الكلام، فإنني أعتقد بأن الإسلام ـوهو شريعة الله والحق ــ معناه السلام، بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معانٍ كبيرة، وأولها السلام بين الشخص ونفسه.

فالنفس ـ وهي الأمارة بالسوء ـ لا تستطيع أن تسيطر عليها وتوجهها إلى خير الفرد والمجتمع، إلا الشريعة الإسلامية ومبادئها السمحاء.

فالشهادة تعني أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. تعني أن الناس جميعاً متساوون، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى..

واتصال العبد مباشرة بخالقه خمس مرات يوميّاً ـ في صلاته ـ زادٌ يومي يُذَكّرَهُ بوجود الخالق، ويدعوه إلى إتباع ما دَعَا إليه، واجتناب ما نَهى عنه.. ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران:110)

والزكاة تُوحدُ بين القلوب، وتقضي على الحقد والبغض والحسد، فتقرب بين المسلمين وتجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وصيام رمضان يعتبر تدريباً للنفس لكبح جماحها..

وخروج الفرد من زينة الدنيا في الحج يذكره بيوم الحشر والحساب..

فهذه المباديء تستطيع إقامة المجتمع المثالي الذي ظللت أبحث عنه منذ نشأتي..

ولذا فإنني أدعو كل إنسان أن يبحث عن حقيقة الإسلام ومبادئه المختلفة، ولا يتأثر بالادعاءات الكاذبة التي يرددها المغرضون وأصحاب الأغراض الشخصية، فالطريق مفتوح أمام كل إنسان للنظر في كتاب الله وسنة رسوله، وليحكم بعد ذلك بما يمليه عليه ضميره.

قلت: فماذا فعلت بعد إسلامك؟

قال: أول ما فعلته بعد اعتناقي للإسلام، هـو محاولـة زيـارة الـدول الإسـلامية لدراسـة أحوال معيشتهم، والتعرف عليهم، ولقد سعدت كثـيراً بزيـارة المملكـة العربيـة السـعودية، والكويت، ومصر وغيرها، وكنت دائماً أحس بالبيئـة الإسـلامية الـتي أفتقـدها ويفتقـدها كـل مسلم يعيش في بلاد الغرب.

قلت: فهل تنوي خدمة الإسلام بما تعلمته من علوم؟

قال: لا بد من ذلك.. إنني الآن أقوم بمحاولة إعداد كتاب باللغة الفرنسية عن الشـريعة الإسلامية، وتاريخ الإسلام والمسلمين، ودور علماء المسلمين الاوائـل في العلـوم والفنـون المختلفة.

قـال ذلـك، ثم توجـه لبعض المسـتمعين من المسـلمين يقـول: أود أن أطلب من المسلمين أن يفتخروا بأنهم مسلمون، وأن يكونوا خير مثـل لهـذه الشـريعة الخالـدة، وأن يكونوا جديرين بأن يحملوا هذه العقيدة.

وأحب أن أذكـر هنـا مثلاً يـبين لهم أهميـة تمسـكهم بـدينهم دون التـأثر بمـا يجـري من حولهم، وهو أن أصحاب الأعمال هنا يفضلون المسـلمين المتمسـكين بـدينهم، نظـراً لأنهم يكونون على خُلُق طَيّبٍ، وإخلاص تام للأعمـال الـتي يقومـون بهـا، فضـلاً عن أن سـلوكهم الاجتماعي يجبر الجميع على احترامهم وتقديرهم، واحترام وتقدير عقيدتهم.

كما أطلب من الدول الإسلامية ـ وخاصة مصر ـ أن تتحمل المسـئولية الكـبرى لخدمـة الإسلام والمسلمين في العـالم أجمـع، كـأن تهتم مثلاً بتوزيـع المطبوعـات الإسـلامية الـتي تتناول الأسس والمبادىء الإسلامية بالأسلوب العلمي المبسـط، وباللغـات المختلفـة.. وأن تهتم بالقرآن الكريم وترجمته للشعوب غير الناطقة بالعربية، والاهتمـام أيضـاً بأسـطوانات وتسجيلات تعليم الصلاة للمسـلمين في الـدول الغربيـة بصـفة عامـة، وفي فرنسـا بصـفة خاصة، حتى يمكننا ـ نحن الأوربيين ـ دراسـة هـذا الـدين الحـنيف.. كمـا يمكننـا نحن الـذين أسلمنا أن نُعَرّف إخواننا غير المسـلمين بـه، ولكـل طـالب علم ومعرفـة، واللـه يهـدي من يشاء من عباده.

تاسعا ـ الأصدقاء

فتحت دفتر الغريب على فصله التاسع، فوجـدت عنوانـه (الأصـدقاء)، فقلت: مـا الـذي تقصده بالأصدقاء.

قال: هذا مصطلح أردت به قوما من الناس أحبوا الإسلام، أو أحبوا أشـياء في الإسـلام، ولكنهم قصروا عن أن يكونوا أتباعا له.

قلت: فكيف صاروا أصدقاء إذن ما داموا لم يتنعموا بنعيمه؟

قال: لقد فتح الله بسببهم عيونا عميا، وأسماعا صما، فلذلك خدموا الإسلام.. والإسلام لا يعادي من يخادمه.

قلت: ولكني عرفت أن من ركائز الإسلام ما يسمى بالولاء والبراء.. والناس بـذلك إمـا مسلمين نكن لهم كل المودة، وإما كفار نكن لهم كل العداوة.

قال: من قال ذلك؟

قلت: كلهم يقولون ذلك.

قال: أخطأ من قال ذلك..

قلت: هم يقرؤون لذلك قرآنا.

قال: وما يقرؤون؟

قلت: يقرؤون قوله تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَـيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُـوا مِنْهُمْ تُقَـاةً وَيُحَـذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَـهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) ﴾ (آل عمران:28)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾ (النساء:144)، وقبل ذلك بآيـات قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمـاً (138)الَّذِينَ يَتَّخِـذُونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (139)﴾(النساء)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَـارَى أَوْلِيَـاءَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ(51) فَتَـرَى الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ يُسَـارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْـبِحُوا عَلَى مَـا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(52)﴾ (المائدة)

قاطعني، وقال: وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (التوبة:23)، وقوله تعالى: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة:22)، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (الممتحنة:1)

قلت: أجل.. ألا تكفي هذه الآيات لتضع بيننا وبينهم أسوارا من العداوة لا نلتقي بعدها أبدا؟

ابتسم، وقال: أرأيت لو أن كل أولئك الذين أخبرتك عن إسلامهم لاقوا أجلافا غلاظا لا يعرفون منهم إلا العداوة.. هل تراهم يقبلون على الإسلام بذلك الشغف الذي أقبلوا به؟

سكت قليلا، ثم قال: ولماذا نذهب بعيدا.. هو ذا أنا أمامك.. لو أني لاقيت مثل هؤلاء الناس هل كان يمكن أن أسلم.. إن الحرب لا تجر إلا الحرب.. والعداوة لا تجر إلا إلى العداوة.

قلت: ولكن كيف نفعل بالنصوص التي كنا نقرؤها؟

قال: نفهمها..

قلت: على ضوء كلام المفسرين.. أم على ضوء كلام الفقهاء؟

قال: على ضوء القرآن الكريم.. فخير ما فسر القرآن القرآن.. وعلى ضوء كلام رسول الله، فخير من فهم كلام الله رسول الله.

قلت: فأين تفسير تلك الآيات؟

قال: في قوله تعالى ـ وهو يضع الضابط الذي تفسر من خلاله جميع ما يسمونه نصوص الولاء والبراء ـ: لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(9) (الممتحنة)

فهاتان الآيتان تضعان إطار العداوة والصداقة.

قلت: ما هو هذا الإطار؟

قال: أن نصادق من صادقنا، وأن لا نوالي من يعادينا.

قلت: ما معنى عدم موالاته؟

قال: أن لا تمده بالمعونة التي تجعله يحاربك بها.. هذا هو وحده إطار البراء الذي يرسمه القرآن.. وهو لا يمنعك من أن تدعوهم، وتحب لهم من الخير ما تحبه لكل مؤمن، بل تحزن لهم إن ماتوا وهم لا يعرفون الله.

قلت: إنك تقضي بهذا على مفهوم البراء الذي ينشره كثير من قومنا.

قال: بسوء فهمهم.. وببعدهم عن القرآن.. وعن شمس محمد ﷺ.

قلت: ولكن محمدا ﷺ حارب الكفار.

قال: ولكنه كان يحب لهم كل الخير.. بل يحزن عليهم.. بل كاد يقتله الحزن عليهم.. ألم تقرأ قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (الكهف:6)، وقوله تعالى: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (الشعراء:3).. وهو في حربه لهم كان يدافع عن دينه، وكم تمنى أن لا يريق دما من دمائهم.. ولولا أنهم اضطروه لذلك ما حمل عليهم سيفا.

قلت: صدقت في هذا.. وفي القرآن الآيات الكثيرة الدالة على ما ذكرت.. وفي حياة الرسول ﷺ النصوص الكثيرة المؤيدة لذلك.

قال: فاقتدوا بمحمد ﷺ.. ولا تقتدوا بأولئك المجرمين الذي امتلأت قلوبهم ظلمة، فراحوا يرمون بها الإسلام.

قلت: عد بنا إلى الأصدقاء.. إن من قومي من يرفض هذه التسمية.

قال: عندما أرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى النجاشي.. هل كان النجاشي مسلما أو كافرا؟

قلت:لم يكن النجاشي حينها مسلما.

قال: فماذا قال لهم رسول الله ﷺ ؟

قلت: قال لهم: (إن بها ملكاً لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق فتحرزوا عنده يأتيكم الله عز وجل بفرح منه، ويجعل لي ولكم مخرجاً)(1)

قال: فقد أثنى عليه رسول الله ﷺ ثناء حسنا، واعتبر أرضه أرض صدق؟

قلت: أجل..

قال: فاعتبروا بهذا.. وحولوا العالم كله أصدقاء لكم.. فلا خير فيمن يبحث عن العـداوة، وينشر عقيدة العداوة.

قلت: اقتنعت بما ذكرت.. فهلم بنا إلى سفرك.. لتقص علي أنباء هؤلاء الأصدقاء.

قال: قبل أن أذكر لك شهاداتهم(2) أريد أن أخبرك بأن هؤلاء صنفين:

قلت: فما الصنف الأول؟

قال: قوم امتلأوا بحب الإسلام، فلم يدعوا مناسبة يثنون بها عليه إلا فعلوا.. وهؤلاء أرى أن نكـل أمـرهم إلى اللـه.. فقـد يكونـون من المسـلمين الـذي كتمـوا إسـلامهم، فلـذلك يستحقون منا كل الاحترام.

قلت: صدقت.. فما الصنف الثاني؟

قال: قوم مذبذبون.. فمرة يغلبهم الصـدق، فينطقـون بـالحق، شـعروا أو لم يشـعروا.. ومرة يحنون إلى حياتهم وأقوامهم ومذاهبهم، فينطقون بالباطل.

قلت: فهؤلاء أعداء وليسوا أصدقاء.

---

1) رواه ابن إسحق.

2) اعتمدنا في أكثر الشهادات الواردة في هذا الفصل الطويل على ما أعده الدكتور عماد الدين خليل من جمع للشهادات الكثيرة التي شهد بها المستشرقون وغيرهم حول القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية، والذي جمع فيما بعد في كتاب واحد تحت عنوان (قالوا عن الإسلام)، وقد جمع هذا الكاتب الفاضل تلك النقول الكثيرة بطلب من الندوة العالمية للشباب.

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الشهادات المنصفة في حق الإسلام، وقرآنه الكريم ونبيه العظيم، وتاريخه وحضارته ورجاله، وهذه الشهادات صدرت عن أعلام معظمهم من غير المسلمين، فيهم السياسي والأديب والشاعر والعالم، والعسكري، والرجل والمرأة.

ومع هذه النقول الكثيرة، فإن الكاتب اقتصر على الاستشهاد بأقوال الغربيين الذين سبقوا عشر السنوات الماضية، كما اقتصر على الرجوع للترجمات العربية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أنا سنذكر في الهوامش المصادر الأصلية التي ذكرت فيها تلك النقول ثقة منا بالذي جمعها، وقد أشرنا إلى هذا هنا حتى لا نضطر كل مرة إلى الإيعاز إليه.

قال: لا.. هؤلاء أصدقاء في الحق الذي نطقوا به، ألم تقرأ قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (النساء:40)، وقوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) (الزلزلة:7)

قلت: ولكن الله تعالى قال: وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (الزلزلة:8)

قال: نحن نبحث عن الخير لنبشر به.. أما الدينونة، فندعها لله.. ألم يعلمك معلم السلام هذا؟

قلت: بلى.. جزاه الله خيرا.. وجزاك الله كل خير.. لقد أضر بنا الصراع.. فصرنا لا نرى إلا الصراع.

فتحت الدفتر.. فرأيت أسماء لدول مختلفة، فقلت: ما هذه الأسماء؟

قال: لقد وفقني الله، فقمت برحلات مختلفة إلى كثير من دول العالم، أحضر مؤتمراتها وندواتها، وقد سجلت في كل رحلة من تلك الرحلات بعض ما سمعته من شهادات.

قلت: ألم تسجل كل الشهادات؟

قال: يستحيل ذلك.. فسمعة الإسلام ــ بحمد الله ــ في قمة الطيبة بين العلماء والمثقفين رغم ما تمارسه وسائل الإعلام من حملات تشويه.

أصدقاء من العرب

كان أول ما رأيته في هذا الفصل عنوان (أصدقاء من العرب)، فسألت الغريب قائلا: من تقصد بأصدقاء الإسلام من العرب؟

قال: رجال من أهل الكتاب، ولدوا في أرض العرب، وعاشوا بين المسلمين.

قلت: ألا تعتبر شهادة هؤلاء مرفوضة عند غير المسلمين؟

قال: لا.. بل هذه الشهادات أشرف الشهادات، لأنها جاءت من قوم معايشين للمسلمين، وبالتالي تكون أحكامهم في منتهى الوثوق والدقة.

قلت: صدقت.. فأعظم ما يدل على تسامح المسلمين هو وجود أهل الكتاب بينهم من قديم العصور.. فهم بذواتهم وبيوتهم وممتلكاتهم من أعظم الشهادات على مصداقية الإسلام ورقيه.

قال: ولهذا أوصى رسول الله ﷺ بأهل الذمة.. وبمثل ذلك أوصى من بعده.

د. فيليب حتي:

كان (د. فيليب حتي) [1] هو أول الأسماء المثبتة في قائمة العرب، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحيي لبنان، وقد درس في كبريات جامعات العالم، وله مصنفات ترتبط بالإسلام.

قلت: فهل ستذكر لي بعض شهاداته؟

قال: شهاداته كثيرة.. وسأذكر لك منها ما تقر به عينك.

كنا في لبنان، وكان الجمع يتحدث عن اللغة العربية وأساليبها وجمالها، وفجأة نطق د. فيليب حتي يقول[2]: (إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى)[3]

ثم أضاف يقول: (إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات)[4]

وهو يعتبر القرآن الكريم السبب المباشر الذي حفظ اللغة العربية، وحفظ الأمة الإسلامية، فقال: (إن اللغة العربية هي لغة القرآن التي كانت الأساس الذي قامت عليه أمة جديدة أخرجت للناس، أمة جاءت بها بعثة محمد من قبائل متنافرة متنازعة لم يقدّر لها من قبل أن تجتمع على رأي واحد. وهكذا استطاع رسول الإسلام أن يضيف حدًا جديدًا

---

1) د. فيليب حتى P. Hitti ولد عام 1886م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت (1908م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (1915م)، وعين معيدًا في قسمها الشرقي (1915-1919)، وأستاذًا لتاريخ العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت (1919-1925)، وأستاذًا مساعدًا للآداب السامية في جامع برنستون (1926-1929م)، وأستاذًا ثم أستاذ كرسي ثم رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية (1929-1954م)، حين أحيل على التقاعد، أنتخب عضوًا في جمعيات ومجامع عديدة.

من آثاره: (أصول الدولة الإسلامية) (1916م)، (تاريخ العرب) (1927م)، (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) (1951م)، (لبنان في التاريخ) (1961م)، وغيرها.

2) الشهادات المذكورة في هذا الفصل هي الموضوعة فقط بين قوسين، وما عداها تصرف من المؤلف ليقرب المعنى، وترتبط الشهادة بأحداث الرواية.

3) الإسلام منهج حياة، ص 62.

4) الإسلام منهج حياة، ص 287 - 288.

(رابعًا) إلى المأثرة الحضارية ذات الحدود الثلاثة من الدين والدولة والثقافة، ذلك الحد الرابع الجديد كان (إيجاد أمة ذات لغة فوق اللغات)(1)

وفي مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن العلاقات الاجتماعية قال: (إن إقامة الأخوة في الإسلام مكان العصبية الجاهلية (القائمة على الدم والقرابة) للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملاً جريئًا جديدًا قام به النبي العربي)(2)

وفي مناسبة أخرى تحدث ناقدا الذين يستعملون أساليب مشبوهة في تحليل شخصية رسول الله ﷺ، فقال: (في الكتاب المعاصرين لنا نفرٌ يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة (التي حققها محمد) أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكامًا من زيف العلم)(3)

وقد أرشد إلى النظر إلى الرجوع إلى القرآن الكريم للتعرف من خلاله على رسول الله ﷺ، فقالك (صفات محمد مثبتة في القرآن بدقة بالغة فوق ما نجد في كل مصدر آخر. إن المعارك التي خاضها والأحكام التي أبرمها والأعمال التي قام بها لا تترك مجالاً للريب في الشخصية القوية والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ وغير ذلك من الصفات التي خلقت الرجال القادة في التاريخ. ومع أنه كان في دور من أدوار حياته يتيمًا فقيرًا، فقد كان في قلبه دائمًا سعة لمؤاساة المحرومين في الحياة)(4)

وهو يثني ثناء عطرا على رسول الله ﷺ فيقول لمن سأله عن تقييمه للدور الذي قام به رسول الله ﷺ: (إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر)(5)

وهو يثني على الإسلام ثناء عطرا، بل يعتبره منهج حياة، فيقول: (الإسلام منهج حياة.

---

1) الإسلام منهج حياة، ص 19 – 20.

2) الإسلام منهج حياة، ص 51.

3) الإسلام منهج حياة، ص 54.

4) الإسلام منهج حياة، ص 54.

5) الإسلام منهج حياة، ص 56.

وهو – بهذا النظر – يتألف من ثلاثة جوانب أساسية، الجانب الديني والجانب السياسي والجانب الثقافي. هذه الجوانب الثلاثة تتشابك وتتفاعل، وربما انقلب بعضها إلى بعض مرة بعد مرة من غير أن نلحظ ذلك)(1)

وذات مرة سمعته مع بعض القسس يتحدث عن المقارنة بين المسيح ومحمد، وكان من ضمن أقواله هذه الشهادة: (لا سبيل إلى الموازنة بين محمد رسول الإسلام وبين عيسى مؤسس النصرانية (في رأي النصارى). إن محمدًا لم يكن فيه صفة ذاتية غير طبيعية ولا جاء مسيطرًا على البشر بقوة خارقة، ولكنه كان مبلغًا لرسالة ربه. ويجب أن نذكر أن هذا الرأي هو الرأي الشرعي العلمي في الإسلام.. من أجل هذا كله نجد المسلمين يأبون أن يسموا (محمديين) بالمعنى الذي يسمى به النصارى (مسيحيين)، وهؤلاء المستشرقون المتأخرون الذين لا يزالون يطلقون هذه التسمية غير المقبولة (الخاطئة) على المسلمين إطلاقًا هينًا يجب أن يعلموا أنه لا يحق لهم أن يسمّوا أمة باسم لا تحبه. إن المسلم، في اللغة، هو الذي (أسلم نفسه لله) (خضع لإرادة الله)، فالإسلام – من أجل ذلك – ليس دينًا محمديًا ولكنه دين التسليم بإرادة الله)(2)

وفي مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن مزايا الشريعة الإسلامية، قال: (الشريعة [الإسلامية] لا تفرّق بين ما هو ديني وبين ما هو دنيوي. إنها تنص على صلات الإنسان بالله وعلى واجباته نحو الله وتنظّمها كما تفعل في شأن صلات الإنسان بأخيه الإنسان. وجميع أوامر الله ونواهيه – فيما يتعلق بالأمور الدينية والمدنية وسواها – مثبتة في القرآن. وفي القرآن ستة آلاف آية أو تزيد يتعلق نحو ألف آية منها بالتشريع)(3)

وفي مناسبة أخرى جرى فيها الحديث عن مدى أصالة الفقه الإسلامي قال: (الفقه يمكن أن ينظر إليه على أنه علم إسلامي خالص. وهو – بخلاف عدد كبير من العلوم كالرياضيات والطب والفلسفة – كله نتاج البيئة الإسلامية نفسها. ثم إننا لا نكاد نلحظ في تطوره أثرًا من الفكر الهندي الإيراني أو الفكر الهندي الأوروبي. ومؤسس علم الفقه في الإسلام لم يلتفت إلى الاستعانة بالقانون الروماني ولا بالفلسفة اليونانية)(4)

د. جورج حنا:

---

1) الإسلام منهج حياة، ص 9.

2) الإسلام منهج حياة، ص 53.

3) الإسلام منهج حياة، ص 95 – 96.

4) الإسلام منهج حياة، ص 100 – 101.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (د. جورج حنا)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من مسيحيي لبنان، وهو صاحب الكتاب المعروف (قصة الإنسان).. وقد سمعت له بعض الشهادات، منها قوله: (إنه لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة)(2)

ومنها قوله: (كان محمد يخرج من سويعات [لقائه مع جبريل] بآيات تنطق بالحكمة، داعيًا قومه إلى الرجوع عن غيّهم، والإيمان بالإله الواحد الكليّ القدرة، صابًا النقمة على الآلهة الصنمية، التي كان القوم يعبدونها فكان طبيعيًا أن يحقد عليه أشراف العرب ويضمروا له الشر، لما كان في دعوته من خطر على زعامتهم، وهي ما كانت قائمة إلا على التعبد للأصنام التي جاء هذا الرجل يدعو إلى تحطيمها. لكن محمدًا لم يكن يهادن في بث دعوته، ولم يكن يسكت عن اضطهاد أشراف قريش له، بل كان يتحداهم، فيزدادون حقدًا عليه وتآمرًا على حياته. فلم تلبث دعوته حتى تحولت من دعوة سلمية إلى دعوة نضالية. إنه لم يرض بأن يحوّل خدّه الأيسر لمن يضربه على خدّه الأيمن.. بل مشى في طريقه غير هيّاب، في يده الواحدة رسالة هداية، يهدي بها من سالموه، وفي يده الثانية سيف يحارب به من يحاربوه. لقد آمن به نفر قليل في بداية الدعوة، وكان نصيب هذا النفر مثل نصيبه من الاضطهاد والتكفير.. كان هؤلاء باكورة الديانة الإسلامية، والشعلة التي انطلقت منها رسالة محمد)(3)

ومنها قوله: (كان محمد في المدينة أكثر اطمئنانًا على نفسه وعلى أتباعه ورسالته مما كان في مكة.. كانت يثرب مدينة العامة التابعة، لا مدينة الخاصة المتبوعة. والعامة دائمًا أقرب إلى اقتباس كلمة الحق من الخاصة، لا سيما إذا كانت كلمة الحق هذه، تحررها من عبوديتها للخاصة)(4)

ومنها قوله: (محمد بن عبد الله كان ثائرًا، عندما أبى أن يماشي أهل الصحراء في

1) الدكتور جورج حنا مسيحي من لبنان، من كتبه (قصة الإنسان).

2) قصة الإنسان، ص 79 – 80.

3) قصة الإنسان، ص 76.

4) قصة الإنسان، ص 77.

عبادة الأصنام وفي عاداتهم الهمجية وفي مجتمعهم البربري. فأضرمها حربًا لا هـوادة فيهـا على جاهلية المشركين وأسيادهم وآلهتهم. فكفره قومه واضطهدوه وأضمروا لـه المـوت. فهاجر تحت جنح الليل مع نفر من أتباعه، وما تخلى عن النضال في نشر دعوته، وما أحجم عن تجريد السيف من أجلها. فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمـع بين مئات الملايين من البشر في أقطار المعمورة)[1]

نصري سلهب:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (نصـري سـلهب) [2]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من مسيحي من لبنـان، يتمـيز بنظرتـه الموضـوعية وتحريه للحقيقـة المجـردة، كمـا عـرف بنشـاطه الـدؤوب لتحقيـق التعـايش السـلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان، سواء على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع.

وعبر الستينات كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على السواء، متوخيًا هذا الهدف.

وقد التقيت به في بعض تلك المناسبات، وكان من شهاداته فيها قوله: (إن الآيـة الـتي أستطيب ذكرها هي التي تنبع سماحًا إذ تقول: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَـا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: 46) ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنـه كلام الله إليهم. إنها لعبارات يجدر بنـا جميعًـا، مسـيحيين ومسـلمين، أن نرددهـا كـل يـوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء، لأنـه البنـاء الـذي فيـه نلتقي والـذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله. والواقع أن القـرآن يـذكر صـراحة أن الكتب المنزلة واحدة، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يدعى حينًا (أم الكتاب) وحينًـا آخـر (اللـوح المحفوظ) أو (الإمام المبين)[3]

وعير عن إعجابه الشديد برسول الله ﷺ، فقال: (إن محمدًا كان أميًـا لا يقـرأ ولا يكتب. فإذا بهذا الأمي يهدي إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسـانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين)[4]

وقال: (في مكة.. أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أمة، ساعة ولادتـه، أنـه سـيكون أحمـد

---

1) قصة الإنسان، ص 252.

2) من مؤلفاته: (لقاء المسيحية والإسلام) (1970)، و(في خطى محمد) (1970).

3) لقاء المسيحية والإسلام، ص 22.

4) لقاء المسيحية والإسلام، ص 22.

أعظم الرجال في العالم بل في التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقًا)(1)

وقال: (هنا عظمة محمد. لقد استطاع، خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يحدث شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة)(2)

وقال: (هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج، أن يرسي قواعد دولة، وأن يشرّع قوانين ويسنّ أنظمة، ويجود بالتفسير والاجتهادات.. ولم ينس أنه أب وجد لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله، عالمًا قائمًا بنفسه)(3)

وقال: (تراثك يا ابن عبد الله ينبغي أن يُحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بل في واقع الحياة، في ما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب. كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت، نجد لها في آثارك حلاً)(4)

وقال: (لم يكن النبي رسولاً وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيمًا وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس. وكان له ما أراد)(5)

وتحدث عن القيم النبيلة التي يمتلئ بها الإسلام، فقال: (الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة. ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير)(6)

وقال: (انطلاقًا من وجوب قول الحقيقة، أرى لزامًا عليّ أن أعلن أننا - نحن المسيحيين بصورة عامة - نجهل الإسلام كل الجهل، دينًا وحضارة)(7)

---

1) في خطى محمد، ص 42.

2) في خطى محمد، ص 196.

3) في خطى محمد، ص 273 – 274.

4) في خطى محمد، ص 396.

5) في خطى محمد، ص 409.

6) لقاء المسيحية والإسلام، ص 121.

7) لقاء المسيحية والإسلام، ص 20.

وقال: (ليس كالإسلام دين يكرم الأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي العربي، وهو يفرض على المؤمنين به إكرام هؤلاء والإيمان بهم، وليس كالإسلام دين يحترم الأديان الأخرى المنزلة الموحى بها التي سبقته في النزول والوحي)(1)

وقال: (الإسلام دين الأزمنة جميعها، وقد أعدّ لجميع الشعوب. فهو ليس للمسلمين فحسب، ولا لعرب الجزيرة الذين عايشوا النبي وعاصروه فحسب، وليس النبي نفسه نبي العرب والمسلمين فحسب، بل هو نبي كل مؤمن بالله واليوم الآخر والنبيين والكتب المنزلة)(2)

وقال: (في الدين الإسلامي من الشمول والرحب ما يجعله يفتح ذراعيه لجميع البشر دون أن يؤثر في قوميتهم وولائهم لأمة إليها ينتسبون)(3)

وتحدث عن القرآن وحفظ الله له، فقال: (لم يقدّر لأي سفر، قبل الطباعة، أيًا كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب)(4)

وتحدث عن القيمة البلاغية للقرآن، فقال: (تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله)(5)

وتحدث عن قيمة العلم في الإسلام، فقال: (أولى الآيات البيّنات.. كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العلم عبر القراءة.. (اقرأ).. وقول الله هذا لم يكن لمحمد فحسب، بل لجميع الناس، ليوضح لهم، منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى أن الإسلام جاء يمحو الجهل وينشر العلم والمعرفة)(6)

بعد أن أنهى الغريب حديثه عن هذا الرجل الفاضل، قلت من غير شعور: لقد أسلمت شهادات هذا الرجل..

قال: صدقت.. فلا يقول مثل هذا إلا من امتلأ قلبه بالإسلام.

---

1) لقاء المسيحية والإسلام، ص28.

2) لقاء المسيحية والإسلام، ص 403.

3) لقاء المسيحية والإسلام، ص 403.

4) لقاء المسيحية والإسلام، ص 337.

5) لقاء المسيحية والإسلام، ص 342.

6) لقاء المسيحية والإسلام، ص 92.

نظمي لوقا:

من الأسـماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (د. نظمي لوقـا)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل فاضـل من مسـيحي من مصـر، وهـو يتمـيز بنظرتـه الموضوعية وإخلاصه العميق للحق.

وقد كان ـ رغم إلحاح أبويه على تنشـئته على المسـيحية منـذ كـان صـبيًا ــ مقبلا إقبـالا عظيما على الإسلام، ولهذا كان كثيرًا ما يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويسـتمع بشـغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القـرآن الكـريم ولم يتجـاوز العاشـرة من عمره.

وقد ألف ـ نتيجة هذا الاهتمام ـ عـددًا من الكتب أبرزهـا (محمـد: الرسـالة والرسـول)، و(محمد في حياته الخاصة)

وقد التقيت به.. ومن شهاداته ـ التي سمعتها منه ـ والمرتبطة بمحمد ﷺ قوله: (ما كان محمد كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الـذي اجتمعت لـه آلاء الرسـل عليهم السـلام، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيّي فيه الرجل)(1)

وقوله في الفـرق بين نظـرة المسـلمين إلى رسـول اللـه ﷺ ونظـرة المسـيحيين إلى المسيح: (لا تأليه ولا شبهة تأليه في معـنى النبـوة الإسـلامية.. وقـد درجت شـعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثـل ذلـك الربـط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فمـا أقـرب النـاس لـو تركـوا لأنفسـهم أن يعتقـدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشرًا كسائر البشر وأن له صفة من صـفات الألوهيـة على نحـو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هـذا التنبيـه متـواترًا مكـررًا في آيـات القـرآن، نـذكر منهـا على سبيل المثال لا الحصر:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِّثْلُكُمْ يُـوحَى إِلَيَّ ﴾ (الكهـف: 110)، وفي تخـير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكـرة النبـوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجـد مـا هـو أصـرح من هـذا المعـنى فيما جاء بسورة الشورى:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُـوا فَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًـا إِنْ عَلَيْـكَ إِلا الْبَلاغُ ﴾ (الشورى: 48)، وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته، وحـدود رسالته التي كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها)(2)

ويتحدث بإعجاب شديد عن تواضع رسول اللـه ﷺ وعبوديتـه، فيقـول: (رجـل فـرد هـو لسان السماء. فوقه اللـه لا سـواه. ومن تحتـه سـائر عبـاد اللـه من المؤمـنين. ولكن هـذا

1) محمد الرسالة والرسول، ص 28.

2) محمد الرسالة والرسول، ص 85 – 86.

الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر. بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جناح من أحد، لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله. ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلاً: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا)(1)

ويتحدث عن نزاهة رسول الله ﷺ، وكونه فوق كل الشبهات التي يزعمها الزاعمون، فيقول: (ماذا بقي من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلاً قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقعًا أو شبه متوقع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام.. ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع. لم يفد. ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحرم على نفسه ما أحلّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوّى ذلك كله بالأرض أي قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذ المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى.. وما ضلّ وما غوى.. وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين)(2)

ويتحدث عن الأثر العظيم الذي خلفه رسول الله ﷺ، فيقول: (أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من (أبي القاسم) الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟)(3)

ويتحدث عن عظم شخصية رسول الله ﷺ، فيقول: (كان محمد يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهي قوة له تحسب في مزاياه، وليست ضعفًا يعد في نقائصه. لم يكن معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به، لأنه يسخرها في كيانه في المستوى الذي يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل في الصورة الجميلة الجليلة التي لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره.

---

1) محمد الرسالة والرسول، ص 179 – 180.

2) محمد الرسالة والرسول، ص 183 – 186.

3) محمد في حياته الخاصة، ص 12.

وبيان ذلك في أمر بنائه بزوجاته التسع)(1)

وفي مناسبة من المناسبة أساء فيها بعضهم الحديث عن الشريعة الإسلامية، وكان حاضرا، فغضب غضبا شديدا، وقال: (ما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:8)، فأي إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بدين أقل منه تساميًا واستقامة؟)(2)

وقال: (عقيدة الإسلام عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف، ويبعث الطمأنينة في كل نفس. وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان، لا يصدّ عنها أحد بسبب جنسه أو لونه.. وهكذا يجد كل إنسان له مكانًا في ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة، التي لا تفاضل معها إلا بالتقوى، تقوى الله رب العالمين)(3)

ويقارن بين عقيدة المسلمين وعقيدة المسيحيين، فيقول: (كان لابدّ من عقيدة ترفع عن كاهل البشر لعنة الخطيئة الأولى، وتطمئنهم إلى العدالة التي لا تأخذ البريء بالمجرم، أو تحمّل الولد وزر الوالد، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة. ويحسم القرآن هذا الأمر.. حين يجعل المسؤولية أساس الكرامة الإنسانية، وأساس كل حرية، وكل أخلاق ممكنة. وهذا ما قطع به الإسلام ووضع به حجر الأساس لكرامة بني آدم.. والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضيّ المريب المتردّد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث. إن تلك الفكرة القاسية تسمّم ينابيع الحياة كلها. ورفعها عن كاهل الإنسان منّة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًا، وردّ اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه)(4)

ويتحدث عن البناء الإسلامي للشخصية الإنسانية مقارنة بغيره، فيقول: (هكذا يكون الإنسان في الإسلام متكامل الجوانب، لا يشكو فصام الروح والجسد، ذلك الفصام الذي عانى منه الكثيرون. ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده. وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض

---

1) محمد في حياته الخاصة، ص 39 – 40.

2) محمد الرسالة والرسول، ص 26.

3) محمد الرسالة والرسول، ص 72 – 73.

4) محمد الرسالة والرسول، ص 76 – 78.

حقًا، لا ينظر إلى طيّباتها نظرة الحسير، ولا يمشي في جنباتها مشية الأسير، ولا يثقل كاهله الخزي من نوازعه، في يده زمام نفسه. وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم، تقرّ به عينه في غير حرج ولا غضاضة)(1)

ويتحدث عن أهمية الصلاة في الإسلام، فيقول: (نظام واحد يمسك الدين والدنيا، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة في القرآن من غير آثارها العملية.. إن الصلاة التي تتكرر في اليوم جملة مرات، لا يلهي عنها بيع ولا شراء، سبب قوي بين الإنسان والله.. ولكن أين تكون تلك الصلاة؟ هل لابدّ فيها من وساطة رجال الدين؟ هنا تبرز خصوصية الإسلام.. فكل مكان في أرض الله الطاهرة يصلح مسجدًا ومحرابًا لا هياكل ولا كهانة ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم! ولا وصاية على ضمائر الناس! فكلهم أمام الرحمن سواء. والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء.. وليس من حق أحد كائنًا من كان أن يتدخل بين المرء وربه، أو يدعي لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته)(2)

وفي مناسبة من المناسبات جرى فيها الحديث عن المرأة، نهض يقول: (المرأة في الإسلام إنسان له حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية فهي في ذلك صنو الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه، أمانة العقيدة والإيمان وتزكية النفس.. وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور. ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم، في كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانًا كثيرة كما تباع السلعة.. وكانت في كثير من الأحيان منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعي أو بموافقته، بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص، وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه. وأكثر من هذا، كانت قبائل العرب في الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأنهن، ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقًا شديدًا)(3)

وقال: (في سور القرآن أشار إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق في التكليف أو الجزاء، وإشارة صريحة مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود.. وفي بعض الأمم القديمة، والحديثة، كانت المرأة تحرم غالبًا من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش)(4)

---

1) محمد الرسالة والرسول، ص 84.

2) محمد الرسالة والرسول، ص 147 – 149.

3) محمد الرسالة والرسول، ص 95 – 96.

4) محمد الرسالة والرسول، ص 96.

وقال: (ليس الإسلام - على حقيقته - عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة. بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة. لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مطل أو مراء وما من امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال. وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الأطوار والعصور، على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسمًا أوفق من (تكافؤ الفرص)، الذي يلغي كل تفريق، ويسقط كل حجة، ويقضي على كل تميّز إلا بامتياز ثابت صحيح)(1)

وتحدث عن سمو العلاقة الزوجية في الإسلام، وكما يصورها القرآن، فيقول: (العلاقة الزوجية في الإسلام ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى، على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسي النوع البشري. لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم:21) هكذا جاء في سورة الروم، وإني لأرى في قوله (من أنفسكم) لمسة تمس شغاف القلب وتذكر بما في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب السكن في هذا الباب من سكنية النفس لا من مساكنة الأجساد! بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.. وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء. فالزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان، وليس مطلبًا شهويًّا جسديًّا وإن كان له أساس جسدي)(2)

وقال: (كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التي بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا، وقد نهض بهذا الإسلام، وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية الفطرية، لتحرير البشر من الذعر والخزي وعقدة الإثم الشوهاء التي كبّلته ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسوء الفطرة)

قلت: إن نفحات الصدق التي نطق بها هذا الرجل أعظم من أن تنحصر في كونها مجرد شهادات عالم موضوعي..

قال: أجل.. فغيرته على الإسلام وحبه له ودفاعه عنه لا يمكن إلا أن يكون من قلب ذاق طعم الإسلام، وعقل قد امتلأت به معانيه.

أصدقاء من فرنسا

1) محمد الرسالة والرسول، ص 100-101.

2) محمد الرسالة والرسول، ص 115 – 116.

قلبت بعض الصفحات من دفتر الغريب، فرأيت عنوان (أصدقاء من فرنسا)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: كيف تعتبر الفرنسيين أصدقاء لنا، وقد استعمروا أرضنا، وقهروا شعبنا، ولم يتركوا مناسبة يسيئوا فيها إلينا إلا فعلوا؟

نظر إلي الغريب، وقال: ألم تقرأ قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:8)

قلت: بلى.. فما فيها مما نحن فيه؟

قال: أجبني أولا.. ألم تعلن قريش لرسول الله ﷺ العداوة منذ بدأت دعوته؟

قلت: بلى.. حصل ذلك.

قال: فهل امتلأت قلوب المسلمين حقدا على كل قرشي بسبب ذلك؟

قلت: لا.. بل توجهت الأحقاد إلى المحاربين.

قال: بل لم تكن للمسلمين أحقاد أصلا، فحتى المحاربين ما إن كفوا عن حربهم حتى استقبلهم المسلمون بالأحضان.

قلت: صحيح ذلك.. ولكن..

قال: فهمت قصدك.. لا ينبغي أن ينسى العاقل عداوة عدوه.. ولكن مع ذلك لا ينبغي أن تحمله عداوة عدوه على أن يتوجه بالعداوة لغيره.. هذا ما نطق به القرآن..

قلت: تقصد أن العداوة تنحصر في الأعداء..

قال: وتنحصر في وقت العداوة.. فإن تحول العدو إلى صديق زال عنه اسم العداوة.

قلت: صدقت في هذا.. فهلم بنا إلى أصدقائنا من الفرنسيين.

كوستاف لوبون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (كوستاف لوبون)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية، من آثاره: (حضارة العرب)[1] (باريس 1884)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في

1) نرى أن كوستاف لوبون يعبر في الشهادات التي نذكرها عن المسلمين باسم (العرب)، باعتبار أن اللقب الشائع عن المسلمين في ذلك الوقت هو العرب.. وخاصة عند الفرنسيين. وليس مقصده ـ كما قد يتوهم ـ هو نسبة الحضارة الإسلامية للعرب بدل الإسلام، بدليل ما يذكره عن الإسلام من شهادات.

الأندلس) (1)، وسأذكر لك اليوم بعض شهاداته التي نطق بها حول الإسلام.

فمنها قوله، وهو يقارن بين أصول الأخلاق في القرآن وأصولها في كتب سائر الديانات: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى عليه السلام.. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًا، وقد لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة)(2)

ويتحدث عن عظمة القرآن وتأثيره الممتد في التاريخ الإسلامي، فيقول: (إن هذا الكتاب القرآن تشريع ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون)(3)

وله أحاديث كثيرة طيبة عن رسول الله ﷺ وتأثيره في العرب والعالم من النواحي المختلفة، منها قوله: (جمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى.. ومما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا)(4)

ويتحدث عن المكانة الرفيعة التي يحتلها محمد ﷺ بين العظماء، فيقول: (إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله)(5)

ويتحدث عن المثل العليا التي أشاعها رسول الله ﷺ، فيقول: (استطاع محمد أن يبدع مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص.. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى)(6)

---

1) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (الحضارة)

2) حضارة العرب، ص 431 – 432.

3) النتائج الأولى للحرب (عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، 1/74)

4) دين الإسلام، ص 16.

5) حضارة العرب، ص 115.

6) حضارة العرب، ص 116.

ويتحدث عن الاستراتيجية المثلى التي استعملها النبي ﷺ في توحيد الجزيرة العربية، فقال: (لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد)(1)

وهو يقارن مقارنة موضوعية بين الإسلام والمسيحية على المستويات المختلفة، فيقول: (إن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيّما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسه، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم. إن سهولة الإسلام العظيمة تشتق من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالبًا، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله.. وأنك، إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت)(2)

وهو يتحدث عن القابلية التي يتمتع بها الإسلام، بحيث تجعل الكل مقبلا عليه، فيقول: (الإسلام يعدّ من أشد الأديان تأثيرًا في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة.. إلخ، يعلّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلاً عن ذلك، أن يصبّ في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشبهات)(3)

ويتحدث عن أسرار تلك القابلية، فيقول: (تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال الأعراف المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا)(4)

ويقول: (ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة

---

1) حضارة العرب، ص 393 – 394.

2) حضارة العرب، ص 125.

3) حضارة العرب، ص 125 – 126.

4) حضارة العرب، ص 417.

على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة)(1)

ولهذا، فهو يشهد بأن الإسلام لم ينتشر بالقوة على عكس ما يذكر المغرضون، فيقول: (إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل)(2)

ويتحدث عن علاقة الإسلام بالعلم مقارنة بغيره من الديانات، فيقول: (الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح)(3)

ويتحدث عن الأخوة التي أشاعها الإسلام بين الشعوب المختلفة، فيقول: (ليس المسلمون أجانب في نظر بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التي ينتسبون إليها، ولا فرق في دار الإسلام بين الصيني المسلم والعربي المسلم في التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوروبية اختلافًا أساسيًا)(4)

مارسيل بوازار:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (مارسيل بوازار)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا مفكر وقانوني فرنسي معاصر، وقد أولى اهتمامًا كبيرًا لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين.

وله كتاب يسمى (إنسانية الإسلام)، وهو من أهم الكتب، ويعتبر علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.

---

1) حضارة العرب، ص 125

2) حضارة العرب، ص 127 – 128.

3) حضارة العرب، ص 126.

4) حضارة العرب، ص 389.

ولهذا، فإن شهاداته تعد بمثابة واحدة من أكثر الشهادات الغربية عمقًا وموضوعية ووضوح رؤية للإسلام.

قلت: عرفته.. لقد سبق أن حدثتني عنه بعض من شرفني الله بالالتقاء بهم(1).

قال: سأحدثك أنا عن بعض شهاداته الصادقة التي شهد بها للإسلام ونبي الإسلام.

فهو يتحدث عن رسول الله ﷺ رادا على ذلك التشويه المتعمد، فيقول: (سبق أن كتب كل شيء عن نبي الإسلام، فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها. والصورة التي خلفها محمد عن نفسه تبدو، حتى وإن عمد إلى تشويهها، علمية في الحدود التي تكشف فيها وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الديني وتتيح إدراك عظمته الحقيقية)(2)

ويتحدث عن الأعمال التي حوتها رسالة رسول الله ﷺ مقارنة بغيره، فيقول: (لم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشرًا بدين وحسب بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق)(3)

ويتحدث عن الكثير من خصائص رسول الله ﷺ، فيقول: (منذ استقر النبي محمد في المدينة، غدت حياته جزءًا لا ينفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها.. ولما كان منظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيني، وفي بث الدعوة.. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسّدت المناخ الروحي للإسلام.. وكما يظهر التاريخ الرسول قائدًا عظيم ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيرًا على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لابدّ أن يكون محمد الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير

1) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (إنسانية)

2) إنسانية الإسلام، ص 40 – 41.

3) إنسانية الإسلام، ص 42.

به إنسانًا فوق مستوى البشر حقًا، وأنه لابد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله)(1)

بل إنه لا يكتفي في ذلك، فهو يشهد لمحمد بالنبوة، رادا بذلك على من يزعم أن محمدا ﷺ هو مجرد مصلح اجتماعي، فيقول: (لقد كان محمد نبيًا لا مصلحًا اجتماعيًا. وأحدثت رسالته في المجتمع العربي القائم آنذاك تغييرات أساسية ما تزال آثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر)(2)

ويقول: (مما لا ريب فيه أن محمدًا قد اعتبر، بل كان في الواقع، ثائرًا في النطاق الذي كان فيه كل نبي ثائرًا بوصفه نبيًا، أي بمحاولته تغيير المحيط الذي يعيش فيه)(3)

ويعرف القرآن الكريم، ويتحدث عن مزاياه وآثاره، فيقول: (لابدّ عند تعريف النصّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعًا أصليًا، وينبوع إلهام أساسي.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيعًا للأدب العربي تستحيل محاكاته إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه لأن الدين الذي أوحى به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب)(4)

ويتحدث عن النظام الاجتماعي الذي جاء به القرآن، فيقول: (لقد أثبت التنزيل برفضه الفصل بين الروحي والزمني أنه دين ونظام اجتماعي.. ومن البديهي أن التنزيل والسبيل الذي ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق)(5)

ويتحدث عن الخصائص الكثيرة للنظم التي جاء بها القرآن، والتي تنفي عنه ارتباطه بزمن معين، فيقول: (إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة)(6)

---

1) إنسانية الإسلام، ص 46.

2) إنسانية الإسلام، ص 61.

3) إنسانية الإسلام، ص 66.

4) إنسانية الإسلام، ص 52 – 53.

5) إنسانية الإسلام، ص 206 – 207.

6) إنسانية الإسلام، ص 109.

ويقول: (يخلق الروح القرآني مناخ عيش ينتهي به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر مما تفترض التصريفات السياسية والطوابع الإيديولوجية التي تسند إلى الدول. ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الإسلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصدر الإلهام الفردي والجماعي الرئيسي، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير)(1)

بل إنه يصرح تصريحا خطيرا، فيقول: (إن الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث)(2)

وهو يدعو المؤرخين ـ بدل بذل الجهد في تفاصيل الأحداث ـ إلى البحث عن الأصول الحقيقية التي ينبني عليها الإسلام من خلال مصادره الأصلية ليعرف مدى انسجام الإسلام مع المعاصرة (3): (إن من حق المؤرخ أن يعرف أسس ثقافة دينية المرتكز وسمت تطور الإنسانية بميسمها، ولم تزل حتى اليوم مرجعًا خلقيًا وسياسيًا لملايين البشر. ومن الأهمية بمكان تحليل أفكارها الأساسية وتطور هذه الأفكار المحتمل، والكشف عن الطريقة التي حدّد بها ذلك الدين العالمي الطموح مكانة الفرد في المجتمع وتصوّر تنظيم العلاقات بين الشعوب.. إن تقديم الإسلام على أنه مجرد خصم متصارع من النظريات والبنى التشريعية المعاصرة، أمر غير معقول)(4)

ويتحدث بإعجاب عن الاقتران بين التوجيه والتشريع في الإسلام، فيقول: (لا تمييز في العقيدة الإسلامية(5) بين الموجب القانوني والواجب الخلقي.. وهذا الجمع المحكم بين القانون والخلق يؤكد قوة النظام منذ البداية)(6)

ويتحدث ـ على عكس العلمانيين من المسلمين ـ عن واقعية وتقديمة الشريعة الإسلامية، فيقول: (أليس من الواقعية والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحريته وإرادته، وأن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب الانضواء تحت لوائه؟ لسوف يسهم الإسلام في إنشاء ذلك القانون)(7)

---

1) إنسانية الإسلام، ص 343.

2) إنسانية الإسلام، ص 345.

3) وهو اقتراح أصيل، وفكرة رائدة، لأنه لا ينبغي أن يحمل الإسلام مواريث الأخطاء التي ارتكبت في تاريخه الطويل.

4) إنسانية الإسلام، ص 14، 15.

5) يقصد بالعقيدة الإسلامية هنا على حسب ما يبدو الإسلام جميعا، لا عقيدته وحدها.

6) إنسانية الإسلام، ص 18، 19.

7) إنسانية الإسلام، ص 24.

ويقول: (لقد أظهـرت الرسـالة القرآنيـة وتعـاليم النـبي أنهـا تقدميـة بشـكل جـوهري، وتفسّر هـذه الخصـائص انتشـار الإسـلام السـريع بصـورة خارقـة خلال القـرون الأولى من تاريخه)(1)

ويتحدث عن صلاحية الإسلام لكـل الأزمـان، فيقـول: (إن القضـية تتمثـل في اسـترجاع فكرة صلاح الإسلام لكل حين من خلال تجلياته الأبدية والماضية والمستقبلية)(2)

ويرد على الغربيين الذين يرمون الإسلام بالعجز عن تنمية نظام سياسي صالح، فيقول: (من نوافل الأمور رفض الادّعاء المتكـرر آلاف المـرات في الغـرب عن عجـز الإسـلام عن تنمية نظام سياسي دينامي. فالتاريخ يكذبه تكذيبًا مرًا وقاطعًا)(3)

ويتحدث عن الوظيفة التصحيحة التي جاء بها الإسـلام، ومارسـها مـع الكتب السـماوية، فيقول: (لم يكن من ضمن رسالة أن يبطل ما أنزل من قبله، بل أن يصدّقه ناقضًا ما لحق الكتب السـماوية من تحريـف وانتهـاك. وكلـف تطهـير تعـاليم الرسـل السـابقين من كـل مخالفة، والتوسع فيها وتتميمها لتغدو ملائمة للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان)(4)

قلت: مـا أصـدق هـذا الرجـل.. ومـا أعظم فهمـه للإسـلام.. إن كثـيرا من المسـلمين يحتاجون إلى التتلمذ عليه ليعرفوا قيمة دينهم.

قـال: صـدقت.. لقـد رأيت من المسـلمين من يناقشـه مناقشـة شـديدة، حـتى خلت المسلم كافرا والكافر مسلما.

قلت: الإسلام والكفر حكمان لله.. ولعل فضل الله يكون قد تدارك هذا الرجل الفاضل ليكتب في قلبه الإيمان الذي عاش يدافع عنه.. وقد قال ﷺ: (إن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمـل بعمـل أهـل النـار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينـه وبينهـا إلا ذراع، فيسـبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة)(5)

إميل درمنغم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (إميل درمنغم)، فسألت

1) إنسانية الإسلام، ص 74.
2) إنسانية الإسلام، ص 28.
3) إنسانية الإسلام، ص 365.
4) إنسانية الإسلام، ص 43.
5) رواه البخاري ومسلم، وهذه رواية من روايات الحديث.

الغريب عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر إبان الاستعمار، من آثاره: (حياة محمد) (باريس 1929) وهو من أدق ما صنّفه مستشرق عن النبي ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس 1955م)، ونشر عددًا من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الأفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية) وغيرها.

ولهذا الرجل الفاضل شهادات قيمة عن القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية سأبث لك منها ما يسمح به الوقت:

فهو يشهد بالاحترام العظيم الذي ناله المسيح في المصادر الإسلامية، وخاصة القرآن الكريم، فيقول: (للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم)(1)

وهو يرد على المقولة التي كانت تردد في ذلك الوقت عن كون الدين أفيون الشعوب، بقوله: (سيكون القرآن حافزًا للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضًا على القتال جامعًا لشؤونه، محركًا لفاتري الهمم، فاضحًا للمخلّفين مخربًا للمنافقين، واعدًا الشهداء بجنات عدن)(2)

ويتحدث عن القرآن ومدى الجدية التي نالت حفظه، فيقول: (كان محمد يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أمينًا مصغيًا أو سجلاً صادقًا أو حاكيًا معصومًا لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة.. ولابد لكل نبي من دليل على رسالته، ولابد له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة (3)، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن

1) حياة محمد، ص 131 – 132.

2) حياة محمد، ص 195.

3) وهذا لا يعني أنه ليس لرسول الله ﷺ معجزات حسية، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك والمقارنة بين معجزات النبي ﷺ ومعجزات المسيح في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياة الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه)(1)

ويتحدث عن مظاهر الصدق التي تدل على أن القرآن الكريم ليس افتراء من محمد ﷺ، فيقول: (كان لمحمد بالوحي آلام كبيرة.. وحالات مؤثرة كره أن يطلع الناس عليها، ولاحظ أبو بكر ذات يوم، والحزن ملء قلبه، بدء الشيب في لحية النبي فقال له النبي: (شيّبتني هود وأخواتها: الواقعة والحاقة والقارعة). وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه فيطبه بالمراهم، وكان يدثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين. وكان إذا نزل الوحي عليه يتحدر جبينه عرقًا في البرد)(2)

ويقول: (كان محمد، وهو البعيد من إنشاء القرآن وتأليفه ينتظر نزول الوحي إليه أحيانًا على غير جدوى، فيألم من ذلك، ويود لو يأتيه الملك متواترًا)(3)

ويتحدث عن بعض مواقف رسول الله ﷺ الدالة على صدقه بإعجاب، فيقول: (ولد لمحمد، من مارية القبطية ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيرًا ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمدًا كان من سموّ النفس ما رأى به ردّ ذلك فقال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد..)(4) فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال)(5)

ويقول: (إن محمدًا الذي خلق القيادة لم يطلب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلّغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين.. وكان ينهى عن عدّه ملكًا.. ولقد نال السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، ومما كان يمضه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته)(6)

ويتحدث عن الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ في سبيل نجاح الدعوة، فيقول:

1) حياة محمد، ص 289 – 280.

2) حياة محمد، ص 283.

3) حياة محمد، ص 285.

4) رواه البخاري ومسلم.

5) حياة محمد، ص 318.

6) حياة محمد، ص 360.

(تجلت بهذه الرحلة الباهرة [حجة الوداع] ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة)(1)

ويقول: (الحق أن النبي لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي. وليس لدينا ما نعرف به أن محمدًا أبصر، حين أفاض من جبل عرفات، مستقبل أمته وانتشار دينه، وأنه أحسّ ببصيرته أن العرب الذين ألّف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وأفريقية وإسبانية)(2)

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية التي جعلت الإسلام ينتشر بدل خرافة السيف، فيقول: (إن الذي أدى إلى تنافر الإسلام والنصرانية وتغلّب الإسلام على النصرانية هو ما كانت عليه النصرانية من الفساد في القرن السابع من الميلاد، وفرق النصرانية الضالة هي التي كان محمد شاهدًا عليها، وهو الذي لم يعرف غيرها، والمسائل المشكوك فيها الكثيرة التي مصدرها ما أدخله اليهود على التلمود وغيره)(3)

ويقول: (لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف، ففي القرآن: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: 256)، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبأن لا يبدؤوا بالاعتداء)(4)

ويتحدث عن عدالة الشريعة الإسلامية ورحمتها وآثارها، فيقول: (كان للدعوة المحمدية في جزيرة العرب أثر عظيم ثابت في تقدم الأسرة والمجتمع وفي تقدم الصحة أيضًا، فقد حسن بها مصير المرأة، وحرّم بها الزنا والمتعة وحياة الغرام، ومنع بها إكراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن. والإسلام، وإن أباح الرق، نظم أحكامه فعدّ فك الرقاب من الحسنات ومكفرًا لبعض السيئات)(5)

ويقارن بين موقف الإسلام من الغرائز مع موقف المسيحية، فيقول: (تُعارض الآداب الإسلامية بالنسك النصراني أحيانًا معارضة مصنوعة فالإسلام وإن بدا أكثر تسامحًا في

---

1) حياة محمد، ص 359.

2) حياة محمد، ص 368 – 369.

3) حياة محمد، ص 137.

4) حياة محمد، ص 196.

5) حياة محمد، ص 290.

الميل الجنسي، لم يكلف نفسًا إلا وسعها ويرى كمال العبادة في نيل الجسم حقه الشرعي، ولكن زهد الصوفية المسلمين يعدل زهد نساك جميع الأديان، ولكن الإسلام حرم الخمر وفرض الصوم الصارم الذي لم تعرف مثله ديانة أخرى، ولكن المسلمات ملزمات بهندام وزي يبتعدان كثيرًا عن الأزياء الأوروبية العصرية، فمن العبث إذن أن يزعم وجود فروق كبيرة بين الأدبين مع اختلاف في النظر والعمل وتباين في النظريات نفسها)(1)

ويقول: (كان كثير من المسلمين يكثرون من التوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد أن القصد أولى من الإفراط. فأشار بالاعتدال في التقشف وبترك كل ما يميت النفس، وحدث أن بعضهم قادوا أنفسهم إلى الحج بربط أنوفهم بأرسان الجمال فقطع محمد هذه الأرسان لأن الله ليست له حاجة بجدع الأنوف)(2)

ويتحدث عن امتزاج الدنيا بالآخرة والعبادة بالحياة في القرآن الكريم، فيقول: (على ما تراه في دعوة النبي من المبادئ الأخروية لم يأل النبي جهدًا في تنظيم المجتمع الإسلامي تنظيمًا عمليًا، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب الزبور)(3)

قلت: ما أصدق هذا الرجل.. وما أروع شهاداته.. هذا مع تخلفنا عن ديننا.. فكيف لو عدنا إليه؟

قال: لو عدتم إليه كما طلب منكم لرأيتم العالم كله بين أيديكم يتتلمذ عليكم.

قلت: العالم الآن كله يحاربنا.

قال: لأنكم حلتم بينه وبين شمس الحقيقة.. فلذلك ترونه ينتقم منكم، وأنتم تتوهمون أنه ينتقم من الإسلام.

الكونت هنري دي كاستري:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (الكونت هنري دي كاستري)(4)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا الرجل من من أكثر المستشرقين إنصافاً

---

1) حياة محمد، ص 292.

2) حياة محمد، ص 297 – 298.

3) حياة محمد، ص 297 – 298.

4) الكونت هنري دي كاستري (1850-1927)، مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (1950)، (الأشراف السعديون) (1921)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (1926)، وغيرهما.

للاسلام، وله في هذا كتاب سماه (الاسلام خواطر وسوانح)، وقد ذكر في هذا الكتاب غايته من تأليفه، فقال: (إن غاية ما يرمى إليه هو إطلاع مواطنيه على صورة صحيحة للأسلام حتى يحاطوا بأصدق المعلومات عن العقيدة التي يعتنقها بعض رعاياهم في القارة الافريقية، مما يسهل لهم التفاهم معهم والسيطرة عليهم)

وقد ذكر في مقدمته الظروف التي دعته الى تأليفه، فقال: (ذات يوم عندما كنت ضابطاً في الجيش الفرنسي بالجزائر خرجت أجوب الصحراء في ولاية وهران وخلفي ثلاثون من الفرسان العرب.. وعندما حان وقت الصلاة، ترجلوا عن جيادهم واصطفوا لأداء صلاة العصر جماعة.. وجعلتُ أشاهد حركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله أكبر، الله أكبر، فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذًا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين.. وكنت أشعر بأنهم في صلاتهم تلك أرفع مني مقامًا وأعزّ نفسًا.. وهم يكررون إلى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقًا وإيمانًا.. فأحسست أنني منجذب بحلاوة الإسلام كأنني أول مرة شاهدت في الصحراء قومًا يعبدون خالق الأكوان)(1)

وقد وصف شعوره ـ عندما أضطر أن يتنحى جانباً حتى يفرغوا من أداء صلاتهم ـ فقال: (كنت أود لو أن الارض انشقت فابتلعتني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع (الله أكبر.. الله أكبر) فكان لهذا الاسم الإلهي أثر عجيب في نفسي، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه بسبب الحياء والانفعال.. كنت أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة، يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً وأعز نفساً)

ثم ذكر كيف دفعته تلك الخواطر الى الاستزادة من التعرف على مبادئ الإسلام ، فكان من أهم ما لفت نظره الأسلوب الذي أنتشر به الاسلام.. وكيف قاومه العرب في البداية ، ثم استجابوا له فرادى وأفواجا، فقال: (لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء الفتوحات الاسلامية مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع ارجاء العالم)

ثم ضرب مثلا على ذلك بوجود عدة ملايين من المسلمين في الصين، مع أن الفتوحات الاسلامية لم تبلغ تلك البلاد، كما ضرب المثل بانتشاره بين الملايين من سكان القارة الافريقية !

ثم قال: (وهكذا جلب الاسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن

1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 2 – 3.

النفس)

وتحدث كاستري عن تعذر إخراج المسلمين عن دينهم عندما تناول الصعوبات العديدة التي اعترضت سبيل المبشرين الفرنسيين في مستعمراتهم الإفريقية ومنها الجزائر ـ لحمل المسلمين على نبذ دينهم ـ فقال: (إن الإسلام ليس في أهله من يمرق عنه إلى غيره ، وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر ، حتى أنهم لا يجدون لفظاً يعبرون به عن صفات من يأتيه، كما أنهم تحيروا في وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية ، لأن فيها معنى من معاني الردة)

بعدها قارن (كاستري) بين العجز عن حل المسلمين على ترك دينهم، ومايلقاه المسلمون - في الوقت نفسه - من يسر في أقناع غيرهم باعتناق دينهم.

ثم اختتم كاستري كتابه بقوله: (لو لم يكن للإسلام من فائدة إلا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين إلى موحدين ، وترقية أخلاقهم ومكانتهم، لكفى بذلك داعيا إلى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال ، جريا على قاعدة العمل بأخف الضررين)

سكت الغريب قليلا، ثم قال: هذا عرض مختصر لما جاء في كتابه، وسأذكر لك الآن بعض شهاداته التي أهلته لأن يصادق الإسلام:

فمنها شهادته عن الإعجاز القرآني، والتي يقول فيها: (إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسس أن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى.. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب. ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدًا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب.. لخر ساجدًا على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار).. وكيف يعقل أن النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي

على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب)(1)

ويقول: (أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يـزال إلى يومنـا هـذا سـرًّا من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنـون إلا من يصـدق بأنـه منزل من الله)(2)

ويتحــدث عن مواضــع الاتفــاق بين القــرآن والكتــاب المقــدس، ويفســره التفســير الصحيح(3)، فيقول: (قد نرى تشابهًا بين القـرآن والتـوراة في بعض المواضـع، إلا أن سـببه ميسور المعرفة.. إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي خاتم الأنبياء والمرسلين) (4)

وفي موضع آخر يعلل ذلك الاتفاق بقوله: (إن دين الأنبياء كان كله واحـدًا فهم متحـدون في المـذهب منـذ آدم إلى محمـد وقـد نـزلت ثلاثـة كتب سـماوية وهي الزبـور والتـوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة إلى التوراة كالتوراة بالنسبة إلى الزبور وإن محمـدًا بـالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى، ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتــاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً. إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى قال إنه بعث ليتم رسالة من قبلـه لا ليبيـدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على النـاس مـا نـزل على الأنبياء من قبله.. على أن بعض المشابهات لا تحتـاج إلى مثـل هـذا التفسـير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبيـاء من بـني إسـرائيل، وكـان يعبـد اللـه الـذي عبدوه فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرّعات وتجانست أصوات الدعاء)(5)

ويتحدث عن العقيدة الإسلامية ومدى انسجامها مع العقل، واستحالة أن يكون مصدرها يهوديا أو نصرانيا، فيقول: (لا إله إلا الله) ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فـرد ورب صـمد مـنزه عن النقـائص يكـاد العقـل يتصـوره وهـو اعتقـاد قـوي يـؤمن بـه المسـلمون على الـدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقًا هم المؤمنـون.. ولقـد يسـتحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قـرأ تلـك الكتب

---

1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 18 – 20.

2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 20.

3) انظر الأدلة على هذا في رسالة (كلمات مقدسة) من هذه السلسلة.

4) الإسلام: خواطر وسوانح ص 22 – 23.

5) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 23 – 24.

لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته)(1)

ويتحدث عن انسجام الإسلام مع الفطرة، فبينما نرى تشدده في نواحي العقيدة نرى تساهله فيما يرتبط بالغرائز التي تقتضيها الفطرة، فيقول: (لقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسماها، ولكنه تسامح للناس كثيرًا في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون. نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله، ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها.. ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه. فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي، فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الإسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع اليوم أممًا كثيرة من المسيحيين، وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الإنساني وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الإسلامية. هكذا جذب الإسلام قسمًا عظيمًا من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس مرات في كل يوم، وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئًا مما يشتهون)(2)

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التي أسسها الإسلام بين المسلمين، فيقول: (إن الرابط عند المسلمين هي أشد قوة منها لدى غيرهم من الأمم التي تدين بدين واحد، لأن القرآن شريعة دينية وقانون مدني وسياسي)(3)

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وما كان يتحلى به من الصدق والأمانة معتبرا ذلك محل اتفاق، فيقول: (إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علّني أجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقه وأمانته المتفق تقريبًا عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي)(4)

ويتحدق عن أصالة رسالة النبي ﷺ، فيقول: (ثبت إذن أن محمدًا لم يقرأ كتابًا مقدسًا

1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 17 – 18.

2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 13.

3) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 105 – 106.

4) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 6.

ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه)[1]

ويقـول: (لـو رجعنـا إلى مـا وضـحه الحكمـاء عن النبـوة ولم يقبـل المتكلمـون من المسـيحيين لأمكننـا الوقـوف على حالـة مشـيد دعـائم الإسـلام وجزمنـا بأنـه لم يكن من المبتدعين.. ومن الصعب أن تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل عليـه السـلام.. إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة لأن الصدق حاصل في كل حال)[2]

ويقول: (لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياتـه كمـال إيمانـه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان فلن يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الـدور الثـاني الـدور المـدني ومـا أُوتيه من نصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغًـا لا محل للزيادة فيه.. وما كان يميل إلى الزخـارف ولم يكن شـحيحًا.. وكـان قنوعًـا خـرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.. تجرد من الطمع وتمكن من نـوال المقـام الأعلى في بلاد العرب ولكنـه لم يجنح إلى الاسـتبداد فيهـا، فلم يكن لـه حاشـية ولم يتخـذ وزيرًا ولا حشما، وقد احتقر المال)[3]

ويتحدث عن الآلام الكثيرة التي تحملها رسول اللـه ﷺ في سـبيل تعليم النـاس حقـائق الإسلام، فيقول: (ولقد نعلم أن محمدًا مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلامًا نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحّضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلـة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعـدد الآلهـة الـذي ابتدعـه المسـيحيون وكـان بغضهما متمكنًا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشـبه بـإبرة في جسـمه ولعمـري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء ومن أولئك الشرقيين الـذين امتازوا في العقل بحدة التخيّل وقوة الإدراك.. إلا أن يقول مرارًا ويعيد تكرارًا هذه الكلمات (اللـه أحـد اللـه أحـد). كلمـات رددهـا المسـلمون أجمعـون من بعـده وغـاب عنـا معشـر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد)[4]

قلت: هذه شهادات صادقة تحيل أن يكون صاحبها مجرد متحدث عن الإسلام.

قال: صدقت.. عسى الله أن ينفعه بما قال.. فالله لا يضيع عنده شيء.

جاك. س. ريسلر:

---

1) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 16.

2) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 21.

3) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 24.

4) الإسلام: خواطر وسوانح، ص 16 – 17.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هـذا الفصـل اسـم (جـاك. س. ريسـلر)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا باحث فرنسـي.. بحث في الإسـلام.. وصـدق فيمـا بحث.. فلذلك أنطقه الله بشهادات كثيرة، سأذكر لك بعضها:

منها شهادته عن لغة القرآن وجمالها، بحيث يستحيل ترجمتها، فيقول: (لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمـة أن تعـبر عن فروقه الدقيقة المشـبعة بالحساسـية الشـرقية. ويجب أن تقـرأه في لغتـه الـتي كتب بهـا لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسـيقى والمسـجوع سـحرًا مؤثرًا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يسـتطيع أحـد أن ينكـر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بـأن محمـدًا كـان ملهمًـا بجلال الله وعظمته)(1)

ويتحدث عن معارف القرآن، وتأثيرها الممتد، فيقول: (كان في القرآن فـوق أنـه كتـاب ديني خلاصة جميع المعارف.. وظل زمنًا طويلاً أول كتاب يتخـذ للقـراءة إلى الـوقت الـذي شكل فيه وحدة كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليـه أسـس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تسـتطيع الترجمـات أن تنقـل ثروتـه اللغويـة (إذ يـذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهـرة قطفت من جـذورها) ولـذلك يجب أن يقـرأ القـرآن في نصه الأصلي)(2)

ويتحدث عن النظام الذي جاء به القرآن، والذي يحل جميع الإشكالات التي قـد تعـرض للفرد والمجتمع، فيقول: (إن القرآن يجد الحلـول لجميـع القضـايا، ويربـط مـا بين القـانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسـعى إلى خلـق النظـام، والوحـدة الاجتماعيـة، وإلى تخفيـف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بـالبر، ويـأمر بالرحمة.. وفي مادة التشريع وضع قواعـد لأدق التفاصـيل للتعـاون اليـومي، ونظم العقـود والمـواريث، وفي ميـدان الأسـرة حـدد سـلوك كـل فـرد تجـاه معاملـة الأطفـال والأرقـاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ..)(3)

ويتحدث عن امتداد الشريعة التي جاء بها القرآن ورسـوخها، فيقـول: (حقًـا، لقـد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسـي لحيـاة المسـلم ولم يتعـرض مـا جـاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ولا لتبديلات بعيدة الغور)(4)

---

1) الحضارة العربية، ص 30 – 31.

2) الحضارة العربية، ص 45.

3) الحضارة العربية، ص 51.

ويتحدث عن امتداد التأثير القـرآني في الحيـاة، فيقـول: (يظـل القـرآن طيلـة القـرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسـلامية فهـو يضـم بين طرافـة الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر)(1)

وهـو يتحـدث عن صـعوبة فهم الغـرب للـروح الإسـلامية، باعتبـار الاختلاف في طريقـة التفكير، فيقول: (إن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضـل وجـه ما الروح الإسلامية، وكيف صيغت هذه الروح على مر العصور. لقـد وقـف الرجـل الغـربي تجاه العالم العربي في حيرة وكأنه أمام سرّ غـامض، فلم يكن مألوفًـا لـه أي رد فعـل من ردود الفعل الإسلامية، ولم يدرك كـل نهج في وجـود هـذه الـروح وفي الإحسـان بهـا وفي قوتها الدافقة)(2)

ويقارن بين القرآن والمسيحية، فيقول: (في سعي الإسلام إلى (المطلق) نبـذ - لشـدة عنايته بوحدة الله ووحدانيته - عقيدة الثالوث المقدس مبتعدًا في ذلك عن المسيحية الــتي كان يتهمها بنـوع من الشـرك لاعتقادهـا في ألوهيـة ثلاثـة أشـخاص. ولقـد احـترم الإسـلام احترامًا نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى منزلة قبـل أن يمسها التحريف.. وقد أشار النبي للدلالة على صدق رسالته إلى ما بين القرآن والكتاب المقدس من توافق وحَثّ بكل تسامح وقوة إدراك في الوقت نفسـه، اليهـود على إطاعـة شـريعتهم، والمسـيحيين على إطاعـة أنـاجيلهم، وعلى أن يرتضـوا القـرآن، خـاتم الكتب المقدسة والدين الإسلامي خاتم الأديان المنزلة)(3)

ويتحدث عن عـدم وجـود كهنـوت في الإسـلام مثلمـا هـو الحـال في المسـيحية، وهـذا انسجاما مع عقيدته التوحيديـة، فيقـول: (الـدين الإسـلامي ليسـت لـه قـرابين مقدسـة ولا طقوس، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين.. وفي المسجد ينبض قلب الإسـلام.. وفي أرجائه يحس المرء إحساسًا حيًا أنه بحضرة الله. الحـق أنـه لا شـيء في المسـجد إلا البساطة.. والجمال والتجانس)(4)

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التي أسسها الإسلام، فانطبع بهـا المجتمـع الإسـلامي في فترات طويلـة من تاريخـه، فيقـول: (على الـرغم من تنـوع الأجنـاس والشـعوب الـتي

4) الحضارة العربية، ص 75.

1) الحضارة العربية، ص 212.

2) الحضارة العربية، ص 1 (مقدمة الكتاب).

3) الحضارة العربية، ص 7 – 8.

4) الحضارة العربية، ص 36.

تشكل الإسلام، كان المسلمون يبينون سلفًا عن خصائص متشابهة، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرّق بين حضر وبدو، أغنياء وفقراء، كانوا يسلكون تقريبًا مسلكاً واحدًا. ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة. وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس، وخلق الجو المعنوي للحياة، حتى تغلغل شيئًا فشيئًا في الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق. كما كان تأثير الدين عظيمًا بسبب انتشار اللغة، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعي معمّم)(1)

ويتحدث عن النظام الشمولي الذي جاء به الإسلام، فيقول: (إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة: المعنى الأول دين، والثاني دولة، والثالث ثقافة، وبالاختصار حضارة فريدة)(2)

نظر الغريب إلي، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.

قلت: بورك فيه.. لقد قال كلاما كثيرا قد لا نجد من قومنا من يجرؤ على قوله.

قال: من رزقه الله الصدق فتح عليه من الجرأة ما يتناسب مع ذلك الصدق..

قلت: صدقت.. فبقدر الصدق تكون الجرأة.

لويس سيديو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (لويس سيديو)(3)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي.. له شهادات كثيرة تبين مدى صدق بحثه في الإسلام، وفي مصادر الإسلام، وسأسرد لك ـ باختصار ـ بعضه هذه الشهادات:

فمنها شهادته التي يتحدث فيها عن كون القرآن مدرسة روحية وتربوية متكاملة، فيقول: (لا تجد في القرآن آية إلا توحي بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي.. وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على

---

1) الحضارة العربية، ص 50.

2) الحضارة العربية، ص 67.

3) لويس سيديو (1808 – 1876) L. Sedillot مستشرق فرنسي عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديو الذي توفي عام 1832 قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. وقد عين لويس أمينًا لمدرسة اللغات الشرقية (1931) وصنف كتابًا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلاً عن (تاريخ العرب العام)، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في المجلات المعروفة.

خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدًا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن.. إنه أبصر كلّ شيء)(1)

ويتحدث عن النواحي البلاغية للقرآن، فيقول: (صلح القرآن ليكون نموذجًا للأسلوب وقواعد النحو.. فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهور علم البيان الذي درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة، وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مئة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف في كلّ منها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغة الأخرى)(2)

ويتحدث عن تأثير القرآن في التوحيد بين شعوب وأعراق مختلفة، فيقول: (مما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسيا حتى الهند، وفي أفريقية حتى السودان، كتابًا يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر)(3)

ويتحدث عن عبودية محمد ﷺ مقارنة بما ينسبه المسيحيون للمسيح، فيقول: (لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله عليهم السلام وهو قد أعلن أن عيسى بن مريم كان ذا موهبة في الاتيان بالمعجزات، مع أن محمدًا لم يعط مثل هذه الموهبة(4)، وما أكثر ما كان يعترض محتجًا على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!)(5)

ويتحدث عن القيم التي تحملها عقيدة اليوم الآخر التي جاء بها الإسلام، فيقول: (إن محمدًا أثبت خلود الروح.. وهو مبدأ من أقوم مبادئ الأخلاق. ومن مفاخر محمد أن أظهره قويًا أكثر مما أظهره أي مشرّع آخر)(6)

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وكونه قدوة صالحة جعلته يحقق كل الأهداف التي وكلت له، فيقول: (ما أكثر ما عرض محمد حياته للخطر انتصارًا لدعوته في عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه..

1) تاريخ العرب العام، ص 89، 98 – 99، 100، 117.

2) تاريخ العرب العام، ص 458

3) تاريخ العرب العام، ص 458.

4) ذكرنا الرد على هذه الشبهة بالأدلة المفصلة في رسالة (معجزات حسية)

5) تاريخ العرب العام، ص 90

6) تاريخ العرب العام، ص 93.

وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله في معركة حنين، ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيي قوة إرادته ومتانة خلقه.. وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان حليمًا معتدلاً، وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودّون سؤاله، فيسحر كلماءه بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضج من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً فلا ينمّ ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وكان يوحي في كل مرة باحترام القوم له.. ودلّ على أنه سياسي محنّك)(1)

ويتحدث عن تأثير محمد ﷺ في البيئة التي ولد فيها، فيقول: (بدت في بلاد العرب أيام محمد حركة غير مألوفة من قبل، فقد خضعت لسلطان واحد قبائل العرب الغيرى على استقلالها والفخورة بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلى بعض فتألفت أمة واحدة)(2)

ويتحدث عن قيمة التوحيد وأهميته في الإسلام، فيقول: (من شأن مبدأ التوحيد الجليل، الذي نشر بين قوم وثنيين، أن يضرم الحمية في النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن، وإليه يعود إبداعه، ويجعل محمد هذا المبدأ أساس دينه، وإليه يرجع سبب سموّه على جميع الأديان. ويبدو هذا التوحيد المحض جازمًا تجاه علم اللاهوت الذي تورّط في الفرق النصرانية بعد أن زاد عددها بفعل البدع، ولا مراء في أن عظمة الله العلي وقدرته وحكمته وعدله وحمله أمور تستوقف أنظار ذوي النفوس المثقلة بالأباطيل، و(أحد، أحد) كان وعي المسلمين ببدر، ولا تخلو سورة في القرآن من قول:.. بالتوحيد)(3)

ويتحدث عن عقيدة القضاء والقدر، ودورها الإيجابي في الحياة، فيقول: (إن المبدأ الذي يحتويه القرآن لم يكن من نوع قضاء القدماء، ولا من نوع قدر بعض المذاهب الحديثة، فليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدي إلى فتور همته، فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس وتضع حدًا لأعمالنا.. وهنالك من المبادئ ما يؤدي إلى أسوأ النتائج عند سوء فهمها، فما أعظم الفرق بين تأثير مبدأ القضاء والقدر في قوم حطهم الاستعباد وتأثيره في قوم حمس مقاديم لا يبتغون غير الحرب والفتوح)(4)

---

1) تاريخ العرب العام، ص 102 – 103.

2) تاريخ العرب العام، ص 123.

3) تاريخ العرب العام، ص 88.

4) تاريخ العرب العام، ص 92.

ويتحدث عن الصلاة في الإسلام، وعدم حاجتها إلى وسطاء، فيقول: (الصلاة تمسك الإسلام بغير هياكل وتضمن دوامه بغير كهّان)(1)

ويقول: (لا ترى في الإسلام سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات)(2)

هنري سيرويا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (هنري سيرويا) (3)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين الذين وفقهم الله، فرأوا من معاني الصدق في الإسلام ما لم يلاحظه الكثير، ومن شهاداته التي لا أزال أحفظها وأقدرها قوله في في القرآن وما اشتمل عليه من حقائق، وما انتظم فيه من أسلوب: (القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه، (ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف – لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة)، حيث لم يشعر الإسلام يومًا بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تمامًا خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين مليء بالواسطة.. ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد مع كون مبعوثًا ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر في تنقيتهما على ما جاء في القرآن، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية منبهًا إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملاك مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد الدعوة المقدسة، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم الله)(4)

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وأثره في العقيدة والحياة، فيقول: (ومحمد لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب)(5)

---

1) تاريخ العرب العام، ص 104.

2) تاريخ العرب العام، ص 117.

3) هنري سيرويا: مستشرق فرنسي. من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (1921)، (الصوفية والمسيحية واليهودية)، (فلسفة الفكر الإسلامي).

4) فلسفة الفكر الإسلامي، ص 32 – 33.

5) فلسفة الفكر الإسلامي، ص 8.

ويتحدث عن بعض صفات النبي ﷺ وأخلاقه العالية، فيقول: (محمد شخصية تاريخية حقة، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان في ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل. وقبل مماته أراد أن يظهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطبًا: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحدًا فهاكم ظهري ليأخذ ثأره، أو سلبته مالاً فمالي ملكه. فوقف رجل معلنًا أنه يدينه بثلاثة دراهم، فردّ الرسول قائلاً: أن يشعر الإنسان بالخجل في دنياه خيرٌ من آخرته. ودفع للرجل دينه في التو. وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد لدوره كنبي يرينا بأن (رينان) كان على غير حق في نعته العرب قبل الإسلام بأنها أمة كانت تحيا بين براثين الجهل والخرافات)(1)

كلود كاهن:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (كلود كاهن)(2)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقي فرنسا الكبار، وله شهادات صادقة جعلتني أضعه في هذا الدفتر.

قلت: فاذكر لي منها ما تراه.. فإن مثل هذه الشهادات تملأ النفس رضى، وتقرب إلينا عقولا كنا نظن أنفسنا أبعد الناس عنها.

قال: شهاداته مثل شهادات غيره ذات مناحي مختلفة.. منها ما يتعلق بالرسول ﷺ، ومنها ما يتعلق بالإسلام وشرائع الإسلام.. ومنها ما يتعلق بالحضارة الإسلامية، والمجتمع المسلم..

قلت: فحدثني عن شهاداته عن رسول الله ﷺ

قال: منها اعتباره رسول الله ﷺ أعظم الشخصيات العالمية، فقد قال: (اصطبغت شخصية محمد بصبغة تاريخية قد لا تجدها عند أي مؤسس آخر من مؤسسي الديانات الكبرى)(3)

ويذكر القيم النبيلة التي كان يتحلى بها رسول الله ﷺ، فيقول: (يبدو للمؤرخ

---

1) فلسفة الفكر الإسلامي، ص 17.

2) كلود كاهن Cl. Cahen ولد عام 1909، وتخرج باللغات الشرقية من السوربون ومدرسة اللغات الشرقية ومدرسة المعلمين العليا، وعين محاضرًا في مدرسة اللغات الشرقية في باريس (1938)، وأستاذًا لتاريخ الإسلام في كلية الآداب بجامعة ستراسبورغ (1945)، وفي جامعة باريس.

من آثاره: عدد كبير من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة، وحقق العديد من النصوص التاريخية المهمة، كما أنجز عددًا من المؤلفات عن الحروب الصليبية.

3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 14.

المنصف أن محمدًا كان في عداد الشخصيات النبيلة السامية التي سعت في كثير من الحماس والإخلاص إلى النهوض بالبيئة التي عاش فيها أخلاقيًا وفكريًا، كما استطاع في الوقت نفسه أن يكيف رسالته حسب طباع الناس وتقاليدهم بمزيد من الفهم والتنظيم بحيث كفل البقاء والخلود للرسالة التي بشر بها.. وحتم علينا أن نلقى محمدًا بعواطف الإجلال والاحترام لما تحلى به من سمو الإلهام ومن قدرة على تذليل العقبات الإنسانية عامة والتغلب على مصاعبه الشخصية خاصة. وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئًا من الارتباك تبعًا لعقليتنا المعاصرة. فقد أكدت المهاترات على شهوات الرسول الدنيوية وألمحت إلى زوجاته التسع اللائي اتخذهن بعد وفاة خديجة، لكن الثابت أن معظم هذه الصلات الزوجية قد طبعت بطابع سياسي، وأنها استهدفت الحصول على ولاء بعض الأشراف وبعض الأفخاذ [1].. ثم إن العقلية العربية تقرّ الإنسان إذا استخدم طبيعته على نحو ما خلقها الله)[2]

ويتكلم عن بعض المنجزات الكبرى لرسول الله ﷺ، فيقول: (نشأ الرسول في مجتمع بلا دولة، فكان، على نحو لا تتبينه إلا العقول العصرية مبشرًا بدين، ومنظمًا لمجتمع دنيوي. ونتج عن ذلك أن القانون الاجتماعي صار جزءًا متماسكًا مع القانون الديني، كما كان احترام القانون الاجتماعي جزءًا مكملاً لطاعة الله تعالى. كان الوحي بذاته – إذن – هو الأساس المشترك للعقيدة وللتنظيم الزمني. فكان المجتمع نفسه هو الدولة والدين، ولم يتسنّ لأحدهما أن يبقى وحده نظامًا قائمًا بذاته.. لقد كان هذا التوجيه حاسمًا، ولم تستطع العقول أن تتخلى عنه إلى مدة غير قصيرة، وكان من نتائجه في العصور التالية أن الرجل المسلم أصبح يطلب من نظامه السياسي أن يكون على جانب من الكمال، فإن فقد ذلك فقد أيضًا مبدأ الطاعة المحتمة عليه إزاء هذا النظام)[3]

ويشيد بعلم الحديث، وقدرته التمحيصية، باعتباره العلم المصفي لكل ما ورد عن رسول الله ﷺ، فيقول: (الحق أننا نتجاوز النقد العلمي الصحيح إذا نحن أنكرنا على كل حديث صحته أو قدمه. ولقد باشر العلماء بمثل هذا التمحيص منذ عهد بعيد فوجدوا أن التحريف أو التلفيق قد لا يعمّان على نسق واحد واستندوا في ذلك إلى بعض الأحاديث التي يمكن اعتبارها سابقة أو حجة يعتد بها. بمعنى أن الموقف النقدي مفروض على الباحث المنصف. وفقهاء المسلمين أنفسهم هم قدوة لنا في هذا المضمار لأنهم – على

1) انظر التفاصيل المرتبطة بالرد على هذه الشبهة في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 18.

3) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 200 – 201.

طريقتهم – قد التزموا بذلك الموقف منذ العصر الوسيط)(1)

قلت: فحدثني عن شهاداته عن الإسلام.

قال: يتحدث كلود كاهن عن ميزة اجتماع الدين والدنيا في الشريعة الإسلامية، وهي الميزة التي تفتقدها سائر الأديان، فيقول (تملي شريعة الإسلام فرائض على الناس تجاه خالقهم، وتجاه أنفسهم فيما بينهم. فهي إذن – على حد تعبيرنا الحديث – شريعة دينية اجتماعية، والتمييز بين الدين والدنيا أمر غريب على الإسلام. على أن أهم فريضة تجاه الخالق هي الإيمان به والإذعان لمشيئته وذلك هو المقصود من كلمة (الإسلام). والمسلم هو من يدين بالإسلام. كذلك أوجب على الناس أعمالاً محددة لا قيمة لها إلا بالنية الحسنة)(2)

ويتحدث عن مبدأ (الحكم بالشريعة)، الذي يفرضه المجتمع المسلم على نفسه، وعلى السلطة التي تحكمه، فيقول: (من المقتضيات الأساسية للمجتمع الإسلامي إنشاء نظام اجتماعي يقوم على أساس مستمد من الشريعة الإلهية.. بمعنى أن الإسلام لم يعهد مبدئيًا ذلك المفهوم الروماني – الذي قبلت به المسيحية – قبولاً جزئيًا – والذي يعترف بشرعية دولة قائمة بحدّ ذاتها تملك القدرة على التشريع تشريعًا قيمًا مقبولاً – ولو تحت إشراف من الإله – دون اللجوء في كل حالة من الحالات إلى توجيه إلهي. فالقاعدة الثابتة – من حيث المبدأ – هي الشرع الحنيف الذي أوحي به للناس دفعة واحدة ولابد من وضعه موضع التنفيذ. بل إن الخليفة لا يملك سلطة معنوية إلا بقصد تطبيق هذا الشرع)(3)

ويتحدث عن خاصية (العقلانية) في العقيدة الإسلامية مقارنا لها بالعقيدة المسيحية، فيقول: (قد ندعو علماء الكلام المسلمين بعلماء الدين مع تحفظ واحد وهو أن ندرك أن الإيمان عند المسلم – ومن الناحية المبدئية – أمرٌ عقلي صرف، فلم يوجد إذن نظريًا انفصام يباعد بين الإيمان والعقل على نحو ما عهدته مثلاً الفلسفة المسيحية)(4)

ويتحدث عن المساواة التي فرضها الإسلام على المجتمع المسلم، فيقول: (إن الإسلام لا يعترف بأي تمييز بين الأفراد. ولا يخص المدينة – بوصفها مجموعة – بأي خاصة

---

1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 95.

2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 19.

3) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 91.

4) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 104.

نوعية، كما لا يقر أي نظام لسكانها (البورجوازيين)(1)

هنري ماسيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (هنري ماسيه) (2)، فسألت الغريب عنه، فقال: من شهادات هذا الرجل التي جعلتني أضعه هنا حديثه عن منجزات رسول الله ﷺ الكبرى، فيقول: (بفضل إصلاحات محمد الدينية والسياسية، وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى ليعدّوا دخلوهم النهائي إلى تاريخ المدنية)(3)

ويتحدث عن بعض صفاته ﷺ، فيقول: (كان محمد هو المشـرّع الملهم والمحرك الأول للوحدة الدينية بين جميع الأقوام،.. وكان بسيطًا وحازمًا)(4)

ويتحدث عن علاقة الإسلامية بالملة الحنيفية، فيقول: (في القرآن يظهر إبراهيم عدة مرات مع عنوان الحنيف، ويبدو أن هذه العبارة السابقة لعصر محمد كانت تدل على أناس لا يعتنقون المسيحية ولا اليهودية، ويتطلعون بغموض إلى دين أكثر تجردًا من العقائد والمذاهب، إلى توحيد كامل.. ولكن محمد سينتهي إلى التوحيد، إلى دين أساسي وفطري ليست الأديان الأخرى سوى دلالات عليه، توحيد يبلور نهائيًا أحلام الحنفاء الغامضين، بحيث يجب أن نرى بهم مبشرين بمحمد(5)(6)

ويتحدث عن ربانية الإسلام، ورجوعه إلى مصادره الأصلية، فيقول: (تضاعفت فجأة أهمية النصوص المقدسة لأن دراستها لم تكن قضية تديّن فقط بل قضية تطبيق عملي. وبدأ الفقه ينتظم ولكن بوفاق تام مع القانون السماوي)(7)

جورج مارسيه:

---

1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، 1 / 188.

2) هنري ماسيه H. Masse ولد عام 1886، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذًا في جامعة الجزائر (1916-1927)، وعضوًا في مجمع الكتابات والآداب وفي المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين. من آثاره: نشر كتابًا عن الشاعر (سعدي) (1919)، وصنف كتابًا بعنوان: (الإسلام) (1957)، كما ترجم وحقق العديد من النصوص العربية، ونشر العديد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة.

3) الإسلام، ص 55.

4) الإسلام، ص 59.

5) هذه الشهادة تحمل على وجوه مختلفة، وقد حملناها هنا على أحسن وجوهها، وهكذا سائر ما نذكره من شهادات.

6) الإسلام، ص 39 – 40.

7) الإسلام، ص 123.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (جورج مارسيه) (1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي اهتم بمدى تغلغل الإسلام في الحياة، ومن شهاداته في هذا الباب قوله: (إن الحج المتوجب على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً أن يؤديه مرّة في حياته، لا يقل أهمية عن المبادلات التجارية في ترابط أبعد أجزاء العالم الإسلامي.. أما الصلاة، وهي فعل العبادة وخضوع الإنسان لخالقه، فيؤديها المؤمن خمس مرات يوميًا وفي ساعات معينة بعد أن يطهر نفسه بالوضوء، متوجهًا نحو مكة المكرمة، حيث الكعبة المشرفة، مرددًا الصيغ الدينية، وهو يقوم بحركات السجود والركوع المنتظمة بدقة. ويمكن تأدية الصلاة بصورة منفردة وفي أي مكان يجد المرء نفسه فيه، على أن تكون الأرض بعيدة عن كل نجاسة، على أن صلاة الجماعة هي المستحبة.. وتكون الصلاة المشتركة في المسجد، والمسجد أساسًا هو بيت الصلاة، ومخطط بنائه منسجم مع ممارسة العبادة، فمن أجل الصلاة يقف المسلمون جنبًا إلى جنب يؤلفون جبهة عريضة وتنتظم خلف هذا الصف صفوف أخرى بنفس النظام، ويقف الإمام الذي يؤم الصلاة في مقدمة المصلين، وقد أدار ظهره لهم ووجهته ووجهة المصلين، الذين يقومون بنفس الحركات التي يقوم بها ويرددون التلاوات نفسها، هي القبلة، أي اتجاه مكة، حيث الكعبة قطب الإسلام وبيت الله على الأرض)(2)

ومنها قوله: (على أية حال، يكاد لا يوجد في البلاد الإسلامية منشآت عامة أو خاصة لا تحمل طابع الدين. فلقد تغلغل الإسلام في الحياة البيتية كما دخل حياة المجتمع وصاغت الطبائع التي نشرها شكل البيوت والنفوس)(3)

ومنها قوله: (إن العقيدة الأساسية في الإسلام هي الوحدانية المطلقة، فلا إله إلا الله ولقد ظهرت تعاليم الرسول محمد كرد فعل قوي ضد تعدّد الأرباب والأنصاب التي كان يقدسها العالم العربي، وضد الوثنية الإغريقية الرومانية ولمجابهة الثالوث الذي يؤمن به المسيحيون ليس لله شريك ولم يلد ولم يولد، لا يمكن أن يشبه بأي مظهر إنساني، ولئن كان القرآن قد حرم عبادة الأصنام بجمال، فإن الحديث الشريف (السّنّة) فعّل ذلك وتوسّع فيه.. وليس من الممكن أن ننكر أن هذا المنع احتفظ بكل قوته في تزيينات العمارة الدينية ولوازم العبادة، وأنه أثر على تطور الفن الإسلامي بأسره.. وهكذا فإن الإسلام وضع طابعه على إطار الحياة اليومية. وحتى عندما يكون الفن مطبقًا في أمور دنيوية فإن من

1) جورج مارسيه (1905-1946) مستشرق فرنسي، كتب العديد من الدراسات والأبحاث في الشريعة واللغة، نشرها في عدد من المجلات الشهيرة مثل (المجلة الجزائرية)، و(المجلة الأفريقية)، و(حولية معهد الدراسات الشرقية)، وغيرها.

2) الفن الإسلامي، ص 12 – 13.

3) الفن الإسلامي، ص 15.

البلاد الإسلام يبقى فنًا مسلمًا)(1)

فولتير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (فولتير)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم الفيلسوف الفرنسي المعروف.

قلت: لقد كنت أسمع بعداوته الشديدة للأديان، بما فيه الإسلام.

قال: ذلك صحيح.. ولكن المؤسف أن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة، والتي تراجع فيها عن أقواله السابقة، فتكاد لا تذكر.

قلت: هل تراجع عن تصريحاته المسيئة للإسلام؟

قلت: أجل.. لقد ذكر ذلك، فقال: (قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

ويقول في قاموسه الفلسفي: (أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطاء 2،5 % من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثماني عشرة زوجة أحياناً، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات)(2)

ويقول متحدثا عن الصمود الإسلامي: (لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض ... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)(3)

لامارتين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (لامارتين)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا اسم شاعر فرنسا الكبير، وقد قال في الإسلام: (الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يفي بمطالب البدن والروح معاً، دون أن يُعرِّض المسلم لأن يعيش في تأنيب الضمير... وهو الدين الوحيد الذي عباداته بلا صور، وهو أعلى ما وهبه

---

1) الفن الإسلامي، ص 16 – 17.

2) القاموس الفلسفي(6/4)

3) نقلاً عن (غوته والعالم العربي)كاتارينا مومزن (181و355)

الخالق لبني البشر)[1]

أصدقاء من الإنجليز

قلبت بعض الصفحات من دفتر الغـريب، فـرأيت عنـوان (أصـدقاء من الإنجلـيز)، تحتـه أسماء كثيرة، فقلت: أفي الإنجليز أيضا أصدقاء لنا؟

قال: في كل بلاد الله أصدقاء للمسلمين.. العداوة ليست هي الأصـل الـذي يتحكم في البشرية.

قلت: ولكنهم يعمرون برنا وبحارنا وجونا بألوان العداوة؟

قـال: فـاعمروا قلـوبهم بالإيمـان والمحبـة الـتي تحميهم من نزغـات الشـياطين الـتي توسوس لهم بحربكم.

قلت: أنى هذا.. وهم الغالبون، ونحن المغلوبون؟

قال: هذا ليس بعيدا.. ألم يتمكن المسلمون من تحويل دين الغالب إلى دين المغلوب؟

قلت: لقد حصل هذا.. وخير دليل على ذلك التتار.

قال: ما حصل من قبل يمكن أن يعاد في كل وقت..

ثم نظر إلى الأفق البعيد، وقال: إنكم إن فعلتم ذلك انتصرتم عليهم.. لا بـأرواح تزهـق، ولا بدماء تسيل.

سير توماس أرنولد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (سير توماس أرنولد)[2]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجـل من كبـار المستشـرقين البريطـانيين، ولـه شـهادات علمية كبرى ترتبط بانتشار الإسلام.

---

1) السفر إلى الشرق: لامارتين (47)

2) سير توماس أرنولد (1864 – 1930)، من كبار المستشرقين البريطانيين. صاحب فكرة كتاب (تـراث الإسـلام) الذي أسـهم فيـه عـدد من مشـاهير البحث والاستشـراق الغـربي. وقـد أشـرف آرنولـد على تنسـيقه وإخراجـه. تعلم في كمبردج وقضى عدة سـنوات في الهنـد أسـتاذًا للفلسـفة في كليـة عليكـرة الإسـلامية. وهـو أول من جلس على كرسـي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن. وصفه المستشرق البريطاني المعـروف (جب) بأنه "عالم دقيق فيما يكتب، وأنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسـلام، وكـل هـذه أمـور ترفع أقواله فوق مستوى الشهادات" (دراسات في حضارة الإسـلام ص244). ذاع صـيته بكتابيـه: (الـدعوة إلى الإسـلام) الذي ترجم إلى كثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

قلت: لقد حدثني بعضهم عنه[1] .. فاذكر لي بعض شهاداته.

قال: من شهاداته المرتبطة بالقرآن وأسلوبه قوله: (إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار [الإسباني] الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به)[2]

وتحدث عن توفر خصائص القدوة في رسول الله ﷺ، فقال: (لعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، هي الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين. وإذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجئ في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكر، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها. وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك وكيف كان النبي محمد يعد نموذجًا للداعي إلى الإسلام)[3]

ويتحدث عن استمرار الدعوة النبوية رغم التمكين الذي مكن الله به المسلمين في المدينة، وما بعدها: (من الخطأ أن نفترض أن محمدًا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين)[4]

ويتحدث عن بعض أساليب الدعوة التي مارسها المسلمون، فيقول: (إن المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياتهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين، كل ذلك جعل اسمه مألوفًا لديهم، كما جعل صيته ذائعًا في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدًا عظيمًا ورجلاً كريمًا. وكثيرًا ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعيًا إلى الإسلام جادًا في تحويل إخوانه إليه)[5]

ويتحدث عن بعض أسباب الإقبال على الإسلام في المدينة المنورة، فيقول: (نرى من

---

1) انظر الحوار الافتراضي معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص)

2) الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص 162.

3) الدعوة إلى الإسلام، ص 34.

4) الدعوة إلى الإسلام، ص 54.

5) الدعوة إلى الإسلام، ص 54.

أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجًا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية) (1)

ويتحدث عن الثورة التي كان يحملها الإسلام ضد أوضاع الجاهلية، فيقول: (لا يغرب عن البال كيف ظهر جليًا أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضًا تامًا. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.. وأصبح النبي بذلك رمزًا لأسلوب جديد) (2)

ويتحدث عن خاصية العقلانية التي تتميز بها العقيدة الإسلامية، فيقول: (يعبر الشطر الأول من هذه العقيدة [لا إله إلا الله، محمد رسول الله] عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لابد منه، على حين يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك بمعنى أن الله تعالى، في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين. ولا يستطيع أي فرد أن يوضح الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة، توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفيسور مونتيه في العبارات التالية: (الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق.. إن [للإسلام] كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد التي قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة، وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن، وأن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.. وعلى الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن

---

1) الدعوة إلى الإسلام، ص 43.

2) الدعوة إلى الإسلام، ص 61.

العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وأن هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسّر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محدودة كل التحديد خالية كل الخلوّ من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك - وإنها لتمتلك فعلاً - قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس) (1)

ويتحدث عن الاثار السلوكية للشعائر الإسلامية، فيقول: (كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس، أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن منتسكيو في قوله: [في كتابه المعروف: روح القوانين]: (أن المرء الأشد ارتباطًا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأي دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائمًا على تفكيره). إن دين المسلم يتمثل دائمًا في مخيلته، وفي الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.. فإذا استطاع رينان أن يقول: (ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلمًا)، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكينة واستغراق، قد يؤثر في الأفريقي الوثني الذي وهب إدراكًا قويًا للقوى الخفية.. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال)(2)

ويتحدث عن علاقة الدين بالحياة، فيقول: (إن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تعبيرًا ظاهرًا في حياة المؤمن، ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية، تشابكًا لا سبيل إلى الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إمامًا ومعلمًا لعقيدته، أكثر إلى حد بعيد مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى. إن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه، فإذا أدى هذه الواجبات، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين، سرّ السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس. (فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقنهم الحقيقة في صورة

1) الدعوة إلى الإسلام، ص 454 – 456.

2) الدعوة إلى الإسلام، ص 458 – 460.

حماسية، دقيقة واضحة، وفي أسلوب مرئيّ محسن)(1)

سير هاملتون جب:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هـذا الفصـل اسـم (سـير هـاملتون جب)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا (سير هاملتون الكساندر روسـكين جب)(2) وهـو من كبـار المستشرقين الإنجليز، بل يمكنك أن تعتبره إمامهم.. وبالرغم من بعض سـوء الفهم الـذي عرض لـه، كمـا عـرض لسـائر المستشـرقين نحـو بعض القضـايا الإسـلام، إلا أن لـه بعض المواقف الطيبة والشهادات الصادقة، وقد قمت بتسجيل بعضها، وسأسردها عليك.

منهـا شـهادته على مـا يحويـه القـرآن من القيم النبيلـة، قـال: (إذا رأى أحـد أن إلحـاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليـه ذلـك التعريـف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُـوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِـرِ وَالْمَلآئِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَـامَ الصَّـلاةَ وَآتَى الزَّكَـاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُواْ وَالصَّـابِرِينَ فِي الْبَأْسَـاءِ والضَّـرَّاءِ وَحِينَ الْبَـأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُـونَ ﴾ (البقـرة: 177) فـالبر إذن تـاج الإيمـان الحـق، حين يـدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله)(3)

ومنها شـهادته حـول التواصـل بين الـدين والـدنيا في الإسـلام، يقـول: (هـذه، إذن، هي الرسالة التي بلغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغهـا إلى جميـع الأجيـال منـذ ذلـك العهـد. فـالقرآن سـجل لتجربـة حيـة مباشـرة في ميـدان الألوهيـة، تجربـة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلـوق كي ينظم حياتـه ليتمكن من الأخـذ بنصـيب في تلـك التجربـة. وحين يتبـع المسـلم أوامـر القـرآن ويسـعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمتـه

---

1) الدعوة إلى الإسلام، ص 460.

2) سير هاملتون الكساندر روسكين جب 1895 – 1967 يعد إمام المستشرقين الإنكلـيز المعاصـرين، أسـتاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة 1930، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سـنة 1937، وعضـو مؤسـس في المجمـع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

من آثاره: (دراسات في الآداب العصرية) (1926)، (الفتوحـات الإسـلامية في آسـيا الوسـطى وعلاقتهـا ببلاد الصـين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية.

3) دراسات في حضارة الإسلام، ص 254.

لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني)(1)

ومنها شهادته حول تميز الإسلام على غيره من الأديان، قال: (مهما يكن أمـر اسـتمداد الإسلام من الأديان الـتي سـبقته(2) فـذلك لا يغـير هـذه الحقيقـة أيضًـا وهي: أن المواقـف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًا جديدًا متميزًا)(3)

ويتحدث عن الاحترام العظيم الذي تكنه الأمـة الإسـلامية لنبيهـا من غـير غلـو، فيقـول: (ومهما نقل في قوة النزعة الإسلامية نحو محمد وفي آثارها فإنا لا نوصف بالغلو. فقد كان إجلال الرسول شعورًا طبيعيًا محتومًا في عصره وفيما بعده، غير أن مـا نـومئ إليـه شـيء يتجاوز الإجلال. فـإن العلاقـات الشخصـية من الإعجـاب والحب اللـذين بعثهمـا في نفـوس صحابته ظل صداها يتردد خلال القرآن، والفضل في ذلـك يعـود إلى الوسـائل الـتي أقرّتهـا الأمة لتستثير بهما مجددين في كل جيل)(4)

ويتحدث عن حب الأمة في جميع أجيالها، وتقديرها لنبيها، فيقول: (ما تـزال الاحتفـالات العائلية تختم بأدعية وأناشيد في تمجيد الرسول وكل الأمة تراعيهـا وتشـهدها بحماسـة في ذلك اليوم المجيـد، يـوم مولـد النـبي في الثـاني عشـر من شـهر ربيـع الأول. هنالـك تـرى المجددين والمقلدين والصوفية والسلفية والعلماء وأفراد الجمهور يلتقون جميعًـا معًـا على بقعة واحدة، وقد يكون بين نزعاتهم العقلية تنوع واسع متباين، ولكنهم جميعًا وحدة متآلفـة في إخلاصهم وحبهم محمد)(5)

ويتحدث عن البناء الإسلامي للمجتمع، فيقول: (كانت التعاليم الاجتماعية الـتي جـاء بهـا محمد في أساسها، إعادة لإحقـاق المبـادئ الأخلاقيـة الـتي تشـترك فيهـا ديانـات التوحيـد، فازداد ترسيخ معنى الأخوة بين جميع أفـراد الجماعـة الإسـلامية، وأنهم سواسـية من حيث القيمة الشخصية الفطرية دون نظر إلى ما في مكانتهم الدنيويـة ووظـائفهم وثـرواتهم من تباين واختلاف. وتعمقت جميع العلائق الواجبات المتبادلة التي تستتبعها هذه المبـادئ. وقـد تم ترسيخ ذلك كله وتعميقه حين وضعه الإسلام على أسـاس من الـولاء الخفي والخضـوع العلني لإله واحد.. وكانت لتعاليم الرسول نتائج اجتماعية ملموسة تحدّدت صيغتها كمـا هـو

---

1) دراسات في حضارة الإسلام، ص 254.

2) ذكرنا الرد على هذه الشبهة في مواضع مختلفة من هذه السلسلة، وبالنسبة لمصـادر هـذا الـدين رددنـا عليـه في رسالة (الكلمات المقدسة)

3) دراسات في حضارة الإسلام، ص 254 – 255.

4) دراسات في حضارة الإسلام، ص 257.

5) دراسات في حضارة الإسلام، ص 259.

الحال في جميع الحركات الدينية بما تركته من آثار في البيئة التاريخية الواقعية)(1)

ويتحدث عن تعاون جميع أجيال الأمة، وجميع أهل الاختصاص فيها في خدمة الإسلام، واستنباط حقائقه ونظمه، فيقول: (ومظهر آخر بارز يميز التشريع الإسلامي، وهو أن مهمة التعريف والتصنيف استغرقت، خلال القرون الثلاثة الأولى، الطاقات الفكرية لدى الأمة الإسلامية، إلى حد لا نظير له. إذ لم يكن المسهمون في هذا الميدان هم علماء الكلام والمحدثين والإداريين فحسب، بل إن علماء اللغة والمؤرخين والأدباء أسهموا بأنصبة في هذه المجموعة من المؤلفات التشريعية، وفي مناقشة القضايا التشريعية، وقلما تغلغل الشرع في حياة أمة وفي فكرها هذا التغلغل العميق مثلما فعل في الأدوار الأولى من المدنية الإسلامية)(2)

ويتحدث عن أعماق التوحيد التي نادى بها القرآن، والتي تنفي كل الوسائط، فيقول: (إن المبدأ المحوري في القرآن هو – يقينًا – مبدأ وحدة لا هوادة فيها، وهو يرفض فكرة وجود وسطاء بين الله والإنسان، على الأقل في هذا العالم. فالإسلام حين وضع الإنسان أمام الله دون عناصر وسائطية روحية كانت أول شخصية أكد بالضرورة مدى التباين بين الله والإنسان. وعلى الرغم من وجود آيات قرآنية ذات حدس روحي، فإن العنصر العقائدي المستمد من القرآن لا يستطيع إلا أن يصدر من افتراض التعارض بين الألوهية والإنسانية ومن تساوي الناس جميعًا (وهذه نتيجة ضرورية للموقف الأول) في علاقتهم بالله من حيث إنهم مخلوقات. وفي هذه المفارقة الكلية يقع التوتر الديني الذي يمثل – في الواقع – المظهر الأصيل المميز للإسلام)(3)

روم لاندو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (روم لاندو) (4)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا مستشرق إنجليزي جمع بين الفن والاهتمام بالشرق، وقد كان له شهادات قيمة تمتلئ صدقا وإخلاصا، سأذكر لك بعضها.

---

1) دراسات في حضارة الإسلام، ص 6.

2) دراسات في حضارة الإسلام، ص 263.

3) دراسات في حضارة الإسلام، ص 270.

4) روم لاندو: نحّات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى (1937)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (1952-1957)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي أفريقيا في المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرنسيسكو (1953).

من آثاره: (الله ومغامراتي) (1935)، (بحث عن الغد) (1938)، (سلم الرسل) (1939)، (دعوة إلى المغرب) (1950)، (سلطان المغرب) (1951)، (فرنسا والعرب) (19539، (الفن العربي) (1955).. وغيرها.

منها شهادته عن جمال الأسلوب القرآني إلى درجة استحالة وجود ترجمة كاملة معبرة عن القرآن تعبيرا حقيقيا، قال: (بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئًا من روح الوحي المحمدي. والواقع أن كثيرًا من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئًا من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية)(1)

ومنها شهادته عن التأثير الوجداني للقرآن، قال: (إن بين آيات قصار السور ترابطًا باهرًا له تأثيره الوجداني برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق إن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيرًا ما يخلف في نفس المرء تأثيرًا بليغًا. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى في صوت جهير. ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكي يحكم عليه حكمًا عادلاً ويقدره حق قدره.. وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزًا لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شيء من مثله)(2)

ومنها شهاداته عن رسول الله ﷺ وصفاته التي لا تدل إلا على نبوته، قال: (لم ينسب محمد في أيّما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية. على العكس، لقد كان حريصًا على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس)(3)

وقال: (كان محمد تقيًّا بالفطرة، وكان من غير ريب مهيّأ لحمل رسالة الإسلام التي تلقاها.. وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في سرّه وجهره رجلاً عمليًا عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطًا وإلى المدنيين الوثنيين، وفي آن معًا، على نحو تدريجي. وفي الوقت نفسه كان محمد يملك إيمانًا لا يلين بفكرة الإله الواحد.. وعزمًا راسخًا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب)(4)

وقال: (كانت مهمة محمد هائلة. كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية

---

1) الإسلام والعرب، ص 36 – 37.

2) الإسلام والعرب، ص 296 – 297.

3) الإسلام والعرب، ص 32.

4) الإسلام والعرب، ص 33.

(وهو الوصف الذي رمى بـه بعض الكتـاب الغربـيين المبكـرين الرسـول العـربي أن يرجـو النجاح في تحقيقهـا بمجهـوده الشخصـي، إن الإخلاص الـذي تكشـف عنـه محمـد في أداء رسالته، وما كـان لأتباعـه من إيمـان كامـل في مـا أنـزل عليـه من وحي، واختبـار الأجيـال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بـأيّ ضـرب من الخـداع المتعمـد. ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق (ديني) متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسـلام لم يعمـر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كـل عـام، أتباعًا جددًا. وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحدًا على محتال كان لرسـالته الفضـل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً)(1)

وتحدث عن الثمار العظيمـة الـتي حققهـا محمـد ﷺ، فقـال: (كـانت مهمـة محمـد هي القضاء على النظام القبلي القـوي الـذي كـان مسـؤولاً عن انـدلاع نـار الحـرب، على نحـو موصول تقريبًا، بين العرب، والاستعاضة عنه بولاء لله يسمو على جميـع الروابـط الأسـرية والأحقاد الصغيرة. كان عليه أن يعطي الناس قانونًا كليًا يستطيع حـتى العـرب المتمـردون قبوله والإذعان له، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمـع عـاش على العنـف القبلي والثأر الـدموي لضـروب من المظـالم بعضـها واقعي وبعضـها متـوهم. كـان عليـه أن يحـلّ الإنسانية محل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محلة القوة الخالصة)(2)

وقارن بين السلوك الإسلامي المبني على مراعاة الفطرة، والسلوك المسيحي القـائم على تعذيب الجسد، فقال: (أن التوكيد النصراني التـاريخي على الألم وإماتـة الجسـد يكـاد يكون مفقودًا بالكلية في الإسلام. والثنائية المسيحية، ثنائية الجسـد والـروح، هي في نظـر المسلم شيء غير معقول، أو في أحسن الأحوال شيء غير واقعي)(3)

وتحـدث عن مرونـة الشـريعة الإسـلامية، فقـال: (الإسـلام في أساسـه دين عملي. فالقواعد والأنظمة التي ينصّ عليها القرآن ليست جامدة، ولقد كيّفت وفقًـا لمـا قضـت بـه الأحوال والظروف. وهذه السياسة إنما يؤيدها كثير من المسلمين عندما يستشهدون بالآية القرآنيـة الـتي مفادهـا أن اللـه يريـد أن ييسّـر السـبيل للنـاس. إن المسـلم ليجـد أن في ميسوره الـتزام أحكـام دينـه، وهكـذا ينعم بـالأمن وطمأنينـة النفس.. أن هـدف النصـرانية الممعن في الروحية، ذلك الهدف الذي هو الانتصار على ضعف الجسد، يكـاد يكـون متعـذر التحقيق في هذه الحياة، ولولا محبة الله إذن لكان خليقًا بحياة المسيحي أن تكون سلسـلة من ضروب الإخفاق والخيبة التي لا سبيل إلى التغلب عليها. إن في إمكان المسلم أن يبلغ

---

1) الإسلام والعرب، ص 33 – 34.

2) الإسلام والعرب، ص 34.

3) الإسلام والعرب، ص 51.

مثل دينه الأعلى هنا على سطح الأرض، ولكن النصراني يتطلع إلى الاتحاد بالمسيح في المستقبل بوصفه غاية الغايات في حياته الدينية)[1]

وتحدث عن الموقف الإيجابي للإسلام من العلم، فقال: (في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثاني)[2]

وتحدث عن التكامل بين علوم الدين وعلوم الدنيا في الإسلام، فقال: (العلم الإسلامي لم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية) ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها.. إن المسلمين وفّقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائق وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط)[3]

ويقارن بين موقف الإسلام من العلم مع موقف الكنيسة، فيقول: (منذ عصر النهضة انفصل العلم في الغرب، انفصالاً أشد وضوحًا عن الدين، أو بتعبير آخر، تابع العلم سبيله غير ملتفت إلا قليلاً إلى مطالب الأخلاق وعلم الأخلاق. ففيما كان الإنسان في الغرب يكتسب معرفة متنامية أبدًا بالكون الطبيعي وسيطرة متعاظمة عليه كان تقدمه الأخلاقي يتخلف متلكئًا. وبتحرير العلم في القرون الوسطى من سلطان الكنيسة، لم يفصل الغرب العلم عن العقائد الدينية فحسب بل فصله عن مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضًا. أما العلم الإسلامي فلم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية)، ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيبًا أن يكون العلم الإسلامي لم يجرّد في أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية – كما حدث في الغرب – ولكنه كان دائمًا في خدمة الإنسان. وبينا أكره العلم الغربي في عهد مبكر نسبيًا على اتخاذ سبيل التخصص، بحيث أمسى كل فرع من فروعه يعمل – كثيرًا أو قليلاً – في عزلة، ظل العلم الإسلامي شموليًا، يجهد من أجل الوحدة، وهي وحدة يلعب فيها كل من الكون المادي والله والإنسان دوره الحاسم)[4]

---

1) الإسلام والعرب، ص 52.

2) الإسلام والعرب، ص 246.

3) الإسلام والعرب، ص 280 – 281.

4) الإسلام والعرب، ص 280 – 281.

ويتحدث عن تفوق المسلمين العلمي، فيقول: (والحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح، لا عامل تعويق وإحباط)(1)

قلت: إن هذا رجل فاضل حقا.. إنه يحمل تقديرا عظيما للإسلام يندر أن نجد مثله.

قال: صدقت.. ففي كلماته من نفحات الصدق ما يدل على أن علاقته بالإسلام أعمق من أن تنحصر في تلك الشهادات.

آرنولد توينبي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (آرنولد توينبي) (2)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من عقلاء الغرب.. ولشهاداته قيمة عليا، باعتبارها تنبع من نظرة تاريخية عميقة، فالرجل لم يكن يسرد الأحداث فقط، أو يكتفي بتحليلها تحليلا سطحيا، وإنما يحاول سبر أغوارها.

قلت: أسمع بهذا الرجل كثيرا.. ولكني لم أكن أعلم أن له من الفهم في الإسلام ما يتيح له أن يتحدث عنه.

قال: كيف يكون لعالم بالحضارات أن لا يعرف أعمق الحضارات وأشملها وأكثرها إنسانية، وأطولها عمرا.

قلت: صدقت.. لقد بث فينا من الإحباط ما جعلنا ننزل من التواضع إلى الذلة.

قال: سأذكر لك بعض شهادات هذا الرجل.. وهي ـ كغيرها ـ يختلط فيها الحق بسوء الفهم..

فمن تلك الشهادات قوله في بيان كون النظام الإسلامي بما تميز به من شمولية هو السبب في انتشار الإسلام: (لقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية وهما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون

---

1) الإسلام والعرب، ص 281.

2) آرنولد توينبي: المؤرخ البريطاني المعاصر، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها – ولا ريب – مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام 1921 وانتهى منه عام 1961، وهو يتكون من اثني عشر جزءًا عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومر فيل – تحت إشراف توينبي نفسه – مختصرًا في جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مستخدمًا عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالسياق العام للكتاب، وهذا المختصر هو الذي ترجم إلى العربية في أربعة أجزاء، وهو المعتمد في هذه النقول.

والنظام في الحكم. وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معًا.. فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطالسي إلى شواطئ السهب الأوراسي)(1)

وقد تحدث عن امتداد تاثير النبي ﷺ باعتباره قدوة محبوبا في الأجيال البعيدة للأمة الإسلامية، فقال: (لقد أخذت سيرة الرسول العربي بألباب أتباعه، وسمت شخصيته لديهم إلى أعلى علّيين، فآمنوا برسالته إيمانًا جعلهم يتقبلون ما أوحي به إليه وأفعاله كما سجّلتها السنة، مصدرًا للقانون، لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها، بل يرتب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم غير المسلمين الذين كانوا في بداية الأمر يفوقونهم عددًا)(2)

وتحدث عن صفاء التوحيد الإسلامي مقارنة بما حصل للمسيحية، فقال: (إن الإسلام قد أعاد توكيد وحدانية الله، في مقابل الضعف البادي في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية)(3)

وتحدث عن التنوير الإسلامي المرتبط بالتوحيد، فقال: (في غضون القرن السابع الميلادي، جدّ في النقاش عامل جديد، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومثير. فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النموّ. كان الإسلام يتعصب للتوحيد ويناهض التصوير مثلما يبتغي أي يهودي، وبفضل ما حققه أنصاره في الميدان الحربي من نجاح متوال – وبعد ذلك بقليل في المجال التبشيري كذلك – واجه المسيحيون أمرًا خطيرًا جديدًا يشغل تفكيرهم.. إن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد ألقت وقودًا جديدًا على المجادلات التي ظلت تدور أمدًا طويلاً حول (وثنية) المسيحية)(4)

توماس كارلايل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (توماس كارلايل) (5)،

---

1) مختصر دراسة للتاريخ: 10 / 381.

2) مختصر دراسة للتاريخ: 3 / 98.

3) مختصر دراسة التاريخ:3 / 164.

4) مختصر دراسة التاريخ:4 / 64، وانظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (الخلاص)

5) توماس كارلايل (1795 – 1881) الكاتب الإنجليزي المعروف، من آثاره: (الأبطال) (1940)، وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي، (الثورة الفرنسية) وغيرها.

فسألت الغريب عنه، فقال: هذا كاتب إنجليزي.. وهو أشهر من نار على علم.. وقد كتب عن رسولنا ﷺ كلاما يستحق عليه كل الثناء.

فمن ذلك قوله في إثبات نبوة رسول الله ﷺ.. وهو منطق لا يقل عن منطق أي متكلم في العقيدة الإسلامية: (هل رأيتم قط.. أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجبًا.. إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب! فهو إذًا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن. وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته.. كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيّلوه حقًا.. ومحنة أن ينخدع الناس شعوبًا وأممًا بهذه الأضاليل)(1)

ويقول مؤكدا عدم وجود أي مصدر يمكن أن يستند إليه رسول الله ﷺ غير مصدر الوحي الإلهي: (إن محمدًا لم يتلق دروسًا على أستاذ أبدًا وكانت صناعة الخطّ حديثة العهد آنذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة(2)، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية.. أنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسّر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يضره.. أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء – أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور – من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء.. بين الطبيعة وبين أفكاره)(3)

ويتحدث عن أوصاف رسول الله ﷺ والتي تحيل أن يكون مدعيا أو كاذبا، فيقول: (لوحظ على محمد منذ صباه أنه كان شابًا مفكرًا وقد سمّاه رفقاؤه الأمين – رجل الصدق والوفاء – الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه

---

1) الأبطال، ص 43.

2) وهي حقيقة تدل عليها كل الأدلة، فالله تعالى وصف النبي بالأمية، فقال: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (لأعراف:157)، وقال تعالى: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(لأعراف: من الآية158).. ولو لم يكن ﷺ أميا لواجهه الجميع مكذبين هذا الزعم، وهو لم يحصل.

3) الأبطال، ص 5.

إلا وفيها حكمة بليغة. وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لبّ.. وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريمًا برًّا رؤوفًا تقيًا فاضلاً حرًا، رجلاً شديد الجدّ مخلصًا، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جمّ البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق.. وكان ذكي اللب، شهم الفؤاد.. عظيمًا بفطرته، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غني عن ذلك.. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء)(1)

ويتحدث عن دليل آخر لنبوة رسول الله ﷺ في غاية العمق، فيقول: (ومما يبطل دعوى القائلين أن محمدًا لم يكن صادقًا في رسالته.. أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة مع خديجة لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة.. ولم يكن إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعًا وثار يريد أمرًا جليلاً وشأنًا عظيمًا)(2)

ويتحدث عن إخلاص رسول الله ﷺ وعفافه وزهده، وهو من أكبر دلائل صدقه، فيقول: (لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفوات العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمة وحجى ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة. إذ ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بالأكاذيب والأباطيل. لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرّ الوجود يسطع لعينيه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولم يكن هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرّ يناجيه: هاآنذا، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية. وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء)(3)

وهو لا يكتفي بتلك الشهادات، بل يصرح بحبه لرسول الله ﷺ.. وهو يعتبر ذلك الحب ضروريا، فما في محمد ﷺ من صفات الكمال لا يحمل القلوب إلا على الحب، يقول: (إني لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرأي والتصنّع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبرًا ولكنه لم يكن ذليلاً، فهو قائم

---

1) الأبطال، ص 50 – 51.

2) الأبطال، ص 51.

3) الأبطال، ص 51 – 52.

في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراده، يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها.. وكان رجلاً ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد)(1)

وهو يرد بشدة وصدق وإخلاص على الذين يتصورون كذب رسول الله ﷺ، فيقول: (لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمدًا، وحاشاه خدّاع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتين مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء، كذبة وخدعة؟أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق)(2)

ويتحدث عن تصوره لحقيقة الإسلام، فتجد له من فهم حقيقة الإسلام ما يملؤك بالعجب، فيقول: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له) هو الحق، وكل ما خلاه باطل، خلقنا ويرزقنا.. إن الإسلام هو أن نسلم الأمر لله، ونذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمته، والرضا بقسمته أيًا كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو. ولقد قال شاعر الألمان (غيته): (إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون). نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو متخلق بأخلاق الإسلام، وإن لم يكن مسلمًا.. إن من السخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانًا للعالم وأحواله. بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونًا عادلاً، وإن غاب عن إدراكه، وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود.. عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكون وتقوى)(3)

ويتحدث عن إعجابه بالقيم التي جاء بها الإسلام، فيقول: (في الإسلام خلّة أراها من أشرف الخلال وأجلّها وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي. فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضًا حتمًا على كل مسلم، وقاعدة من

---

1) الأبطال، ص 64.

2) الأبطال، ص 42 – 43.

3) الأبطال، ص 53 – 54.

قواعد الإسلام ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل.. جميل والله هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة)(1)

وهو يحث قومه وغيرهم ليعرفوا قيمة الإسلام، والمعاني النبيلة التي يحملها، فيقول: (هذا الدين الإسلام فيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه. ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم الصراط المستقيم لخمس العالم. وما يزال فوق ذلك دينًا يؤمن به أهله من حبّات أفئدتهم. ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم، إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد.. وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترنّ آناء الليل وأطراف النهار في إرواء تلك الملايين الكثيفة. وأن الفقهاء ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي ماليزيا فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام، ونعم ما يفعلون)(2)

ويتحدث عن الثمار العظيمة التي حققها الإسلام في فترة وجيزة، فيقول: (لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة.. وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيًا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقًا، ووسع نوره الأنحاء.. وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبًا عديدة ودهورًا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة. وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة، ومازال للأمة رقي في درج الفضل.. مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان)(3)

أصابني انبهار شديد لما ذكره الغريب عن هذا الرجل الفاضل من هذه الشهادات، فقلت: إن هذا ليس مجرد صديق.. إنه يكاد يكون أخا لنا في الدين.. بل لا أشك أنه كذلك.. ولعله تأثر بمؤمن آل فرعون، فراح يكتم إيمانه ليتمكن من نصرة الإسلام، كما تمكن مؤمن آل فرعون من نصرة موسى.

قال الغريب: صدقت.. فهو في نصائحه لقومه يحمل أريج تلك النفحات التي تحدث بها مؤمن آل فرعون.

---

1) الأبطال، ص 65.

2)الأبطال، ص 66.

3) الأبطال، ص 66 – 67.

وقد أخبر مونتجومري وات عن تأثير تلك النصائح في الغرب، فقال: (منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسبابًا وجيهة للاقتناع بصدق محمد. إذ إن عزيمته في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيرًا عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع. فاتهام محمد بأنه دجال يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد. فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكنًا قبوله. ولا يكفي، مع ذلك، في ذكر فضائل محمد أن نكتفي بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شيء عنه. وإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده فيجب علينا في كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلابة بصدقه. ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضًا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكنًا وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه)(1)

لايتنر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (لايتنر) (2)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من الباحثين الصادقين، وهو لا يقل عن صاحبنا السابق، فكلاهما انتدب ليدعو قومه إلى الإسلام.

وسأذكر لك من شهاداته ما يثبت لك ذلك:

لقد تحدث عن أصالة رسالة النبي ﷺ.. بل هو يصرح أن ما كان يتلقاه محمد ﷺ وحي يوحى، فقال: (بقدر ما أعرف من دينيْ اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا بل قد (أوحي إليه به) ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القلوب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد وأنه قد أوحي إليه)(3)

---

1) محمد في مكة، ص 94.

2) هو باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام 1854، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها.

3) دين الإسلام، ص 4 – 5.

وتحدث عن الدور التصحيحي الذي جاء به رسول الله ﷺ للأديان المحرفة، فقال: (إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح تخالف التعاليم السّرية التي أذاعها بولس والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى.. ولقد كانت آمال محمد وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعًا، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام)(1)

ويرد بصدق وإخلاص على شبهة تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فيقول: (لما بلغ السنة الخامسة والعشرين من العمر تزوج امرأة عمرها (أربعون عامًا، وهذه تشابه امرأة عمرها خمسون عامًا في أوربا، وهي أول من آمن برسالته المقدسة.. وبقيت خديجة معه عشرين عامًا لم يتزوج عليها قط حتى ماتت. ولما بلغ من العمر خمسًا وخمسين سنة صار يتزوج الواحدة بعد الأخرى. لكن ليس من الاستقامة والصدق أن ننسب ما لا يليق لرجل عظيم صرف كل ذاك العمر بالطهارة والعفاف فلا ريب أن لزواجه بسن الكبر أسبابًا حقيقية غير التي يتشدق بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هي تلك الأسباب يا ترى؟ولا ريب هي شفقته على نساء أصحابه الذين قتلوا)(2)

وتحدث عن دلائل صدق النبوة، فقال: (مرة، أوحى الله تعالى إلى النبي وحيًا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذاك الوحي من وجود)(3)

وهو يدعو قومه لاحترام محمد ﷺ.. بل الإيمان به.. فيقول: (إني لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح احترامًا عظيمًا وذلك باحترامهم محمدًا، ولا ريب في أن المسيحي المعترف برسالة محمد وبالحق الذي جاء به هو المسيحي الصادق)(4)

وهو يتحدث عن عدم وجود الوسائط في الإسلام بين الله وعباده، فيقول: (كل مسلم قيم ومهيمن على دينه مباح له التكلم بخصوص الأمور الدينية فليس هو رقيقًا للمشايخ. يعبد الله وحده لا يحتاج إلى وسيط، وإنما كان متى أدركته أوقات الصلاة فهنالك محل لعبادته، ولعلماء المسلمين الحرية التامة للاحتراف والاشتغال ولكن أكثر علمائهم يتعاطون تعليم الدين للناس. وأي مسلم يستطيع أن يقول: (إني بتسليم نفسي لإرادة الله) نائب

---

1) دين الإسلام، ص 5.

2) دين الإسلام، ص 12 – 13، وانظر تفاصيل الرد على هذه الشبهة في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

3) دين الإسلام، ص 132 – 133.

4) دين الإسلام، ص 6.

عن الدين الذي علمه محمد. والحق يقال بأن كافة المسلمين في الدنيا مرشدون بهذا الهدى الاجتماعي)(1)

ويتحدث عن مزايا الشعائر الإسلامية المختلفة، فيقول: (الصلاة عمادها الطهارة والنظافة، ومعلوم أن النظافة من الإيمان والوضوء والصلاة لهما أعمال دقيقة جدًا وليس بإمكان أحد القسيسين أن يقول بحق أحد النصارى بأننا نستطيع تعلمها من أي مسلم نصادفه. وأما الزكاة فيحق لها أن تدعى (الصلاة النقدية).. ولكي تكون مقبولة عند الله فمن الواجب على المزكين أن يبيّنوا ملكيتهم لما وهبوه شرعًا ولا يجوز أن يكون فيه ما حرم كسبه.. وكل من يعطي فوق فريضة الزكاة فأجره على الله. والحج إلى مكة (المشرفة) مهم جدًا لأنه يتكون منه اجتماع المسلمين من كافة أقطار العالم ويتأتى عنه التعارف والاتحاد، وهذا شيء ليس للنصارى فيه من نصيب. وفوق هذا فإنه من أقوى العوامل والأسباب على نشر العلم والآداب.. أما الصوم فهو تمرين يعتاده الإنسان وله نفع عظيم، كما أن الطهارة والنظافة معقولان، كذلك الصوم المتمّم للأحوال الصحية التي يطلبها الطبيب)(2)

ورد على شبهة (الاسترقاق)، فيقول: (إنا نرى الأغبياء من النصارى يؤاخذون دين الإسلام كأنه هو الذي قد سنّ الاسترقاق، مع أن محمدًا قد حضّ على عتق الرقاب وهذه أسمى واسطة لإبطاله حقيقة)(3)

وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية المختلفة، فقال: (الحق يقال إن الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب المسكر واللحم الذي لم يحسن ذبحه، وإزالة كل مضرّ، وغير ذلك من الأشياء التي نهى عنها الإسلام، لمن أعظم الأمور النافعة للعاملين بها وليست لإتعابهم)(4)

وقال: (في المساجد ترى المساواة التامة بين المصلين فلا يوجد فيها مقاعد خاصة بأحد، وأي إمام يمكنه أن يؤم المصلين. ولا يوجد منظر أبهج من منظر جماعة المسلمين يصلون وهم خاشعون صامتون)(5)

وقال: (إن الزواج عند المسلمين يجلّ عما رماهم به كُتّاب النصارى. والقول بأنه لا

---

1) دين الإسلام، ص 6.

2) دين الإسلام، ص 7 – 8.

3) دين الإسلام، ص 7، وانظر الرد المفصل على هذه الشبهة في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

4) دين الإسلام، ص 8.

5) دين الإسلام، ص 9.

يوجد حد للزواج والطلاق عند المسلمين فغير صحيح، والطلاق عندهم ليس هو بالأمر الهين، فعدا عن وجود المحكمين فعلى الرجل أن يدفع صداقها المسمى عند إجراء العقد وهذا غالبًا يكون فوق ما يقدر زوجها على إيفائه بسهولة، فمركز المرأة بالإسلام قوي مؤمّن من الطلاق. إن النصارى والبوذيين يرون الزواج أمرًا روحيًّا ومع ذلك نرى عقدة النكاح محترمة عند المسلمين أكثر مما هي محترمة في البلاد المسيحية.. ويسوءني أن أذكر ما ليس لي مناص من ذكره وهو أنني سكنت بين المسلمين أربعًا وخمسين عامًا ابتداءها سنة 1848 فمع وجود التساهل في أمر الطلاق عندهم وعسره عند النصارى، فقد وقع حودات طلاق عند النصارى أكثر مما وقع عند المسلمين بكثير. وإني أقول الحق بأن الشفقة والإحسان عند المسلمين نحو عيالهم والغرباء والمسنّين والعلماء لمثال مجدٍ يجب على النصارى أن يقتدوا به)(1)

ويرد على شبهة تعدد الزوجات، فيقول: (أما تعدد الزوجات.. فإنّا بقطع النظر عن منافعه الحقيقية، لأنه يقلّل النساء الأماكن التي هن فيه أكثر من الرجال، وبقطع النظر عن أنه يقلل وجود المومسات وأضرارهن، ويمنع مواليد الزنا، فلا يمكننا أن ننكر بأن أكثر المسلمين ذو زوجة واحدة والسبب في ذلك هو تعليم دين الإسلام لقد أتى محمد بين أمة تعد ولادة الأنثى شرًّا عظيم عليهم وهكذا كانوا يئدونها، ولم يكن للرجال حد يقفون عنده من جهة الزواج وكانوا يعدون النساء من جملة المتاع ويرثونها من بعد موت بعلها. فجعل لهذه الحالة حدًّا فلا يقدر الرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء بشرط المساواة بينهن في كل شيء حتى بالمحبة والوداد، فإن لم يكن قادرًا على كل ذلك فلا يباح له بأن يتزوج غير واحدة. ومن يتدبر شريعته يرى أنه قد حضّ على الزواج بامرأة واحدة، ولقد رفع مقام المرأة ورقاها رقيًّا عظيمًا، فإنها بعد ما كانت تعد كمتاع مملوك صارت مالكة، وحكمها مؤيد وحقوقها محفوظة)(2)

ويتحدث عن الآثار الصحية للشرائع المرتبطة بالزواج في الإسلام، فيقول: (أما بخصوص الرهبانية فليس لها وجود في الإسلام، وتكاد لا ترى امرأة غير متزوجة، وقصاص الزنا متساوٍ فيه الرجل والمرأة.. والشريعة الإسلامية لا تسمح بإهانة أولاد المملوكة، وهم يرثون أبناءهم مع أولاد السيدة.. وليس في الإسلام محلات للفاجرات ولا قانون يبيح انتشار المومسات. ومسامرات المسلمين العمومية خير مما هي في أوروبا. ومسامرات شبان المسلمين في المدارس خير وأطهر من مسامرات شبابنا.. والحق أولى أن يقال فإن كثيرًا من كلام شبان الإنكليز لو قاله أحد في بلاد المسلمين لنال قائله القصاص الصارم.

---

1) دين الإسلام، ص 10 – 11.

2) دين الإسلام، ص 11.

وللمرأة المسلمة مركز شرعي خير من مركز المرأة الإنكليزية بكثير)(1)

سكت الغريب، فلم أملك إلا أن أقول: ما هذا إلا مؤمن آخر من آل الإنجليز يكتم إيمانه.

قال: صدقت.. فالحب الذي تمتلئ به هذه الشهادات يستحيل أن يكون منبعه اللسان المجرد.

هربرت جورج ولز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (هربرت جورج ولز)(2)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل لا يقل عن أخويه (كارلايل) و(لابتنز) حماسة وصدقا، فقد مارس هو الآخر ما يمارسه كل متكلم مسلم من الدفاع عن نبيه وإسلامه.

فمن شهاداته قوله في بيان دليل عميق من أدلة نبوة رسول الله ﷺ: (هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا أكثر من غيرهم، كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبو بكر شاهد أفضل وهو لم يتردد قط في إخلاصه. كان يؤمن بالنبي ومن العسير على أي إنسان يقرأ تلك الأيام إلا يؤمن بأبي بكر، وكذلك علي فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه سوادًا)(3)

ومن شهاداته شهادته حول سمو القيم التي نادى بها رسول الله ﷺ: (حجّ محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها)(4)

---

1) دين الإسلام، ص 14 – 15.

2) هربرت جورج ولز (1866 – 1946)ـ H. G. Wells الكاتب والأديب البريطاني المعروف. حصل على بكالوريوس العلوم سنة 1888، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذي يعتمد الخيال العلمي من مثل (آلة الزمن) و(الرجل الخفي)، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية من مثل (ميكا فيللي الجديد) و(الزواج). ولم يغفل ولز البحث في التاريخ فأنجز عام 1920 (معالم تاريخ الإنسانية) وأعقبه بـ(موجز تاريخ العالم). وكان آخر كتاب أصدره هو (العقل في أقصى تواتراته) (1944). ولولز كتاب في السيرة الذاتية بعنوان: (تجربة في كتابة السيرة الذاتية).

3) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 639.

4) معالم تاريخ الإنسانية: 3 / 640 – 641.

ومن شهاداته شهادته حول الثمار العظيمة التي حققها الإسلام على مستوى العالم أجمع: (لقد منح العرب العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم أما الرجل الذي أشعل ذلك القبس العربي فهو محمد)(1)

ومن شهاداته شهادته حول عملية التصحيح التي قام بها الإسلام نحو غيره من الديانات: (ناهض الإسلام مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد المجوس الزرادشت المنحلّة.. فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يتميز بصفات كثيرة نبيلة)(2)

ومن شهاداته شهادته حول مصادر قوة الإسلام مقارنا لها بغيرها من الديانات: (هذا الإلحاح على الرفق والرعاية في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه. ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجرد من كل اعتزال يهودي، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قوي المقاومة إلى حدّ بعيد لعمليات الصقل والتفاخر اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وقضت على روح عيسى وكان مصدر قوته الثالث في وصفه الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة وبيانه الصريح عن المغزى المحدود العرفي للأهمية المنسوبة إلى مكة. وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سم خياط مفتوحًا ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم إلى مسرح العقيدة الجديدة.. ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة)(3)

ومن شهاداته شهادته حول تسامح الإسلام: (كان الإسلام مليئًا بروح الرفق والمساحة والأخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم.. وقد وقفت ضده اليهودية وهي التي أخذت من الرب كنزًا تكتنزه بيمينها، ثم المسيحية، وهي تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثليث والمبادئ والهرطقات التي لم يكن ليستطيع أي رجل عادي أن يميز فيها الرأس من الذنب، كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب ماني. ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه، يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) سبحانه، الذي كان يبشر به الرسول، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب صلاح وبرّ وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه – في عالم تقلقل وخيانة وانقسامات لا تسامح فيها – على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة في الأرض.. وقد أوصل محمد مبادئه الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أي

---

1) موجز تاريخ العالم، ص 200 – 201.

2) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 640.

3) معالم تاريخ الإنسانية، ص 3 / 642.

رمزية مبهمة ودون أي تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس)[1]

ومن شهاداته شهادته حول صفاء التوحيد في الإسلام، وخلوه من كل شوائب الشـرك: (يحتوي الإسلام.. الشيء الكثير من القوة والإلهام. فمن خصائصه التوحيـد الـذي لا هـوادة فيه، وإيمانه البسيط المتحمّس بحكم الله للنـاس.. وخلـوه من التعقيـدات اللاهوتيـة. ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرابين ومعبدها، وهو بمأمن حصـين من كل انزلاق نحو القـرابين الدمويـة. والقـرآن حين يـذكر طبيعـة الحج إلى مكـة بصـورة محددة واضحة الشعائر، إنما يجعلها بمأمن من كل احتمال للنزاع في شأنها. كما أن النـبي اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته. وثمـة عنصـر ثـالث للقـوة يكمن في إصـرار الإسـلام على أن المؤمـنين جميعًـا متسـاوون تمامًـا أمـام اللـه، مهمـا اختلفت ألـوانهم أو أصولهم أو مراكزهم. هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشئون الإنسانية) [2]

سكت الغريب، فقلت: إن هذا الرجل لا تنقصه إلا شهادة واحدة ليصبح من المسلمين.

ابتسم الغريب، وقال: ومن ذكر لك بأنه لم ينطقها.

قلت: هل أشهر إسلامه.. في أي بلد تم ذلك.. وأمام أي إمام؟

قال: قد يكـون أشـهر إسـلامه في حقـل من الحقـول، أو جبـل من الجبـال، أو واد من الأدوية..

قلت: والإمام !؟

قال: الملائكة.. والجن الصـالحون.. وكـل ذرة في تـراب الأرض، وفي جـو السـماء.. ألا يكفي هؤلاء جميعا شهودا على الإيمان؟

برنارد شو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسـم (برنـارد شـو)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل يتربع على قمة قمم الصـادقين.. وهـو لـذلك يحظى بـاحترام كبير لدى جميع المسلمين:

فمن شهاداته حديثه عن حيوية الإسلام بقولـه: (لقـد وضـعت دائمـاً دين محمـد موضـع الاعتبار السامي بسبب حيويته العظيمة، فهو الـدين الوحيـد الـذي يلـوح لي أنـه حـائز على

1) معالم تاريخ الإنسانية، 3 / 642.

2) موجز تاريخ العالم، ص 202.

أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان ومكان، لقـد صور (أكليروس القرون الوسطى) الإسلام بأحلك الألوان إما بسـبب الجهـل وإمـا بسـبب التعصب)

وتحدث متأسفاً على الأباطيل التي تنتشر بين قومه عن الإسـلام، فقـال: (مضـت على الغرب القرون وهو يقرأ كتباً ملأى بالأكاذيب على الإسلام)

وله أحاديث عذبة صادقة عن رسول الله ﷺ.. منها قوله: (لقد درست محمـداً باعتبـاره رجلاً عظيماً فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى (منقذ البشرية)، وإنـني لأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى حكم العالم الحـديث لنجح في حـل مشـكلاته بطريقـة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما، وفي الـوقت الحاضـر دخـل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد حتى ليمكن أن يقال إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ، لقد بدأت أوروبا الآن تعشق الإسلام، ولن يمضي القرن الحادي والعشرون حتى تكون أوروبا كله قد بدأت تستعين به في حل مشاكلها)

ومنها قوله: (إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافـات، وأقـام فـوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضـحاً قويـاً، اسـتطاع أن يبقى إلى يومنـا هـذا قوة ذات خطر عظيم)

ومنها قوله: (لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسـالة وبـاني أمة، ومؤسس دولة ... هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ)

وفي مقابل هذا تحدث عن المخاطر التي يحملهـا الكتـاب المقـدس على القيم، فقـال بأسـلوبه السـاخر: (الكتـاب المقـدس من أخطـر الكتب الموجـودة على وجـه الأرض، فاحفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح، احفظوه بعيداً عن متناول الأطفال)

سكت الغريب، فقلت: إني كلما قرأت كلمات هذا الرجل عن رسول الله ﷺ أشعر بأن له معه من الأحاديث ما لم تفطن لها الكتب، ولم يفطن لها المؤرخون.

قال: الأمر كذلك.. فما أكثر غفلة الكتب عن أحاديث القلوب.. وما أكثر غفلة المؤرخين عنها.

أصدقاء من أمريكا

قلبت بعض الصفحات من دفتر الغريب، فرأيت عنـوان (أصـدقاء من أمريكـا).. فقلت: أتكتب اسم أمريكا في كتاب يبحث عن القلوب التي تحب محمدا؟

قال: وما يمنعني من ذلك؟

قلت: إن أمريكا هي السيف الذي سلط على رقـاب المسـلمين، وهي القنبلـة النوويـة التي يوشك أن تبيدهم.

قال: ألم تر في ثمار النبوة صمود شجرة الإسلام؟

قلت: بلى.. ولكن الحـرب الـتي توجـه لـه في هـذا العصـر أعـتى من كـل الحـروب.. والوسائل التي تستخدم فيها لم تحلم بها الشياطين.

قال: ومع ذلك، فسيخرج الإسلام كشأنه كل مرة مرفوع الهامة، عالي الراية.

قلت: متى ذلك؟

قال: أنتم الذين تحددون ذلك.. عندما تصدقون مع الله لن تؤذيكم بعوضة.

قلت: إن من قومنا من يحملون أسلحة كثيرة.. وهي من أعظم دلائل الصدق.

قال: الصدق لا يحتاج إلى أسلحة.. الصدق لا يحتاج إلا للقلوب الطاهرة الممتلئة بألحان السلام..

قلت: فهل في أمريكا من يسمع للسلام؟

قال: في أمريكا من يسمع للسلام وللإسلام.. وهم كثيرون.. بل لا يكادون يحصون.

قلت: لقد ذكرتني، فقد قرأت قبل فترة، في مجلة (تايم) تحقيقـاً بعنـوان (الأمريكيـون يولون وجـوههم خمس مـرات نحـو مكـة) قـالت فيـه: (إن المسـلمين في أمريكـا أصـبح صـوتهم مسـموعاً، وأصـبحت لهم كلمـة أكـثر من أي وقت مضـى بعـد أن كـان اللـوبي الصهيوني له اليد العليا، وكان الأمريكيون منذ أكثر من عشرين عاماً ينظرون إلى الإسـلام على أنه من الديانات المتخلفة، ولكن بعد دخول عدد كبـير من المسـلمين المهـاجرين إلى الإسلام سواء من السود أو البيض، بدأ الأمريكيون يغيّرون نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين في أمريكا)(1)

قال: لقد بدأت النبـوءة تتحقـق، فقـد ذكـرت صـحيفة (نيويـورك تـايمز) الأمريكيـة أن

1) انظر جريدة المسلمون، العدد 279.

الإسلام ينتشر بسرعة فائقة وبصورة لافتة للنظر، وأضافت أن مدن نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو وديترويت أصبحت مراكز كبرى للدين الإسلامي.

ول ديورانت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا المحل اسم (ول ديورانت)(1)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا الرجل هو مؤرخ الحضارات الأكبر..

قلت: أعلم ذلك.. ولكني أسألك عن شهاداته عن الإسلام.

قال: لهذا الرجل شهادات صادقة عن الإسلام، سأذكر لك منها ما تقر به عينك.

فقد تحدث عن القيم النبيلة التي يحملها القرآن الكريم، والتي ظل تأثيرها ممتدا في جميع العهود، فقال: (ظل القرآن أربعة عشر قرنًا من الزمان محفوظًا في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضًا، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررًا من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرّضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسّن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض)(2)

وتحدث عن معجزة الأمية في رسول الله ﷺ، فقال: (يبدو أن أحدًا لم يعن بتعليم محمد القراءة والكتابة.. ولم يعرف عنه أنه كتب شيئًا بنفسه.. ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفًا قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا)(3)

وتحدث عن معجزة القيادة، فقال: (كان النبي من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسيًا محنكًا، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم)(4)

---

1) ول ديورانت W. Durant مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلدًا، واحدًا من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام 1935، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة).

2) قصة الحضارة: 13 / 68 – 69.

3) قصة الحضارة: 13 / 21 – 22.

4) قصة الحضارة: 13 / 38.

وتحدث عن المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، والتي لم يدانيه في تحقيقها أحد من البشر، فقال: (إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانًا غيره حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه.. وكانت بلاد العربي لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلاً واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا وقوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم)(1)

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ بالمستضعفين، فقال: (لسنا نجد في التاريخ كله مصلحًا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء)(2)

وتحدث عن اهتمام النبي ﷺ بالعلم، فقال: (تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين)(3)

وتحدث عن قدرة العقيدة الإسلامية على توحيد الأمم المتباينة، فقال: (تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعبًا واحدًا، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام)(4)

وتحدث عن الأخلاق الإسلامية، وتميزها، فقال: (إن الذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية.. وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام)(5)

---

1) قصة الحضارة: 13 / 47.

2) قصة الحضارة: 13 / 59.

3) قصة الحضارة: 13 / 167.

4) قصة الحضارة: 13 / 66.

وقال: (كانت مبادئ المسلمين الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم، قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)(1)

وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة البشرية، فقال: (أُحِلّ للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها. ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة، ولتصحّ به أجسامهم من جهة أخرى)(2)

وتحدث عن المعاني النبيلة التي ينتظمها الحج، فقال: (لفريضة الحج العظيمة أغراض وفوائد كثيرة. فهي تقوي إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين.. فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقى والورع يجمع أبناء الشعوب الإسلامية كافة، يرتدون كلهم ثيابًا بسيطة واحدة، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام)(3)

واشنجتون ايرفنج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (واشنجتون ايرفنج) (4)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا مستشرق أمريكي، له آثار ترتبط بالإسلام والحضارة الإسلامية، وله فيها شهادات صدق يستحق عليها كل التقدير.

فقد تحدث عن شمولية القرآن وهيمنته على سائر الكتب المقدسة، فقال: (كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلَّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية)(5)

---

5) قصة الحضارة: 13 / 67 – 68.

1) قصة الحضارة: 13 / 116.

2) قصة الحضارة: 13 / 123.

3) قصة الحضارة: 13 / 127 – 128.

4) مستشرق أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (1849)، و(فتح غرناطة) (1859)، وغيرها.

5)حياة محمد، ص 72.

وتحدث عن القيم النبيلة التي جاء بها القرآن، فقال: (يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية)(1)

وتحدث عن رسول الله ﷺ.. بل اعتبره خاتم النبيين، فقال: (كـان محمـد خـاتم النبـيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعوا الناس إلى عبادة الله)(2)

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ ودلالتهـا على صـدق نبوتـه، فقـال: (كـانت تصـرفات الرسول في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبـدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قـوي. ولكنـه تـوّج نجاحـه وانتصـاره بالرحمة والعفو)(3)

وتحدث عن الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ في سبيل دعوتـه، وهـو من أعظم دلائل الصدق، فقال: (لقي الرسول من أجـل نشـر الإسـلام كثـيرًا من العنـاء، وبـذل عـدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينـال نجاحًـا كبـيرًا، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلى عن كل متع الحياة وعن السـعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة)(4)

وتحـدث عن خصـال رسـول اللـه ﷺ، والـتي تحيـل أن يكـون مـدعيا، فقـال: (بـرغم انتصارات الرسول العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غـروره، فقـد كـان يحـارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجـده حافـظ الرسـول على بساطته وتواضعه، فكان يكـره إذا دخـل حجـرة على جماعـة أن يقومـوا لـه أو يبـالغوا في الترحيب به وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل، ولم يفكر أن يجعل الحكم فيها وراثيًا لأسرته)(5)

وقال: (كان الرسول ينفق ما يحصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنـائم في سـبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيرًا مـا كـان ينفـق في سـبيل ذلـك آخـر درهم في بيت المال.. وهو لم يخلف وراءه دينارًا أو درهمًا أو رقيقًـا.. وقـد خـيره اللـه بين

1) حياة محمد، ص 304.
2) حياة محمد، ص 72.
3) حياة محمد، ص 72.
4) حياة محمد، ص 300.
5) حياة محمد، ص 302 – 303.

مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة)[1]

وتحدث عن صفاء التوحيد في الإسلام، فقال: (ينهى الإسلام عن الوثنية تمامًا في جميع صورها. فقد نهى الإسلام عن جميع الطقوس الدينية في الجاهلية التي تتعلق بالوثنية، ودعا إلى توحيد الله، ولكنه احتفظ من بين هذه الطقوس بما هو بعيد عن الوثنية، مثل الحج إلى مكة والطواف بالكعبة)[2]

وتحدث عن بعض أسرار انتشار الإسلام، فقال: (عند قدوم محمد إلى المدينة اعتنق بعض أهلها من المسيحيين الإسلام. فقد وجدوا تشابهًا بين التعاليم الإنسانية في كل من الإسلام والمسيحية، ولم يلمسوا أي تعارض بين الدينين، وبخاصة أن الإسلام يضع المسيح في مقدمة الأنبياء.. أما باقي المسيحيين فلم يُبدوا أي عداء للإسلام فقد اعتبروه أفضل بكثير من الوثنية. ولا شك أن الخلافات العديدة التي كانت قد نشبت بين الطوائف المسيحية في الشرق قد مهدت الطريق أمام المسيحيين ليعتنقوا الإسلام)[3]

سكت الغريب، فقلت: إن هذه شهادات مسلم.. لا مجرد شهادات صديق.

قال: صدقت.. فقد يسلم المرء من غير أن يشعر.. ولو أنه وجد من يأخذ بيده لكان اسمه غير اسمه.. ولكنت ذكرته في غير هذا الفصل.

لوثروب ستودارد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (لوثروب ستودارد) [4]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل ممتلئ صدقا، وقد تحدث بشهادات كثيرة كانت محل احترام جميع الصادقين، وسأذكر لك من شهاداته ما ينبئك عن فهمه العميق للإسلام، وحبه العظيم له.

لقد اعتبر الإسلام من أعجب حوادث التاريخ، فقال: (كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان. ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منمطة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر

---

1) حياة محمد، ص 303.

2) حياة محمد، ص 75.

3) حياة محمد، ص 133 – 134.

4) لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard مؤلف أمريكي يتميز بسعة اطلاعه على معطيات العالم الإسلامي الحديث. ويعد كتابه: (حاضر العالم الإسلامي) من أهم المؤلفات الحديثة التي عالجت قضايا هذا العالم ومجريات أحداثه عبر النصف الأول من هذا القرن. وقد زادته قيمة علمية، التعليقات والإضافات الخصبة التي ألحقها الأمير شكيب أرسلان بطبعته العربية.

في نصف الأرض ممزقًا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهادمًا أديانًـا قديمـة كـرت عليها الحقب والأجيال، ومغيرًا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيًا عالمًا حديثًا متراص الأركان، هو عالم الإسلام)(1)

وتحدث عن انتشار الإسلام من غير دعم أي سلطة غير سلطة الحق الذي يحمله، قال: (كلما زدنا استقصاء باحثين في سرّ تقدم الإسلام وتعاليمه، زادنا ذلك العجب العجـاب بهـرًا فارتددنا عنه بأطراف حاسرة عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشـأت تسـير في سبيلها سيرًا بطيئًا ملاقية كل صعب، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده لـه من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه حتى رسـخت أركانه.. إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية تجوب فيافيها شـتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعـة المكانـة والمنزلـة في التـاريخ، فلسـرعان مـا شـرع يتـدفق وينتشـر وتتسـع رقعتـه في جهـات الأرض مجتـازًا أفـدح الخطـوب وأصـعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عـون يـذكر ولا أزر مشـدود. وعلى شـدة هـذه المكاره فقد نصر الإسلام نصرًا مبينًا عجيبًا، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قـرنين، حتى باتت راية الإسلام خفاقة من (البرانس) حتى (هملايا) ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط أفريقيا)(2)

وتحدث عن الوحدة الإسلامية التي عمقهـا الإسـلام في نفـوس المسـلمين، فلم تزدهـا الأيام إلا قوة، قال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومهـا العـام إنمـا هي الشـعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها في جميع المؤمـنين في المعمـور الإسـلامي. وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة أي منذ شرع الرسول يجاهـد فـالتف حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعصبة الإسلام لقتال المشركين. وقد أدرك محمد خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الإدراك، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن.. فغـرس غرسـتها بيديـه في نفوسـهم، فنمت وتغلغلت وامتـدت جـذورها وبسـقت أغصانها.. فقد كرّ عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القـرون من الجامعـة الإسلامية جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهـد ازدادت شـدة وقـوة ومنعـة واعـتزازًا. حقًـا أن الجامعـة اليـوم بين المسـلم والمسـلم لأقـوى منهـا بين النصـراني والنصراني.. ومن أحب أن يقف حق الوقـوف على مـا أراده الإسـلام من غـرض الجامعـة وغايتها فلينظر إلى حـال المسـلمين اليـوم وإلى تيـار هـذا التعـاطف والتشـاكي يعلم سـرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقـع ليس من دين في الـدنيا جـامع لأبنائـه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروقها كدين

1) حاضر العالم الإسلامي: 1 / 1.

2) حاضر العالم الإسلامي:1 / 1 – 2.

الإسلام)(1)

وتحدث عن الأخوة العميقة التي ربط الإسلام بها بين شعوب مختلفة، فقال: (ليست الولادة في البلاد ولا التجنّس على الأصول الرسمية شرطًا لمن يريد أن يكون فردًا من أفراد الأمة الإسلامية في قطر من الأقطار، متمتعًا حق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية. فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للحال أي وقتًا شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمنزلة بين ظهراني القوم. فالعبارة (مصر للمصريين) مثلاً لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي نتصوره نحن في الجاري المعتاد. فإذا ما أقام مسلم جزائري أو دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره (مصريًا وطنيًا حرًا) بصحيح معنى العبارة. والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين والوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية. فجميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين (بدور الإسلام) وضدها (دار الحرب) وهي المواطن التي يقطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة، الذبّ عن سياجها والذود عن حياضها، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفًا من العالم الإسلامي، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد، على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك، كأنما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء)(2)

وقال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي.. لقد كر أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت الجامعة شدة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني. ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديدًا، بيد أن هذا ليس له من الشأن أكثر مما ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة المشتبكة الأرحام، إذ لا حقد في الإسلام، فعند الشدائد تذهب الأحقاد بين المسلمين، فيعملوا على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جموعًا متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم وردّ الخطر الداهم. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكي كي يعلم سرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع

---

1) حاضر العالم الإسلامي:1 / 287 – 288.

2) حاضر العالم الإسلامي:4 / 122.

بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروقها كدين الإسلام)(1)

وقال: (أي شيء أدل على هياج الإسلام وغليان مراجل عقده من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليونًا من المسلمين في الهند احتجاجًا على تجزئة الدولة العثمانية، والأمر الأخطر أن هذا الثوران الإسلامي ليس مقصورًا على الهند فحسب، بل إنه شامل المعمور الإسلامي)(2)

وقال: (لا يغرب عن البال أن الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التي تجمع بين المسلم والمسلم ما انفكت تزيد في تواثق المسلمين وتآلفهم، وتعاطفهم وتضامنهم، كأنهم في المعمور الإسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر. دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم)(3)

قلت: إن كلمات هذا الرجل تكاد تسلم.

قال: بل إنها أسلمت.. فهذه الكلمات لا يقولها إلا مسلم معتز بإسلامه.

سدني فيشر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (سدني فيشر) (4)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين له شهادات صادقة:

منها شهادته حول تأثير القرآن الكريم في النفوس والأسماع، قال: (إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتمادًا على أثره البليغ في قلوب قرّائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع)(5)

ومنها شهادته عن القيم التي جاء بها القرآن الكريم، قال: (إن القرآن كتاب تربية وتثقيف، وليس كل ما فيه كلامًا عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يحث عليها

---

1) حاضر العالم الإسلامي، 1 / 287 – 288.

2) حاضر العالم الإسلامي، 1 / 324.

3) حاضر العالم الإسلامي، 1 / 327.

4) الدكتور سدني فيشر: أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شؤون البلاد الشرقية التي يدين الأكثرون من أبنائها بالإسلام. مؤلف كتاب (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي) والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

5) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54.

المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره)(1)

وتحدث عن الجمال والمصداقية التي تتسم بها العقيدة الإسلامية، فقال: (إن الوحدانية المنزهة هي أجل مطالب الإيمان عند النبي ويوصف الإله مع الوحدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران.. إن توكيد صفات البأس والجبروت في كتاب الإسلام إنما تقدم في أوائل الدعوة التي واجه بها النبي جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكي المتغطرس المستطيل بالجاه والعزة، ولكن المسلم يعلم من صفات الله أنه واسع الرحمة، وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وأنه هو نور السماوات والأرض، وهي الصفة.. التي كان لها أبعد الأثر في اجتذاب العقول إلى معانيه الخفية)(2)

ومنها شهادته عن الثمرات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، قال: (إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع في شؤون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية، لم يكن في وسع أحد إلا أن يحب محمدًا نبيًا مفلحًا جدًا ومصلحًا موفقًا لأنه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلئ فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة والفحشاء، ويعامل فيها الأرامل واليتامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع. فإذا بمحمد وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية إلى الله وإلى سبل الخلاص، وغيّر مقاييس الأخلاق والآداب في أرجاء البلاد العربية)(3)

قلت: إن شهادات هذا الرجل لا تقل عن الشهادة التي ينطق بها من أسلم.

قال: صدقت.. فمثل هذه الشهادات لا يمكن إلا أن تصدر من لحظة من لحظات الإيمان الصادق.

مايكل هارث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (مايكل هارث)(4)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا كاتب منصف أراد أن يصنف الأبطال، فوجد محمدا على رأسهم، وقد ذكر سر هذا التصنيف، فقال: (إن اختياري لمحمد ليكون رأس القائمة التي

1) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54.

2) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54.

3) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 54 – 55.

4) الدكتور مايكل هارث: أمريكي، حصل على عدة شهادات في العلوم وعلى الدكتوراه في الفلك من جامعة برنستون، عام 1972، عمل في مراكز الأبحاث والمراصد، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية.

تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء،.. ولكن في اعتقادي أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي)(1)

وقال: (لقد أسس محمد ونشر أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام. ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قويًا وعارمًا)(2)

وقال: (من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمدًا كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح)(3)

وقال: (إن محمدًا يختلف عن المسيح بأنه كان زعيمًا دنيويًا فضلاً عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدًا يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال)(4)

وقال: (إن هذا الاتحاد الفريد لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معًا يخول محمدًا أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية)(5)

د. ميلر بروز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (د. ميلر بروز) (6)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم ابتداء من مصادره الأصلية.

ومن شهاداته المرتبطة بهذا ذكره لتوجيه القرآن للاهتمام بالعلوم المختلفة، قال: (إنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، (هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (يونس: 5) وكثيرًا ما يشير

1) دراسة في المائة الأوائل، ص 19.

2) دراسة في المائة الأوائل، ص 19.

3) دراسة في المائة الأوائل، ص 23.

4) دراسة في المائة الأوائل، ص 24.

5) دراسة في المائة الأوائل، ص 25.

6) د. ميلر بروز، هو رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه وأستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة (ييل). وعمل أستاذًا بجامعة براون، وأستاذًا زائرًا بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومديرًا للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس.

القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (الزخرف: 13) ويذكر القرآن – لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب – ولكن يذكر السفن أيضًا.. فإذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا أكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة؟)[1]

ومنها استنتاجه من القرآن الكريم ما يحمله العلم من نواحي النفع والضرر، قال: (إن أعظم نتائج العلم يمكن أن تستخدم في أغراض هدمية أو بنائية. وربما كان هذا هو المقصود بما ورد في القرآن خاصًا باستخدام الحديد:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: 25) وأظهر مثال من هذه الآية بالضرورة هو استخدام النشاط الذري – الذي نشطت بحوثه – لضرورة حربية)[2]

ومنها حديثه عن سبق المسلمين لأسس العلم الحديث، وحوارهم مع غيرهم من أهل الأديان، قال: (في العصر الذهبي للثقافة الإسلامية، حينما كان علماء المسلمين يفهمون أسس العلم الحديث، كان المفكرون من المسلمين والمسيحيين يبحثون معًا معضلاتهم الفلسفية واللاهوتية المشتركة، ويفيد بعضهم من بعض كثيرًا من ضروب المعرفة)[3]

ومنها حديثه عن اهتمام المسلمين بالطب، وخدمتهم له: (هل يستطيع العلم حقيقة أن يخدم أغراض الدين؟ صحيح أن العلم قد قام بنصيب كبير في إسعاد الإنسان، ويظهر هذا أكثر ما يظهر في ذلك العلم الذي خدمه علماء الإسلام خدمة ظاهرة، وهو علم الطب)[4]

فرانز روزنثال:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (فرانز روزنثال)[5]، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالمآثر الحضارية الإسلامية، وخاصة ما ارتبط منها بالتاريخ.

---

1) الثقافة الإسلامية، ص 51.

2) الثقافة الإسلامية، ص 54.

3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 42.

4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 51.

5) فرانز روزنثال من أساتذة جامعة ييل، من آثاره: العديد من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة مثل (الثقافة الإسلامية)، (الشرقيات)، (صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية). كما ألف عددًا من الكتب من أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، و(علم التاريخ عند المسلمين).

فقد أرجع اهتمام المسلمين بالتاريخ إلى توفر المادة التاريخية في القرآن، قال: (من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة[1]، وقد ذكر الرسول أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن.. لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول.. وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي لأن الأحداث التي أشارت إليه الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية)[2]

ومثل ذلك ما ورد في الأحاديث النبوية، فهي أيضا من دوافع الاهتمام بالتاريخ لدى المسلمين، قال: (إن أفكار الرسول التي تلقاها وحيًا أو التي أدى إليها اجتهاده نشّطت دراسة التاريخ نشاطًا لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضي وحوادث كافة شعوب الأرض أمورًا ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول كانت خطًا فاصلاً واضحًا في كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامي هذا الخط قط)[3]

بل هو ينسب تأسيس الاهتمام بالتاريخ للرسول ﷺ، فيقول: (تبقى حقيقة، هي أن الرسول نفسه وضع البذور التي نجني منها اهتمامًا واسعًا بالتاريخ.. لقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم في تقديم نمو التاريخ الإسلامي في المستقبل، رغم أن الرسول لم يتنبأ بالنمو الهائل للمعرفة والعلم الذي سيتم باسم دينه)[4]

وتحدث عن وضوح الإسلام مقارنة باليهودية والنصرانية، قال: (عندما ظهر الرسول كانت اليهودية والنصرانية منتشرين في الجزيرة ولهما آراء متشابهة في التفسير التاريخي للحياة الإنسانية غير أن الدين الإسلامي الذي بشر به الرسول كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جدًا ومن غير تعسّف. والواقع أن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جمودًا من ناحية العقيدة، ومن مفاهيم اليهود والنصارى الدينية)[5]

---

1) انظر في هذا: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (ربانية) من هذه السلسلة.

2) علم التاريخ عند المسلمين، ص 41 – 42.

3) علم التاريخ عند المسلمين، ص 40.

4) علم التاريخ عند المسلمين، ص 45.

5) علم التاريخ عند المسلمين، ص 39.

أصدقاء من ألمانيا

قلبت بعض الصفحات، فرأيت عنوان (أصدقاء من ألمانيا)، فقلت: هذه بلدك ومسقط رأسك، وهي بلد الفلاسفة والعلوم.. وبلد القوة والبطش.. ألنا فيها أصدقاء؟

قال: أجل.. فيها أصدقاء كثيرون.. وإخوان كثيرون.. وفيها إلى جانبهم كثير من الذين ينتظرون عناوينكم ليبادلوكم الصداقة.

قلت: مرحبا بكل صديق..

قال: رحبوا بأفعالكم، لا بأقوالكم.. فقومي يؤمنون بالقوة ويدينون لها.

قلت: قوة السلاح.

قال: لا.. فتلك أضعف القوى.

قلت: فما القوة التي نحتاجها؟

قال: قوة الإيمان والصدق والإخلاص.. وقوة الحضارة والرقي.. وقوة السلوك والترفع.

قلت: هذه قوى عظيمة؟

قال: لن تنتصروا إلا بها.

زيغريد هونكه:

كان من أول الأسماء التي رأيتها في هذا المحل (زيغريد هونكه)[1]، فقلت: هذه هي المرأة التي حدثني بعضهم حديثها[2].

قال: أجل.. وهي صديقةطيبة، وأخت فاضلة..

قلت: أخت في الدين !؟

---

1) دكتورة زيغريد هونكه مستشرقة ألمانية معاصرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمق في دراسة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. وقد قضت هونكه مع زوجها عامين اثنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسلامية (1995)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة.

2) أجريبا الحوار الافتراضي معها في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (علوم)

قال: يمكنك أن تقول ذلك (3).. وشهاداتها لا تنطق إلا بذلك.

قلت: فحدثني أحاديثها.. فما أعذب أحاديثها.

قال: إن معظم شهاداتها ترتبط بالثمرات العظيمة التي حققتها النبوة.. فهي من قوم يزنون النجاح والفشل بالمنجزات.

ومن ذلك مقارنتها بين دعوة الإسلام للعلم واهتمامه به، بالمسيحية التي احتقرت العلم، قالت: (لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. وكان يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان.. ويلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر. وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول مقرًا: (ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟ مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حدّدا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها)(2)

وقالت: (لم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب، بل كانت منبرًا للعلوم والمعارف، كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التديّن الأعمى. ألم يقل أقوالاً، كان يكفي لأن يقولها في روما حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة؟ أو ليس هو القائل بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد؟)(3)

وتحدثت عن الثراء الفكري للإسلام، والذي حصل بسبب مناقشته للأديان الأخرى، فالإسلام لم يستفد من مناظرته لمخالفيه إلا قوة، قالت: (لم تلبث الديانة الإسلامية الفتية السائرة في طريقها بعزم وثبات، أن اصطدمت بالديانات الأخرى في كل مكان. فهنا يقف رجال المذاهب المسيحية وجهًا لوجه أمام رجال المذاهب الإسلامية على أتم استعداد للمجادلة، وهنا تقسم هذه المجادلات واختلاف وجهات النظر المسلمين أنفهسم إلى مدارس ومذاهب، وكان من الممكن أن يؤدي هذا إلى نهاية النهضة العربية الإسلامية وهي في مهدها. ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك تمامًا، فإن إكراه الإسلام للفتى على أن يجرب قواه الفكرية مع ديانات وفلسفات أخرى في محاجات فكرية وفلسفية قد أفاده

---

3) ذكرنا في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) أن هناك من أخبر عن إسلامها.

2) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 369.

3) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 396.

أكبر إفادة وأكسبه خبرة ومرانًا)(1)

وتحدثت بإعجاب عن صفاء التوحيد في الإسلام، وخلو العبودية فيه من الاستعباد للوسائط، قالت: (الإسلام لا يعرف وسيطًا بين العبد والرب.. ولم يكن لديه طبقة من الكهنة.. وعلى العموم فإن مجال حرية الرأي كان أوسع مما هو عليه الحال في الديانات الأخرى)(2)

وقارنت في هذا المجال بين المسجد والكنيسة، فقالت: (لم يكن المسجد تقليدًا للكنيسة بالمرة، حتى ولو ارتفعت سقوفه فوق عمد، كانت يومًا ما، تحمل سقف كنيسة. فمفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مفهوم المسيحيين للكنيسة. فليس المسجد بيت الله المقدس الذي يتقرب فيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن. فمن قبيل التبرك، أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفيًا، وليس معنويًا، إلى مملكة السماء التي يحكمها المسيح وإلى البيت المقدس الذي هبط من السماء إلى الأرض. وظلت الكنيسة تحمل هذا المعنى على مر العصور.. أما المسجد فقد تحرر من تلك الأفكار، وكان هدفه بسيطًا واقعيًا. فالعالم كله مسجد كبير بني لله.. ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد. وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربّه، فكل إنسان في نظره عبد لله قادر على أن يؤم المصلين في المسجد.. فالجامع هو الذي يجمع المسلمين. وهو ليس بالمكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقدسيته، كالكنيسة، على بقية منازل الناس ومساكنهم. ولهذا لم يهتمّ المسلمون كثيرًا بمظهر المساجد الخارجي. والصلاة للجميع على قدم المساواة فيقف العالم بجوار السقاء وقائد الجيش بجوار الجندي، والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين.. فالكل سواسية كأسنان المشط. وقد كان هذا الأساس الديمقراطي للإسلام هو الذي جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيدًا من الأروقة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات.. والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعيًا أو حسيًا فهو بيت الله، والله واحد لا شريك له ولم يكن له كفوًا أحد)(3)

إلس ليختنستادتر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (إلس ليختنستادتر) (4)،

1) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 372، وهذا ما يدعو إلى الاستفادة من تراث المسلمين جميعا بمدارسهم جميعا، فلا يمكن أن يمثل الإسلام في وظيفته الدعوية مدرسة واحدة، فالعقول المختلفة تستدعي تنوعا في الطرح.

2) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 373.

3) شمس العرب تسطع على الغرب، ص 477 – 479.

4) الدكتورة إلس ليختنستادتر: سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعنيت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد

فسألت الغريب عنه، فقال: هذه امرأة فاضلة رأيت في كلماتها نفحة من نفحـات الصـدق، فسجلتها.

لقد تحدثت عن عقيدة المسلمين في القـرآن الكـريم، فقـالت: (إن المسـلم العصـري يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له، بل يـوجب عليـه، أن يعـالج مشـكلات عصـره بمـا يوافـق الدين ولا يضيع المصـلحة أو يصـد عن المعرفـة كمـا انتهت إليهـا علـوم زمنـه.. وإن مزيـة القرآن – في عقيدة المسـلم – أنـه متمم للكتب السـماوية ويوافقهـا في أصـول الإيمـان، ولكنه يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهـدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل ما يراد به الدوام، ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان)(1)

وتحدثت عن دور القرآن في إشاعة القيم الفاضلة، فقالت: (إنـه من الضـروري لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي أن ندرك صـدق المسـلم حين يؤكـد أن القرآن يمكن أن يظـل أساسًـا لإدراك الحكم المعقـدة الـتي تعـالج مشـكلات المجتمـع الحديث. فإن النـبي يـرى أن القـرآن هـو حلقـة الاتصـال بين الإلـه في كمالـه الإلهي وبين خليقته التي يتجلى فيهـا بفيوضـه الربانيـة وآيتهـا الكـبرى الإنسـان. وإن واجب الإنسـان أن يعمل بمشيئة الله للتنسيق بين العالم الإلهي وبين عالم الخلق والشهادة، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسـانية تتحـرى أعمـق الأوامـر الإلهيـة وألزمهـا وهي أوامـر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان. وتلك هي الوسـائل الـتي يضـعها اللـه في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره)(2)

آدم متز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسـم (آدم مـتز) (3)، فسـألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل فاضـل من أهـل بلـدنا، ولـه شـهادات طيبـة ترتبـط بالجـانب الحضاري والأخلاقي في الإسلام رد بها على التشويه الذي يثيره بعض قومنا.

ومن ذلك شهادته بتكريم الإسلام للرقيق، قال: (جرت العادة منذ العصر الأول للإسـلام

والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

1) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 19.

2) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 19.

3) آدم متز (1869-1917) A. Metz تخـرج من جامعـات ألمانيـا، وعين أسـتاذًا للغـات السـامية، في جامعـة بـازل بسويسرا، وقد تخصص بالأدب العربي في العصر العباسي. من آثاره: (أبو القاسـم وتقاليـد بغـداد في عصـره) (1902)، (نهضة الإسلام في القرن الرابع الهجري) (1922)، وقد ترجم إلى العربية بعنوان: (الحضارة الإسلامية في القـرن الرابـع الهجري).

بأن لا يسمى العبيد عبيدًا، بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة؛ وقد نسب هذا – كما نسب كثير غيره إلى أمر النبي. وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده، ويروى عن النبي أنه قال: (شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده)، وهذا الشعور نبيل عبر عنه أبو الليث السمرقندي (المتوفى سنة 387هـ-997م) بروايته هذا الحديث. وفي القرن الرابع الهجري اتخذ بعضهم من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات:10) نقدًا يوجهونه لمن يضرب عبده)(1)

وقال: (كان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال، وقد كان للعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده.. وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم)(2)

وتحدث عن الحرية التي كانت تسود الأقطار الإسلامية إبان الحكم الإسلامي، فقال: (كان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود المملكة (الإسلامية) في ظل دينه وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلون كما يصلي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفًا واحدًا، وعادات واحدة. وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث يكون آمنًا على حريته الشخصية أن يمسّها أحد، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقّه على أي صورة من الصور. وقد طوّف (الرحالة المعروف) ناصر خسرو في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون أن يلاقي من المضايقات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان ينتقل في ألمانيا في القرن الثامن عشر للميلاد)(3)

د. ج. كامبفماير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (د. ج. كامبفماير) (4)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل عاقل من أهل بلدنا عرف قوة المسلمين وسلامهم، فلذلك خاطب فراعنة قومنا بما خاطب به مؤمن آل فرعون فرعون وزبانيته، فقال:

---

1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 1 / 288 – 289.

2) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 1 /ـ 290، وسنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

3) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 1 / 4.

4) د. ج. كامبفماير (1864 – 1936) تخرج باللغات الشرقية في ليبزغ، وتخصص في الإسلام الحديث والعربية المعاصرة من معهد اللغات الشرقية ببرلين (1907)، ورأس تحرير مجلة (عالم الإسلام) التي نشر فيها دراسات عن المؤلفات الحديثة في الآداب المعاصرة. من آثاره: (النصوص والأعمال في تاريخ الأمة العربية الحديثة) (1924)، (دراسات في الأدب العربي المعاصر) (1925-1926) و(شعراء العرب في العصر الحاضر).. إلخ.

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (غافر:28)

أما هذا الرجل الفاضل، فقال: (إن الاعتداء على الإسلام لا ترجى منه فائـدة.. ولن يـرد المسلمين عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقوّيها)(1)

وقال: (إن في الشـرق العـربي الأدنى على وجـه التأكيـد نهضـة إسـلامية قويـة خلقيـة ودينية واجتماعية، ستكون أساس الحيـاة القوميـة الجديـدة، وإذا عرفنـا هـذا تجلت حقيقـة مهمة هي أن تنصير المسلمين مستحيل الآن.. فهل سيعارض المبشرون في جعل الدين – ولـو كـان الإسـلام – أساسًـا للحيـاة القوميـة الصـحيحة؟ وإذا كـان تنصـير المسـلمين في الظروف الحاضرة مستحيلاً فلم يبـق أمـام هـذه الشـعوب الإسـلامية إلا أحـد أمـرين: إمـا النهضة الإسلامية وإما المادية والفساد الخلقي.. فأيّهما خير للشعوب الإسلامية؟)(2)

وتحدث عن بعض أسباب الوحدة الإسلامية التي تجعلها جدارا حصينا ضد كل محـاولات الاختراق، فقال: (إن العربية، وهي لسان الإسلام غير مدافع، تدرس وتعرف حـق المعرفـة في العالم الإسلامي كلـه من المحيـط الأطلسـي إلى الهنـد وجـاوة وبـذلك تسـهل انتشـار الحركات الروحية انتشارًا يتجاوز بكثـير حـدود البلاد الـتي تنشـأ فيهـا ويعين على انتشـارها عوامل أخرى أكبرهـا الصـحافة العربيـة.. ويلعب الحج دوره أيضًـا في المـزج الـروحي بين مختلف شعوب الإسلام، وأن تجاور البلاد في الشرق الأدنى الناطق بالضاد، وبوجه أدق في المساحة التي تشغلها مصـر وجزيـرة العـرب والعـراق وسـوريا وفلسـطين ورقي وسـائل المواصلات إلى جانب الصحافة تعمل بوجه خاص على إنماء العواطف والأمـاني الإسـلامية العامة)(3)

وتنبأ بنهضة الإسلام، فقال: (أستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولا سيّما مركزها العظيم الذي يتكون من الكتلة المتماسكة التي قوامهـا مصـر وجزيـرة العـرب وفلسـطين وسوريا والعراق ستلعب دورًا غاية في الأهمية وربما كان دورًا حاسمًا.. ونهضة الإسلام في هذه البلاد أمر واقع لا سبيل إلى ردّه، ولن يحدث في البلاد العربية شـيء يشـبه مـا حـدث في تركيا فلن يقطع العرب الصلة بتاريخهم الإسـلامي والأدبي المجيـد، بـل إن ذكـرى هـذا الماضي من عوامل النهضة الوطنية والدينية ولن تسـتبدل هـذه الشـعوب الكتابـة اللاتينيـة بالكتابـة العربيـة.. ولن ينبـذوا هـذه الوسـيلة المدهشـة الـتي تمكنهم من الاتصـال بالعـالم الإسلامي كله، ولن يقـوى أحـد على إيقـاف حركـة النهضـة الإسـلامية في هـذه البلاد لأنهـا

1) وجهة الإسلام، ص 103.

2) وجهة الإسلام، ص 102.

3) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص 69.

الأساس الذي يحتاج إليه الناس لتقوم عليه نهضتهم الوطنية.. وستصير كل من القاهرة والقدس بالتدريج مركزًا عظيمًا للحياة الإسلامية بعد مكة وسيفد طلبة العلم (كما حدث فعلاً) من البلاد الناطقة بالضاد في المغرب شطر مصر وفلسطين.. ثم سيعودون إلى بلادهم ليزيدوا نهضة الشرق شيئًا فشيئًا وسيحدث مثل هذا الأثر في الأصقاع الأخرى من العالم الإسلامي.. ولن يقوى الانحلال السياسي على تغيير شيء من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة)(1)

رودي بارت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (رودي بارت) (2)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد أنطق الله هذا الرجل بشهادات صدق، كان منها شهادته عن موقف بعض ممثلي حركة التنوير من رسول الله ﷺ، قال: (كان من بين ممثلي حركة التنوير من رأوا في النبي العربي أدلة الله، ومشرعًا حكيمًا، ورسولاً للفضيلة، وناطقًا بكلمة الدين الطبيعي الفطري، مبشرًا به)(3)

وتحدث عن بعض ثمار النبوة، فقال: (كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيثون فيها فسادًا. حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس)(4)

وقال: (إن العالم الواسع المترامي الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالإسلام إلى عامل من عوامل القوة السياسية، ويصبحوا بذلك ذوي أهمية إن صح هذا التعبير)(5)

وتحدث عن شمولية الإسلام، فقال: (إن الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع الذي يشمل تنظيم الشعائر كذلك، هي المضمون الحقيقي للروح الإسلامية الأصيلة، وهي التعبير

---

1) وجهة الإسلام، ص 99.

2)رودي بارت: عالم ألماني معاصر، ولد عام 1901، درس في جامعة توبنجن اللغات السامية والتركية والفارسية في الفترة من 1920 حتى 1924وتخرج على يد المستشرق الألماني ليتمان.امضى سنتين في القاهرة (1925-1926)، كان اهتمامه في البداية بالأدب الشعبي ولكنه تحول إلى الاهتمام باللغة العربية والدراسات الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم.

تولى العديد من المناصب العلمية منها مدرّس في جامعة توبنجن وأستاذاً بجامعة هايدلبرج ثم عاد إلى توبنجن أستاذاً للغة العربية والإسلاميات من عام 1951-1968.ومن أهم مؤلفاته (محمد والقرآن) وترجم معاني القرآن الكريم إلى الألمانية وله كتاب عن القرآن بعنوان(القرآن تعليق وفهرست)

3) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 15.

4) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 20.

5) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 20.

الحاسم عن التفكير الإسلامي، إنها النواة الجوهرية للإسلام على الإطلاق)(1)

ج. ك. بيرغ:

من الأسـماء الـتي رأيتهـا في دفـتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (ج. ك. بـيرغ) (2)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل فاضـل من قومنـا أراه اللـه بعض محاسـن الإسـلام، فراح يبشر بها.

فقد تحدث عما يختزنه النظام الإسلامية من حرية وعدالة ومساواة، فقال: (لا حاجة بنا إلى الإطنـاب في بيـان الممـيزات الخاصـة بالإسـلام ولا في بيـان اختلافـه العظيم عن الهندوكية.. إن نظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثـر لـه في الإسـلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوته على الدوام من حبّ الجماهير له حبًـا حماسـيًا. إن الإسـلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانًا وأن معتنقيه ليفخرون به.. وليس هنـاك كـاهن يشرف على الحياة الدينية. وإن إجماع المسلمين على اختلاف الرأي رحمـة من اللـه، هـذا الإجماع الذي يستلفت النظر بلينه وتسامحه ويـبرهن لنـا برهانًـا جـديرًا بالـذكر على حاجـة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجـود سـلطة معينـة تـرغم النـاس على رأيها)(3)

وتحدث عن أثر الحج في وحدة المسلمين، فقال: (إن الحج المفروض على كل مسـلم أن يقوم به مرة في حياتـه إن اسـتطاع إليـه سـبيلا.. وأثـر اللغـة العربيـة في العمـل على الوحدة، وتشابه طرق التعليم في كـل العـالم الإسـلامي، كـل هـذه العوامـل جعلت فكـرة الوحدة الإسلامية باقيةً في المكان الأول، حتى بعـد أن تم تمـزق إمبراطوريـة الخلفـاء إلى ولايات مختلفة)(4)

وتحدث عن الأثر العظيم الذي قام به الإسلام في التـأليف بين الأمم المختلفـة، فقـال: (إن النزعة التي تصبغ كل شيء بصبغة الدين والـتي امتـاز بهـا الإسـلام منـذ أيامـه الأولى، جعلته مدة تزيد على اثني عشر قرنًا دينًا متمكنًا في إمبراطوريـات انمحت فيهـا القوميـات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها.. لقد حاز الإسلام فضـلاً لا سـبيل لإنكـاره بأنـه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الأمم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسـلم ممن يتبـع

---

1) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 49، والعبارة المذكورة وردت في مقدمة كتاب جوتتهلف برحبشتر (المميزات الأساسية للشريعة الإسلامية)، (برلين، 1935م).

2) ج. ك. بيرغ: عمل أستاذًا في جامعة ليدن، وانصب اهتمامه على تاريخ الصـوفية في الإسـلام، وكتب أبحاثًـا عديـدة عن جلال الدين الرومي وغيره.

3) وجهة الإسلام (بإشراف كب). ص 160 – 161.

4) وجهة الإسلام، ص 161.

ديناً آخر ويعتنق فكرة أخرى في الحياة)(1)

كويلر يونغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (كويلر يونغ) (2)، فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل صادق من قومنا.. وقد أنطقه الله بشهادات تمتلئ صدقا.. سأورد لك بعضها:

فمنها حديثه عن أثر الإسلام في تقدم المجتمعات البشرية، قال: (إن الإسلام قد أسهم بصفة فعالة في تقدم الجماعة الإنسانية، وقد استبدل بالنظام القبلي الذي ورثه – والذي يقوم على رابطة الدم – نظام الجماعة المشتركة في العقيدة والتي يقوم ترابطها الاجتماعي على أساس من الأخوة والمساواة)(3)

وتحدث عن ربانية الشريعة الإسلامية، فقال: (إن النظرية القانونية الإسلامية وما جرى عليه العمل في صدر الإسلام يستمد قاعدة الوحدة والنظام من الله لا من (المدينة) ولا من الدولة والمسلم إلى اليوم يحسّ إحساسًا واضحًا بحكم الله في الحياة اليومية)(4)

وتحدث عن صفاء التوحيد في الإسلام مقارنة بالمسيحية، فقال: (الإسلام يختلف عن المسيحية الرومانية في أنه لا يتخذ لنفسه نظم الكنيسة والقسيسين والقرابين. ولقد تبدو البروتستانتية الخالصة دينًا كهنوتيًا إذا وازناها بالإسلام الذي يحرص على التوحيد الخالص والذي لا يحتمل أي تدخل بين الإنسان وخالقه)(5)

وتحدث عن العقلية العلمية التي تميز بها المسلم، فقال: (إن المسلم يملك المقدرة على استعمال طريقة التجربة في كل الأوضاع الممكنة لنموذج ما، ليأخذ من الحياة أقصى ما تستطيع أن تعطيه)(6)

وتحدث عن تأثير الإسلام في البناء الحضاري، فقال: (كلمة (الإسلام) ثقافيًا تستعمل بالمعنى الواسع لتدل على تلك المدنية المتجانسة – رغم تنوعها – والتي وجهها وسيطر

---

1) وجهة الإسلام، ص 199 – 200.

2) كويلر يونغ أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية بها، كان مساعد أستاذ اللغات السامية بجامعة تورنتو.

3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، 242 – 243.

4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 243.

5) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 243.

6) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 257.

عليها الدين الإسلامي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا)(1)

وتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة العالمية، فقال: (عندما انتقلت عاصمة الإسلام إلى بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي كان عصر الفتوح قد انتهى، وأصبح ما جاء به القرآن من لغة وقانون ودين يحكم من حدود الصين على أعمدة (هرقل). وفي خلال خمسمائة السنة التي حكم فيها العباسيون نمى الإسلام نظامه الفكري وثقافته المتجانسة على أساس من الإحياء البارع للمعارف الكلاسيكية في القرنين التاسع والعاشر الميلادي وهو (الرنيسانس) الشرقي. هذا الإحياء الثقافي في ذنيك القرنين – وفي القرن الذي تلاهما حيث بلغت الثقافة الإسلامية قمة تطورها – هو الذي نقل إلى العالم اللاتيني.. وأصبح أساس (الرنيسانس) الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر)(2)

وقال: (كان الفارابي وابن سينا معروفين جيدًا في أوروبا، وكان (بيكون) يستشهد بأقوالهما)(3)

وقال: (ليس هناك من شك في أن روح البحث العلمي الجديد وطريقة الملاحظة والتجربة اللذين أخذت بهما أوروبا إنما جاءا من اتصال الطلاب الغربيين بالعالم الإسلامي)(4)

وقال: (لقد قدم العلم الإسلامي للإنسانية خدمات عظيمة، وأضاف إلى تراثها الثقافي القديم والكلاسيكي الشيء الكثير، وظل يلعب دوره حتى تسلّم العلم الغربي منه القيادة)(5)

وقال: (ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام، يدين بها ثلاثمائة مليون من الأنفس(6)، ألا يكون لها تأثير – بالفعل أو بالقوة – في الحضارة العالمية التي أخذت في الظهور والتكامل في العصر الحديث)(7)

بارتولد شبولر:

---

1) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 232.
2) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 234.
3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 242.
4) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 247.
5) الشرق الأدنى، ص 10.
6) ذلك في عصره.. أما اليوم، فيدين بالإسلام أكثر من مليار نسمة.
7) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص 255.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (بارتولـد شـبولر) (1)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد نطق هذا الرجل بالصدق عندما قال ـ متحدثا عن سـماحة الإسلام مقارنة بالمسيحية ـ: (إن المسيحية والإسلام يقفان موقفين مختلفين في موضـوع الأقليات الدينية. أن المسيحية لم تسمح بوجود الأديان الغريبة في أراضيها (باستثناء الـدين اليهودي) أما في الإسلام فكان يوجد تبادل ثقافي بين المسـلمين وغـير المسـلمين.. وهـذا الفرق الملحوظ يمكن تفسيره بأن المسيحية شهدت قيام دين منافس لهـا (وهـو الإسـلام الذي كان ظهوره، إذا تكلمنا من الناحية الواقعية مناقضًا لادعاء المسـيحية بأنهـا آخـر وحي منزل). أما الإسلام فقد اعترف نظامه الديني منذ البداية بالعقائد الأخرى التي كانت تعيش معـه جنبًـا إلى جنب.. وبهـذه الطريقـة أصـبح من الممكن أن ينقـل النسـاطرة الثقافـة الكلاسسيكية وأن يقوم اليهود بدورهم في بلاد الأندلس الإسلامية)(2)

ارنست بانرث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغـريب في هـذا الفصـل اسـم (ارنسـت بـانرث) (3)، فسألت الغريب عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية:

منها حديثه عن موقف المسلمين من العلم، وتواصـلهم مـع الثقافـة العالميـة، وتحليهم بالمنهج العلمي، قال: (إن العرب لم يخربوا ما وجدوه من عناصـر ثقافيـة، بـل اهتمـوا بهـا وبذلوا جهدهم لهضمها ومن ثم تطويرهـا. ونـرى هنـا أن العـرب فتحـوا بـاب التعـرف على الحضارة اليونانية منذ عصر الأمويين والعباسيين بواسطة المترجمين، وعلى هذه الطريقـة تطورت الثقافة تحت حماية الإسلام بالعربية التي هي واسطة ممتـازة للتعبـير عن الأفكـار العليـا والـتي لا تفوقهـا في هـذا لغـة من لغـات الـدنيا. ولا أراني بحاجـة إلى ذكـر أسـماء الفلاسفة الذين فتحوا آفاقًا جديدة لفهم أسرار الطبيعة والوجود، وما يهمنا هنا هو اسـتعداد العرب لاستعمال الطرق العلمية التي تعلموها من أرسـطو طـاليس. والـتي كـانت أولاهـا: مراقبة الطبيعة والتجربة، وثانيتها: قواعد المنطق الشديدة. ولا شك أن الحضارة الإسلامية

---

1) بارتولد شبولر: تخرج من الجامعات الألمانية، وعين معيدًا للدراسات الإسلامية دفعة لغات الشـرق الأدنى (1939) في جامعة جوتنجن، وأستاذ كرسي في جامعة ميونخ (1942) وعدد من الجامعـات الأخـرى كمـا عمـل أسـتاذًا زائـرًا في جامعتي أنقرة واستنبول (1955-1956 يجيد العديد من اللغات، وتخرج عليه عدد من المتخصصين من البلدان الإسلامية.

من آثاره: (مغول إيران) (1939) و(المغول في روسيا) (1943) و(تاريخ البلدان الإسلامية) (1952-1953).

2) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص 239.

3) ارنست بـانرث : ولـد في مدينـة ليـبزج، سـنة 1895، ودرس اللاتينيـة واليونانيـة ثم العربيـة، كمـا تعلم الفارسـية والتركية، أسره الإنكليز في الجبهة سنة 1917، وانتقل إلى الهند فاستقر فيهـا حـتى عـام 1925، وتعلم الأرديـة، ثم عـاد إلى ألمانيا، فتابع دروسه ونال الدكتوراه في اللغات الإسلامية من جامعـة فينـا. وعين أسـتاذًا للفلسـفة والتـاريخ والآداب الألمانية. وقد تولى مناصب عديدة وطوف في عدد من البلدان.

من آثاره: (الإسلام اليوم وغدًا) (1958)، (التفاهم بين الشـرق والغـرب) (بتكليـف من اليونسـكو)، ولـه دراسـات عن الفلاسفة المسلمين، كما حقق العديد من النصوص، وكتب العديد من الأبحاث في المجلات المختلفة.

ارتفعت في القرون الوسطى إلى علوّ لم ينته إليه قوم آخــرون. ولا يخفى أن هــذا الاعتلاء كان ثمرة الاجتهاد في كل نواحي الثقافة وتطـبيق الطـرق العلميـة. وأمـا الغـرب الأوروبي فلم يستطع حينئذ فهم الثقافة وتطويرها. وكذلك دولـة بيزنطيـة فقـد تجمـدت، والآن نـرى كيف تعجبت الأقوام الأوروبيـة من جمـال الثقافـة العربيـة الـتي امتـدت من حـدود الصـين والهند إلى جبال البرانس)[1]

ومنها حديثه عن سبق المسلمين للمنهج التجريـبي، وتصـديره إلى أوروبـا، قـال: (كـان أول من قلد العـرب في التجربـة الـراهب (روجـر بيكـون) في إنكلـترا. وحـتى الآن يشـكر علماء الطبيعة في أوروبا العرب على إدخال طريقة التجربة العلمية التي دلّت على التطور الحديث في جميع الميادين)[2]

ومنها حديثه عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، قال: (لم يزل العلمـاء يواصـلون الكشف عن العناصر العربية المؤثرة في الفكر الأوروبي خلال القرون الوسطى، وفي كـل سنة تظهر آثار منشورة تشهد بأننا لا نقدر الآن ما أخذه الأوروبيون من العرب)[3]

وقال: (انتشرت في أوروبا الرغبة العظيمـة لدراسـة اللغـة اليونانيـة منـذ تعرفـوا على الفلسفة اليونانية بواسطة العـرب، وأدى هـذا الاهتمـام الجديـد بالتـدريج إلى تلـك الحركـة الثقافية في أوروبا في القرن الخامس عشر المسـماة بحركـة إحيـاء العلـوم القديمـة ولم يزل الاهتمام في أوروبا بعلوم العرب خلال تلك الدورة، بل لقد أدى إلى الاشتغال بالعربيـة من جديد في القرن السابع عشر)[4]

أصدقاء من دول شتى

قلبت بعض الصفحات من دفتر الغريب، فرأيت عنوان (أصدقاء من دول شـتى)، تحتـه أسماء دول كثيرة، فقلت: ما هذا؟.. إني أرى قاموسا لدول العالم في هذا المحل.

قال: لقد ذكرت في هذا المحل دولا كثيرة مررت بها.. وسمعت من أهلها بعض كلمات الصدق..

إسبانيا:

---

1) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص 8 – 9.

2) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص 10 – 11.

3) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص 11.

4) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص 11.

من الـدول الـتي رأيتهـا في هـذا الفصـل (إسـبانيا)، فأصـابني ألم شـديد، فقلت: هـذه الأندلس.. وقد ضاعت من أيدينا.

قال: عندما أسأتم تمثيل الإسلام فيها ضاعت من أيديكم.. وما كـان لهـا أن تبقى.. لقـد أراد الله بفتحها عليكم أن تملأوا الأرض إيمانا وصلاحا ومحبة وسلاما.. فلما انشغلتم بأوديـة الهوى، وزخارف الحياة الدنيا، وتصورتموها إقطاعـا من إقطاعـاتكم الـتي تتنـازعون عليهـا سلبها منكم.

قلت: فهل يمكن أن تعود إلينا؟

قال: لتملكوها، أم لترشدوها؟

لم أجد ما أجيب به، فقال: أما إن قصـدتم ملكهـا، ليحكمهـا سـلاطين بـني الأحمـر، فلا أرجعها الله لكم.. وأما إن أردتم أن ترشدوها، فها هي بين أيديكم.. إن لم تملكوا أن ترحلوا إليها بأجسادكم فلترحلوا إليها بالدعوة الصادقة والقدوة الطيبة.

لم أجد ما أجيبه به، فقـال: يخطئ قومـك حين يربطـون الفتـوح بالسـيوف.. الفتح فتح القلوب، لا فتح السيوف، فالسيوف أضعف من أن تمتد لما تمتد له القلوب.

قلت: صدقت فقد قال الله تعالى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) (النصر:1)، ثم عقب عليها مباشرة بقوله: وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً) (النصر:2)

جون براند ترند:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسـم (جـون برانـد ترنـد) (1)، فسـألت الغـريب عنـه، فقـال: لهـذا الرجـل شـهادات صـادقة ترتبـط بتـاريخ المسـلمين وحضارتهم.

منها شهادته على تسامح المسلمين، قـال: (في القـرن العاشـر الميلادي تـردّى معظم أوروبا في همجية ووحشية مريعة، على حين أن المسلمين في إسبانيا ضربوا مثلاً رائعًا بما كفلوه لغيرهم من ذوي العقائد المخالفة لمذهبهم من سعة العيش والتسامح)(2)

---

1) جون براند ترند (1887 – 1958) رائد من رواد تاريخ إسبانيا. أستاذ في جامعـة كمـبردج. قـام بعـدة رحلات في إسبانيا والبرتغال ومراكش ومكسيكو واشتغل في معهد الدراسات الشرقية بلندن.

من آثاره (صورة لإسبانيا الحديثة)(1921)، (موسيقى تاريخ إسبانيا) (1925)، (لغة إسـبانيا وتاريخهـا) (1953)، وكثـير من الكتب الأخرى في هذا المجال.

2) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، المجلد الخامس، ص 29.

وقال: (آثر الغزاة المسلمون أن يشتروا من السكان المسيحيين بقرطبة جانبًا من الكاتدرائية القديمة. ورأوا أن ذلك خير لهم من أخذها عنوة واغتصابًا، وهذا شاهد ينطق بما اشتهروا به من التسامح مع أصحاب العقائد المخالفة لعقيدتهم)(1)

وفي مقابل ذلك ما لقي العرب من غلظة وشدة من طرف المسيحيين بعد خروج المسلمين، قال: (إن العرب المتنصرين التعساء المعروفين بالموريسكو لقوا من المسيحيين من المعاملة السيئة مالا يقابله إلا ما لقيه المسيحيون من المسلمين من التسامح في مرحلة سابقة من تاريخ إسبانيا الإسلامية والمسؤول عن كل ذلك الأمر من بدايته إلى نهايته هم رجال الكنيسة)(2)

ومنها شهادته التقدم الذي وصل إليه المسلمون في الأندلس، قال: (الشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب إسبانيا خلقوا مدنية زاهرة وأتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء أغلب أصقاع أوروبا تحت نير الشقاء والأغلال مادية كانت أم روحية. أجل فقد لعب عرب إسبانيا دورًا خطيرًا في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قمم الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الأكويني ودانتي)(3)

وقال: (إن قرطبة فاقت كل حواضر أوروبا مدنية أثناء القرن العاشر، كانت في الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عمومي. فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراح أو مهندس معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتوجهون بمطلبهم إلا إلى قرطبة)(4)

جوان فيرنيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (جوان فيرنيه) (5)، فسألت الغريب عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين في الحضارة

---

1) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، 5 / 737.

2) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، 5 / 755.

3) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص 22.

4) تراث الإسلام، ص 27.

5) جوان فيرنيه :تخرج من جامعة برشلونة، وسمي أستاذًا للعربية فيها عام 1954م. من آثاره: ترجم القرآن الكريم إلى الإسبانية (1953)، و(الف ليلة وليلة)، وحقق عددًا من النصوص، كما كتب العديد من المقالات في الفلك والجغرافية.

الغربيـة، فقـال: (في القـرن السـادس الهجـري، الثـاني عشـر الميلادي، اكتسـبت حركـة الترجمة قوة غير عادية، إذ أصبح عدد الكتب المترجمة في صقلية وبخاصة في إسبانيا، يثير الإعجاب، وتدفق علم الإغريق والرومان على الأديرة الأوروبيـة من خلال العقـول العربيـة، وأدمجت الكشوف التي توصل إلى العرب ضمن رصيد من الثقافـة الغربيـة.. وتوافـد على (طليطلة) عدد كبير من العلماء الأوروبيين المتلهفين إلى الحصـول على المعـارف العلميـة الشرقية.. وبالرغم من أن هؤلاء العلمـاء لم يعملـوا معًـا كأصـحاب مدرسـة إلاّ أن إنتـاجهم المكثف والغزير قد غيّر شكل المجتمع الأوروبي لكن أولئك العلماء وإن كانوا قد استطاعوا أن يتمثلوا بسهولة النصوص التي وصلت إليهم، أخفقوا في إدخال أي تطوير يذكر عليها)(1)

وقال: (في بداية القرن العشرين بدأت حقبة جديـدة من الترجمـات العلميـة تقـدم من العالم الغربي إلى عالم الإسلام، شأنها شأن تلك الحركة التي قدمت من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري (الثامن إلى العاشر الميلادي)(2)

إيطاليا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (إيطاليا)، وقد رأيت من الأصدقاء الـذين سـجلهم الغريب:

لورا فيشيا فاغليري:

قلت: من هي (لورا فيشيا فاغليري) (3) ؟.. وما شهاداتها؟

قال: هذه امرأة إيطالية تمتلئ صدقا.. وتفيض محبة.. وقـد دافعت عن الإسـلام وكأنهـا أحد أبنائه.

قلت: شوقتني إليها، وإلى أحاديثها، فأخبرني عنها.

قال: لهذه المرأة الفاضلة شهادات كثيرة لا يمكنني ذكرها جميعـا هنـا.. ولكـني سـأذكر لك خمسة أنواع من الشهادات.

---

1) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث) 3 / 214 – 215.

2) تراث الإسلام، 3/218، وعن إنجازات المسلمين في ميادين الرياضيات والفلك والبصريات، انظـر: المرجـع نفسـه 3/168، 170، 172-174، 176-183، 188-194، 196-213، 216-218.

3) لورا فيشيا فاغليري : باحثة إيطاليـة معاصـرة انصـرفت إلى التـاريخ الإسـلامي قـديمًا وحـديثًا، وإلى فقـه العربيـة وآدابها.

من آثارها: (قواعد العربية) في جزئين (1937 – 1941)، و(الإسلام) (1946)، و(دفاع عن الإسلام) (1952)، والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة.

قلت: فما أولاها؟

قال: شهادتها المرتبطة بالقرآن الكريم.. فقد تحدثت عن القرآن الكريم بصدق عظيم، فاعتبرته معجزة بكل المقاييس، قالت: (إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته. والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عوض عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نَفَسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا – وهما صفتان لا تجتمعان عادة – حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد، وهو العربي الأميّ الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟)(1)

وهي تستدل بحفظه من التحريف على مصدره الإلهي، قالت: (لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصّه ظل صافيًا غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، مادام الكون)(2)

وقالت: (من حسن الطالع أن الجمود مرض لابدّ أن يزول، بل إنه في الواقع شرع يزول في ما يبدو. فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرّفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان والذي لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء حملة الشرائع عليهم السلام، إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب. وثمة بيّنات قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلاً)(3)

______

1) دفاع عن الإسلام، ص 56 – 57.

2) دفاع عن الإسلام، ص 58 – 59.

3) دفاع عن الإسلام، ص 133 – 134.

وهي تذكر ما يتميز به القرآن الكريم من الجاذبية، فقالت: (إن هذا الكتـاب، الـذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقـع في نفس المـؤمن أيمـا حسّ بالملـل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يومًا بعد يوم. إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسًا عميقًـا من المهابـة والخشـية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حـتى إننـا لنجـد اليـوم، على الـرغم من انحسـار موجة الإيمان، آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها)(1)

وهي تذكر مدى انسجام ما ذكره القرآن من الكونيات مع البحث العلمي: (فيمـا يتصـل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصـلية وإلى أصـل العـالم.. لا يقيم أيما حدّ مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنـه يتركهـا طليقـة تتخـذ السـبيل الذي تريد)(2)

قلت: فما الثانية؟

قال: شهاداتها حول رسول اللـه ﷺ.. فلهـا ثنـاء عطـر على رسـول اللـه ﷺ يعـبر عمـا يحمله قلبها من محبة له.

قالت: (كان محمد المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصـة نحـو أتبـاع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا اعتقادًا منه بأن الزمن سـوف يتم عملـه الهـادف إلى هـدايتهم وإخـراجهم من الظلام إلى النـور.. لقـد عرف جيدًا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري)(3)

وقالت: (حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي اللـه ببعض التهم المفتراة. لقـد نسـوا أن محمـدًا كـان قبـل أن يسـتهل رسـالته موضـع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمـرائين، في بعض آيـات القـرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبديـة، لـو كـان هـو قبـل ذلـك وحاشـاه رجلاً كاذبًـا؟كيـف جـرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثًا موصولاً؟كيف استطاع أن يستهل صراعًا كان يبدو يائسًا؟كيف وفـق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشـر سـنوات، في مكـة، في نجـاح قليـل جـدًا، وفي

1) دفاع عن الإسلام، ص 59.

2) دفاع عن الإسلام، ص 60.

3) دفاع عن الإسلام، ص 73.

أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصدق رسالته؟كيف جاز أن يـؤمن بـه هـذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقـاء، والفقـراء المعـدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكـثر من ذلـك، فحـتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقًا وأكيدًا)(1)

وقالت: (دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتبـاع نصرانية ويهودية محرّفتين على أصفى عقيدة توحيدية. وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى)(2)

وهي ترد بصدق وعلم على شبهة تعـدد زوجـات رسـول اللـه ﷺ، فتقـول: (إن محمـدًا طوال سنين الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقـودًا أو يكـاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يـتزوج إلا من امرأة واحدة ليس غير، هي خديجة التي كانت سنّها أعلى من سنّه بكثير، وأنـه ظـل طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب، ولم يتزوج كرة ثانية، وأكثر من مـرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره)(3)

قلت: فما الثالثة؟

قال: شهاداتها عن الدعوة الإسلامية، وكيفية انتشـار الإسـلام، فقـد قـالت: (إن انتشـار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهـود المبشـرين الموصـولة. إن الـذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبـة، مـع تخييرهـا بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض)(4)

وقالت: (كانت حملة كبيرة على سوريا.. رهن الإعداد، عندما أسـكت المـوت إلى الأبـد صوت النبي الذي كان قد أحدث هذه الهـزة العميقـة في تلـك القلـوب كلهـا، والـذي كـان مقدرًا له أن يستهوي عما قريب شعوبًا أخرى تقيم في مواطن أكثر إمعانًا في البعد. وكـان

---

1) دفاع عن الإسلام، ص 37 – 38.

2) دفاع عن الإسلام، ص 43.

3) دفاع عن الإسلام، ص 99 – 100.

4) دفاع عن الإسلام، ص 59.

في السنة الحادية عشرة من الهجرة)[1]

وقالت: (إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزلـه اللـه على نبيه ﴿ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الانبياء:107) هي نداء مباشر للعالم كله. وهذا دليـل سـاطع على أن الرسول شعر في يقين كلّي أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربيــة وأن عليه أن يبلـغ (الكلمـة) الجديـدة إلى شـعوب تنتسـب إلى أجنـاس مختلفـة، وتتكلم لغـات مختلفة)[2]

وقالت: (بفضل الإسلام هزمت الوثنية في مختلف أشـكالها. لقـد حـرّر مفهـوم الكـون، وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات أو المسـوخ الـتي كـانت تحـط من قدرها، وحررت العقـول الإنسـانية من الهـوى. لقـد أدرك الإنسـان آخـر الأمـر، مكانتـه الرفيعة.. لقد حررت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقتـه موثقًا إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يـدعونها خفيـة. لقـد هـوى الكهـان، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظـاهروا بـأنهم وسطاء بين الله والإنسان والذين اعتقدوا بالتالي أن سـلطتهم فـوق إرادات الآخـرين، لقـد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إن الإنسان أمسى خـادم اللـه وحـده، ولم تعـد تشـده إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحرّ نحو الإنسان الحرّ. وبينما قاسى النــاس في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية، أعلن الإسلام المساواة بين البشر، لقد جُعل التفاضـل بين المسلمين، لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوف الله، وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير)[3]

قلت: فما الرابعة؟

قال: شهاداتها المرتبطة بالحضارة الإسلامية، ومن ذلك قولها: (كيف نستطيع أن نقــول إن الإسلام عاق نموّ الثقافة في القرون السالفة ونحن نعلم أن بلاطات الإسـلام ومدارسـه كـانت آنـذاك منـارات ثقافـة لأوروبـا الغارقـة في ظلمـات القـرون الوسـطى، وأن أفكـار الفلاسفة العرب بلغت آنـذاك منزلـة رفيعـة جعلت العلمـاء الغربـيين يقتفـون آثـارهم، وأن هارون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأن يلحق بكل مسجد مدرسة يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم، وأن المكتبات الحافلة بمئات الآلاف من الكتب كـانت مشـرعة الأبـواب آنـذاك في وجـه العلمـاء والدارسـين في طـول العـالم الإسـلامي وعرضـه؟ ألم يكن العـرب أول من

---

1) دفاع عن الإسلام، ص 33.

2) عن الإسلام، ص 24 – 25.

3) عن الإسلام، ص 45 – 47.

اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أن يعلن بيكون ضرورتها بزمن طويل؟ وتطور الكيمياء، وعلم الفلك، ونشر العلم الإغريقي، وتعزيز دراسة الطب، واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية، أليست هذه من مآثر العرب؟)(1)

قلت: فما الخامسة؟

قال: شهاداتها عن نظام الأسرة الذي شرعه الإسلام، فقد قالت: (في ما يتصل بالزواج لا تطالب السّنة الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكرًا الله من ناحية، ومحترمًا حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية)(2)

وقالت: (إنه لم يقم الدليل حتى الآن، بأي طريقة مطلقة، على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التقدم. ولكنا نؤثر ألا نناقش المسألة على هذا الصعيد. وفي استطاعتنا أيضاً أن نصرّ على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يقتل عدد من الذكور ضخم إلى حد استثنائي في الحرب مثلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية والحق أن الشريعة الإسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حرًّا قبل الإسلام، مطلقًا من كل قيد. لقد شجب الإسلام بعض أشكال الزواج المشروط والمؤقت التي كانت في الواقع أشكالاً مختلفة للتسرّي الشرعي (المعاشرة من غير الزواج). وفوق هذا منح الإسلام المرأة حقوقًا لم تكن معروفة قط من قبل. وفي استطاعتنا، في كثير من اليسر، أن نحشر الشواهد المؤيدة لذلك)(3)

وقالت: (القرآن يبيح الطلاق. ومادام المجتمع الغربي قد ارتضى الطلاق أيضاً، واعترف به في الواقع كضرورة من ضرورات الحياة، وخلع عليه في مكان تقريبًا صفة شرعية كاملة ففي ميسورنا أن نغفل الدفاع عن اعتراف الإسلام به. ومع ذلك فإننا بدراستنا له، وبمقارنتنا بين عادات العرب في الجاهلية وبين الشريعة الإسلامية، نفوز بفرصة نظهر فيها أن القانون الإسلامي قد دشن في هذا المجال أيضاً إصلاحًا اجتماعيًّا. فقبل عهد الرسول كان العرف بين العرب قد جعل الطلاق عملاً بالغ السهولة.. أما القانون الإلهي فقد سنّ بعض القواعد التي لا تجيز إبطال الطلاق فحسب بل التي توصى به في بعض الأحوال.. وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء إلى القاضي،

---

1) دفاع عن الإسلام، ص 130 – 131.

2) دفاع عن الإسلام، ص 88.

3) دفاع عن الإسلام، ص 97 – 98.

وفي إمكانها أن تفوز بذلك إذا كان لديها سبب وحيه يبرّره. والغرض من هذا التقيد لحق المرأة في المبادرة هو وضع حد لممارسة الطلاق، لأن الرجال يعتبرون أقل استهدفًا لاتخاذ القرارات تحت تأثير اللحظة الراهنة من النساء. وكذلك جعل تدخل القاضي ضمانًا لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية الناشئة عن إنجاز فسخ الزواج. وهذه القاعدة، والقاعدة الأخرى التي تنصّ على أنه في حال نشوب خلاف داخل الأسرة يتعين اللجوء إلى بعض الموفقين ابتغاء الوصول إلى تفاهم، تنهضان دليلاً كافيًا على أن الإسلام يعتبر الطلاق عملاً جديرًا باللوم والتعنيف. والآيات القرآنية تقرر ذلك في صراحة بالغة.. وثمة أحاديث نبوية كثيرة تحمل الفكرة نفسها)(1)

وقالت: (اجتنابًا للإغراء بسوء ودفعًا لنتائجه يتعيّن على المرأة المسلمة أن تتخذ حجابًا، وأن تستر جسدها كله، ماعدا تلك الأجزاء التي تعتبر حريتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئًا عن قلة احترام للنساء، أو ابتغاء كبت إرادتهن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال. وهذه القاعدة العريقة في القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، إلا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان. وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لا تثمن للمجتمع الإسلامي)(2)

سكت الغريب، فقلت: لا أرى إلا أن هذه المرأة الصالحة امرأة مؤمنة تكتم إيمانها، فيستحيل على من يفيض قلبه بهذه الكلمات أن لا يكون قد امتلأ عشقا لهذا الدين، ولنبي هذا الدين.

قال: صدقت.. فقد يتكلف المرء كل شيء إلا في هذا.

دافيد دي سانتيلانا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر الغريب في هذا الفصل اسم (دافيد دي سانتيلانا) (3)،

---

1) دفاع عن الإسلام، ص 101 – 103.

2) دفاع عن الإسلام، 103 – 104.

3) دافيد دي سانتيلانا (1845 – 1931) ولد في تونس، ودرس في روما، أحرز الدكتوراه في القانون، فدعاه المقيم العام الفرنسي في تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية، فوضع القانونين المدني والتجاري معتمدًا بذلك على قواعد الشريعة الإسلامية ومنسقًا إياهما بحسب القوانين الأوروبية. كان على معرفة واسعة بالمذهبين المالكي والشافعي، وفي سنة 1910 عين أستاذًا لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية، وله محاضرات قيمة فيها. ثم استدعته جامعة روما لتدريس التاريخ الإسلامي.

من آثاره: (ترجمة وشرح الأحكام المالكية)، كتاب (الفقه الإسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي).. وغيرها.

فسألت الغريب عنه، فقال: هذا رجل كتب لـه أن يعيش بين المسـلمين.. وكتب لعينيـه أن تكتحلا بجمال الشريعة.. ولذلك تجد في كلماته من الصدق ما يرفعه في عينـك إلى مرتبـة قد تخطئ في التعبير عنها.

قلت: فما شهاداته؟

قـال: لقـد تحـدث عن قـدرة رسـول اللـه ﷺ على تحويـل الـولاء للقبيلـة الـذي يمثـل العنصرية إلى الولاء للإسلام الذي يمثل الـولاء للفكـرة، فقـال: (مـا كـان من محمـد إلا أن تناول المجتمع العربي هدمًا من أصوله وجذوره وشاد صرحًا اجتماعيًا جديـدًا.. هـذا العمـل الباهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة. إن محمدًا هدم شـكل القبيلـة والأسـرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفرديـة Gentes والمـوالاة والجماعـات المتحالفـة. من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينشئ روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كـانوا يعتنقون دينه (إخوته في الإيمان). فما داموا هم على دينهم القديم فإنه يقول لهم كما قـال إبراهيم لأهله: (لقد تقطعت بيننا الأسباب)(1)

وتحدث عن ثمرة ذلك، فقال: (ذلكم هو شكل النظام الجديـد الـذي دعـا إليـه محمـد.. ونحن نجد في ظله أن قيمة الفرد بـدأت تتضـح وكينونتـه البشـرية أخـذت تـبرز إلى عـالم الوجود فصار يستمد حقوقـه وواجباتـه من إيمانـه ويسـتقيها من معين دينـه لا من روابطـه الاجتماعية والعرفية. فمن جماعة المؤمنين هؤلاء تكون المجتمع الإسلامي)(2)

وتحدث عن الوجهة التي يتوجه إليها ولاء المؤمن، فقال: (إن أساس الوحدة الاجتماعية يمثله (الله) في الإسـلام. فاللـه هـو الاسـم الـذي يطلـق على السـلطة العاملـة في حقـل المصلحة العامة. وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو (بيت مال الله)، والجنـد هم (جنـد الله)، حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله) وليست العلاقة بين الله والمؤمن بأقـل قوة من ذلك ولا يوجد بين المؤمن وربه (وسيط)، وما دام الإسلام لا يقرّ بسـلطان كنسـي وكهنوتي ولا يعترف بأسرار كنيسة مقدسة، فـأي فائـدة تـرتجى من الوسـيط بين الإنسـان وبين خالقه الذي كان يعرفه قبل أن يبدعه والذي هو ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ)(قّ:16).. إن الله بعد أن أرسل إلى البشـر خاتمـة أنبيائـه وكلمتـه النهائيـة، لم يعـد ثم من ينطـق بلسانه أو يعرف عن إرادته. الإنسان وحده ماثل أمام الله في حياته وموته وله أن يخاطبـه رأسًا بلا وسيط، أو شفاعة أو (إجراءات).. والإنسان من فجر حياته حتى موتـه تحت أنظـار الله وهو وحده يمثل أمام الله يوم الحشر.. إن اشـد المـذاهب البروتسـتانتية صـرامة إنمـا تكاد تكون مذهبًا كهنوتيًـا صـرفًا إذا مـا قـورنت بعقيـدة التوحيـد الراسـخة الـتي لا تلين ولا

1) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص 405 – 406.

2) تراث الإسلام، ص 406

تتزعزع ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق)(1)

وتحدث عن عالمية الرسالة، فقال: (كان محمد رسول الله إلى الشعوب الأخرى، كما كان رسول الله إلى العرب)(2)

وتحدث عن رعاية الشريعة للمصالح، فقال: (إن مبادئ الإسلام القانونية على تعدد أشكالها، تؤول إلى غاية واحدة هي الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون: الإلهي مصدرًا والبشري هدفًا، إلا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية وإن شق عليها أن تتبينها لأول وهلة. لأن الله لا يمكن أن يعمل شيئًا لا تتجلى فيه الحكمة والرأفة اللتان هما باعثاه الأساسيان. لما كان البشر من روح وجسد فلابد أن يكون للمرء اتجاهان في الحياة: اتجاه روحي واتجاه جسدي (مادي ومعنوي) وعلى هذا الأساس كانت القواعد (الحدود) الإلهية التي وضعها الله لتدبير البشر منقسمة إلى قسمين: ما يتعلق منها بالروح وما يختص منها بالجسد. فالدين والقانون هما نظامان متباينان لكنهما متلاحمان يتم أحدهما الآخر باتحادهما في المصدر والغرض وهو سعادة البشر ورفاهه)(3)

وقال: (لما كان الشرع الإسلامي يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافًا لشريعتنا من بعض الوجوه. ثم إنها علم ما دامت تعتمد على المنطق الجدلي.. وتستند إلى اللغة.. إنها ليست جامدة، ولا تستند إلى مجرد العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي. فيقول أتباع المذهب الحنفي أن القاعدة القانونية ليست بالشيء الجامد الذي لا يقبل التغيير. إنها لا تشبه قواعد النحو والمنطق. ففيها يتمثل كل ما يحدث في المجتمع بصورة عامة.. إن المنفعة هي مبدأ الفقهاء والمشرعين، ولقد أدرك العرب بوضوح تام سرّ هذه المرونة وهو الاستعمال بلا ريب.. أن هذا التفاعل المستمر للفقه في الحياة يمكن تتبعه في مسالك التاريخ الإسلامي)(4)

ورد على من يدعي استمداد الشريعة من القانون الروماني، فقال: (عبثًا نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأي على ذلك. إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا

---

1) تراث الإسلام، ص 409 – 410.

2) تراث الإسلام، ص 406.

3) تراث الإسلام، ص 413 – 414.

4) تراث الإسلام، ص 433 – 434.

يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً)[1]

بلجيكا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (بلجيكا)، وقد رأيت من الأصدقاء الـذين سـجلهم الغريب (جورج سارتون)

قلت: من هو جورج سارتون[2] ؟

قال: هذا رجل مهتم بتاريخ العلوم، وقد كان له من البحث الصادق ما جعلـه أوسـع من أن ينحصر في مجال تخصصه، فلهذا عرف من الحقائق ما جعله يشهد لها.

لقد ذكر القرآن، وتأثيره في اللغة العربية، فقال: (إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغـة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة.. وهكـذا يسـاعد القـرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبـير عن المقاصـد،.. وجعـل منهـا وسـيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة)[3]

وتحدث عن صفات رسول الله ﷺ وفضله، فقـال: (صـدع الرسـول بالـدعوة نحـو عـام 610م وعمره يوم ذاك أربعون سنة، وكان مثل إخوانه الأنبياء السابقين ولكن كـان أفضـل منهم بما لا نسبة فيه.. وكان زاهدًا وفقيهًا ومشرعًا ورجلاً عمليًا)[4]

بل إنه اعتبر انتصار رسول الله ﷺ أعظم انتصار حققه نبي من الأنبياء، فقـال: (إنـه لم يتح لنبي من قبل.. أن ينتصر انتصارًا تامًا كانتصار محمد)[5]

---

1) تراث الإسلام، ص 431، وسنرد على هذه الشبهة في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

2) جـورج سـارتون (1884 – 1956) ولـد في بلجيكـا، وحصـل على الـدكتوراه في العلـوم الطبيعيـة والرياضيـة (1911)، فلما نشبت الحرب رحل إلى إنكلترا، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسـيتها فعين محاضـرًا في تاريخ العلم بجامعة واشنطن (1916)، ثم في جامعة هارفارد (1917-1949). وقد انكب على دراسـة اللغـة العربيـة في الجامعة الأمريكية ببيروت (1931-1932) وألقى فيها وفي كلية المقاصد الإسلامية محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير الإنساني، زار عددًا من البلدان العربية، وتمرس بالعديد من اللغات، ومنح عدة شهادات دكتوراه كمـا انتخب عضوًا في عشرة مجامع علمية وفي عديد من الجمعيات العالمية، وأشرف على عدد من المجلات العلمية.

من آثاره: خلف أكثر من خمسمائة بحث، وخير تصـانيفه وأجمعهـا: (المـدخل إلى تـاريخ العلم) في خمسـة مجلـدات (1927، 1931، 1947).

3) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 37 – 38.

4) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 29 – 30 – 31.

5) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 43.

وقال: (كان النبي محمد أشمل في دعوته وأعمق من كل من سواه من الأنبياء)(6)

وذكر اثر النبي ﷺ في الحضارة الإسلامية، فقال: (لم يكن محمد نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية (2)، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم)(3)

واعتبر المنجزات التي حققها رسول الله ﷺ أعظم المنجزات في تاريخ البشرية، فقال: (ثمة حادثة واحدة من أخصب الحوادث نتائج في تاريخ الإنسانية ألا وهي ظهور الإسلام)(4)

وتحدث عن شمولية الإسلام للدين والدولة، فقال: (كانت الهجرة حدًا فاصلاً في حياة الرسول، وفي تاريخ الدين الجديد. إنها البدء الرسمي للإسلام كدين ودولة معًا)(5)

وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية، ومراعاتها للفطرة، فقال: (ليس في أركان الإسلام الخمسة شيء ينفر منه غير المسلم وعلى الرغم من بساطة هذه الفروض وقلة عددها فإنه لم يكن بالإمكان إدخال إصلاح ما عليها يقود إلى أن تثبت العقيدة الإسلامية في نفسه كل مسلم أو تقوى بعد ثبوتها ثم يسهل انتشارها فوق ما ثبتت وقويت وانتشرت فعلاً. إن القيمة العملية للعقيدة الإسلامية لها دليل ذاتي من قوتها ورسوخها وانتشارها)(6)

وقال: (إن فرض الصيام في كل نهار من مطلع الفجر إلى غياب الشمس شهرًا كاملاً كان امتحانًا قاسيًا لكل مسلم.. ولكنه كان وسيلة بارعة لسبر غور الإيمان في صدر كل مسلم ولتثبيت ذلك الإيمان أيضًا.. ولقد أدرك الإسلام الحاجة إلى تنظيم شديد كيما يقوى إيمان المسلمين وتتطهر قلوبهم. من أجل ذلك كان شهر الصيام والحج من التمارين التي تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام، إن كثيرًا من كنائسنا نحن قد ضعفت إلى درجة التفاهة لتساهلها ولفقدان التنظيم فيها ولقلة ما تفرضه على أتباعها. إن اتباع هذه الكنائس إذا دفعوا اشتراكاتهم (بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة) عدوا من المؤمنين حقًا. إن مثل هذه الكنائس قد تكون غنية، ومع ذلك فإنها، من حيث التأثير، في حكم المفقودة. فإذا كنتم تريدون أتباع كنائس ذوي إيمان فعليكم أن تفرضوا عليهم نظامًا شديدًا وأن تطلبوا منهم تضحيات حقيقية. ولقد عرف محمد ذلك جيدًا، وهذه علامة أخرى

---

6) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته، 140.

2) الثقافة العربية في مجموعها ثقافة إسلامية.

3) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 43.

4) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 28.

5) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 30.

6) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 32.

من علامات عبقرية النبوة فيه)[1]

وتحدث عن حكمة الإسلام من تحريم الخمر، فقال: (حرم الإسلام الخمر في مطلع دعوته، وها نحن اليوم بعد أن انتشرت الخمور وزادت نسبة الكحول فيها إلى درجة فتاكة ندرك حكمة الإسلام وبعد نظره)[2]

وتحدث عن سماحة الإسلام، فقال: (ما تميز به الإسلام من السماحة والبساطة والاعتدال، يسرّ لأي إنسان في أي موطن، أن يتقبله وينفذ إلى روحه وجوهره منذ اللحظة الأولى)[3]

قلت: إن شهادات هذا الرجل تنبئ عن فهم عميق للإسلام.

قال: لعل الأمر أعمق من أن يكون مجرد فهم.. فحديث هذا الرجل عن حب الله في هذا العصر لا يدل إلا على الأعماق التي جعلته يصرح بهذه التصريحات.

النمسا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (النمسا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم الغريب (الكاردينال كوينج)

قلت: من هو الكاردينال كوينج[4]؟

قال: هذا رجل دين من النمسا.

قلت: كيف يكون رجل دين، ويشهد للإسلام؟

قال: ليس ذلك مستغربا.. فلابد أن يعيش الإنسان في حياته لحظة من لحظات الصدق.. وهذه اللحظات قد تنطقه بشهادة الحق التي ظل يبتعد عنها طول حياته.

قلت: فاذكر لي شهادات هذا الرجل.

قال: من شهاداته شهادته حول اهتمام القرآن بالفكر، مبينا اتفاقه مع الكتاب المقدس في هذا، قال: (يحدثنا القرآن الكريم عن الإنسان ومحاولته الوصول إلى خالقه في هذه

---

1) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 40 – 42.

2) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص 40.

3) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص 140.

4) الكاردينال كوينج Quenge رئيس أساقفة النمسا.

الآيات البينات: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:164)، ويحدثنا الكتاب المقدس عن هذا المعنى في هذه العبارة: (أن قدرة الله الأزلية وألوهيته منذ خلق العالم، تتجلى في مخلوقاته بنور الفكر الإنساني)(1)

وذكر اهتمام القرآن الكريم بالتوحيد، بل اعتباره الغاية الأسمى منه، فقال: (إن تاريخ الدين بوجه عام وتاريخ التوحيد على وجه خاص يظهرنا على أن الإيمان بالله وحده هو الجواب الشافي الوحيد عن كل سؤال عن أصل الكون والإنسانية والغاية من وجودهما فلا يمكن أن يكون للحياة الإنسانية من هدف إلا الله وحده وكل تديّن في الإنسان مرده في الأصل – عن إدراك أو بغير إدراك واع – إلى الإيمان بإله واحد، ولقد كان هناك توحيد حين ظهر الإسلام واتخذ الإسلام التوحيد سبيلاً لأتباعه المؤمنين. ولا شك أن الغزالي على حق يقرر أن الإيمان بالله وحده هو المقصد الأسمى للقرآن الكريم)(2)

وقال: (لنقلها إذن في صراحة ووضوح: إن التوحيد عدو لكل من نصب نفسه معيارًا للحياة الإنسانية في هذه الأرض، وهذه الحقيقة هي التي ترسم لنا حدود مسؤولياتنا.. وليكن همنا في هذه الأيام العصيبة أن نعين الناس على أن يستجيبوا لأمر الله فيقيسوا حياتهم وفق أمره ومشيئته وفي هذه الاستجابة لنداء الفطرة (كما يدعوها المسلمون) المستكنة في قلب كل بشر، جوهر الإيمان بالله الحق المبين. ولعلنا بذلك نخطو الخطوة الحاسمة في إقرار التوحيد بين البشر)(3)

بولونيا

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (بولونيا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم الغريب (بوجينا غيانة ستشيجفسكا)

قلت: من هي هذه المرأة التي تشرفت بأن يوضع اسمها في كتاب يبحث في القلوب التي صدقت مع محمد ﷺ.

قال: هذه بوجينا غيانة ستشيجفسكا(4)، وهي باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام

1) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص 10.

2) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص 15 – 16.

3) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص17.

4) بوجينا غيانة ستشيجفسكا باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (1961-1965)، تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية

في الأزهر الشريف، وقد مكنها ذلك من أن تعرف الإسلام عن كثب، ولهـذا كـان لهـا هـذه الشهادات الصادقة.

منها شهادتها حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، قالت: (إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات. كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العـالم إلا بعـد قـرون طويلة)(1)

ومنها شهادتها حول إيجابية الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام، قـالت: (ليس معـنى الإيمان بالقضاء والقدر أن يترك المسلم العمل لأن القرآن والنبي أمـرا بالعمـل والاجتهـاد في كل شيء. وقال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُـواْ فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ ﴾ (التوبة: 105)(2)

ومنها شهادتها حول المقصد الشرعي من الصلاة، قالت: (فـرض اللـه سـبحانه وتعـالى على المسلم خمس صلوات في اليوم ليكون دائم الاتصال بالله، وقبـل أن يـدخل المسـلم الصلاة لابدّ أن يكون طاهرًا ونظيفًا فالإسلام دين النظافة)(3)

ومنها شهادتها حول الشورى في الإسلام، قالت: (كان تاريخ التشريع في عهـد الخلفـاء الراشدين يعتمد على الشـورى، وأساسـها قـول اللـه تعـالى: ﴿ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الأَمْـرِ ﴾ (آل عمران: 159)، وكذلك فعل الرسول مع أصحابه، فقد كان يستشيرهم في الأمور الـتي لم ينزل فيها عليه وحي)(4)

ومنها شهادتها حول أهمية الفقه، قالت: (كان الفقه مدار سياسـتهم وروح حيـاتهم وبـه تدبير ملكهم. وكانت حركة الإسلام سـريعة الانتشـار حـتى عمت المشـارق والمغـارب لأن الإسلام يأمر أهله بالوقوف عند حدود الشريعة وبصيانة حقوق الخلـق أجمعين سـواء كـانوا مسلمين أو غير مسلمين. فكان للفقه (علم التشريع) زمان الخلفاء مكانة أعظم مما عليـه علم الحقوق الآن عند الأمم المتمدنة، وكان الفقهاء هم أرباب الشـريعة والشـورى (نـواب الأمة) وبيدهم تـدبير كـل الأمـور ولا يصـدر عمـل عظيم أو حقـير إلا وفاقًـا للتشـريع وعلى

الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

1) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 17.

2) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 19.

3) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 20.

4) تاريخ الدول الإسلامية وتشريعها، ص 39.

مقتضى الحق)[1]

كندا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (كنـدا)، وقـد رأيت من الأصـدقاء الـذين سـجلهم الغريب (ولفريد كانتويل سميث)

قلت: من هو ولفريد كانتويل سميث[2] ؟

قال: هذا باحث من كندا.. له شهادات طبية عن الإسلام تؤهله لاعتباره صديقا.

منها شهادته بالعزة التي يحملهـا المسـلمون بسـبب إسـلامهم، قـال: (إنـه مـا من دين استطاع أن يوحي إلى المتديّن به شعورًا بـالعزة كالشـعور الـذي يخـامر المسـلم في غـير تكلف ولا اصطناع، وأن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانًا.. ولكن اعـتزاز المسـلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلمًا بـاعث من بـواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين)[3]

ومنها شهادته على كون الإسلام نظاما شاملا لجميع مناحي الحياة، قال: (إن الغــربي لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حيـاة تصـطبغ بـه معيشـة المسـلم ظـاهرًا وباطنًا وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغـير مناقشـة، فليس التفكـير بنافع شيئًا إن لم يكن مصحوبًا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظـاهر والبـاطن في المجتمع الإسلامي)[4]

الهند:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (الهند)، فقلت: كيـف تثبت الهنـد في الأصـدقاء.. وأنت تعلم ما فعلت بكشمير؟

قال: ألا زلت تذكر لي الأرض.. انشـغل بالسـماء لتنـال الأرض والسـماء.. فلا خـير في الأرض التي تفصلك عن السماء.

---

1) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص 67.

2) ويلفرد كانتويل سميث: ولد في كندا عام 1916، درس اللغات الشرقية في جامعة تورنتو.حصـل على الماجسـتير والدكتوراه في مجال دراسات الشرق الأدنى من جامعة برنستون. متخصص في دراسة الإسلام وأوضاع العالم الإسلامي المعاصرة وأشهر كتبه في هذا المجال(الإسلام في العصر الحديث) عمل أستاذاً في جامعة هارفرد وفي معهد الدراسات الإسلامية بجامعة مقيل بكندا. قام بتـدريس الـدين الإسـلامي بكليـة نورمـان المسـيحية بمدينـة لاهـور بباكسـتان 1941-1945. دعي للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات. صدر لـه حـديثا(1998)عـدة كتب منهـا (نمـاذج الإيمـان حـول العالم) وكتاب (الإيمان نظرة تاريخية) وكتاب (الإيمان والاعتقاد والفرق بينهما)

3) الإسلام في التاريخ الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص 78.

4) ما يقال عن الإسلام، ص 79.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كان أسلافكم أعظم أحلاما.. فلم تشغلهم العداوة عن الصداقة.

قلت: لم أفهم..

قال: ألم تر سلوك الحكمة الذي سلكه المسلمون مع المغول؟

قلت: لقد حولوه إلى دينهم.

قال: فحولوا الهند إلى دينكم.. لتتوجهوا أنتم والهند وكشمير وأهل الأرض جميعا إلى الله.

قلت: فهل نكف عن طلب حقوقنا؟

قال: لا تنشغلوا بحقوقكم عن واجباتكم.. إن الله أوجب عليكم أن تكونوا دعاة لا قتلة، فارموا أسلحتكم ليعطكم الله من أسلحة السماء ما يحميكم من أسلحة الأرض.

كان من الأسماء التي ذكرت في هذا المحل اسم (جوار لال نهرو)[1].. فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد كان رئيسا لوزراء الهند.

قال: وأنا أعرف هذا الرجل لأنه شهد بعض شهادات الصدق التي لا تزول مع زوال الأيام والدول:

لقد قال مخبرا عن رسول الله ﷺ، وما بثه في نفوس المسلمين من عزة قضت على الاستبداد: (لربما خامرت هؤلاء الملوك والحكام الذين تسلموا كتب الرسول الدهشة من هذا الرجل البسيط الذي يدعوهم إلى الطاعة. ولكن إرسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزّة والمنعة وحوّلهم من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم.. وقد توفي محمد بعد أن جعل من القبائل العربية المتنافرة أمة واحدة تتقد غيرة وحماسًا)[2]

وتحدث ـ في الوقت الذي غلب فيه المد الشيوعي ـ عن القيم النبيلة التي جاء بها

1) جوار لال نهرو ولد في عام 1889، في مدينة الله آباد، في الهند، والتقى بغاندي في أوائل عام 1919، اعتقل عدة مرات، وانتخب رئيسًا لحزب المؤتمر الهندي الوطني عدة مرات، دخل الوزارة، وتولى الشؤون الخارجية، وأصبح نائبًا لرئيس المجلس التنفيذي، أول من تولى رئاسة الوزراء الهندية بعد استقلال الهند، له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة والشؤون الهندية، توفي عام 1964م.

2) لمحات من تاريخ العالم، ص 25 – 26.

الإسلام، فقال: (إن الإسلام هو الباعث والفكرة لليقظة العربية بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط.. ولقد كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين. وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين. وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد. وأية مقارنة بين رسالة الأخوة الإسلامية وحالة النصرانية المنحلّة تجعل المرء يدرك مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب!)(1)

وقال: (كان للدين الذي بشر به محمد، بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة، تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة، لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين. لقد تعب الناس من النظام القديم وتاقوا إلى نظام جديد فكان الإسلام فرصتهم الذهبية لأنه أصلح الكثير من أحوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم)(2)

سويسرا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (سويسرا)، وقد رأيت فيها من الأسماء (مونته)

قلت: من هو (مونته) (3)؟

قال: لهذا الرجل الفاضل شهادات طيبة عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام.

منها قوله في وصف رسول الله ﷺ: (إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحًا دينيًا ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيرًا وبلغ سن الكمال بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية في الدين. وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كبارًا جدًا في تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا وبخسوه حقه وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها)

وقوله: (كان محمد كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما

---

1) لمحات من تاريخ العالم، ص 24، 26.

2) لمحات من تاريخ العالم، ص 27.

3) مونته (1856 – 1927) Montet أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، من كتبه (محمد والقرآن)، وترجمة جيدة للقرآن، و(حاضر الإسلام ومستقبله).

يعمله ويقوله)(1)

وقوله: (لا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسته الدينية الـتي تشـبعت بهـا نفسـه وفكره)(2)

بل إنه اعتبر ما قام به رسول الله ﷺ من أعظم المنجزات في التاريخ، قـال: (نـدر بين المصلحين من عـرفت حيـاتهم بالتفصـيل مثـل محمـد، وإن مـا قـام بـه من إصـلاح أخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية)(3)

وتحدث عن المبادئ النبيلة التي جاء بها الإسلام، فقـال: (إن الديانـة الإسـلامية كعقيـدة توحيد، ليس فيهـا شـيء مجهـول في ديانـات التوحيـد الأخـرى إلا أن ظهورهـا في جزيـرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعًا جديدًا باهرًا. وقد سميت الإسلام إشـارة إلى تمـام الانقياد لإرادة الله، وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية إلا أنها تتجلى في القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية.. ولقد منع القرآن الذبائح البشرية، ووأد البنات والخمر والميسر، وكـان لهذه الإصلاحات تأثير غير متنـاه في الخلـق بحيث ينبغي أن يعـدّ محمـد في صـف أعـاظم المحسنين للبشرية. أن حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة، ليكون دائمًا بعيدًا عن الشر، وحكمة الصـيام تعويـد المـؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الإنسان، وحكمة الحج هي توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية. فهذا هو البناء العظيم الذي وضـع محمـد أساسـه، وثبت ولا يزال ثابتًا بإزاء عواصف الدهور)(4)

وانطلاقا من هذه الشهادات دعا إلى احترام الإسلام وعقد صلات الأخـوة مـع معتنقيـه، قال: (لما كان الإسلام دينًا من الأديان أصبح قوة أدبيـة عظيمـة جـدًا جـديرة بـالاحترام من وراء الغاية، ولذا تقضي الحال بأن تقوم الصِلات مع أهله على أساس الإخــاء والحب، وأهم الشروط في هذه الروابط الحسنة احترام الإسلام احترامًا مطلقًا. وأن هذا الدين بفضل ما نشره بعض البـاحثين من العلمـاء المجـردين عن الأغـراض، ومـا وقـف عليـه بعض أربـاب الرحلات قد أصبح معروفًا في أوروبا معرفة تامة، وغدًا يقدر قدره أكثر من قبل)(5)

قلت: بورك في هذا الرجل الحكيم.. وبورك فيما دعا له.. ولا أحسب إلا أن أيدي جميـع

1) محمد والقرآن، ص 18 (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي 1 / 32)

2) محمد والقرآن، ص 18 (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي 1 / 67)

3) محمد والقرآن، ص 18 (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي 1 / 32)

4) محمد والقرآن، ص 22، (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، 1 / 32 – 33)

5) الإسلام، (عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية 1 / 72).

المسلمين الصادقين ممدودة له ولأمثاله.

عاشرا ـ الأعداء

فتحت دفتر الغريب على فصله العاشر، فوجدت عنوانه (الأعـداء)، فقلت: ألا تـرى من التناقض أن يوضع هذا العنوان في كتاب يبحث في القلوب التي تعلقت بمحمد ﷺ ؟

قـال: لا.. ليس ذلـك من التنـاقض.. فأكمـل النـاس من أجـبر أعـداءه على احترامـه، ومحبته.. وقد كان محمد ﷺ أكمل من فعل ذلك.

قلت: لقد نطق القرآن بمثل هذا، فالله تعـالى يقـول: ﴿ وَلا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلا السَّـيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:34)

قال: وقد كانت حياة رسول الله ﷺ نموذجا كاملا لهذا الخلق الرفيع.. فقد كان له صـدر واسع يحول الأعداء أصدقاء.. والحاقدين محبين.. والهاجين مادحين.

قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بما رويته لي في رحلتك التي تعـرفت فيهـا على معجـزات النبي ﷺ الحسية من تحول المعادين إلى محبين مخلصين[1].

قال: وأولهم **أبو سفيان بن الحارث** أخو النبي ﷺ من الرضاع، فقد كان يألف النبي ﷺ أيام الصبا وكان له تربًا، فلما بُعث النبي ﷺ عاداه أبو سفيان عداوةً لم يعادها أحدًا قط، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصـحابه، ثم شـاء اللـه أن يكفي رسـوله ﷺ لسـان أبي سـفيان وهجاءه، لا بإهلاكه، وإنما بهدايته.

وحدث أبو سفيان عن نفسه، فقـال: ثم إن اللـه ألقى في قلـبي الإسـلام، فسـرت وزوجي وولدي حتى نزلنا بالأبواء، فتنكرت وخرجت حتى صـرت تلقـاء وجـه النـبي ﷺ، فلما ملأ عينيه مني أعرض عنّي بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحـولت إلى ناحيـة وجهـه الأخرى.

قالوا: فما زال أبو سفيان يتبعُهُ، لا ينزلُ منزلاً إلا وهو على بابه ومع ابني جعفر وهو لا يكلمه، حتى قال أبو سفيان: والله ليأذنن لي رسول الله ﷺ أو لآخذن بيـد ابـني هـذا حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه.

***

وجـدت بعض الأسـماء في هـذا الفصـل في دفـتر الغـريب، فـأردت أن أقرأهـا، فقـال: حسبك بما ذكرت لك.. فلا ينبغي أن نسمي أحدا في هذا الفصل.

---

1) انظر: رسالة (معجزات حسية)، فصل (حماية) من هذه السلسلة.

قلت: ومن سميناهم؟

قال: أولئك كرام طيبون.. وقد أخلدوا إلى ربهم.. ولا يشك أحد في فضلهم، وأخـاف إن ذكرت بعض ما كتبته هنا أن يتأثر لذلك المتأثرون.. فينسخوا المحبة بالعداوة.

قلت: صدقت.. ففي قومنا من ينسخ جبال الحسنات بالسيئة الواحدة.

الخاتمة

أخذ الغريب الدفتر من يدي، واحتضنه، ثم قبله، وقال: لقد كان هذا الدفتر أنيسي عند كل وحشة.. ورفيقي عند كل ضيق.. ودوائي عند كل داء.

قلت: فما الذي جعلك تحن إليه؟

قال: حنيني إلى الحبيب الذي لا يعرف القلب غيره.. ألا تعلم أن حبيب الحبيب حبيب؟

قلت: أجل.. أعلم ذلك..

قال: ولهذا تراني أمتلئ محبة وعشقا لكل من أحب رسول الله ﷺ.. بل إني أشعر، وكأني أتقوت بكلمات الصدق التي يتفوه بها المخلصون.

قلت: ألم تخش على نفسك، وأنت في ذلك المحل الرفيع أن يتجسس عليك أحدهم.. فيلحظه معك.. فيشي بك وشاية تهدم كل أحلامك؟

قال: وهل نسيت أخي؟

قلت: ومن أخوك؟

قال: أخي التوأم.. ما بالك.. إنه حصني الذي كنت به أتحصن.. كما كان الحجاب الذي به احتجبت عن شمس محمد ﷺ كل تلك المدة.

قلت: وأخوك.. ألم يلحظ هذا الدفتر؟

قال: بلى.. لقد لحظه.. فيستحيل أن يرى ما لا أرى، أو يسمع ما لا أسمع.. لقد كان فخورا به غاية الفخر.. بل استعمله وسيلة يرتقي بها في المعارج التي ظللنا طول عمرنا نحلم بها.

قلت: كيف هذا !؟.. إنك توقعني في حيرة.

قال: لقد كان أخي يأخذ هذا الدفتر، ويتدراسه مع رجال مختلفين حرفا حرفا، وكلمة كلمة..

قلت: لم كل هذا الاهتمام؟

قال: لقد ذكرت لك بأن المتآمرين أرادوا أن يدرسوا أسرار انتشار الإسلام، وأسرار تغلغله إلى العقول والقلوب..

قلت: ولم يفعلون ذلك؟

قال: لقد استخدم المتآمرون.. وهم رجال اجتمعت لهم جميع حيل الشياطين على تحليل أسرار المحبة والإقبال لتقضي عليها واحدة.. فتحول من جمال الإسلام دمامة.. ومن حياته موتا.

قلت: ومتى تبدأ تنفيذ هذه الخطة؟

قال: الأمة الآن تقع تحت أسرها.

قلت: أنحن الآن أسارى لهذا الخطة؟

قال: أجل.. لقد استعان المتآمرون بكل القوى التي ينافسها الإسلام في حلف ليس له من هدف إلا تفريغ الإسلام من قيم الجمال التي يتزين بها.

قلت: حلف.. !؟

قال: أجل.. حلف يضم ساسة واقتصاديين وإعلاميين.. وغيرهم.

قلت: ولكنهم سيصطدمون بعقول متحجرة ترفض ما يملون عليها من أفكار.

قال: خطتهم هذه المرة خطة محكمة.. لأن جنودها ليسوا صليبيين.. بل مسلمين.

قلت: أي مسلم يرضى لنفسه أن يمثل هذا الدور؟

قال: كثيرون هم.. بل أكثرهم أسرع إلى ثكنات هذا الحلف ليسجل نفسه جنديا.

قلت: فهم يعطونهم أجورا مغرية إذن !؟

قال: لا.. أولئك الحمقى يتطوعون بمحض رغبتهم لتنفيذ ما يحلم به ذلك الحلف.

قلت: أنا إلى الآن لا أكاد أفهم.. إن كلماتك لا تزيدني إلا حيرة.. فلست أفهم شيئا.. فانتقل من التلميح إلى التصريح.. ومن الألغاز إلى الكلام الذي تعودته منك.

قال: سأضرب لك أمثلة تعطيك صورة عن هذا الجند المتطوع.

دققت بصري في عينيه لأعرف سر هذا الجند الخفي الذي يريد أن يستل محمدا من القلوب، فقال: ألم تر في كل الذي استهواهم الإسلام، وامتلأت قلوبهم بحب محمد ﷺ حبهم للسلام؟

قلت: بلى.. لقد لاحظت ذلك في الأتباع والأصدقاء.

قال: فقد أراد هـؤلاء أن يسـتلوا اسـم السـلام من الإسـلام.. ليصـبح دين السـلام دين الإرهـاب.. وقـد تطـوع لـذلك بعض الأغبيـاء، فراحـوا يقتلـون الصـغار والكبـار.. والظـالم والمظلوم.. والمستكبر والمستضعف.. ولسبب ولغير سبب.. وكـأن الإسـلام جـاء ليقتـل لا ليحيي.. فهم يسـتدركون على اللـه قولـه: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (لأنفال:24) لينسخوا لآية بأهوائهم وفهومهم السقيمة، فيحولوا الحيـاة موتا، والأمن خوفا.

قلت: أعرف هذا.. وقد ساءني كما ساء كل مسـلم.. لقـد ذكـر لي بعض أصـدقائي في بلاد الغرب أنه كان مقصدا لكل سائل وبـاحث عن الحقيقـة.. وكـان إذا سـار إلى أي محـل تجتمع عليه الجموع لتسأله عن دينه.. وعن نبيه.. وعن ربه.

لكنه اليوم.. ما إن يدخل محلا حتى تنفض الجموع فارة فزعة.. وكأنه قنبلة موقوتـة، أو كأنه مجذوم يفرون منه فرارهم من الأسد.

قال: فقد نجحوا في تحقيق ما لم يستطع أساطين العالم أن تحققه.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر على هذه المخططات القذرة.

قال: ألم تر أن كل من أحبوا محمدا تحدثوا عن رحمتـه وحلمـه وألفتـه ولطفـه.. وغـير ذلك من الخلال التي اجتمعت له، فاستحق بها شرف قوله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4)!؟

قلت: بلى.. ومن لا يمتلئ إعجابـا بتلـك الخلال الـتي أعطت النمـوذج الأكمـل للإنسـان الأكمل.

قال: فقد قدر الكائدون ومكروا.. فراحوا يستغلون بعض الحمقى ليختصروا رسول الله ﷺ في لحية طويلة.. وجبة قصيرة.. وتقطيب جبين.. وغلظة دونها غلظة أكباد الإبل.

قلت: أعرف هذا.. وقد سمعت بعضهم يصف شيخا من هؤلاء يقول عنـه: (رأيتـه وكأنـه السنة تمشي) مع أنه لم ير منه إلا ما كان يـراه النـاس من أبي لهب وأبي جهـل من لحيـة وقميص وسواك.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر.

قال: ألم تر الجميع من الأصدقاء والأتباع يمتلئون إعجابا بحرية الفكر التي أتاحها الإسلام، فاجتذب أصحاب العقول والأذواق.. واجتمع في حبه الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء وأهل الدين وأهل الدنيا؟

قلت: بلى .. قد سمعت الكثير ممن يذكر ذلك، ويفخر به على الكنيسة التي طوقت العقول بأغلالها.

قال: فقد انتدب بعض الحمقى ليحولوا من المسجد كنيسة لا ترسل المحبة.. بل ترسل الحرمان والتضليل والتبديع والتكفير..

قلت: أعرف هذا.. وأتألم له.. فالحب الذي ربط قلوب الأمة أجيالا طويلة تحول إلى بغضاء.. والإسلام الذي اتسع للجميع ضاق على أتباعه، فصار ـ في منطق هؤلاء ـ يرفض كل من لم يلغ عقله وقلبه ومشاعره.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر.

قال: ألم تر إلى أولئك الأدباء الذين لهجوا بحب محمد ﷺ.. فراحوا يتغنون به آناء الليل وأطراف النهار.. وراح كل عندليب يغرد أشعارهم.. ويملأ القلوب أشواقا تمحي كل ظلمة، وتنشر كل سعادة؟

قلت: بلى.. فقد مررنا على الأدباء، واستمتعنا بتلك المدائح العذبة.

قال: لكن هؤلاء حرموا الخلق من تلك المتعة، فراحوا يحكمون بالشرك على كل من مدح حبيبه.. بل راحوا يفرضون على الشعراء أن يحذفوا كل استعارة وكناية وتشبيه ومحسنات بديعية.. وراحوا يكتمون على أنفاس الحناجر الرقيقة الممتلئة أشواقا، فماذا جرى؟

قلت: لقد انصرف الناس عن البردة والهمزية وقصائد البرعي وشوقي والبارودي.

قال: ففي أي حفرة وقعوا؟

قلت: صاروا يلهثون وراء البوب والروك والراي والجاز والأغاني العصرية الممتلئ بالرقص والمجون.

قال: ونسوا حبيبهم ﷺ..

قلت: للأسف لقد حصل كثير من ذلك.. فإن أولئك يفضلون الجاز والـروك على الـبردة والهمزية.. فالأولى عندهم فسق والثانية كفر وشرك.

قال: ألا ترى أنهم قد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: للأسف.. لقد نجحوا نجاحا دونه كل نجاح.. فاضرب لي مثلا آخر.

قال: سأكتفي بهذه الأمثلة ليعلم قومك مقدار الغفلة التي حاقت بهم، فجعلتهم ينفذون مخططات خصومهم من غير شعور.

قلت: إنك لم تزدني إلا ألما.. فهل من مخرج مما نحن فيه؟

قال: المخرج بأيديكم.. يمكنكم في أي لحظـة أن تقفـوا على أعتـاب حـبيبكم، وتقبلـوا يديه وتعتذروا له.. وتعيشوا الإسلام الذي رباكم عليه.

قلت: أي إسلام؟

قال: إسلام السلام والمحبة والأشواق الرفيعة والحضارة الراقية والهمم العالية..

قلت: فكيف نصل إلى هذا السلام؟

قال: بالعودة إلى رسول السلام.. فقد شوهتم صورته ورسالته.

قلت: ومن أين نتعرف عليه؟

قال: من القرآن والسنة والسيرة..

قلت: نحن نقرأ كل ذلك.

قال: وتسيئون فهم ما تقرؤون.

قلت: فما المخرج؟

قال: تبحثون عمن عرفوا رسول اللـه ﷺ.. وامتلأت قلـوبهم بمحبتهم.. وامتلأت حيـاتهم بسنته.

قلت: فهل يمكن أن نجد هؤلاء؟

قال: يستحيل أن تخلو الأرض من هؤلاء.

هذا الكتاب

في هـذا الكتـاب مجموعـة كبـيرة من شـهادات المحبـة والإعجـاب برسـول اللـه ﷺ والرسالة العظيمة التي جاء بها.. وهي من جميع أصناف الناس من عامتهم وخاصتهم.. وأدبـائهم وفنـانيهم.. وعلمـائهم وأوليـائهم.. وأحبـارهم ومفكـريهم.. بـل حـتى أولئـك المستشرقين من غير أتباعـه الـذين أتيحت لهم الفرصـة للبحث عنـه والتعـرف عليـه، والذين لم يملكوا إلا أن يشهدوا الشهادات الصادقة إعجابا بـه وتعظيمـا لـه.. بـل حـتى أعداءه لم يملكوا في بعض لحظات الصدق التي عاشوها إلا أن يقروا بفضله وكماله.

وبطل هـذه الروايـة رجـل الـدين المسـيحي راح يبحث عن القلـوب الـتي حنت إلى محمد ﷺ وأحبته وتأثرت به.. فجمع لذلك الكثير من الشهادات الـتي سـقناها في هـذه الرواية، كنماذج وأمثلة فقط، لأن الاستيعاب في هذا مستحيل.

وقد جعلنا هذه الرواية مقدمة لروايات تالية تتعلق بالتعريف بمحمد ﷺ، وهي [النـبي المعصوم]، و[النبي الإنسان]، و[النبي الهـادي] لتكمـل الهـدف الـذي تـرمي إليـه هـذه الرواية.. وهو أن هذا الذي أحبته تلك القلوب الكثيرة، وأعجبت به تلك العقول العظيمة ليس إنسانا بسيطان .. بل هو إنسان حاز كل ألوان الكمال، وظفر بكل معاني الجمال التي جعلته محبوبا لكل صاحب فطرة سليمة.